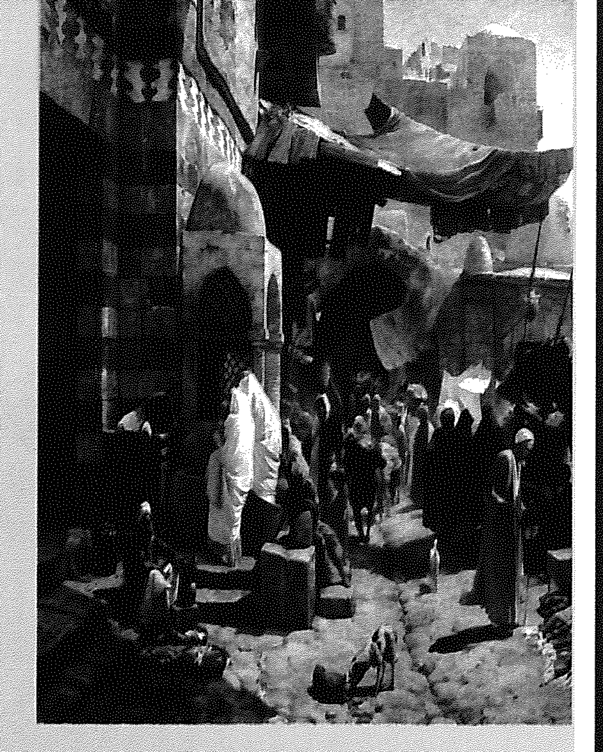




فى أصول المسألة المصرية

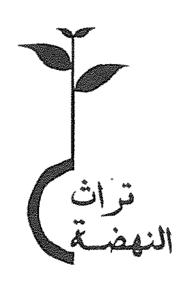
صبحى وحيدة

دراسة وتقديم

د. أنور عبد الملك



الهيئة المصرية العامة للكتاب



تصميم الغلاف والإشراف الفنى
صبرى عبد الواحد

الطبعة الثانية
٢٠١٤

الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة - جمهورية مصر العربية - كورنيش النيل - رملة بولاق
ص.ب: ٢٣٥ - الرقم البريدى ١١٧٤٩ رمسيس
ت: ٢٥٧٧٥٢٢٨ - ٢٥٧٧٥٠٠٠ فاكس: ٢٥٧٥٤٢١٣ (٢٠٢)

www.gebo.gov.eg
E-mail: info@gebo.gov.eg

صبحى وحيده

فى أصول المسألة المصرية

تقديم : أنور عبد الملك



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٤

وحيدة، صبحى.
فى أصول المسألة المصرية/ صبحى وحيدة؛
تقديم: أنور عبد الملك. ـ القاهرة: الهيئة المصرية
العامة للكتاب، ٢٠١٤.
٣١٢ ص؛ ٢٤ سم.
تدمك ٥ ٨٢٤ ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ مصر ـ تاريخ.
أ ـ عبد الملك، أنور (مقدم)
ب ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٨٠٨٣/ ٢٠١٤
I. S. B. N 978 - 977 - 448 - 824 - 5
ديوى ٩٦٢

فهرس

صبحى وحيدة : فى أصول المسألة المصرية

أنور عبدالملك

كلما اقتربت من هذه الصفحات ذكرت قامة الرجل فى مطلع حياته وقوته أتساءل : متى تعترف مصر - ترى - بكبار رواد مسيرتها؟ وإن أرادت أن تحتفل : كيف؟ وعلى أى مستوى؟

أقول هذا بمناسبة لقائنا اليوم، فى مسيرة «البحث عن مصر»، مع كتاب فاتح بكل معانى الكلمة دخل فى أعماق وجدان عشرات وربما مئات الآلاف من المصريين، وما زال السواد الأعظم من المثقفين يجهلون اسمه وعمله أو لعلهم يتجاهلون.

صدرت الطبعة الأولى من كتاب (فى أصول المسألة المصرية) لمؤلفه الدكتور عبد الفتاح صبحى وحيدة عام ١٩٥٠ من مطبعة مصر، وكان ملتزم التوزيع مكتبة الأنجلو المصرية. عرفنا بعد رحيل الرجل أنه تم توزيع ٨٠ ألف نسخة من هذا الكتاب المتعمق فى جذور فلسفة تاريخ مصر وتحركها الممكن المستقبلى. وحسنا فعل الحاج مدبولى إذ نشر طبعة ثانية من نفس الكتاب فى مطلع الثمانينيات، وأعتقد أنه لقى نجاحا واسعا. ورغم هذا - أو ربما من أجل هذا - أقصد هذه الأرقام المذهلة بالنسبة لعصر التردى والانكماش والأمية الفكرية والتبعية الثقافية باسم العولمة والحداثة، أقول: ربما من أجل هذا كله ما زال الكتاب ومؤلفه فى مكانة هامشية من الرأى العام. سألت عشرات من شباب مصر، وعددا مماثلا من كبار المثقفين والساسة المرموقين عن هذا الكتاب ورأيهم، ولا أذكر أن عدد المجيبين بالإيجاب زاد على ثلاثة حتى اليوم، كلما قلت إنه كتاب مركزى ومفكر رائد علم، ساد الاندهاش بل والذهول «من تقول؟.. ما اسمه.؟ أين هذا الكتاب؟ وكيف يمكن أن نحصل عليه؟..» وعندما يسمعون عن حكاية الكتاب يسود الذهول والسكوت، ويقرر السائل أن يسعى إليه فورا.

لست أدرى إن كان الكتاب وجد محله فى بيوت الجيل الجديد، وإن كنت أرى لزاما علىَّ أن اقترح على القائمين على شأن «مكتبة الأسرة» أن يقدموه فى أقرب فرصة ممكنة إلى شعب مصر.

عبد الفتاح صبحى وحيدة من مواليد ١٩١٢، وقد حاز على الدكتوراه فى القانون من جامعة روما، ثم عاد إلى القاهرة يعمل فى سكرتارية «اتحاد الصناعات المصرية»، حيث التقطه رئيس الاتحاد الراحل إسماعيل صدقى باشا، الرجل القوى للرأسمالية، وكذا اليمين المصرى منذ الثلاثينيات، فعينه أمينا عاما للاتحاد عام ١٩٥٠، وبعد سنه، صدر كتاب «فى أصول المسألة المصرية» ومعه ملزمة من آراء رجالات مصر إسماعيل صدقى باشا، عبد القوى أحمد باشا، توفيق دوس باشا، حسن نشأت باشا، وكلهم يعبر عن دهشته لظهور هذا المفكر الجديد الذى رأى أن يركز التحليل على الحالة الداخلية لمصر، أو بوجه أدق على عملية الصياغة التاريخية للمجتمع المصرى عبر الأجيال، بدلا من الاكتفاء بالتنديد بالاحتلال، وإن كان موقفه من الاحتلال والاستعمار والتبعية عميقا لا هوادة فيه. وكذا لاحظ كبار باشوات مصر أن المؤلف يركز بشكل لم يسبق له مثيل على الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية، بدلا من الدبلوماسيات والتاريخ السياسى. وبينما باشوات مصر على هذا النحو، كنا ـ معشر الشباب التقدمى أعضاء «دار الأبحاث العلمية» ـ نتحسس طريقنا إلى معانى وعناصر الجبهة الوطنية المتحدة المرموقة منذ ١٩٤٤ حول رسالة «أهدافنا الوطنية» وعندما تغير الأمر وتم حل المنتديات والجمعيات والصحف والهيئات فى ١٠ يوليو ١٩٤٦ على أيدى إسماعيل صدقى باشا، استمر العمل المواكب بمختلف الطرق لمواصلة التنقيب والبناء. وإذ بنا نلتقى بكتاب «فى أصول المسألة المصرية» على غير موعد، أو هكذا تصورنا. شاءت الظروف أن يكلفنى شهدى عطية وزملائى بتولى مهمة الاتصال بالمؤلف لمحاولة فهم الأمر الغريب الذى أذهلنى: كيف يمكن أن يكون الأمين العام لاتحاد الصناعات المصرية ـ أى قلب الرأسمالية الصناعية فى مصر خليفة إسماعيل صدقى المختار ـ على خطوط متوازية وساحات واسعة من التواكب، بل والاتفاق مع القطاع التقدمى للحركة الوطنية المصرية؟ سؤال مذهل حقيقة لم أتبين حقيقته إلا يوم استقبلنى الرجل فى مكتبه بعمارة الإيموبيليا على تقاطع شارعى قصر النيل وشريف بعد إجازات صيف عام ١٩٥٠، كان ذلك فى الحادية عشرة صباحا على ما أذكر بمكتبه الدور التاسع (إن لم يكن الرابع)؟ وجدته ممشوق القوام باسما مُرَحِّبا، هو أيضًا مستغربا، على ما يبدو. بدأ الحديث بحذر من الناحيتين، ثم ارتفعت نبرة الاستغراب حتى بلغت مرتبة الحماس، وبعد ساعتين انتهينا إلى إن هذه النهاية للقاء الأول بداية لمسيرة مشتركة بين زملائى والقطاع الذى يمثله المؤلف، وهو الذى أطلقنا عليه فيما بعد اسم فئة التكنوقراط، أى علماء ومحترفو إتقان تكنولوجيا الاقتصاد «رواد» تصنيع مصر آنذاك. مرت السنوات واتصلت لقاءاتنا حتى ١٩٥٤، عندما ابتعدت نحو سنتين عن القاهرة فى ظروف قهرية، كانت مصر قد تغيرت، خاصة بعد تأميم قناة السويس، وبدء حركة التمصير والتأميم الواسعة فى قطاع الاقتصاد، الزراعة، ثم الصناعة والبنوك. سمعت أن الدكتور صبحى وحيدة يعمل فى مركزه، رغم إبعاد الباشوات من الحكم، وكأن النظام الجديد يأتمنه على اتحاد الصناعات المصرية قلب الرأسمالية الصناعية فى البلاد. وفجأة، وبينما نحن فى حشد المعركة لصيانة مصر من العدوان الثلاثى، فى الأسابيع القليلة السابقة لهذا الأمر، سمعنا خبرا مفزعا: مجهول طعن الدكتور وحيدة بالسكين على باب الإيموبيليا وهو يهم بالخروج من منزله، فينهار قتيلا فى دقائق. ثم سمعنا أن القاتل كان يعمل فراشا فى مكتب الدكتور وحيدة، وقد شجبه الفقيد، فما به ـ أى بالفراش ـ إلا وقتل الدكتور وحيدة بالسكين.. قصة غريبة مريبة، لم أتابع إجلاءها على أيدى النيابة، وإن ساد شعور فى أوساط كثيرة أن هذا الأمر الغريب يذكرنا بغرائب أخرى، من بينها مقتل المحامى والمناضل الوطنى الكبير عزيز فهمى ـ المرشح لقيادة الوفد المصرى بعد مصطفى النحاس باشا ـ فى حادث تاكسى غامض على طريق القاهرة ـ الإسكندرية الزراعى، هنا أيضا لم يفهم الرأى العام حقيقة الأمر، إذ قيل إن التاكسى الذى كان يركبه الفقيد وقع فى رَيَّاح، وإذ بسائق التاكسى فى الأمام يخرج من التاكسى سالما، بينما الأستاذ عزيز فهمى يفقد العمر وهو فى مؤخرة التاكسى، أى خارج مياه الريَّاح.. شعرنا أن شيئا ما يدور، ربما لم نعرف كيف نمسك بخيوطه، ولست أدرى إلى اليوم ماذا آل إليه التحقيق.

فى كل من هاتين القضيتين اللتين أبعدتا عن مسرح مصر السياسى وقيادة الحركة الوطنية وجهين على أرفع مستوى من الفكر والإشعاع، كم كانت حركتنا الوطنية فى

حاجة إليه آنذاك ـ ولا تزال. مدخلا إلى لقائنا مع فكر عبد الفتاح صبحى وحيدة بعد نصف قرن من الزمن ـ وقد دخل التاريخ.

مدخل أول يعنى باستمرارية مصر ـ رغم تنوع أطوارها ـ عبر التاريخ ، هنا يرى صبحى وحيدة أن الانكسار جاء على الموجة الموعزلية (أى الفتح العثمانى) فى القرن السادس عشر فقط.

١ ـ «مصر قد تعرضت منذ نهاية العهد الفرعونى إلى ثلاث هجرات ضخمة : الهجرة الإغريقية والهجرة العربية ثم الهجرة المغولية بمشتقاتها الكردية والشركسية والتركية. وقد اختلفت كل من هذه الموجات الثلاث عن الأخرى من نواح متعددة أهمها فيما يتعلق ببحثنا الحالى هى الوسيلة التى تم بها تأثيرها فى المجتمع المصرى. فقد كانت هذه الوسيلة لدى الأغارقة هى الأشكال الاقتصادية الجديدة والثقافة، وكانت لدى العرب الوحدة فى الدين واللغة، وكانت لدى المغول الجيش. كان ما بين شاطئ البحر المتوسط والمحيط الهندى وحدود الصين مثل وعاء واحد ضخم، تختلط داخله الأجناس والأفكار والتقاليد، ويحتل كل جنس منه الطبقة التى تلائم الدور الاجتماعى الذى يجتازه إلى أن تذوب جميعا ما استطاعت، فى الوحدة الجديدة التى جمعت بين شتاتها، فيحتل أصلحهم لحمل السلاح، وهم عادة أقربهم عهدا بالبداوة وحياتها الخشنة، مراكز الدفاع، وكانوا فى أول الأمر عربا فصاروا أكرادا وزنجا ومغاربة وتركا وديلما. ويحتل أقدمها عهدا بالنظم الحكومية مراكز الإدارة فيكونون فرسا لدى العباسيين ومصريين لدى الفاطميين والأيوبيين والمماليك، ويكون السوريون تجارا وصناعا وقضاة إلخ.. والذى يدرس التراث الثقافى الإسلامى اليوم يستطيع أن يميز فيه التفكير المصرى من التفكير العراقى والتفكير الشامى، نقصد تفكير أهل مصر وأهل العراق وأهل الشام ؛ لأن طبيعة أولئك غير طبيعة هؤلاء، ولكنه لا يستطيع بالغا ما بلغ جهده أن يرتفع بهذا الاختلاف فى التفكير إلى قومية مصرية أو عراقية أو شامية واعية. وكان هؤلاء النازحون يتلاقون ويختلطون ويتعاونون فى مجتمع واحد يجمع بينهم بروحه الدينية وينشئ منهم دولة واحدة تنعكس على سطحها ملامحهم الغريبة المختلفة : دولة يلقب رئيسها ـ منذ بيبرس حتى الغورى ـ بـ «سلطان الإسلام والمسلمين» وارث الملك وسلطان العجم والترك إسكندر الزمان صاحب القبلتين خادم الحرمين الشريفين سيد الملوك والسلاطين» لا سلطان مصر ؛ وتمتد حدودها إلى أرمينيا القصية، وتجمع بين المصريين وغير المصريين من أعراب ومغول وأتراك وأكراد، وتقوم على نظم لم تعرفها مصر فى عصر من عصور حياتها الطويلة قط. وقضى بنو عثمان على هذه الدولة فى القرن السادس عشر، فتم بذلك لآسيا الوسطى الظهور على شعوب هذا الجانب من البحر المتوسط. حكم كان الناس يتكلمون إلى آخر أيامه التركية لا العربية، كما كانوا يفعلون فى القاهرة فى أشد أيامها تعرضا للموجات المغولية، ويكتبون بالتركية لا العربية كما كانوا يفعلون تحت حكم المماليك، ويتجهون فى حياتهم العامة والخاصة اتجاهات آسيوية بارزة.

٢ ـ ماذا إذن عن شخصية مصر وخصوصيتها بين أمواج الحروب، من القرن التاسع حتى القرن السادس عشر؟ نقرأ لمؤرخى ذلك العصر كابن إياس نفسه والمقريزى وتغرى بردى والجبرتى بعد ذلك فلا نجد تحت ما يبعثه سقوط الدول والسلاطين فى نفوسهم سوى الإشفاق على مصالح الناس أو عزة الإسلام أو خراب الدولة أو تدهور الحضارة أيضًا أو كل شىء سوى الشعور بكرامة وطنية ديست أو عزة قومية جرحت.

وقد كان من شأن هذا الوضع الذى اتخذه المجتمع الإسلامى وقتئذ أن انهارت الخلافة العباسية وأنشأ الخطر المغولى يهدد آسيا الصغرى بين القرنين الحادى عشر والسادس عشر حتى صارت مصر ملاذ المسلمين من جميع الأجناس، ونحن نعلم أن الصليبيين ما كادوا يهددون مصر فى القرن الحادى عشر حتى ثار أهلها على الفاطميين واتصلوا ببغداد ومهدوا السبيل لقيام حكم صلاح الدين.

كان صلاح الدين من الرجال الأشداء الذين شاركوا نور الدين زنكى فى مجاهدة الصليبيين، وكان يقدم مصر استجابة لمقتضيات هذا الجهاد على رأس جيش غريب تجمعه به عصبية حية، ويفصل بينه وبين المجتمع الفاطمى الذى كان ينزل عليه اختلاف بعيد فى المستوى الاجتماعى، فضلا عن تميزه بما كان عليه من اتصال مباشر بتلك الأصقاع الآسيوية السحيقة التى كانت تطلق على العالم الإسلامى حينئذ سيلا لا ينضب.

٣ ـ كان أهل الدولة الفاطمية هم الذين دعوا الأيوبيين إلى إسقاط هذه الدولة بعد أن عجزت عن الوقوف فى وجه الكفار. وكان الأيوبيون بالذات هم الذين أنشئوا فرق

المماليك ومهدوا لهم الحكم، وكان المماليك هم الذين واطئوا بنى عثمان وانهزموا لهم وتعاونوا معهم فى الحكم حتى جفت عروق الدولة العثمانية.

وكل دولة من هذه الدول حم قضاؤها تتلفت حولها طالبة النجدة فلا تجدها فى غير أعضاء العائلة التى تحكمها وأتباعها المباشرين؛ لأنها لم تكن قط إلا حكومة شخصية، حكومة عائلة بعينها.

ونحن ننظر إلى مصر فى هذه الفترة فنجد مجتمعا غريبا لا سابق عهد له به، مجتمعا تغلب على حياته فكرة الحرب، حرب المسلمين للنصارى، وحرب المغول للمسلمين وحرب المماليك بعضهم بعضا، وكل هذا فى وحشية كئيبة، وسط فوضى بدوية لا توصف، وبكثرة عجيبة حقا. ونجد فى مناصب الحكم الذى كان يقوم بشئون هذا المجتمع أولئك الأمراء الغلاظ من الأيوبيين والمماليك الذين كانوا ينفقون حياتهم فى الحروب، وحولهم فرق من العسكر تخضع لإرادتهم، أو تخضعهم لإرادتها، وتوجه أمور الحكم كما تشاء. نجد دولة عسكرية من نوع الدول البدائية التى قامت فى الغرب بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية، وقامت فى الشرق على أنقاض الإمبراطورية العباسية: جند فى الأسفل، ثم أمراء عسكريون، ثم قائد أعلى يزاول السلطات جميعا، والجميع لا يعرفون لهم عملا غير القتال.

٤ ـ ورغم هذا، وفى قلب هذا كله، مجتمع مغاير يعمل وينتج، يواصل مسيرة الحضارة المصرية التى كادت تتوه فى متاهات الغزاة.

قال صاحبى: كيف نذكر أعلام الفكر؟.. بالله عليك: هل نتساءل إلى أبد الدهر، ونحن فى عصر الجوائز من جميع التسميات والدرجات؟

ألا يجدر بنا أن نمنح الجوائز مرفقة بأسماء الأعلام الرواد: طه حسين، عباس العقاد، سلامة موسى، على مشرفة، مصطفى عبد الرازق، مثلا فى عصرنا.. بعد الفاتحين: عبد الرحمن الجبرتى، رفاعة الطهطاوى، عبد الله النديم، عبد الرحمن فهمى، طلعت حرب!.. عناوين لجوائز الدولة فى مختلف التخصصات والقطاعات.. إيه رأيك؟..

❁ ❁ ❁

رحلة صبحى وحيدة إلى أعماق مصر ـ إلى ما أطلق عليه المستعمرون منذ قرن تسمية المسألة المصرية ـ تستمر الموجة تلو الموجة، تؤكد طاقات الشعب والأمة على الدوام برغم القهر والعدوان.

طاقات هى مقدمة أركان شخصية مصر، وقد أصبحت هذه الشخصية معضلة أو مشكلة تؤرق بال العدو المحتل، ومن ثم تسمية المسألة المصرية وكأن وجود مصر على قيد الحياة عبر عشرات الأجيال عقبة لا يمكن إزالتها.

أمثلة قليلة تجدها هنا وهناك فى كتب العصر، وهى تشعرنا بأن الأمر لم يكن شذوذا، وإنما كان قاعدة عامة فى عهود السلاطين جميعا وفى دواوين الحكومة ودواوين الأمراء على السواء.. وكان هؤلاء الرجال يأتون من صميم الطينة المصرية ويشتركون فى الحكم ويوجهون مصائره دون أن يكون فى سلوكهم شىء من روح العبودية الذى أراد أن يراه الذين عرضوا لتاريخ ذلك العصر، قياسا على ما حدث تحت حكم المماليك.

هل تعلم أن أهل المدن كانوا يصنعون وقتئذ أنواع السلاح جميعها ويحملونها فى الطرق، ويتبارون بها فى الميادين العامة، ويشتركون فى حرب المغول والصليبيين، وأن أهل الإسكندرية كانوا يملكون على أيام ابن بطوطة مستودعات كبيرة تذخر بأنواع السلاح، ويرفضون أن يقوم السلطان بالدفاع عن المدينة من دونهم، ونعلم أن أبناء البلاد جميعا كانوا يجتمعون وقتئذ فى نقابات لها قوانينها وتقاليدها ورؤساؤها، وأن هذه النقابات كانت تتمتع إزاء أعضائها بسلطة إدارية ـ قضائية ـ مالية واسعة تجعل منها وحدات حكومية قائمة بذاتها تعترف بها الدولة، وتعتمد عليها، وتحسب حسابها إلى حد بعيد.

الموجة الغربية

يدخل صبحى وحيدة مرحلة التاريخ الحديث من بوابة الحملة الفرنسية، يرى فيها غزوا لقوة أكثر تقدما من الناحيتين العلمية والعسكرية، والسياسية فى المقام الأول، ساعيا لمتابعة مقاومة شعب مصر عبر ثورات القاهرة والإسكندرية عبر كتابات الرواة والمؤرخين.

١ ـ حتى يلتقى بمحمد على فى صفحات لا تنسى:

«وكانت سياسة محمد على تقوم على الاحتفاظ بمصر وتقويتها والقدرة على الدفاع عنها، ثم تمتد بدافع تخوفها من انهيار الإمبراطورية العثمانية، وطموحه الشخصى، إلى الرغبة فى توسيع حدودها والبلوغ بها إلى الخطوط الطبيعية التى تمكنها من القيام بنفسها، ثم تعلو إلى محاولة الوصول إلى الأستانة لتحقيق ما كان يصبو إليه العالم الإسلامى حينئذ من إنهاض الإمبراطورية العثمانية، وكانت تدفع لذلك به دفعا نحو سوريا، وتميل به إلى الانسياق خلف مشروعات تركيا فى آسيا (حملة بغداد) أو شرق البحر المتوسط (حملة المورة وكريت)، ومشروعات فرنسا فى إفريقيا الشمالية (حملة الجزائر)، وإن كانت لم تمنعه من النظر فى جميع هذه المشروعات والانتفاع بها أوسع الانتفاع، كما فعل باستغلال كريت فى سياسته البحرية حين أعطتها تركيا إياه، وانتهاز مشروع الجزائر لمحاولة الحصول على ما كان يحتاج إليه من مال فرنسا وسفنها حين عرضته عليه الحكومة الفرنسية، كذلك لم تمنعه من السعى للتحالف مع إنجلترا خوفا من اتساع نفوذ فرنسا فى إفريقيا الشمالية وأثره عليه، ومن عرض التحالف على فرنسا ليؤثر بواسطته فى سياسة أوروبا ويبعث فيها الشقاق.

كان المصريون يعودون إلى صنعة السلاح بعد أن هجروها منذ أن اتصلت مصر بالإمبراطورية اليونانية والرومانية والعربية، وهى إمبراطوريات كانت تعتمد فى حروبها على المرتزقة من شعوبها الخشنة، ويجتمعون فى كتلة واحدة منتظمة، ويلتقون فى ميادين القتال بالشعوب الأخرى فيشعرون بشخصيتهم ووحدتهم واختلافهم على غيرهم، وقد استتبع تكوين هذا الجيش قيام المرافق والمدارس والإدارات اللازمة لتغذيته، وكانت تستخدم هى أيضًا أهل البلاد وتدربهم وتوجههم الوجهة التى تقتضيها الحياة الجديدة، أى تنبعث نواة هذه الدولة الفتية بجوهرها المصرى، وأوضاعها الأهلية ومواردها الخاصة.

وأفاد من هذه السياسة أيضًا الاتصال المستمر بأبناء أوروبا، هؤلاء الذين كانوا يعملون حينئذ كل شىء ويشرفون على كل أمر، ويمثلون الحضارة الجديدة والنفوذ السياسى فى أجلى معانيهما، فكان يلقى تجارهم وصناعهم وعلماءهم كل يوم، وكان يسمر فى ساعات فراغه مع طائفة ذكية منهم ويحاول أن يتعلم كل ما يستطيع أن يتعلمه من خيارهم، ويتطور بذلك تطورا لم يفتر قط فى السنين الأربعين التى قضاها فى الحكم، بيد أن أثر اتصاله هذا بالغرب لم يبلغ صميم نفسه، أو ينل من معدنها البتة، وإنما ظل يعمل خارجها، ظل يعمل فى دائرة الوسائل التى كانت تتلمسها لبلوغ غاياتها الخاصة، ومن هنا ما تنفرد به سياسته من حزم، وما يبدو عليها أيضًا من تناقض بين المظاهر الحديثة والنزعات القديمة، فهو يقيم المجالس الاستشارية، ولكنه يغلب عليها إرادة الحاكم وهو ينشئ المدارس ثم يغلقها فى غير ما تردد، حتى يرى تحقيقها للغايات التى قصد بها إليها، وهو يقيم المنشآت الزراعية والصناعية الحديثة، فى الوقت الذى يتمسك فيه بسياسة اقتصادية عتيقة.. والنزعات القديمة تتغلغل لديه فى المظاهر الحديثة، وتكبح جماحها بقوة تنبثق من شخصية سليمة لم يرتقها الشك أو يتطرق إليها التردد. وهى بعد شخصية حاكم عثمانى عريق من نسيج الحكام الذين قادوا المسلمين إلى الانتصارات الصليبية والمغولية، وأقاموا حكم المماليك وبنى عثمان، فهو مثلهم لا يرى من الحكم إلا الجانب العسكرى، ولا ينظر إلى الحياة المدنية إلا كوسيلة من وسائل الانتصارات فى ميادين القتال. فيسأل القناصل ماذا لم يفعل لمصر، ألم يعطها جيشًا وأسطولاً ومدافع؟ ويقول لقنصل فرنسا إنه يريد أن يكون فى كل وقت على أتم استعداد عسكرى حتى لا ينساه المسلمون.

ويكتب لمديريه قائلا: إن رفاهة مصر ترجع لجيشها، ويستنكر تفكير أوروبا فى حرمانه من بلاد أخذها بحد سيفه.

٢ ـ ومن هذا العملاق بكل معانى الكلمة إلى (الموجة الغربية) هجومها الشرس وتوغلها باسم ـ الحضارة والتقدم بطبيعة الأمر ـ موجة العنصرية والخداع التى اصطدمت بإسماعيل المفترى عليه فأطاحت به (١٨٧٩) ومن بعده بقادة ثورة الجيش عام ١٨٨١ بدءا للاحتلال.

وما كان من زرع القناة ـ حين احتال ديليسبس على سعيد للشروع فيها ـ بالشىء الذى تؤمن به أوروبا نفسها إيمانا صادقا، ومع ذلك نالت إنجلترا سكة حديد السويس ثمنا لمساعدة عباس فى الاحتفاظ بحقوقه ـ كاملة ـ ونال ديليسبس قناة السويس مقابل ثنائه العاطر ووعوده السخية، ومضت القاهرة فى تنفيذ المشروعين بخطى سريعة كانت تثير أهل البلاد ومعارضة الدول التى كانت لا تفيد من مثل هذه المشروعات فائدة مباشرة.

وهكذا كان إسماعيل يجد خلف إرادته فى الحكم الحقيقى - حين ولى مصر - تيارا دوليا قويا، وروحا داخلية ظاهرة، ومن هنا اعتناقه السياسة التى كانت تنتهجها إنجلترا فى محاربة مشروع القناة من المناداة بوحشية السخرة التى كانت تلجأ إليها شركة القناة، إلى إبراز الخطورة السياسية التى كان ينطوى عليها امتلاك هذه الشركة مساحات واسعة من الأراضى المصرية، إلى الإلحاح فى إنشاء قضاء منظم يضع علاقة الأجانب بحكومة البلاد ورعاياها فى حدود طبيعية، ويقفل الباب فى وجه الامتيازات التى كان ممثلو فرنسا ينالونها من حكامهم، ثم كثرة الاعتداءات على الأجانب التى صحبت ارتقاءه العرش، وقد أثارت هذه السياسة فرنسا.

وكانت الظروف المالية ترجع إلى ما اضطر إلى أن يحتمله فى سبيل تسوية النزاع الخاص بمشروع القناة، وترضى السلطان والتقرب من العواصم الغربية، ثم ما اختطه لنفسه من سياسة مالية أراد أن يتجنب بها ما انتهت إليه اتجاهات سعيد المالية من نتائج وخيمة، وكانت هذه السياسة تقوم على استثمار مرافق البلاد بإنشاء شركة قوية كالتى كانت تقوم فى أوروبا لذلك الوقت، يعهد إليها بهذا الاستثمار، ويشترك هو ورجاله فى رأسمالها ويخضعها لقضائه، وكان هو يقصد من ذلك إلى تنسيق الاستقلال الاقتصادى، والإسراع فيه، وتفادى الضغط الأجنبى من طريقه، ولكنه كان يعرض الخزانة العامة - وكانت ما زالت منذ أيام المماليك المتأخرين لا تفترق عن مال الولاة - إلى أخطار الاستغلال التجارى، دون أن يستطيع بعد ذلك الاستغناء عن رؤوس الأموال الأجنبية وخبرة أصحابها، وما يصحب ذلك من تدخل قناصل الدول بنفوذهم السياسى العريض، وقد أخفقت غالبية هذه الشركات.

الموجة الغربية إذن هى التى ضربت مشروع نهضة مصر، منذ تولى محمد على (١٨٠٥) إلى الاحتلال البريطانى (١٨٨٢) بعد أن استطاعت الطاقة المصرية الذاتية الكامنة أن تفرد أجنحتها بفضل ريادة محمد على، وحروب إبراهيم، إلى أن اتجه إسماعيل نحو تأسيس طبقة رأسمالية مصرية بكل معانى الكلمة، وعندئذ أطاحت به أوروبا الديمقراطية المتحضرة، إذ رأت أن يتسلم خديوى مصر فرمان الباب العالى بإقالته عام ١٨٧٩ على أيدى صديقه ديليسبس صاحب عملية قناة السويس.

وبرغم كل شىء، برغم الانكسار والاحتلال وإجهاض محاولة إقامة دولة حديثة واقتصاد وطنى ونهضة شاملة، لم تتوقف مصر منذ على بك الكبير، ومحمد على خاصة، ولكنه كان تحركا يتسم بشبكة هائلة من التناقضات الداخلية، كانت وما زالت إلى حد ما تمثل التحدى الحقيقى لنهضة مصر الوطنية الحضارية - رسالة شعبنا دوما.

١ - رأينا كيف يرجع ضعف مقاومتنا فى المحيط السياسى وقلة إنتاجنا فى ميدانى الاقتصاد والفكر قبل كل شىء إلى عدم انبثاق تلك المقاومة وهذا الإنتاج من حياة اجتماعية زاخرة تجمع بين طبقات المجتمع جميعا فى حزمة واحدة فهما لا يعدوان أن يكونا نفرة الطاقة العليا من مجتمع قديم يلج جوا جديدا ويحاول الذود عن نفسه والملاءمة بين شئونه ومقتضيات هذا الجو، وهذه الملاءمة عسيرة غاية العسر؛ لأنها تقتضى خلق بعض الظواهر الاجتماعية خلقا، وتعجل نضوج البعض الآخر، وتنسيق أطوار هذه الظواهر جميعا تنسيقا شاملا، أى تحقيق ما حققه المجتمع الغربى فى قرون من السير الطبيعى الهادئ فى دفعة واحدة وبتدبير مقصود.

ونحن نحاول هذه المحاولات ونعالج مسائلنا على وجه العموم بخبرة من لدينا من عناصر فتية نالت نصيبا من التربية الغربية، دون أن يكون لها حظ كبير من الثقافة الشرقية الصحيحة، ويدفع بها التيار الغربى الذى يحيط بنا من أقطارنا جميعا إلى أجهزة الحكم، دون العناصر التى كان يحق للمجتمع بتكوينه الزراعى - الدينى أن يرسلها إليها لو لم يكن هذا التيار الغربى بمقتضياته الاجتماعية ونفوذه السياسى، وهذه الخبرة هى النتاج المباشر للثقافة الجامعية التى نالتها هذه العناصر فى الغرب، دون أن تكون بينها وبين الحياة العملية التى أنتجتها أو حياة البلاد الحقيقية سبب كبير.

وهى تخضع لوضعها هذا حين تفكر وحين تعمل وحين تعالج ظواهر لما تظهر أو ظهرت ولكنها لم تنضج، كما نضجت مثيلاتها فى الغرب. ولم تتخذ على كل حال الأوضاع نفسها التى اتخذتها هناك، وتفعل ذلك بالأساليب التى ابتدعها هذا الغرب تحت ضغط تلك الأوضاع.

وهكذا لم يهتم الذين وضعوا دستورنا يوم وضعوه بدرس ماضينا الدستورى أو

حاضرنا الاجتماعى كما اهتموا بدرس الدساتير الأجنبية، ولم يعن الذين وضعوا نظمنا الحكومية بماضى هذه النظم لدينا كما عنوا بنقل القوانين الفرنسية، وما زال الذين يضعون تشريعنا الاجتماعى والاقتصادى ينتهجون مثل هذا المنهج إلى حد بعيد.

٢ ـ هناك إذن مجتمع مصرى جديد ترتفع نشأته إلى مطلع القرن التاسع عشر، وترجع أصوله فى مجموعها إلى تراخى الصلة بين السلطنة العثمانية ومصر، وتحلل النظم المملوكية، ثم النزعة الانفصالية التى بدأت تحت مشايخ البلد، وبلغت أشدها بمحمد على، ثم انتهت إلى غايتها عند انفجار الحرب العالمية الأولى، إذ تضافرت هذه العوامل فى تكوين أسرة مالكة جديدة وحكومة محلية ومصالح وطنية، وأتاحت لأبناء البلاد الغلبة على من كان يختلط بهم إلى ذلك الحين من عناصر أخرى.

وهذا المجتمع يرث عن ماضيه فكره العربى وضميره الإسلامى ونظمه المغولية، فى حالة ثقيلة من الفساد الذى دب إليها جميعا تحت الدولة التركية، ويخضع لتأثير هذه الحضارة الغربية البراقة، التى تكونت بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر، أى فى أثناء نكبته العثمانية بالذات، بفضل الحروب الصليبية، التى ردت الغرب إلى حياة البحر المتوسط، وأعادت الصلة بينه وبين ماضيه الإغريقى ـ الرومانى وأشركته فى ثمار الحضارة الإسلامية، واكتشاف الأمريكتين، الذى وسع آفاقه توسيعا لا عهد له به من قبل، ثم العلوم الحديثة وما مكنته منه فى طريق استثمار هذين العاملين.

٣ ـ هذا التأثير الغربى يتخذ إلى المجتمع المصرى الجديد طريق التغلغل الاقتصادى، فيقيد منابع ثروته بإنتاجه والنفوذ السياسى، إذ يعد هذا التغلغل ويدفع بحكومات القائمين به إلى الضغط على الحكم، ثم الاستئثار به والغزو الثقافى، إذ يشعر أبناء البلاد بمقتضيات الحياة الجديدة التى يتجهون إليها فيقبلون على التعليم الحديث، ويشعر الغرب بالحاجة إلى إيلافهم، فينشر بينهم ما يريده من هذا التعليم، وتنشأ بذلك طبقة من المفكرين المحدثين، ترفعها مقتضيات الحياة الجديدة إلى الصدارة، ثم تنتشر الصحف، وتعم الإذاعة فتلحق البلاد بدائرة الرأى العام العالمى، وهو يبدأ فى هذه الميادين جميعا كتيار يهب من الغرب، ثم ينقلب جذوة تتقد من الداخل.

فقر الدم.. عقد النقص..

أين نحن من العالم؟ سؤال ١٩٥٠ ما زال حيا يرزق فى عصر العولمة:

المقارنة الزائفة، أولا:

والمقارنة بين نظم الحكم فى مصر قبل الفتح العربى وبعده وبين الحكم فى المدن اليونانية والجمهورية الرومانية أمر لا يستقيم، كما لا يستقيم النظر إلى تاريخ مصر بين العصر الفرعونى ونهاية القرن التاسع عشر بمنظار القومية التى لم تعرفها البشرية إلا بعد ذلك بقرون. فقد كانت النظم المصرية فى الوقت الذى ينصب فيه هؤلاء المؤرخون المقارنة بينها وبين النظم الإغريقية والرومانية نظما عريقة لدولة كبيرة استقرت دعائمها فى بلد زراعى كثير السكان، وكانت لذلك نظم يتركز فيها السلطان، ويتسع الاختصاص، وتبعد المسافات بين الحكام والمحكومين، فى حين كانت النظم اليونانية والرومانية نظما ناشئة لمدن صغيرة تزاول التجارة فى الغالب، ولا يكاد أهلها يجتمعون فى وحدة سياسية حقيقية.

ونحن إذا بدأنا تاريخ حياة أوروبا بقيام روما فى القرن الثامن ق.م واتخذنا الثورة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر تاريخا لعود الحريات السياسية إلى أوروبا، وذكرنا ما بيننا من عدم مزاولة عامة روما الحقوق السياسية حقيقة، إلا بين سنتي ٥١٠ و٨٧ ق.م تكون أوروبا قد تمتعت بالحريات السياسية زهاء خمسة قرون من خمسة وعشرين قرنا، ويكون الذين يدعون النظم التى قامت فيها فى أثناء تلك القرون الخمسة بالنظم الغربية ويعدونها الأصل فى حياة أوروبا السياسية ويهملون العشرين قرنا الأخرى، ويدعون ما قام فى الشرق من نظم شبيهة بالنظم التى قامت فى أوروبا فى هذه القرون العشرين بالنظم الشرقية، قوم متعنتون.

قوم متعنتون؟ أم قوم جهلة؟ الجهل الذى يسوق الكثيرين إلى طريق التبعية.

٢ ـ ما العمل، إذن؟ من أين نبدأ؟

ونحن ننتهى من هذه النظرة السريعة لأوضاعنا الحاضرة، إلى ما وصلنا إليه بالعرض لأهم أحداث تاريخنا تحت المماليك من أن الأمر فيما عليه حالتنا الراهنة هو قبل كل شىء أمر فقر الدم هذا الذى أصاب أطراف مصر جميعا بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر: فحد من نشاطها الاقتصادى، وهبط بحياتها الاجتماعية إلى الحضيض، ودفع بفكرها إلى الجمود الأزهرى، أمر مجتمع يخرج من أقصى ما يستطيع أن يتردى فيه شعب من دمار إلى أحدث ما انتهت إليه البشرية المتمدنة، ويحاول أن

يساير هذه الحياة الجديدة دون تقاليد أو مقومات حقيقية، وهو يتعثر لذلك بين هشيم الماضى وعقبات الحاضر، ولا يريد أن ينظر إلى ظروفه الخاصة النظرة المجردة التى تستحقها، ويعالجها بالحزم الذى تقتضيه، ومعالجة مثل هذه الحالة لا تستطيع أن تستقيم إلا بتنقية هذا الدم وتغذيته والإكثار منه، وهو عمل يقتضى مجهودا كبيرا يشترك فيه جميع أفراد المجتمع، لأنه يتصل بنشاط كل منهم.

سطور قلائل من الكتاب الأوحد تركه عبد الفتاح صبحى وحيدة إلى شعب مصر، قبل رحيله أو لعله استشهاده المبكر.

رجل ينتمى إلى الجيل الذى تشبع بالفكر الغربى فى الأعماق، ومع ذلك نراه فى التوجه العام يتجاوب فى الأعماق مع محاور الفكر والعمل الوطنى، بل والتقدمية المصرية، ويضيف إليها البعد الحضارى، وذلك بفضل تعمقه فى دراسة الصياغة التاريخية لمصر عبر القرون، وهو الأمر الذى ينقصنا فى كثير من الأحيان، ربما سعيا وراء بريق النشر المتعجل، والتلاعب بالمفاهيم اللامعة، وأسماء الشخصيات المرموقة التى تؤكد أننا دخلنا فى الجو أو لعل الجو الذى دخلنا.

من المهم أن ندرك كيف أن التعمق فى دراسة الفكر والثقافة والعلم من الغرب يتفق مع التمسك بكل معانى العزة الوطنية والإصرار على استقلالية القرار والاعتزاز بالخصوصية القومية والثقافية والحضارية لمصر. وهذا فى الوقت الذى يرفع فيه التحديث المتغرب والعولمة التابعة شعار أنهُ لا مفر من إعادة صياغة شخصيتنا المصرية لكى نصبح مقبولين فى المجتمع الدولى، أى لكى تصبح مصر تابعة طيعة لهيمنة المركز الواحد.

حان الوقت بعد طول غياب ـ أو تغييب ـ لكى تدخل معانى الكتاب الرائد «فى أصول المسألة المصرية» بيوت المصريين، عقولهم وقلوبهم. عندئذ سوف يتساءل شباب مصر فى ذهول وإصرار: أهكذا كنا؟ ماذا حدث؟ ثم كيف يمكن مواصلة المسيرة بعد أن نفيق؟

قال صاحبى: وبعد هذا يتساءل المخرجون عن أسباب انصراف جمهور الشباب إلى الأساطير والملاحم الأجنبية.. هلا يفكرون فى مسيرة مصر؟

فى روايات الشموخ، وعواصف الحروب والثورات.. فى هيام الحالمين الذين صنعوا تاريخنا.. وبالمناسبة: ماذا تم فى محاولة إخراج مشروع فيلم إخناتون للرائد العظيم شادى عبد السلام؟.. إلى متى تظل أمجاد مصر فى طى النسيان؟

فى أصول المسألة المصرية

تأليف : صبحى وحيده

درج الذين كتبوا فى المسألة المصرية على اعتبارها مسألة خارجية، وقصروا لذلك كتابتهم على استعراض علاقات مصر ببريطانيا العظمى. ولكن كتاب «فى أصول المسألة المصرية» يردّ هذه المسألة الى ظروف مصر الفكرية والاقتصادية والاجتماعية ويجعل منها مسألة داخلية، وهو يتولى لذلك هذه الظروف بالتحليل العلمى.

وقد قسّم هذا الكتاب الى خمسة فصول :

الفصل الأول — وعنوانه «الفتح العربى». وقد عرض لدور مصر فى حضارة البحر الأبيض المتوسط والتطور الذى أصاب حياة هذا البحر بانتقال طريق التجارة العالمية منه الى الأطلنطيق وما صحب ذلك من انقطاع علاقة مصر بالغرب وبقائها بعيدا عن التطورات الاقتصادية والفكرية والاجتماعية التى تمت به.

الفصل الثانى — وعنوانه «حكم المغل». وقد عرض للاقتصاد المصرى فى العهد المملوكى وربط بين اضطراب حكم المماليك وما أنزله بهذا الاقتصاد من اضمحلال شديد وبين ظروف مصر الحاضرة. ويحلل المؤلف فى درسه لأسباب هذا الاضمحلال ظاهرة المماليك ونظم حكمهم ودور المصريين فى هذا الحكم.

الفصل الثالث — وعنوانه «الموجة الغربية». وقد عرض للنهضة الأوروبية الحديثة وعلاقة أوروبا بالسلطنة العثمانية وأثر ذلك فى حياة مصر خصوصا الاقتصادية تحت محمد على وعباس وسعيد واسماعيل.

الفصل الرابع — وعنوانه «أعراض المراهقة». وقد عرض لتفاعل

الموجة الغربية وظروف مصر الفكرية والاقتصادية والاجتماعية كما انتهت اليه تحت المماليك وأثر ذلك فى تكوين الجيل المصرى الحالى . والمؤلف يحلل هنا أهم مظاهر الحياة الفكرية والاقتصادية والاجتماعية ويرد كل منها الى أصوله وينتقل من ذلك الى توضيح الصلة بين وجوه الضعف فى هذه الحياة واهمال البلاد شئونها الاقتصادية ثم أهمية الدور الذى تقوم به الصناعة فى الحضارة الحديثة وأهميتها الخاصة فيما يتعلق بمصر .

الفصل الخامس — وعنوانه « عُقَدُ النقص » . وهو يعرض لأهم الأفكار الفاسدة التى تتحكم فى الحياة المصرية الآن وأهمها ما ترمى به مصر من تعود الاستبداد والخلط بين الشئون الروحية والزمنية والاعتقاد فى الخرافات والقصور عن الاقتصاد الصناعى والتأرجح بين الشرق والغرب ... والمؤلف يحلل هذه العقد واحدة واحدة ويقارن الحالة فى مصر من ناحيتها بالحالة فى الغرب فى نفس الزمن من نفس الناحية وينتهى من ذلك الى أن مصر لم تشذ فى شيء من ذلك عن أمم البحر الأبيض المتوسط الأخرى وان المرجع فى ظروف مصر الحاضرة ليس الا فقر الدم الاقتصادى الذى أصابها تحت المماليك .

وقد قرأ كبار المشتغلين بالشئون المصرية هذا الكتاب وكتب بعضهم يثنى عليه فقال صاحب الدولة **اسماعيل صدقى باشا** فى كلمة له فيه :

« ... وقد عرفت الأستاذ وحيده اقتصاديا بارعا واجتماعيا من
« الصنف الذى أدرك كيف يمكن التوفيق بين الحاجات المعنوية والمادية
« للعصر الذى يعيش فيه . ولم أكن قد عرفت أن مواهب الأستاذ وحيده
« مما تسمح بالاحاطة بشتى الشؤون التى تهم البلاد التى أنجبته بل تتبع
« الخطوط الرئيسية التى لا يتهيأ لها النهوض والرقى الا من طريقها .
« والمؤلف الذى وضعه الأستاذ يمكن اعتباره بحق من تلك الخطوط
« لأنه وسيلة من وسائل الارشاد التى لا تزال — ونحن فى العهد الأول
من نهضتنا — فى حاجة ماسة الى الاسترشاد بها . والواقع أن المؤلف
« قد توخى فى استعراضه لمركز مصر القديم منه والحديث الحق والدقة
« مستعينا بأفضل مراجع البحث ولو اصطدمت نتائجه أحيانا ببعض

« المعتقدات الراسخة فى الأذهان والأراء المحببة للكافة . فأخرج كتابا
« يزيد فى نفعه وفى أثره أنه بالغ فى نزاهته . والنزاهة ترجع هنا الى
« التمسك بالأساليب العلمية فى البحث والاستقراء وهو الطابع الغالب
« فى الكتاب » ...

وقال صاحب السعادة **عبد القوى أحمد باشا** :

« ... انتشرت فكرة فقد المصريين حرياتهم السياسية منذ أقدم
« العصور وخضوعهم للحكم الأجنبى وتعودهم ما يصحب هذا الحكم
« عادة من ظلم وجهل وفاقة بين العامة أيضا . وطال العهد بها حتى أصبحت
« المصدر الأول للكثير من مظاهر الاستهتار التى تحيط بحياتنا اليوم
« وصارت لذلك خليقة بأن يقف عندها الذين يهتمون بمصير هذه البلاد
« ويخشون عاقبة مثل هذه الأفكار على مستقبل أبنائها ... »

« ... وقد بقيت هذه الفكرة دون دراسة خاصة الى أن صدر
« كتاب « فى أصول المسألة المصرية » للأستاذ صبحى وحيده فسد
« هذا النقص بفصل كامل خُصِّص لهذه الدراسة بالذات ... »

« ... وعندى أن فيما يقول به هذا الكتاب ما يوضح الشيء الكثير
« من تطور نظم الحكم فى مصر ويبين الفكرة القومية المصرية ويبدد الى حد
« بعيد تهمة تعوّد المصريين الحكم الأجنبى وان كان لا يوضح كل ذلك
« توضيحا كاملا ولكنه يمكن أن يعد على كل حال مقدمة لاتجاه جديد
« فى دراسة ماضى القومية المصرية وهو يستحق لذلك كل ثناء ... » .

« وكتب صاحب السعادة **توفيق دوس باشا** يقول :

« ... وكتاب « فى أصول المسألة المصرية » يقارن بين نظم الحكم
« والملكية والأوضاع الدولية التى أخذت بها مصر وبلاد البحر الأبيض
« المتوسط الأخرى ليثبت أن هذه النظم لم يختلف بعضها عن البعض
« اختلافا شديدا انما حدث الاختلاف فى الظروف الاقتصادية التى مرت
« بها مصر ومر بها الغرب منذ القرن السادس عشر . فقد سارت مصر
« وقتئذ الى الفاقة العامة التى يصفها الجبرتى فى تاريخه بينما ارتفعت أوروبا

« الى أوج الرخاء الذى عرفته فى القرن التاسع عشر • وصحب ذلك ، التقدم
« الاجتماعى والسياسى الذى نشهده فى أوروبا اليوم والانقباض الاجتماعى
« والسياسى الذى وجد محمد على عليه مصر فى مطلع القرن التاسع عشر
« والذى أخذنا نحاول أن نتخلص من آثاره اليوم ... » •

« ... وهكذا تكون العناية بحياتنا الاقتصادية أهم واجب فى عنق
« هذا الجيل اذا كان يريد خدمة مصر خدمة نافعة » •

« ... واننى وان كنت لا أتفق ومؤلف الكتاب فى جميع النتائج التى
« يصل اليها خصوصا ما يتعلق منها باتصال الظروف الاقتصادية
« والاجتماعية فى مصر فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بالحملة الفرنسية
« والاحتلال الانجليزى وعلاقة مصر بالأمم الغربية الآن فاننى أتفق معه
« فيما يقول به عن أثر الحياة الاقتصادية فى نهضتنا الحاضرة وعما أصاب
« تاريخ مصر القديمة من تشويه شديد • ويقينى أنه وضع بحثا مفيدا
« غاية الفائدة أهنئه عليه خالص التهنئة وأشكره عليه خالص الشكر
« وأتمنى لهذا البحث ما يستحقه من الانتشار ... »

وقال صاحب السعادة **حسن نشأت باشا** فى كلمة له :

« ... وكتاب « فى أصول المسألة المصرية » كتاب قيم يقول فيه
« واضعه بأن الحالة التى تعانيها مصر الآن ترجع — قبل كل شىء —
« الى الظروف الاقتصادية والاجتماعية التعسة التى انتهت اليها مصر تحت
« المماليك والاضطراب الذى يحيط بمعالجتنا لهذه الظروف الآن ثم العقد
« النفسية التى يثيرها بيننا ما نزل بتاريخنا القديم والحديث من تشويه
« على وجه العموم ... » •

« ... وقد استرعى انتباهى فى هذا الكتاب خصوصا نقطتان أرى
« أنهما جديرتان بأن يقف عندهما الذين يعنون بمسائلنا العامة ويشتركون
« فى الحكم عن طريق مباشر أو غير مباشر • وهاتان النقطتان هما علاقة
« مصر بالشرق والغرب منذ ابان الحكم العثمانى ثم الدور الذى لعبته
« فى حياة مصر فى العصور الوسطى وعادت تلعبه الآن ... »

« ... ولا شك فى أن هذه الآراء التى يقول بها كتاب « فى أصول
« المسألة المصرية » تتفق والواقع الى حد بعيد وهى تستحق على كل
« حال أن تدرس وأن تقرأ بتأمل عميق ... » •

مقدمة

مازالت المسألة المصرية تثير الاهتمام فى مصر والخارج وتدفع بالكتاب الى تقصى أسبابها والتصدى لمعالجتها • ولكن هذا الاهتمام يدور فى الغالب حول العلاقات التى قامت منذ مطلع القرن الماضى بين مصر وتركيا ثم مصر وبريطانيا العظمى دون العوامل الاقتصادية والاجتماعية والفكرية التى صحبت — من الناحية المصرية — نشوء هذه العلاقات وتقلباتها وكانت الباعث لها الى حد بعيد • وهو يميل لذلك بأصحابه الى النظر لهذه المسألة نظرهم الى مسألة خارجية معقدة لا تقبل سوى الحلول الدولية ولا تكاد تقوم لها صلة بالملابسات الداخلية للأمة التى نسبت اليها •

وقد رأينا نحن ، والمسألة المصرية ما زالت قائمة والاتجاه الى العناية بمشاكلنا الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، نعنى بعناصرها الداخلية ، آخذ فى الظهور ، رأينا أن نخص هذه العناصر ببحث شامل ، نرتفع بها فيه الى أصولها الأولى ونتبع أخطر المراحل التى جاوزتها ثم نصل بينها وبين جوانب حياتنا الخارجية وصلتنا بالغرب على وجه الخصوص • وكان الذى دفعنا الى طرق هذا البحث واختيار النحو الذى نحوناه فى وضع حدوده وتصريفه أمر نجد فى الكشف عنه هنا ما قد يعين على ادراك هندسته • وهذا الأمر هو هذه الحيرة التى أصبحت ترهقنا جميعا ، وترهقنا اليوم أكثر مما كانت تفعل فى أى يوم مضى ، من المظاهر التى تتخذها حياتنا العامة والخاصة والآثار المتنافرة التى يثيرها نشاط الدولة لدينا ثم القنوط الذى يبعثه ذلك فينا وبين الطبقة الحاكمة منا على وجه الخصوص •

قلنا دفعنا الى طرق هذا البحث واختيار النحو الذى نحوناه فى وضع حدوده وتصريفه ، فقد قصرناه على العناصر التى ترجع اليها ظروفنا الحاضرة قبل سواها ونعنى بها فيما بيننا اليوم ورأينا أن نتبع كل عنصر منها على حدة من أقصى مراحله المفيدة الى المرحلة التى تهمنا مباشرة وأطلنا الوقوف عند الجانب التاريخى لبعض هذه العناصر أحيانا رغبة فى استخلاص

جوهرها وتوضيح ملامحها وابراز آثارها وهى جميعا أشياء يندر أن نجدها أو نجد بعضها فى غالب هــذه الآلاف المؤلفــة من الكتب التى وضعت فى تاريخ مصر القديم والحديث على السواء • وآية ذلك أننا ما زلنا لا ندرك من ماضينا القديم شيئا كثيرا وما زلنا نجهل حقيقة مصر البطلمية والقبطية والعربية والمملوكية وما زال محمد على واسماعيل وقادة تاريخنا الحديث فى وعى الكثير منا صورا مائعة يكتنفها التناقض ولا يمت غالب ما كتب حولها بصلة الى البحوث العلمية الصحيحة •

وقد ذهبنا فى تحليلنا التاريخى مذهب المؤرخين المحدثين ففلسفنا الحوادث ورددناها الى مصادرها الاجتماعية العامــة وأنزلنا الطبقــة الحاكمة وأعمالها وآراءها فى المنزلة الثانية • ونحن نذكر هذا هنا عمدا لأننا لا نريد أن يفهم مما قد يقرن فى هذا البحث ببعض الظواهر الناجحة أو الفاشلة من أسماء أننا نشيد بأصحابها أو ننعى عليهم فنحن لم نعرض لواحد منهم الا من ناحية العناصر الاجتماعية التى خلق منها والتى لا شــأن كبير له بها الى حد بعيد • وقد نحونا مثل هذا النحو مع الدول والأديان أيضا فنظرنا اليها نظرتنا الى عناصر مجردة تفاعلت حينا فأخذت أمور مصر وجهة بعينها وتفاعلت حينا آخر فأخذت هــذه الأمور وجهــة أخرى ، كما تتفاعل العناصر الطبيعية فتنتج شيئا تارة وآخر تارة أخرى تبعا لملابسات تفاعلها ، دون أن يكون لها أو لبعضها حظ من الشر أو الخير قل أو كثر •

بقى أن عنايتنا الظاهرة بالعنصر الاقتصادى فى هذا البحث لا ينبغى أن يفهم منها أننا نرجع ظروفنا القائمة الى هذا العنصر ولا الى شىء سواه فهناك العناصر الروحية دون شك • ولكننا اتهينا الى تقديمه على غيره لأننا رأيناه أشد هذه العناصر جميعا حاجة بالاهتمام فى حياتنا الحاضرة • وقد نكون أخطأنا الصواب فى هذا التقدير ونكون قد أخطأناه فى بعض النتائج التى انتهينا اليها أو فيها جميعا فلعل هذا البحث أول بحث تعالج المسألة المصرية فيه على هذا النحو دون أن تسبقه الدراسات التمهيدية اللازمة • ولكن هناك نتيجة نخرج بها على كل حال ولا شــك فيها البتة ، وهذه

النتيجة هى أن الذين يردون فساد حياتنا الحاضرة الى طبيعة العامة لدينا ، وهم غالب أهل الرأى وان لم يعلنوا ذلك ، أو الى تربص بعض الدول بنا قبل كل شىء ، وهو ما يتجه اليه تفكيرنا عادة ، ويريدون أن يجدوا فى ماضينا ما يدعمون به رأيهم هذا ، يظلمون هؤلاء العامة ويظلمون هذا الماضى على حد سواء • انما الحقيقة هى أننا يجب أن نبحث عن أسباب هذا الفساد فى تقلبات الحياة العالمية — وقد صار بعضها يسير المعالجة — وفيما مازلنا نجنيه بأيدينا على هذا البلد كل صباح ومساء بدافع من عقد النقص هذه الكثيرة التى خلفها لنا ماضينا العثمانى - الانجليزى وثقافتنا الهزيلة ثم انسياقنا خلف شهوة الضجيج الفارغ هذه التى ينفرد بها عهد الطفولة فى حياة الأفراد وحيــاة الأمم ، دون الجهــد الصحيح الواجب — نخرج بهذه النتيجة ونجد فى اثباتها واقامة الدليل عليها واذاعتها هدفا كافيا لهذا الكتاب •

الفتح العربي

انفرط عقد شعوب البحر المتوسط بعد تسعة قرون أو تزيد من الحياة المشتركة اذ أطبقت القبائل العربية على ساحله الجنوبى فى المائة السابعة وتحول كل فريق منها الى عالم جديد خص به فلحقت الشعوب الشرقية بالمجتمع الضخم الذى خلفته فتوحات القرن الأول الهجرى بآسيا وأفريقيا وبعض أوروبا وانقلبت الشعوب الغربية الى داخل القارة الأوروبية لتسكن فى تلك الدجنة الثقيلة التى تواضع أصحاب علم التاريخ على تسميتها بالعصر الوسيط[1] . وامتدت هذه الفرقة على وجه الخصوص بين جنبى الطرف الغربى من البحر المتوسط حتى المائة الحادية عشرة حين عادت أوروبا تتصل بالشرق اتصالا هينا أول الأمر ثم نشطا دافقا الى حد لم يعهده من قبل اذ كانت تعمل داخله وقتئذ عوامل جديدة منها ، فيما يهمنا هنا ، ما كان عرض لهذا البحر بالذات ، أثناء ذلك ، فتغيرت شعوبه واتسعت آفاقه وحالت وظيفته . تغيرت شعوبه تغيرا بالغا توشك من جرائه أن لا تعرف فلم تعد يونانية أو رومانية أو غالية خالصة كما كانت فى الغرب منذ ظهور الأغارقة الى سقوط الرومان ، ولم تبق مصرية أو فينيقية أو فارسية فقط كما كانت فى الشرق فى ذلك الزمن بالذات ، وانما صارت خليطا من هذه الشعوب بالغوط والنورمانديين والجرمان هناك والعرب والمغل والأتراك هنا . واتسعت آفاقه فشملت البلاد التى اقبلت منها الشعوب الجديدة حتى كان الشرق الاسلامى وحده يمتد من شواطىء البحر المتوسط الى أطراف الصين والمحيط الهندى والأطلنطيق وكان الغرب المسيحى يشمل ألمانيا جميعا واسكندناوية والجزر البريطانية فى حين كانت جامعة الشعوب الرومانية ، وهى أكبر جامعة عرفها العالم القديم ، لا تضم غير بلاد البلقان وأوروبا الجنوبية وأفريقيا الشمالية وآسيا الصغرى . وحالت وظيفته أيضا فبينما كان لا يعرف قبل ذلك لغير الشعوب النازلة على شواطئه نشاطا يذكر صار طريقا من طرق بحرية مختلفة اتخذها ما أقبل

(١) Pirenne : Mahomet et Charlemagne.

العالم الجديد عليه وقتئذ من تبادل تجارى رحب ، اذ لا يمضى القرن الثانى عشر حتى تظهر مدن الشمال الصناعية مثل أنفرس وامستردام ولندن وتنشط حركة النقل فى بحر الشمال فى الوقت الذى تشتد فيه الملاحة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى بفضل تداخل شعوبهما فى نطاق المجتمع الاسلامى ثم يحل القرن الخامس عشر وتكتشف أوروبا طريق رأس الرجاء الصالح والأمريكتين فتمتد شرايين التجارة العالمية الى الأطلنطيق وتكاد تقصر عليه الى نهاية القرن الثامن عشر[1] .

وبدهى أن هذا التحول لم يتم جميعا فى جيل واحد أو أجيال قلائل فمعروف أن أول احتكاك للرومان بقبائل الشمال يرجع الى قبل قيصر . وقد قاتل أغسطس الجرمان وهزم لهم وظلت القبائل الجرمانية تتغلغل فى الامبراطورية الرومانية تغلغلا متصلا حتى قامت الامبراطورية الرومانية المقدسة . وكان اتساع رقعة الشرق المعروف يسير أيضا سيرا بطيئا متصلا منذ أمد طويل فقد عرف الفراعنة شعوب البحر الأحمر واتصل البطالمة بالهند وكانت الاسكندرية تتجر بسلع الشرق الأقصى فى العصر الرومانى[2] ، وان ظلت هذه البلاد تجهل بعضها البعض بعد ذلك أجيالا وبقيت علاقاتها حتى حين اشتدت علاقات خارجية : علاقات مجتمعات مختلفة لا تربط بينها أسباب غير أسباب التبادل العاجل . كذلك كان تنكب شعوب البحر المتوسط حياتها المشتركة آخذا فى الظهور منذ وقت بعيد ولم يكن قيام القسطنطينية فى القرن الرابع وانقسام الكنيسة المسيحية وتطاحن الاسكندرية وروما ثم الاسكندرية والقسطنطينية الا بعض مظاهره[3] .

(١) Luzzato : Storia Economica.

(٢) S.Huzayan : Arabia and Far East. وهو يقول ان المسافة بين مصر والهند كانت تقطع وقتئذ فى سنة . كذلك كانت تجارة روما الخارجية لا تزيد قيمتها على مليون جنيه فى العام بما فى ذلك مصاريف النقل وربح التجار .

(٣) Maspéro : Histoire des Patriarches d'Alexandrie. (ماسبيرو : « تاريخ بطاركة الاسكندرية ») .

كان كل هذا سائرا فى تطور بطىء هادىء الى أن كانت فتوحات القرن السابع فكانت الطفرة وكان ان اتخذ هذا التباعد شكل الاختلاف الدينى أيضا فدخلت الشعوب الشرقية الاسلام وبقيت الشعوب الغربية على مسيحيتها وسار كل من الفريقين فى طريق يفترق عن طريق الآخر . وجعل هذا الاختلاف يعمل عمله حتى استحالت ملامح هذه الشعوب استحالة شديدة فاذا بها تنكر بعضها البعض حين تلتقى أول القرن الحادى عشر وتصير الحرب الشكل الغالب على علاقاتها الجديدة ؛ ومن ثم كان غزو المسلمين ثغور أوروبا الجنوبية وحروب الصليبيين وشىء كثير من السياسة التى انتهجها الغرب فى الشرق فى القرن الثامن عشر[١] ومن نظر شعوب الشرق الاسلامى الى الحضارة الغربية وعلاقتها بالغربيين على وجه العموم .

* * *

ويسير على من ينظر فى تاريخ مصر قبل القرن السابع وبعده أن يلمس ما أصابها من جراء ذلك التحول فبدّل علاقتها بالشعوب الأخرى واثر فى اتجاهاتها الروحية والاجتماعية والسياسية جميعا . فمن المعروف أن مصر اتصلت بشعوب المشرق وشعوب المغرب منذ القدم : اتصلت بشعوب آسيا القريبة صلة وثيقة تحدثنا عنها قصص بنى اسرائيل[٢]

(١) ودوين يرجع اعتداء الأساطيل الاوروبية على أسطول محمد على فى نافارين فى القرن التاسع عشر الى العداء المسيحى الاسلامى . كذلك ينسب نفور محمد على من فتح طريق السويس الى البحر الأحمر أى بحر الحرمين الى هذا العداء . وقد رأينا ما لقاه ممثلو مصر والبلاد العربية من جفاء فى أمريكا وأوروبا اثناء المؤتمرات الدولية الأخيرة . أنظر Douin : Navarin

(٢) عرض كتاب كثيرون – من مانتون الى عبد القادر حمزة – لأثر هذه الصلة فى العقيدة الاسرائيلية وذهب مانتون الى حد الادعاء – يشاركه فى ذلك أهل عصره – بأن موسى كان قسا مصريا من هليوبوليس خرج على آلهة هذه المدينة – كما قال فرويد بعده بقرون بأن موسى كان نبيلا مصريا ثائرا – بينما عنى عبد القادر حمزة على وجه الخصوص بما بين التوراة وبعض كتب الحكمة المصرية من شبه قوى فى المعنى والنص أحيانا وهو شبه لا يستطيع ان ينكره من يطلع على هذه النصوص (رمسيس يسمع صوت آمون وسط موقعة قادش يقول له مثل رب موسى : ها أنا وجها لوجه معك أى رمسيس أننى معك ، اننى أنا ، أنا والدك) . انظر « على هامش تاريخ مصر القديم » .

ووثائق تل العمارنة والحروب التى نشبت بين المصريين وما قام فى تلك الأمصار من دول قوية كالهكسوس والأشوريين والفرس . وكانت صلتها بهذه الشعوب جميعا صلة الجار بالجار ، صلة دول يقوم بعضها جانب بعض فتتصادق أو تختصم ، وقد يبلغ تصادقها حد التعاون فى ميادين الاقتصاد والسياسة والحرب ويبلغ اختصامها حد التطاحن والتخريب وما يعقب ذلك من فرض الغالب نفسه على المغلوب الى أن يفيق من سكرته فينصب له الحرب ويرده الى مصره . ولكنها تظل على الدوام صلة عوالم قائمة بذاتها تتغاير فى اللغة والدين والتفكير وان تفرع بعض ذلك على أصل واحد أو أوجدت الظروف الاقليمية المتقاربة بعض العناصر المشتركة بينها فلا يدخل أحد أبنائها مجتمع الآخر متعاونا أو غاصبا حتى يلحظ دخوله ويعد عنصرا غريبا طارئا[١] .

ولعل أوسع بحث أدير فى هذا الموضوع بطريقة علمية محكمة هو بحث الأستاذ أدولف لودس المدرس بالسربون (A. Lods ; Israël : Des origines au milieu du VIII siècle.) والأستاذ لودس لا ينتهى الى نتائج قاطعة ولا يميل الى الأخذ بتفرع الاسرائيلية على العقائد الدينية المصرية الا أنه لاينكر تأثرها بها ويذكر فيما يذكر من مظاهر هذا التأثر اتخاذ بنى اسرائيل السفينة رمزا للاله وتمثيلهم له على أيام سليمان فى صورة ثور واقامتهم المعابد على الطريقة المصرية . وهو يلاحظ على وجه العموم أن بلاد الشام جميعها كانت عند ظهور الاسرائيليين مشبعة بالفكر المصرى وأن الاسرائيلية لم تكن دائما كما نعرفها الآن فهى لم تنشأ وحدانية ولم تصل الى تصورها الحالى لله الا فى القرن الثامن قبل المسيح أى انها اجتازت مراحل التطور التى عرفتها العقائد الدينية الأخرى فى الشرق . ونحن نريد أن نلاحظ الى ذلك ان التوراة كما نعرفها الآن كتبت على أيام البطالمة أى وقت انتشار الدين المصرى وقد يكون بعض الأثر المصرى تطرق اليها وقتئذ .

(١) وموريه يقول ان مصر بسطت سلطانها على أسيا الصغرى فى القرن الخامس عشر ق . م فى الوقت الذى كانت تسيطر فيه على جزر البحر الموسط الشرقية . وكان سلطان مصر على آسيا الصغرى من نوع الحماية المحدودة فلم يغير نظم شعوبها أو صلة مصر بها وبقى المصريون ينظرون الى هذه الشعوب نظرتهم الى الشعوب الأجنبية .

وقد حاول اخناتون أن يدمج هذه الشعوب بالشعب المصرى فى امبراطورية دينية واحدة ففشلت المحاولة وعد هو نفسه أجنبيا خائنا .

(Moret : Des Clans aux Empires، Au temps des Pharaons موريه : « من القبائل الى الامبراطوريات » و « أيام الفراعنة ») .

واتصلت مصر بالدويلات اليونانية عدة قرون قبل حرب طروادة[1] . تحدثنا بذلك آثار نيسين (١٩٠٠ ق ٠ م) وكريت (عصر الهكسوس) وارجو[2] (١٥١٠ ق ٠ م) ٠ وهذه الصلة الأولى بالغرب تأخذ شكل

(١) وموريه يستنتج من قراءة الالياذة أن مقاتلة هومير كانوا يستجلبون عربات قتالهم من مصر . موريه : « أيام الفراعنة » .

(٢) وهيرودوت يقول ان مدينة ارجو كانت أهم مدن اليونان على الاطلاق الى أيام حرب طروادة (١١٨٤ ق ٠ م) ٠ وقد اختطف البعض ذات يوم ابنة ملك أرجو هذه وأتوا بها الى مصر كما جاءت مصر بعد ذلك هيلانه بطلة حرب طروادة عقب اختطافها وأقامت فى منفيس الى أن قدم والدها بعد الحرب وأخذها منها . وقد حدث أن عاكست الريح هيلانه ووالدها عند عزمهما على الرحيل من مصر فما كان من والدها الا أن اختطف طفلين من أبناء البلاد وقام بتضحيتهما لآلهة الريح على الطريقة المتبعة فى بلاده فهاج العامة واراد الشرطة أن يقبضوا عليه ولكنه استطاع الفرار هو وابنته الى ليبيا . كذلك يقول هيرودوت ان الاغريق كانوا أول شعب فتح له المصريون صدرهم .

وديودور يقول ان تاريخ مصر المتواتر على أيامه ـ عهد قيصر ـ كان ما زال يتحدث بما أقامه المصريون من مستعمرات فى شتى بلاد البحر المتوسط وما انشأوه بها من مدن هامة كأرجو التى سبق الاشارة اليها . وهو يضيف الى ذلك أن المصريين كانوا يدعون ان أهل اثينا أيضا ينحدرون من مستعمرة أقامها بعض المهاجرين من مدينة سايس المصرية ويستشهدون على ذلك بانقسامهم ثلاث طبقات كما كان ينقسم المصريون ـ رجال الدين والملاك والزراع ـ ثم يلاحظ أن بعض قواد اثينا الأولين كانوا ينحدرون حقيقة من أصل مصرى مثل Pésès الذى اشترك فى حرب طراودة وارتقى الى عرشها وان الأثينيين كانوا يكرمون ايزيس على أيامه على الطريقة المصرية ويقسمون بها ويشبهون المصريين فى آرائهم وعاداتهم اكثر من أى شعب اغريقى آخر .

ويوسف فلافيوس يقول ان المصريين كانوا يتجرون مع اليونان منذ القدم بعكس الاسرائيليين الذين ظلوا ولا صلة لهم باليونان حتى أثناء اقامتهم فى فلسطين. Flavius Joseph : Contre Apion.

ويعتقد بيرين أن مدن الدلتا استعانت بدويلات آسيا الصغرى فى معارضتها فى توحيد حكم مصر تحت الأسرة الأولى . Pirenne : Histoire des institutions et du droit privé de l'Ancienne Egypte.

كذلك يرتفع ماسبيرو بالصلات بين مصر واليونان الى القرن السادس عشر ق.م ويقول انها بلغت حدا أبعد بكثير مما يحب ان يقربه محبو الثقافة الاغريقية اليوم . G. Maspéro : Causerie d'Egypte.

الهجرة حينا فيقيم المصريون المستعمرات بتلك البلاد ويهاجر أهل سردينيا الى مصر ويخدمون فى جيشها وشكل الاعتداء المسلح حينا اذ يهاجم حلف المدن الهلينية والصقلية والأترورية مصر من البر فى عهد منفتاح الأول ثم من البحر على أيام رمسيس الثالث وشكل النفوذ السياسى تارة أخرى فيشرف الأسطول المصرى على سواحل البحر المتوسط الشرقية جميعا تحت الأسرة الثانية عشرة[1] . ونحن نستطيع أن نتصور مدى هذه الصلة مما يذكره كتاب اليونان القديمة عن علاقة مصر ببلادهم فى ذلك الوقت وانحدار آلهتهم وكثير من الأبطال الذين ألقوا بذور حضارتهم منها[2] وما أصبح لا ينكره أصدقاء الثقافة اليونانية من الأثر المصرى فى الحضارة الاغريقية ومنه عبادة الويزيس التى قامت فى اليونان كصورة من عبادة ايزيس وانتشرت منها فى بلاد البحر المتوسط تحت البطالمة والرومان وكانت العبادة الوحيدة التى استطاعت أن تجمع بين الشعوب اليونانية[3] .

وقد اشتدت هذه الصلة بين نهاية القرن الثامن ق.م وفتوح الاسكندر حين عمد الأغارقة الى انشاء المستعمرات بمصر السفلى كما كانوا يفعلون فى آسيا الصغرى اذ كانت هذه المستعمرات تقوم كأجزاء حيّة من العالم الاغريقى يشهد بها المصريون أحدث ثمار هذا العالم ويتصل الأغارقة بالحضارة المصرية ويقع الاختلاط الاجتماعى بين

(١) Chabas : Etudes sur l'antiquité historique.

(٢) مثل دانوس . ومانتون يقول انه كان اميرا مصريا هاجر الى اليونان بعد أن حاول اغتصاب عرش اخيه . ويوسف الاسكندرى ينقل هذه الرواية ويضيف اليها أن دانوس كان احد أشقاء الفرعون سيتوزيس المعروف بين اليونانيين باسم اجيبتوس . كذلك يقول هيرودوت انه زار مدينة شمى فى مقاطعة طيبة اثناء اقامته فى مصر فوجد بها معبدا لدانوس وشهد الأهالى يحيون ذكراه على الطريقة الاغريقية ويعتقدون انه من ابناء بلدتهم . ويلاحظ أن دانوس هذا هو الذى بسط نفوذ ارجو من قنال كورنتيس الى راس ماليه (نحو سنة ١٥١٠ ق.م) وجدد نظمها على اسس مصرية هيرودوت وفوكار. Roussel : La Grèce et l'Orient و Foucart : Les mystères d'Eleusis. (روسل : « اليونان والشرق ») .

(٣) ويقول روسل انها كانت العبادة الوحيدة التى جمعت بين الأحرار والعبيد .

الشعبين[1] . فالى هذا العهد يرجع تردد علماء اليونان وقادتها على مصر مثل ارفيون وفيرسيد وفيتاغورس وامبدكل وليكلوم وصولون وكريتون وديمقريط وأفلاطون[2] ، واقدام الأمراء المصريين على ندب رجال السيف من الأغارقة لجيوشهم كما فعل بسماتيك[3] رأس الأسرة السادسة والعشرين حين استعان بمن جمعه منهم على التخلص من منافسيه فى الحكم ، واقبال الأغارقة على انشاء المعابد لايزيس[4] ووضع القصص التى ترجع بنشأة آلهتهم الى مصر كما فعل الرومان بعد ذلك اذ وضعوا القصص عن نشأة آلهتهم فى اليونان ، وظهور الأسماء الاغريقية بين المصريين والمصرية بين الاغريق . واليه يرجع أول ما جعل يبدو فى حياة الخاصة بمصر من لون اغريقى نشهد بعضه فى آثار تونا الجبل[5] وما تنفرد به من تقارب بين

(١) Mallet : Les Premiers établissements grecs en Egypte. (مالية «الجاليات اليونانية الأولى فى مصر ») .

(٢) يقول ديودور ان الدار التى نزل بها افلاطون فى هليوبوليس كانت لا تزال قائمة على أيامه .

(٣) يقول هيرودوت ان بسماتيك اقام حينا ببلاط الأشوريين بعد أن قتل النوبيون والده اذ كان العهد عهد نفوذ الأسر النوبية فى مصر ، وقد استطاع بسماتيك ان يستنقذ البلاد من هذا النفوذ ويقتسم حكمها مع بعض الأمراء المصريين ويتخلص من هؤلاء الأمراء بفضل من استعان بهم من الأغارقة الذين كانوا يترددون على امارته وكانت تقوم قريبا من البحر . وقد عمد بسماتيك أثناء حكمه الى تشجيع هجرة اليونانيين الى مصر فأعطى من استعان بهم فى حربه الداخلية اراضى يزرعونها ويسر اقامة من أقبل أثرهم من التجار ورغب المصريين فى تعلم الاغريقية .
وتلاحظ دائرة المعارف الايطالية فى تعليقها على اخبار هيرودوت ان الأسر المصرية الأخيرة نشأت جميعا فى شمال الدلتا وفى المدن التجارية المحيطة بالبرلس والمنزلة على وجه التحديد وكانت تتميز بطابع ديمقراطى بارز يرجع الى حداثتها واعتمادها على الطبقات الفقيرة .

(٤) كان البحارة الأغريق يمجدون حينئذ ايزيس « نجمة البحار » ويقيمون لها المعابد فى كل ثغر يهبطونه ويعدونها أنقى من آلهة الأوليمب . مجلة القاهرة عدد ابريل سنة ١٩٤١ .

(٥) شهدت هذه المدينة حكم الفرس والبطالمة والرومان وتدل أعمال التنقيب الدائرة بها الآن انها كانت تضيف جالية أغريقية وفيرة . كذلك تدل على أن الحياة بمدن مصر السفلى كانت تضطرب فى ذلك الوقت بين التقاليد الوطنية والأوضاع الأغريقية فكانت العمارة والملابس ومظاهر الحياة الاجتماعية الأخرى مصرية حينا وأغريقية حينا أو خليطا من هذه وتلك فى وقت واحد. واهم آثار تونا الجبل المعروفة الى الآن هى مقبرة بتوزيريس كبير كهنة توت فى نهاية القرن الرابع ق.م. وهى تتميز برشاقة نقوشها رشاقة تذكر بالفن الاغريقى وبما بها من صور تمثل الأساطير الأغريقية وآلهة اليونان . مجلة القاهرة عدد ابريل سنة ١٩٤١ .

الفن الاغريقى والفن المصرى ونجد أثره فى تزوج أماسيس[1] أحد خلفاء بسماتيك من اغريقية وبعثه الهدايا الى معابد دلفى وسامو وهى معابد اغريقية[2] ثم نلمسه لمسا فيما نعلمه عن مجموعة أماسيس هذا القانونية التى كانت تنظم مجتمعا مصريا اغريقيا بينا . كذلك الى هذا العهد يرجع ما نشأ عن ضغط الامبراطورية الفاوسية على مصر واليونان من تآزر دخل بعلاقات البلدين الى ميدان التحالف السياسى أيضا ، ومن ثم كانت استعانة أماسيس بفامس ومناصرة الأثينيين ايناروس[3] وأميرته[4] ومعاضدة نفريديس سبرطة وتحالف تاخوس[5] مع أثينا وسبرطة واعتماد نكتانب

(١) حكم أماسيس مصر بين سنة ٥٧٠ وسنة ٥٢٦ ق.م. وكان من عوام مدينة سايس فدخل الجيش وتقدم فيه حتى صار كبير قواده . وقد وجهه الفرعون ابرياس الى ليبيا ليخضع بعض القوات الثائرة فيها فتآمر وهذه القوات وقاتل ابرياس وجنده الاغريق الذين يقدرهم ديودور بـ ٣٠ ألفا ثم اغتصب العرش . دائرة المعارف الايطالية .
وقد واجه اماسيس المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التى كان اتساع هجرة الاغارقة الى منطقة الدلتا يثيرها على أيامه وعمل على تركيز المهاجرين فى أماكن يعينها خصوصا فى المنطقة الحرة التى عرفت بعد ذلك بنقراطيس (بالقرب من نبيرة الحالية) وصارت مدينة تجارية هامة . وغزا أماسيس فى آخر أيامه قبرص وتزوج منها كما غزاها من قبله ابرياس وهزم الفينقيين والقبرصيين فى معركة بحرية كبيرة . هيرودوت و « تاريخ الأمة المصرية » ودائرة المعارف الايطالية .

(٢) Brugsch : Egypt under the Pharaons .

(٣) كان ايناروس من أبناء بسماتيك الذين هاجروا الى ليبيا وانصرفوا الى محاولة تخليص مصر من حكم الفرس وقد ثار على هذا الحكم فعلا سنة ٤٦٠ ق.م وطلب معونة اثينا فبعثت اليه بمائتى سفينة صعدت النيل حتى منفيس وبقيت بها الى أن قضى الفرس عليها سنة ٤٥٤ ق.م. روسل .

(٤) استعان أميرته ايضا بأثينا وكان المصريون يدعونه بصديق الاثينيين (٤٤٩ ق.م) . روسل ومانتون .

(٥) كان العهد عهد انتقاضات فى اسيا الصغرى فأراد تاخوس ان ينتهز ذلك ويخرج الفرس من الشرق الأدنى واستعان بأثينا وسبرطه فقنعت الأولى بايفاد أميرالها شرباس اليه . وكان شرباس حينئذ أبعد أمراء البحر اليونانيين شهرة وأقربهم الى نفس المصريين لسابق اقامته بينهم واشرافه على بناء بعض حصونهم البحرية وهى حصون كانت لا تزال قائمة على أيام بلين وسترابو . وبعثت اليه سبرطة ملكها اجيزيلاس

وأبنائه على أجيزيلاس قائد هذه المدينة وحلفائه وكان تفكير بركليس بعد ذلك فى العمل على دفع المصريين دفعا شديدا داخل دائرة النفوذ الاغريقى والاستعانة بهم فى تطويق النفوذ الفارسى وهى السياسة التى انتهجها الاسكندر والبطالمة من بعده(١) .

وقد أفلح الفرس فى دخول مصر بعد أن ألبوا عليها قوى آسيا الفتية جميعا (٢) فى الوقت الذى كانوا يخضعون أثناءه الدويلات اليونانية

تصحبه فرقة من حرسه . وكان اجيزيلاس هذا شيخا تقتحمه العين فلم يقلده تاخوس سوى قيادة الفرقة التى اتى بها معه بينما عقد للأميرال الأثينى على الأسطول بأسره وكان يتكون من مائتى قطعة وأبقى لنفسه قيادة الجيش وكان يتكون فى ذلك الوقت من ٨٠ الف مصرى و١٠ آلاف اغريقى . وكان تاخوس قد استعان بشرباس قبل خروجه الى الحرب فى وضع نظام مالى جديد اراد به ضمان تمويل قواته وصرف أرزاق الفرق الاغريقية منها بنقود ضربت حينئذ على شكل النقود الاغريقية فأثار هذا النظام موجة من التذمر بين سواد المكلفين وما كاد الملك يرحل بجنده حتى ثار المتذمرون فانتهز تكتائب الفرصة واغتصب العرش بمعونة اجيزيلاس .

ويلاحظ الأستاذ Arpag Mekhitrian فى تعليقه على هذه الحوادث مافى سياسة تاخوس هذه من خفة تشبه خفة حكومات المدن الاغريقية وقتئذ فقد كانت مصر تجتاز فى ذلك الوقت ظروفا داخلية حرجة خليقة بأن تستأثر بعناية الحاكم وتصرفه عن الغزوات خصوصا لامبراطورية كامبراطورية الفرس . وهو يجد فى ذلك دليلا آخر يثبت ما يراه من ان مصر القرن الرابع ق.م كانت تتركز فى مدن الدلتا وتحيا من حياة البحر المتوسط .

وهو يلاحظ أيضا ان تاخوس كان ، قبل ان يصير ملكا ، كاهنا من كهنة الكرنك ، وان ملوك مصر فى ذلك الوقت كانوا يرتقون فى الغالب الى العرش معتمدين على جيوشهم الخاصة . أنظر مجلة القاهرة عدد ابريل سنة ١٩٤٤ .

(١) دائرة المعارف الايطالية .

(٢) دائرة المعارف الايطالية . وهى ترجع انتصار الفرس الى خيانة الفينيقيين والاغريق الذين كان المصريون يستعينون بهم . كذلك يفهم من روسل ان مصر كان بها حينئذ تيار يميل للفرس الى جانب التيار الذى كان يميل للاغريق .

لسلطانهم فيفرضون الخراج على ما يقوم منها بآسيا الصغرى(١) ويعضدون ما يدعى بحكم الغاصبين (tirannid) فى مدن الأرخبيل وشبه الجزيرة ويتحكمون فى مقدونيا مولد الاسكندر ويشترون الطبقة الحاكمة اليونانية بالمال(٢) ثم يتخلصون من أثينا بسيف سبرطة ويثيرون الدويلات الأخرى الواحدة على الأخرى حتى يصلوا الى ما قصدوا اليه من فرض وصايتهم الثقيلة عليها جميعا بمعاهدة انطوكليديس(Antoclides) (٣٨٦ ق . م) وهى المعاهدة التى وطدوا بها قدمهم فى آسيا الصغرى ونقضوا حلف المدن الاغريقية ووضعوا هذه المدن فى نفس الوضع السياسى الذى عرفته تحت الامبراطورية الرومانية بعد ذلك (٣) . وهم ينتهون من هذا الى انشاء دولة ضخمة تجمع العالم المتحضر المعروف وقتئذ وتختلط داخلها شعوب هذا العالم جميعا اختلاطا اشتد واتسع بعد ذلك اذ تمكن الأغارقة بحملات الاسكندر من الانتشار فى جنبات هذه الدولة والاشتراك فى حكمها .

وكان ييسر من شأن هذا الاختلاط ما كانت عليه هذه الشعوب فى ذلك الزمن من أوضاع سياسية خاصة فنحن نعلم أن العالم القديم لم يعرف دولة يونانية واحدة وانما عرف جملة دويلات متفرقة يقاتل بعضها البعض ويستعدى عليه عدوهم المشترك وينزل أهله منزلة العبيد ولا يرفض قادتها أن يبيعوا ضمائرهم الى خصومهم السياسيين أو يتحرج أبناؤها من القتال فى صفوف الزاحفين الى ديارهم(٤) . ولم تكن حروب اليونان للفرس حروب أمة لأمة بل قراع أبناء البلد الواحد للغريب المغير أو غزاة الشركاء فى مغامرة واحدة لأرض غنية وهم فى الحالتين لا يكادون يفوتون مرحلة الخطر حتى ينقلبوا كل الى داره . وقد كانت أثينا تقاتل الفرس وسبرطة وحلفاءها فى وقت واحد وكانت المدن الأخرى التى استطاعت أن ترتقى

(١) هيرودوت . وهو يقول ان الفرس كانوا يعتبرون آسيا الصغرى من أملاكهم ويعدون الاعتداء على مدنها اعتداء على امبراطوريتهم وكان بين القوات التى غزا بها قمبيز مصر كثير من اهل هذه المدن .

(٢) روسل .

(٣) دائرة المعارف الايطالية .

(٤) كان ملوك الفرس يستخدمون الاغارقة فى غاراتهم على اليونان وكان بعض مشاريع الهجوم على هذه البلاد من وضع قادة يونانيين وقد نازل الاسكندر فى الشرق جيوشا كان يشترك فيها ويقود بعضها يونانيون . انظر هيرودوت وديودور وروسل .

الى زعامة اليونان على أيام الفرس تضطر الى فعل ذلك[١] . كذلك لم تكن انتصارات الاسكندر عند الذين وفقوا لاحرازها انتصارات أمة على أمم بل انتصارات أمير بعينه من أمراء الجند الكثيرين الذين كانوا يتجرون بالحرب وقتئذ[٢] وان نبه ذكره بعد ذلك وأثار فى موطنه فخرا عنصريا شاملا[٣] . وقد سبقت انتصارات الاسكندر على الفرس

(١) المراجع السابقة .

(٢) من المعروف ان كثرة الحروب وزيادة النسل وفقر الطبقات الدنيا فى المدن اليونانية ادى وقتئذ الى ظهور الفرق المرتزقة وهى فرق كان عدم ظهور الجيوش الثابتة يجعل منها القوات العسكرية الرئيسية ان لم تكن الوحيدة فى ذلك العصر . وكان يقود هذه الفرق قواد مغامرون يسعون وراء الربح بمقاتلتهم اليوم فى صف هذا وغدا فى صف ذلك . وقد عادت هذه الظاهرة الى الظهور فى اوروبا فى عصر النهضة . روسل ودائرة المعارف الايطالية و S.V. Young : The Medici

(٣) ونحن نقرأ فى « تاريخ القانون العام المصرى القديم » للأستاذ بيرجوجيه عن صلة الاسكندر بمقدونيا واليونان ما يأتى :

« وقد اراد أحد علماء الألمان منذ بضع سنين ان يحدد الملكية المقدونية على وجه التدقيق (Franz Hampl, De- Koniq der Makedone, Weida, Thur 1934) فكتب يقول : « ان الملوك المقدونيين كانوا لا يعدون ملوك مقدونيا بقدر ما كانوا يعدون ملوك المقدونيين الى جانب حظوهم بمنزلة اجتماعية هامة بصفتهم وجوه عشيرة الأرجادس وامراء اقطاع كبير . وكان هؤلاء الملوك يحاربون ويصالحون ويسعون لبسط سلطانهم بصفتهم الشخصية هذه لا بصفتهم ملوك المقدونيين . كذلك كانوا لايوقعون المعاهدات التى يعقدونها بلقبهم الملكى ولا يأتون فيها على ذكر المقدونيين . وهكذا دخل فيليب مجلس امفتسيون كفيليب فقط ونظم حلف الدول اليونانية بزعامة اتحاد كورنتس عقب هزيمة أثينا وحلفائها بهذه الصفة لا كملك المقدونيين الذين ظلوا ولا شأن لهم بالأمر . فلم تكن زعامة اليونان للمقدونيين وانما كانت لفيليب والاسكندر من بعده ولم تضم الأراضى التى فتحت كآسيا الى مقدونيا وانما ضمت الى اقطاع الملك . كذلك كانت حقوق ملوك مقدونيا العسكرية على الجيش تنبثق من مصدر غير مصدر حقوقهم على اقطاعهم الخاص » .

والاستاذ همبل يذهب الى حد القول بأن المقدونيين كانوا غير ملزمين اذا اردنا التدقيق باتباع ملوكهم فى الغزوات التى يقومون بها وانهم كانوا يفعلون ذلك مقابل أجر يتقاضونه » Jouguet : Histoire du droit Public de l'Egypte ancienne.

ونحن نعلم من فيجل ان الاسكندر تخلص قبل سيره الى حرب آسيا من كل ما يملك فى مقدونيا كما كان يفعل المهاجرون عند مغادرة وطنهم والرحيل الى ارض جديدة ونعلم أيضا أن حملة الاسكندر سبقتها حملة عشرة الآلاف التى استطاعت أن توغل فى الامبراطورية العجمية ايغالا شديدا وان باءت بعد ذلك بالفشل . Wiegal : Alexandre (فيجل : «الاسكندر»)

انتصارات أخرى لأبيه وله على الأغارقة وكانوا يعدون مقدونيا أرضا أجنبية متأخرة وينظرون الى زعامتها لليونان نظرتهم الى الاحتلال الأجنبى[١] . وكانت الدويلات اليونانية تتبع هذه الانتصارات فى غير حماسة كبيرة بل أرادت سبرطة أن تنتهزها وتثور بمعونة الفرس فهزمها المقدونيون ونقضوا حلف كورنتيس الذى أنشأه فيليب لتوحيد سياسة اليونان الخارجية وأنزلوا أهلها منزل المحكومين وفرضوا عليهم عبادة الأسكندر[٢] . وكانت الجيوش التى أحرزت تلك الانتصارات جيوشا مختلطة يعمل فيها الاغريقى الى جانب الأسيوى أو الافريقى مقابل جعل معلوم . وقد نشأ الأسكندر نفسه فى مقدونيا وهى وقتئذ أوسع الأقاليم اليونانية تأثرا بالنفوذ الفارسى فى بيت اتصل بصلة المصاهرة بالفرس[٣] وبيئة مشبعة أشد التشبع بالفكر الدينى المصرى وكان فى جميع حركاته المثل الحى للمجتمع المختلط الذى جعل ينمو على أيامه . فحمل طوال حياته للفرس ونظمهم وشجاعتهم احتراما عظيما واستعان باليونانيين وان لم يؤمن بكفايتهم[٤] ولم يصدر فى عمل من أعماله عن غير الرغبة فى اقامة دولة عالمية تجمع بين الشعوب المعروفة حينئذ[٥] وهى دولة كانت عناصر تكوينها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تنتشر فى جو العالم فى ذلك الوقت . ومن ثم كان اعتناقه عبادة آمون وهى أوسع العبادات انتشارا حينئذ ومصاهرته العائلة المالكة العجمية وتفكيره فى اقامة عاصمته بمدينة بابيلون[٦] .

وقد كان الأغارقة يشعرون بعد ذلك بمغايرتهم الشعوب الأخرى فى الجنس واللغة والظروف الاجتماعية ويظهرون هذا الشعور برميهم هذه الشعوب بالهمجية ولكن هذا الشعور لم يعدُ قط ما كانت تحسه قبائل بدوية كقبائل الجزيرة العربية قبل الاسلام من اشتراكها فى الجنس واللغة والظروف الاجتماعية ومغايرتها فى هذا الشعوب الأخرى دون

(١) وكان المقدونيون يتمتعون فعلا فى امبراطورية الاسكندر ومصر البطلمية بامتيازات وحقوق لا يتمتع بها أهل المدن اليونانية الأخرى . دائرة المعارف الايطالية .

(٢) دائرة المعارف الايطالية .

(٣) تزوجت احدى اخوات جد الاسكندر من فارسى . فيجل .

(٤) فيجل .

(٥) مجلة القاهرة عدد مارس سنة ١٩٣٩ .

(٦) جوجيه .

أن يرتفع بها ذلك الى الوعى بوحدتها السياسية كأمة • ولفظ « barbare »
الذى نميل الآن الى ترجمته بال « همجى » لأنه كان ينطوى على بعض
هذا المعنى حين أطلق بعد ذلك على القبائل الجرمانية يقابل لفظ « الأعجمى »
الذى كان يطلقه العرب على من يتكلم غير لغتهم وكان المصريون يطلقونه
بهذا المعنى على أبناء اليونان كما أطلقه الرومان على الشعوب الأخرى
من بعدهم •[1]

ولم يكن الفرس يختلفون من هذه الناحية اختلافا كبيرا عن اليونانيين
فقد كانوا ينقسمون حتى أيام قمبيز الى قبائل متباينة • وقد وجهت هذه
القبائل الى الفتوح حتى دانت لها شعوب آسيا واليونان ومصر قبل أن
تندمج فى وحدة سياسية شاملة وكانت الدولة التى قامت على أكتافها
مجموعة شعوب مختلفة لا يجمع بينها غير شخص ولى الأمر وهو فى ذلك
الحين لا يميز بين رعاياه الا بمقياس ولائهم لعرشه • ونحن نعلم أن الفرس
كانوا يستعينون بالاغريق ، خصومهم السياسيين ، فى جيوشهم وحكومتهم
ومجالسهم الحربية الى حد أن يظهر بين ساسة اليونان فى القرن الرابع ق•م•
من ينادى بغزو بلادهم بعد أن صارت المراكز الهامة فيها فى يد يونانيين
ونعلم أنهم لم يفقدوا فى الغالب معاركهم مع اليونان الا بسبب تنافر
الشعوب التى كانوا يحكمونها وخيانة أعضاء العائلة المالكة بعضهم البعض
وتعاقب المؤامرات السياسية التى تذكرنا بآخر أيام الامبراطورية الرومانية
والبيزنطية والعربية والعثمانية وهى جميعا امبراطوريات حكمت حكما
شخصيا لم يعرف القومية[2] •

وكان المصريون لا يختلفون بدورهم فى ذلك الوقت من نفس هذه
الناحية كثير الاختلاف عن الاغريق والفرس وان عاشوا بعكسهم قرونا
طويلة فى ظل دولة وطنية مركزة ذات حضارة خاصة تجمع بينهم • فقد
تطورت هذه الدولة بين الأسرة الثامنة عشرة والسادسة والعشرين تطورا
طمس معالم هذه الوحدة وخرج بذلك الشعور عن طوره • وقد بدأ هذا

(١) يقول جوجيه ان الاغريقى عند اليونانيين لم يكن ابن اليونان
وانما كل من تثقف بالثقافة اليونانية وهذا التصور موجود لدى ايزوقراط
وهو من أبناء القرن الرابع ق•م•ويلاحظ على وجه العموم أن العلاقات الخارجية
فى العالم القديم علاقات حرب واحتقار. أنظر Fiore: Diritto Internazionale

(٢) هيرودوت و روسل •

التطور اذ مدت مصر حدودها السياسية ، تحت تحتمس الثالث ، الى قلب
افريقيا والفرات والأرخبيل اليونانى وتحولت بذلك من مملكة وطنية
مركزة الى امبراطورية مختلفة الشعوب ثم ارتدت بعد سقوط هذه
الامبراطورية ، تحت الأسرة العشرين ، الى الحكم الموزع بين الأقاليم
المستقلة فأخذت منطقة الدلتا تعيش فى الجو الاغريقى الذى كان ينتشر
حول شواطىء البحر المتوسط واتصل الصعيد ببلاد النوبة اتصالا
شديدا[1] وعاد الانقسام القديم بين الوجهين البحرى والقبلى الى
الظهور[2] • وظهر أثر كل ذلك فيما شهدناه من اتسام مصر السفلى
بالطابع الاغريقى ، وما نعلمه عن ظهور المدن المستقلة بها فى ذلك
الوقت[3] ، واعتقاد الأغارقة حينئذ والرومان من بعدهم أن الدلتا جزء
من آسيا وبقية مصر جزء من افريقيا ، وعدّ كتابهم الأسكندرية مدينة
منفصلة عن مصر ، واعتياد المصريين أنفسهم حتى العصر المسيحى التحدث
عن الدلتا حديثهم عن أرض أجنبية ، ثم ارتقاء النوبيين عرش مصر
وانتقال عاصمة البلاد على أيامهم الى مدينة نباتة ، واستقرارها
فى الأسكندرية حتى الفتح العربى • ونحن نلتقى تحت ملوك الفرس
بمصريين يعيشون فى بلاط صوس ويشتركون فى الجيوش الفارسية
ويقيمون فى اليونان ونعلم أن سكان المدن المصرية كانوا اذ دخل الاسكندر
مصر خليطا من أجناس مختلفة وخصوصا من الاغريق والفرس[4] •

وكانت النظم الدينية المصرية ، وهى وقتئذ من أهم مقومات الدولة ،
تسير هى أيضا فى طريق الانقسام والعالمية • ومعروف أن مصر القديمة
لم تصل فى سبيل التوحيد الدينى الى أكثر من الاتحاد الاقليمى الذى كان
يحققه اعتناق فرعون الدين الذى تؤمن به كل من الكنائس الاقليمية[5] •

(١) « تاريخ الأمة المصرية » .

(٢) وكان هذا الانقسام يؤدى الى الحرب أحيانا كما حدث
سنة ٧٣٠ ق•م بين ملوك الشمال وملوك الجنوب . انظر المقتطف عدد
سبتمبر واكتوبر سنة ١٩٤٧ .

(٣) كان بعض هذه المدن لايزال قائما فى نهاية العصر الفارسى .
ماليه : المرجع السابق .

(٤) « تاريخ الأمة المصرية » .

(٥) دريتون : مجلة القاهرة عدد يولية سنة ١٩٤٠ .

ولم تكن هذه الكنائس تتجه لذلك اتجاها قوميا يمتد الى المصريين ويترك من عداهم أو يفرق بين الناس بمقياس الجنس • وقد كانت مصر أول دولة حاولت أن تضم أطراف امبراطوريتها فى دين واحد بثورة اخناتون الدينية وكانت الكنائس المصرية أول كنائس بشرت بعقائدها فى بلاد أجنبية • ومعروف أيضا أن ارتداد مصر الى الحكم الموزع بين الأقاليم صحبه ارتفاع سلطان رجال الدين فى حياتها العامة حتى صاروا هم حكامها الفعليون فاستأثرت كنيسة طيبة بالعرش تحت الأسرة الواحدة والعشرين وظلت تستأثر به حتى نهاية العهد النوبى وكانت هى التى نقلت مقر الحكم الى نباتة وتوجت الفراعنة النوبيين[1] وكانت منافستها كنيسة منفيس [2] مصدر انتقاضات العهد الفارسى وسند الأسكندر والبطالمة • وكان المصريون ينزعون فى حياتهم من قبل ذلك نزعة دينية بارزة ويميلون الى عد من يدين بدينهم منهم [3] فزاد ارتفاع السلطان الدينى فى نزعتهم هذه ومال بالمجتمع المصرى للتحول الى مجتمع دينى يتجه فى تمييزه بين الناس الى عقيدتهم الدينية قبل كل شيء •

وقد صحب هذا التطور تحول اقتصادى واجتماعى لا يقل عنه غورا • فنحن نعلم أن اتصال مصر السفلى بدويلات آسيا الصغرى واليونان نشّط بها التجارة والصناعة والملكية الفردية [4] بينما بقيت مصر العليا على الزراعة ، ونعلم أن حروب مصر للاشوريين والفرس وانتقاضاتها عليهم ، حين دخلوها ، انتهت الى القضاء على الطبقة العسكرية فيها •

(١) « تاريخ الأمة المصرية » و « مصر المعاصرة » عدد سنة ١٩٣٥ •

(٢) Mahaffy : The Empire of the Ptolomies. (مهاقى : « امبراطورية البطالسة »)

(٣) دريتون : مجلة القاهرة عدد مارس سنة ١٩٤٣ • وهو يقول ما يأتى : « أساس القومية المصرية القديمة الدين وفضل المصريين على الشعوب الأخرى فى أنهم يطيعون الآلهة والاله هوروس على وجه الخصوص دون الشعوب الأخرى • ومن ثم كان الأجانب الذين يعيشون فى مصر ويعبدون آلهتها يحظون بنفس حقوق المصريين ويصلون الى ارفع المراكز » • وهذه هى العقلية التى اصبحت بعد ذلك عقلية المسيحية والاسلام •

(٤) ظهرت الملكية الفردية فى مصر قبل دخول الفرس • انظر « مصر المعاصرة » مجلد سنة ١٩٣٥ •

وآية ذلك اعتماد الفراعنة المتأخرين على الأغارقة فى جيوشهم[1] واندثار العزة القومية[2] واختفاء طبقة كبار أصحاب الأراضى الزراعية[3] • ونحن لا نعثر على ذكر لهاتين الطبقتين عند دخول الاسكندر مصر وتنصيب بطليموس بعد ذلك ولا علم لنا بأنهما اتصلا بغير كنيسة منفيس[4] التى لعبت الدور الأول فى هذه الحركة وكان رجالها يمثلون الارستقراطية المصرية الوحيدة حتى أيام البطالمة[5] •

ونحن نلمس فيما قدمنا تفككا سياسيا يخرج بالمصريين عن الوحدة السياسية التى عاشوا عليها منذ عهد مينا، يصحبه ارتفاع شاذ فى نفوذ رجال الدين بنزعتهم الاقليمية أو العالمية ، وتحول اقتصادى ، على الأقل فى مصر السفلى ، وآخر اجتماعى يشمل الوادى كافة ، فى الوقت الذى تشتد أثناءه هجرة الأغارقة الى الشرق ومصر بوجه خاص [6] وهم على

(١) يقول بعض المؤرخين ان بسماتيك اضطر الى الاستعانة بالاغريق فى حروبه اذ تركه رجال الجندية المصرية وهاجروا الى بلاد النوبة احتجاجا على سياسته الممالئة للاغريق • انظر ديودور • وليس بنا من حاجة الى ابراز أوجه الضعف فى هذه الرواية فليس من المعقول أن يترك جيش كامل بلاده ليقيم فى بلاد اخرى اللهم الا ان كان هذا الجيش زمرة مسلحة لا غناء فيها •

(٢) مهافى •

(٣) يقول شيب ان المصريين كانوا لا يذكرون حينئذ ماضيهم ولا يتطلعون الى عودة أيام تحتمس ورمسيس • ويلاحظ أن الآثار الباقية عن النزاع المصرى الفارسى تدور فى الغالب حول ما أصاب الآلهة المصرية على يد الفرس • Shape : History of Egypt under the Romans (شيب : « تاريخ مصر تحت الرومان ») •

(٤) فى تاريخ ديودور ذكر لمصريين Dolopasis و Petisis يقول هذا المؤرخ ان الاسكندر عهد اليهما بالادارة المدنية فى مصر وقد آثر أحدهما ترك منصبه واختفى الثانى بعد ذلك بقليل •

(٥) يقول يوسف الاسكندرى ان المصريين كانوا ينظرون الى قسسهم فى العهد البطلمى على أنهم ممثلوهم وحكامهم الحقيقيون • أنظر شيب •
ويقول بوشيه لكليرك ان المصريين كانوا حينئذ يفكرون تفكيرا دينيا وقد اتجه بطليموس اليهم من هذه الناحية واتصل بكهنتهم قبل كل شيء Bouché Leclerq : Histoire des Lagides. (بوشيه لكليرك : « تاريخ البطالسة ») •

(٦) شهدت مصر هجرة يونانية قوية خصوصا فى القرن الثالث ق . م . جوجيه •

ما رأينـا من انكار للقومية السياسـية ، وتسير الدول فى التحول الى امبراطوريات عالميـة لا يميز حكامهـا بين الشعوب الا بمقياس الولاء لشخصهم وتتجه الشعوب الى عبادة اله كبير واحد يكون الجالس على عرش هذه الامبراطوريات ممثله ، كما كان امبراطور الفرس ، أو ابنه ، كما كان الاسكندر من آمون ، أو هو نفسه ، كما كان أباطرة الرومان . ومن ثم كان انتشار الأغارقة فى مصر وبلاد الشرق الأخرى وبلوغهم فيها غايات ما كانوا بالغيها لو كانوا مثقلين بقومية ناضجة ، وكان ايغال مصر فى الجو الاغريقى ، وانتشار الفكر الدينى المصرى فى حوض البحر المتوسـط جميعه خصوصا بعد أن انتظمت شعوبه فى الامبراطورية الرومانية واعترفت هذه الامبراطورية بالدين المصرى دينا رسميا لها ، وكان أخيرا اتجاه هذه الشعوب جميعا الى الاندماج فى مجتمع واحد .

وقد ظهر هـذا المجتمع الجديد أول ما ظهر فى المـدن المبثوثة على شواطىء آسيا الصغرى وأوروبا الجنوبية وأفريقيا الشمالية وهى المدن التى كانت تتركز فيها حركة المبادلات التجارية بين الشرق والغرب وتختلط الشعوب القديمة بالشعوب الجديدة وتربو الثروة المنقولة باعثة حولها حياة اجتماعية خفيفة لا عهد للعالم القديم بها من قبل . وكانت هذه الحياة تستمد مضمونها الحضارى من حضارات هذه الشعوب جميعا ، وأوضاعها الاجتماعية من هذا الاقتصاد الجديد ، ولونها ولغتها من شبه الجزيرة اليونانية التى كانت تغذيها بالرجال وتجمع الى عهد الاسكندر خير ثمارها، ثم امتدت داخل هذه القارات فى العهد الفارسى وتحت الاسكندر[1] وخلفائه . كذلك كان هذا المجتمع يقتصر ، أول أمره ، على خاصة أهل المدن والأقاليم المتصلة بها . ثم جعل يتغلغل بين الطبقات التالية لها قليلا قليلا حتى كانت الامبراطورية الرومانية وجمعها شعوب البحر المتوسط فى حكم واحد وتسويتها بينها فى القانون العام بقانون كركلا والقانون الخاص بقوانين ديوكلسيان[2] ، ثم دخولها المسيحية اذ بلغ هذا المجتمع

(١) يقول سلمان حزين ان الشعوب القديمة عرفت منذ ظهور الاسكندر حيـاة عالمية جديدة بعد أن كانت تحيا متفرقة بعضـها عن البعض . وهو يلاحظ ان مصر كانت اسبق بلاد الشرق سيرا فى هذه العالمية فكانت حلقة الاتصال بين الشرق والغرب . مجلة الكاتب عدد ديسمبر سنة ١٩٤٦ .

(٢) Furlani: Studi Orientali XIV, 1933.

غايته . والطور الأول من حياة هذا المجتمع هو ما يدعوه المؤرخون بالهلينية (Hellenisme) ويميزون باسمها هذه الحضارة المختلطة التى كانت تغشى شواطىء البحر المتوسط بين ظهور الاسكندر[1] وقيام الامبراطورية الرومانية وتتركز فى مدن اليونان أول الأمر ثم تنتقل الى الأسكندرية عاصمة هذا العالم الى ما بعد أغسطس[2] . أما الأطوار الأخرى فتختلط بتاريخ الامبراطورية الرومانية والامبراطورية المسيحية من بعدها .

وقد سبق أن رأينا كيف كانت مدن الدلتا تشترك فى حيـاة هذا المجتمع العالمى وكيف كان الفراعنة المتأخرون يشجعون اتجاهها هذا . ونحن نعلم أن خاصة المصريين كانت تشترك فيها أيضا[3] كما كان رجال الدين منهم يتقنون الاغريقية ويعرفون الفـكر اليونانى قبـل دخول الاسكندر[4] . ولعلنـا نستطيع أن نقرب الى تصورنا هـذا المجتمع الغريب متى نظرنا الى الشعوب التى تتكلم العربية الآن وتأملنا شعورها بوحدتها أو ذكرنا ما كنا نلحظه الى وقت قريب فى الغرب والشرق على السواء من قيام مثل امبراطورية ثقافية فرنسية تجمع بين المثقفين بالثقافة الفرنسية ولو لم يكونوا من أصل فرنسى فى جو فكرى واحد .

وقد أقبل الاسكندر[5] على مصر بعد أن تحول وجهها ووجه العالم على الشكل الذى رأينا بعقب انتصاراته على خصومها وخصومه من الفرس وحج الى سيوة وهى فى ذلك الوقت كعبة شعوب البحر المتوسط جميعا فشهر

(١) وقد رأينا بعكس ذلك أن الموجة الاغريقية كانت منتشرة فى الشرق قبل الاسكندر .

(٢) Butcher: The story of the church of Egypt. (بتشر «تاريخ الكنيسة القبطية ») .

(٣) يتضح ذلك من آثار تونا الحجر .

(٤) كان يتقنها ايضا مانتون وهو من معاصرى الحكم العجمى وبطليموس الاول .

(٥) كتب لنا بلوطارخ سيرة الاسكندر فى كتابه عن عظماء العالم القديم كما كانت تأثرها مصادر عصره . وهذه السيرة وان كان يغلب عليها طابع الخرافة فهى تبين مبلغ تأثر اليونان بالفكر المصرى أو مبلغ اعتقاد اليونان حتى أيام بلوطارخ فى تأثرها به . ومؤدى السيرة أن والد الاسكندر كانت من المولعات بعبادة آمون (وكان آمون يعبد حينئذ فى معبد Dortane باليونان

كهنتها بنوته لآمون ونصبوه على عرش مصر بحق هذه البنوة [1] ثم عاد الى منفيس فوزع السلطة بين رجاله وبعض المصريين [2] وانصرف الى التمكين لحملة آسيا واعداد وسائل الدفاع عن البلاد ومنها تخطيط الاسكندرية الى جانب راقورة المدينة المصرية القديمة [3] .

حيث أقام له بندار تمثالا كبيرا كما كان زيوس يعبد فى معبد سيوه وكان اليونانيون يحجون الى هذه الواحة منذ قرون مثلهم مثل شعوب البحر المتوسط الأخرى . أنظر فيجل وماسبيرو) رأت ليلة زفافها فيما يرى النائم روح آمون وقد سلكتها فى صورة صاعقة رهيبة فوقع فى نفسها ان الاسكندر ابنها من هذا الاله وليس من فيليب زوجها (وكانوا يعتقدون حينئذ أن النساء يستطعن أن يحملن من روح الآلهة وقد انتقلت هذه الفكرة الى المسيحية فكان سان ترتوليانو يعتقد أن مريم العذراء حملت من شعاع نور ربانى ولج أذنها) وعلم فيليب بذلك فثار له وجعل يتجسس على زوجه ويرسل الرسل الى معبد دلفى بغية التثبت من أمره الى أن شهدها تضاجع ثعبانا فظن أنه آمون بالذات .

وقد قامت أولمبيا على تربية الاسكندر تربية دينية بعيدا عن والده وارادت له أن يكون كاهنا لآمون واستطاعت أن تؤثر فى نفسه رغم ما حاوله والده بعد ذلك من تقويمه مستعينا بأرسطو اذ لم تمتد صحبة الاسكندر لأرسطو أكثر من عامين . أنظر فيجل : « الاسكندر » .

(١) كان التنصيب الدينى يعطى حينئذ من يناله الملكية الشرعية لدى جميع الشعوب . بوشيه لكليرك .

(٢) يقول ماسبيرو ان الادارة بقيت مصرية فى عهد الاسكندر كما بقى حكام الأقاليم مصريون ويقول ديودور ان الاسكندر غادر مصر الى سوريا ومعه كل جيشه . كذلك يقول بوشيه لكليرك ان الاسكندر لم يتخذ احتياطات ما من المصريين وكان كل همه متجها الى تجنب العبث بالسلطة او خيانة من اعطى لهم الحكم له وقد ركز الحكم المدنى فى يد المصريين Dolopasis و Petisis والمالية فى يد Cleomene وكان من أهل بقراطيس . « تاريخ البطالمة » .

(٣) يقول مهافى ان الاسكندرية اقيمت لتموين جيوش الاسكندر وتأمين مؤخرتها خصوصا من الغدر الاغريقى وكان غالب أهلها اذ نشأت من المصريين واستمر عددهم فى الارتفاع حتى كانت الاسكندرية التى وقفت فى وجه قيصر تكاد تكون مصرية خالصة . أما راقورة فكانت قبل قيام الاسكندرية مدينة دينية تتكون من ١٢ قرية وتضيف حامية صغيرة وقد احتفظت بأهميتها الدينية هذه حتى بعد أن صارت جزءا من الاسكندرية فكانت تضم معابد المدينة وعلى رأسها معبد سرابيس الضخم .

ومات الاسكندر فتحطمت الامبراطورية التى أقامها دون أن تتحطم الوحدة الاجتماعية التى كانت من بواعثها والتى بقيت الصلة الوحيدة بين شعوب اليونان وآسيا الصغرى ومصر وايطاليا الجنوبية والأساس الذى اتخذته الدول التى تخلفت عن تلك الامبراطورية فى الشرق وعلى رأسها دولة البطالمة . وقد خلف بطليموس الاسكندر فى مصر بمقتضى ميثاق [1] تعهد فيه لكهنة منفيس برد الأملاك التى سلبها الفرس اياهم وذود خطرهم عن البلاد وسعى طوال حياته كما سعى الاسكندر من قبله لإيلاف المصريين وهو سعى نشهد بعض آثاره فى كتابات [2] مانتون ومعبد بتزوريس وعبادة سرابيس[3] والمعابد التى أقامها البطالمة لآلهة المصريين [4] . وكان عدم استناد البطالمة الى دولة قوية خاصة بهم

وقد وجد الدكتور بوتى فى منطقة عامود السوارى وهى المنطقة التى كانت تقوم عليها راقورة آثارا ترجع الى عهد رمسيس الثانى وتدل على سابق وجود مدينة للموتى ومعبد لايزيس وجدت له صورة على قطعة نقد من العهد الرومانى . والظاهر من هذا هو أن قيام الاسكندرية على يد الاسكندر كان من قبيل قيام الفسطاط على يد عمرو بن العاص والعباسية على يد عباس ومصر الجديدة على يد شركتها أى ان المدينة الجديدة لم تكن فى الحقيقة غير حي جديد قام لأغراض عسكرية الى جانب مدينة قائمة فعلا . ويلاحظ ان المصريين كانوا يدعون الاسكندرية راقورة حتى آخر العهد المسيحى . Botti : Plan du quartier Rhacotis dans l'Alexandrie romaine.

ويقول بريتشا ان الاسكندرية لم تصبح المدينة المعروفة الا فى عهد بطليموس الرابع . Breccia : Guide de la ville et du Musée d'Alexandrie

كذلك يقول سترابون ان بطليموس كان يقيم بحصن الاسكندرية أو راقورة سابقا .

(١) عثر فى القاهرة سنة ١٨٧١ على نص الوثيقة التى نصّب بها بطليموس ، وهى تستفتح بذكر هوروس وايزيس وأوزيريس ثم تشيد بشجاعة بطليموس وانتصاره على العجم ثم تأتى على الشروط التى قبلها بطليموس ومنها تعهده بالخضوع لقوانين البلاد ورد أملاك كنيسة منفيس اليها . بوشيه لكليرك : « تاريخ البطالمة » .

(٢) وكانت هذه الكتابات التى نستطيع أن نرتفع بها الى هيرودوت و Hecatée de Milet ترمى الى الرجوع بالشعوب جميعا الى جنس واحد كما فعلت المسيحية والاسلام بعد ذلك . وقد وضع Hecatée d'Abdère. تاريخا لمصر جعل فيه مقدونيا ، ملك مقدونيا ، ابنا لأوزوريس وأخذ ديودور عنه ذلك . أنظر ديودور .

(٣) كان عدد معابد هذا الاله فى مصر لا يزيد على ٤٢ معبدا بينما كان عددها فى الامبراطورية الرومانية يزيد على أضعاف ذلك .

(٤) مهافى .

يستمدون منها القوة [(١)] أو يضطرون الى مراعاة مصالحها أو يتأثرون بتقلباتها السياسية على أى شكل ، كما كان يستند الاسكندر على مقدونيا ، يساهم وتجردهم من كل عقيدة دينية أو حضارة خاصة فى دفعهم دفعا الى مواصلة العمل على التقريب بين المصريين والاغريق تقريبا بلغ بهؤلاء فى القرنين الثانى والأول ق • م[(٢)] حد الفناء فى جيل اغريقى مصرى جديد [(٣)] يذكرنا بما حدث بعد ذلك فى مصر نفسها من امتزاج الترك والشراكسة بالمصريين رغم مابين العنصرين من تنافر لا وجود له بين العقلية المصرية وعقلية شعوب البحر المتوسط الأخرى • وهذا الجيل هو الجيل الذى شهد الحكم الرومانى وحمل رسالة المسيحية •

ونحن نلمس بعض آثار هذا الاتجاه الجديد لعلاقات مصر بالعالم الاغريقى فى شيوع التزاوج بين الجنسين واقبال يونانى ذلك العصر على اتخاذ الأسماء المصرية والمصريين على اتخاذ الأسماء الاغريقية حتى يصير من المستحيل أن يميز الانسان المصريين من الاغريق بأسمائهم منذ منتصف القرن الثانى ق • م[(٤)] • كذلك نلمسه فى غمر العنصر المصرى ما عداه

---

(١) من المعروف أن مقدونيا كانت مستقلة عن البطالمة وان هؤلاء كانوا يعتمدون على المرتزقة من اليهود والفرس والبلقانيين ولا يتورعون عن الاعتداء على اليونان ومحاربة الممالك الأغريقية الأخرى فى الشرق فى سبيل مطامعهم . Bevan : A history of Egypt under the Ptolomy Dynasty
(بيفان « تاريخ مصر تحت البطالمة ») •

(٢) بيفان ودائرة المعارف الايطالية .

(٣) يقول ماسبرو ان المصريين كانوا سائرين الى اليونانية كما ساروا الى العربية بعد ذلك J. Maspero : Histoire des Patriarches d'Alexandrie
(« تاريخ بطاركة الاسكندرية ») .

(٤) بيفان . ويظن جوجيه أن أغريق المدن الأغريقية فى مصر كانوا يمنعون من الزواج من المصريين ولكنهم كانوا يستطيعون التزوج من الأغريق القائمين خارج مدنهم وكان هؤلاء يستطيعون التزوج من المصريين، « تاريخ القانون العام المصرى القديم » • ونحن نريد أن نلاحظ هنا عابرين أن هذا الكاتب لا يقطع بأن أغارقة المدن كانوا يستطيعون التزوج من الأغارقة الذين لا يتبعون مدينتهم وهو دليل آخر على ما سبق أن بيناه من أن الأمر لم يكن حينئذ أمر أغريقيين وغير أغريقيين بل أمر التبعية لمدينة معينة . وفيما يذكره فوستيل دى كولانج عن ان الأصل فى المدن الأغريقية والايطالية المستقلة أن لا يتزاوج اهلها فيما بينهم ما يثبت رأينا هذا .

فى الأسكندرية على أيام يوسف [illegible] سكندرى [(١)] ، واقدام بطليموس التاسع [(٢)] على منح المصريين حقوق [illegible]سكندريين الأصليين ليملأ بذلك الفراغ الذى كان يتركه تناقص هؤلاء ، ثم انخراط الاغريق فى سلك الكهنوت المصرى ، وعبادة[(٣)] آلهة اليونان فى المعابد المصرية ، وعلو كلمة الكهنوت المصرى علوا ينم عليه انتقال مجامعهم الى منفيس بعد أن كانت تنعقد بالأسكندرية ، واضطرار الملوك الى السعى اليهم بعد أن كانوا هم الذين يسعون الى بلاطهم ، واشتراك هذا الكهنوت فى جميع الأعمال الهامة[(٤)] ، ثم اتسام شعائر البلاط البطلمى بالطابع المصرى اتساما بارزا[(٥)] ، وعودة الروح العسكرية المصرية الى الظهور بانتصار رفح[(٦)] ، وامتزاج الفن الاغريقى بالفن المصرى فى معابد ذلك العهد ، كمعبد كوم أمبو ، [(٧)] ثم ظهور المصريين فى الحياة السياسية أيضا مثل بتوزرابيس [(٨)] الذى حاول خلع ارفيجيت وأخيه والاستئثار بالملك دونهما واستطاع أن يثير الأسكندرية عليهما فى سبيل ذلك ، واكيلاس الذى قاد حركة المقاومة للنفوذ الرومانى وكان أول من سعى قيصر الى التخلص منهم [(٩)] • وقد حدا ذلك بالمؤرخين الذين كتبوا فى ذلك العصر الى الاجماع على القول بأن البطالمة لم يغيروا فى حياة مصر شيئا يذكر فبيفان يقول ان العهد

---

(١) ويوسف الاسكندرى يتهم المصريين باثارة العداء بين اليهود والاغريق فى الاسكندرية .

(٢) عهد بطليموس التاسع هو العهد الذى زار فيه بوليب مصر وكتب يقول انه وجد المصريين أكثر حضارة من أغريق الاسكندرية .

(٣) بوشيه لكليرك : « تاريخ البطالمة » .

(٤) Letronne: Recherches pour servir à l'histoire d'Egypte.
(لترون: « أبحاث فى تاريخ مصر »)

(٥) من ذلك ان حفلة تتويج البطالمة كانت تتلخص فى ان يسير الملك حاملا على رقبته نير ثور يقوده أحد كهنة ايزيس وأن البطالمة كانوا يتزوجون من أخواتهم كالفراعنة . لترون ومهافى وبفان .

(٦) مهافى •

(٧) كان الاغريق والرومان يزينون منازلهم بالمناظر المصرية ويخصصون فيها قاعات يدعونها بالقاعات المصرية ونحن نجد اوصافا لمصر فى كتب فيرجل وسترابون وبوليب وقيصر وسنيكا •

(٨) ديودور ومهافى .

(٩) بوشيه لكليرك .

البطلمى لا يعدو أن يكون ثمرة اختلاط الفكر المصرى بالفكر الاغريقى ، وربيو[1] يرى أن هذا العهد ليس الا مرحلة جديدة من مراحل الحياة القومية المصرية ، ولترون يعتقد أن مصر لم تتغير بعد الفراعنة الا بالمسيحية ، وشامبليون فيجيل يؤمن بمثل هذا الرأى .

ولم يكن الأمر بين شعوب شرق البحر المتوسط الأخرى يختلف وقتئذ كبير الاختلاف عما كان عليه فى مصر فقد كان كتاب الأسكندرية ، كما نعلم ، فى الغالب ، غير اغريقى الجنس وان كانوا اغريقى اللغة والتفكير[2] ، وكان حكام الشرق غير اغريقى الجنس وان كانوا اغريقى اللغة والأسلوب ، وكان أكبر حام للهيلينية من اعتداء الرومان وهو ميتريدات عجميا « متهلنا » ان صح هذا التعبير . ونحن نعلم أن روما أيضا كانت سائرة فى ذلك الوقت بالذات فى التأثر بالحياة الاغريقية تأثرا شديدا كان الرومان يقرون به بالجملة المأثورة «Graecia capta, Romam coepit» أسرت اليونان الأسيرة روما ومن ثم كان النحو الخاص الذى نحته علاقة مصر بروما تحت قيصر وانطونيو وأغسطس . فقد بدأت هذه العلاقة بوصية [2] يهب بها بطليموس اسكندر الثانى ملكه الشعب الرومانى وهو نوع من الوصيات كان منتشرا وقتئذ

(١) أنظر ايضا : J. Maspero: Les finances egyptiennes sous les Lagides.
Rabiou: Mémoire sur l'économie politique, l'administration et la législation de l'Egypte au temps des Lagides. Champollion-Figeac: Annales des Lagides.

(٢) كان أكبر كتاب الأغريقية فى العهد الرومانى أيضا وهم Cheron, و Atheneus و Pollux من نقراطيس وقد كتبوا عن مصر وكهنتها . بتشر . وكان بلوطارخ وقد عاش فى العهد الرومانى يعمل لتوطيده .

(٣) كان عهد بطليموس اسكندر الثانى هذا عهد تنازع ميتريدات وروما السيطرة على البحر المتوسط وكان ميتريدات يملك آسيا الصغرى واليونان ومقدونيا فأبحر اليه القنصل الرومانى سيلا ولكنه لم يستطع الغلبة عليه فبعث الى الاسكندرية مستنجدا فرفض البطالمة معونته لخوفهم من ميتريدات وشكهم فى قدرة روما على الوقوف فى وجهه .
وقد ادى تردد البطالمة بين روما وميتريدات الى حقد الجانبين عليهم حقدا انتهى بميتريدات الى خطف بطليموس اسكندر الثانى وهو طفل ونقله الى بلاطه ومحاولة تربيته على كره روما ولكن بطليموس فر من الأسر وذهب الى سيلا فنقله سيلا الى روما حيث وضع وصيته المشهورة ثم أرسله الى الاسكندرية فى سنة ٨٠ق . م . وكانت تجلس على عرش

فى الشرق والجمهورية الرومانية . وتبع ذلك اشتراك كليوبطره فى الحرب التى كانت تدور بين الأحزاب الرومانية على حكم الامبراطورية الرومانية بأسرها كحليفة لبعض زعمائها . وأخيرا ولى أغسطس شؤون مصر دون أن يشعر أهلها بتغيير ما اذ لم يكن الأمر يعدو فى النهاية تغيير شخص الجالس على العرش[1] .

وقد سبق أن رأينا كيف كان الاغريق لا يتصورون الدولة الا فى شكل المدينة القائمة بذاتها . ونحن نعلم أن الرومان بدأوا مثلهم ثم اضطروا تحت ضغط الشعوب اللاتينية الى مد حدود دولتهم ومنح حقوقها السياسية والمدنية هذه الشعوب . وقد انتهجوا نفس هذه السياسة مع الشعوب التى ضمتها امبراطوريتهم بعد ذلك فى عهد كركلا[2] حتى امتدت آثار الاختلاط الذى شهدناه الى دائرة الحكم

مصر وقتئذ الملكة برنيس فتزوج منها وحكم معها حينا ثم ثار الاسكندريون عليه وقتلوه فذاع أمر وصيته . وقد سارعت الحكومة الرومانية بعد وفاته الى وضع يدها على الثروة الضخمة التى كان يملكها وتمهلت فى وضع يدها على ملكه أيضا لانشغالها حينئذ بخلافاتها الداخلية وعدم رغبتها فى اثارة حرب جديدة ثم خشية الأحزاب الرومانية مما قد يؤدى اليه أخذ مصر من الميل بكفة النزاع القائم وقتئذ حول حكم الامبراطورية الى هذا أو ذلك الجانب وهكذا استطاع أوليت أن يعتلى العرش وأن يتركه لكليوبطرة من بعده .
وكان قيصر من الراغبين فى الاستيلاء على مصر والانتفاع بمواردها فى التسلط على روما فأثار مسألة وصية بطليموس واوعز الى اعوانه بتقديم مشروع قانون يعهد له بحكومة مصر . ولكن المعارضة رفضت المشروع فأوعز قيصر للقنصل رولوس بتقديم قوانينه الاجتماعية المشهورة وهى القوانين التى كانت تقضى بتمليك اهل روما الأراضى الايطالية ومصر ولكنه لم يفلح فى هذه المحاولة أيضا وبقيت الحال على ما كانت عليه حتى انتخب قيصر قنصلا فاستطاع أوليت أن يرشيه هو وبومباى بمبلغ ضخم وان يحمله على دفع مجلس الشيوخ الى الاعتراف به ومحالفته ثم كان ما كان من مجىء قيصر مصر متعقبا بومباى واتصاله بكليوبطرة ومقتله فى روما . نشرة معهد مصر الجزء الواحد والعشرون ١٩٣٨ – ١٩٣٩. Volterra: Le testament de Ptolémé Alexandre II, Roi d'Egypte.

(١) دائرة المعارف الايطالية . وقد دخل أغسطس الاسكندرية والى جانبه الفيلسوف اريوس الاسكندرى وخطب فى اهلها مؤكدا انه لن يمس حقوقهم . شيب .

(٢) كانت الحكومة الرومانية تمنح قبل ذلك جنسيتها بصفة شخصية من يعمل فى القوات العسكرية أو يقوم لها بخدمات خاصة وكانت تشترط على المقيمين فى مصر حتى حين كانوا أغريقيين أن يحصلوا على جنسية

أيضا . ونحن نشهد أثر هذا الامتداد فى اتجاه قيصر وأغسطس الى اقامة ملكية عالمية وتنصيب الاسكندرية بعد ذلك فسبسيان[1] امبراطورا ثم تنصيب انطاكية أدريان واقامة أدريان هذا فى مصر أربع سنوات تباعا [2] ومنح سيفيرو الاسكندرية مجلس شيوخ كمجلس روما وفتح كركلا [3] هذا المجلس الأخير للمصريين ثم اعتناقه ديانة ايزيس واقامته معبدا لها فى روما [4] .

وقد ظهر بعد كركلا على عرش الامبراطورية الرومانية أباطرة شرقيون فكان[5] ماكرينو المصرى وفيروس السورى وستميو سيفيرو

الاسكندرية أولا . وقد قام خلاف بين المؤرخين حول تطبيق قانون كركلا على مصر وتصدى لهذا الخلاف الأستاذ جوجيه فى بحثه فى تاريخ القانون العام المصرى القديم وانتهى الى الجزم بأن الجنسية الرومانية منحت فى مصر لأهل المدن واهل الريف على السواء .

وتقول دائرة المعارف الايطالية ان كركلا اراد بقانونه الى معالجة الأزمة المالية التى كان يواجهها وقتئذ واستمالة اهل الأقاليم ضد الارستقراطية الرومانية التى كانت تناوئه . وقد ابتدا حينئذ النزاع بين القانون الرومانى التى كانت الامبراطورية تطبقه والقوانين الشرقية التى كانت تعمل بها الشعوب الشرقية وتسربت هذه القوانين الى روما خصوصا فى القرن الرابع . انظر : Furlani المرجع السابق و Revillout : Les origines égyptiennes du droit civil romain و Précis de droit égyptien .

وفولترا يعارض هذا الرأى فى تعصب ظاهر للقانون الرومانى يضعف من حججه . انظر : Volterra : Diritto romano e diritti orienrali

(١) نصبت الجمعية العمومية لمدينة الاسكندرية فسبسيان امبراطورا سنة ٦٩ ميلادية بعد ان بايعه العسكر فى أنحاء الامبراطورية وفى هذا التنصيب ما يشعر بأن الاسكندرية كانت تدعى لنفسها حقوق مدينة روما . ويلاحظ أن الصيغة التى استعملت فى تنصيب فسبسيان تشير الى الاسكندر الأكبر ابن آمون كالمصدر الذى يستمد منه الامبراطور الجديد سلطته .

وقد زار فسبسيان بعقب تنصيبه معبد سيرابيس وسأل آلهته عن مستقبله وشفى بعض المرضى بأعجوبة من صنعه . نشرة معهد مصر الجزء الرابع والعشرون سنة ١٩٤٢ .

(٢) بتشر .

(٣) انظر شيب . وكان هناك قبل ذلك عضو مصرى فى مجلس الشيوخ الرومانى . ويلاحظ ان كركلا كان من ام سورية وكانت بنت رئيس كهنة الشمس فى سوريا . انظر بتشر .

(٤) وقد اقام دوميسيان ايضا المعابد لايزيس فى روما ومدن الغرب .

(٥) كان ماكرينو يشغل مركز مقدم الحرس الامبراطورى ويعد كبير مستشارى الامبراطور فالريان قبل ن يصير امبراطورا وكان بطريرك الاسكندرية ديونيسوس يدعوه بالساحر الأكبر لأنه كان ينحدر من عائلة

الافريقى وأتى أورليانو بعد ذلك فجعل من عبادة ايزيس[1] دين الدولة وأقرها فى روما بنظمها المصرية [2] .

وكان المصريون يذهبون وقتئذ الى روما كهنة وأطباء[3] وصناعا

دينية قديمة ويتمسك بالعبادة المصرية ويحرض الامبراطور على المسيحيين وقد اضطهدهم بعد ذلك فعلا اضطهادا شديدا . بتشر .

(١) يقول شيب ان صورة مريم أخذت من صورة ايزيس . كذلك حرق البخور أمام المذبح أخذ من المعابد المصرية . وهو يضيف الى ذلك أن عبادة ايزيس كانت منتشرة فى ايطاليا من قبل وقد قررت حكومة روما فى سنة ٥٣٥ من تأسيس المدينة هدم معبد لايزيس كان قائما بها ولكنها لم تجد عمالا يقبلون القيام بذلك حتى اضطر القنصل فالير الكبير أن يكسر الباب بنفسه . وقد أعاد قيصر بعد ذلك عبادة ايزيس ثم أتى أغسطس فمنع اشهار الطقوس الدينية المصرية عموما بروما وظواهرها دون جدوى .

(٢) ونحن نقرا فى تاريخ أوروبا لفيشر ما يأتى :

« ويقول Dean Inge فى الحديث عن هذه العبادة (عبادة ايزيس) انها كانت منظمة تنظيما يشبه الى حد بعيد طقوس الكنيسة الكاثوليكية فكان القسس والكهنة والمنشدون والمصلون يلتفون حول قسيس كبير يعادل البابا وكانت دمى العذراء تزين وتتوج بالجواهر الصحيحة والمزيفة وكان القسس يصلون لها صلاة الفجر والمغرب فى معابدها الرئيسية بعد أن يحلقوا رؤوسهم ويرتدوا ثيابا من الكتان الأبيض » . فيشر : «تاريخ أوروبا» .

وقد افتتح فى سنة ٣٨ ميلادية فى ميدان مارس بروما معبد لايزيس وانتشرت عبادة هذا الآله بعد ذلك حتى يقول بعض الكتاب انها نافست المسيحية . Storia delle religioni. طبعة تورينو سنة ١٩٣٤ .

وبلين يقول أيضا ان سوسيجين المصرى هو الذى اصلح تقويم روما فى عهد قيصر . ويرى بعض الكتاب أن هذا الاصلاح كان يحمل اثر العقائد المصرية خصوصا أعياد أوزيريس وهى الأعياد التى كانت تقام فى الاسكندرية وتمثل وفاة اوزريس ثم نشوره ولا يزال يحتفل بها الأقباط فى عيد الغطاس وتحتفل بها المذاهب المسيحية الأخرى جميعا الى اليوم . أنظر نشرة معهد مصر الجزء الحادى والعشرون ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ .

وكانت نقود الامبراطورية الرومانية تحمل شعار ايزيس حتى عهد قسطنطين . فيشر : المرجع السابق .

(٣) وقد طلب بلين الشاب الجنسية الرومانية لطبيب عينه المصرى . ويقر كثير من الكتاب الأقدمين بشهرة مصر الطبية فيقول جاليان ان الاغريق كانوا يراجعون على أيامه كتب معبد امحتب ومنفيس وان داريو ملك الفرس كان يحيط نفسه بأطباء مصريين . كذلك يقول بلين ان الأطباء المصريين غالبا ما كانوا يدعون الى روما لمعالجة وجهائها وقد عرف العالم الطب المصرى عن طريق الاغريق والقبط ثم العرب . والوثائق القبطية الباقية لدينا تدل على أن التقاليد العلمية فى مصر لم تنقطع بين العهد الفرعونى والمسيحى وانها انتقلت الى الأديرة بعد ذلك . نشرة معهد مصر الجزء الأول سنة ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ .

كذلك كان يرحل اليها كثير من الشرقيين وخصوصا السوريين • ونحن نعلم أن Ulpien و Papinien رئيسى المدرسة القانونية الرومانية فى القرن الثامن ، كانا أسيويين ، وأن Pollux و Apion و Chireon و Plotio و Appian و Athaenus و Dyscolus كانوا من أصـــــل مصرى [1] وأن كبـــار مستشارى الأباطرة كهيرودوت الكبير وهيرود أجريبا كانوا شرقيين[2] •

وقد مهد كل هذا لانتشار المسيحية[3] واتخاذها الوضع العالمى التى كانت عبادة ايزيس ثم الحضارة الهلينية والامبراطورية الرومانية من بعدها قد ألقت بذوره • وبانتشار المسيحية غلب الطابع الدينى على حياة الشعوب الخاصة والعامة جميعا فكانت فلسفتها وثوراتها وحروبها

(١) وقد حمل هذا بعض الكتاب الرومانيين على القول بأن الشرق كان يصب ماءه فى التبرى ، نهر مدينتهم • وباريتو يقول ان أهل الامبراطورية الرومانية كانوا حينئذ شرقيين • Pareto : Principii generali di sociologia (باريتو : « المبادىء العامة لعلم الاجتماع ») •

كذلك يقول شيب : « وقد قامت مصر بدور كبير فى تكوين فكر أوروبا الحديثة ودينها وفلسفتها وعلومها » .

(٢) كان هيرود اجريبا صديقا حميما للامبراطور كليجولا وهـــذه الصداقة تفسر الى حد بعيد اهتمام هذا الامبراطور بالأمور الدينية ورغبته فى اقامة تمثال لنفسه بمعبد القـــدس ودعوته اليهـــود الى عبـــادته . Renan : Les Apôtres (رنان : الرسل ») •

وقد صاحب ابن هيرود الامبراطور كلود بعد ذلك وكان يقيم بقصرة فى روما •

ويلاحظ رنان على ذكر هذه الصداقة بين اباطرة الرومان وامـــراء الشرق ان هؤلاء الأمـــراء كانوا يترددون على روما ويؤثرون فى حياتهـــا الاجتماعية والسياسية تأثيرا عميقا حين كانوا لا يثورون عليها ويقاتلونها كما فعل الأمير العربى حارث باستيلائه على دمشق ودحره الرومان تحت اسوارها فى عهد كاليجولا • رنان : المرجع السابق •

(٣) يقول رنان فى كتابه « الرسل » ان المسيحية تدين بفكرة الخلود للفلسفة اليونانية وفكرة تكون الانسان من عنصر فان وعنصر خالد للفكر المصرى • وهو يضيف الى ذلك ان المسيحيين اخذوا نظام الأديرة من مصر حيث كانت تقوم اديرة عديدة للذكور والأناث خصوصا حول منفيس •

وقد انتشرت المسيحية أول ما انتشرت بين اليهـــود « المتهلنين » وكان يكثر بينهم المصريون والسوريون وذلك لأن اليهودية كانت آخـــذة فى الانتشار حينئذ بين غير اليهود أيضا ولأن مبشرى المسيحية الأولين كانوا يقصرون دعوتهم على الشيع التى تزاول الختان •

ويقول بتشر ان Celsus كان يتهم اليهود بأخذ أفكارهم من الكتب المصرية وكان الذى فند اتهامه هذا هو العالم المصرى اورجانس •

فلسفة وثورات وحروبا دينية [1] وكان أئمتها فى هذه الميادين جميعا شرقيين ومصريين على وجه الخصوص فكان أكبر فلاسفتها الأولين أورجانس[2] مصريا وصاحب أخطر فرقها الأولى أريو مصريا وأشهر أبطالها الأولين كانستاس[3] وكيرلس وشنودة والآباء أنطون وآمون وباخوم وبنيامين وبول والياس مصريين[4] •

وهؤلاء المسيحيون الجدد يخاصمون أعداءهم فى الدين كما يخاصمهم هؤلاء خصاما شـــديدا ولو كان الجميع أبناء جلدة واحـــدة فيضطهد الامبراطور ماكرينو المسيحيين المصريين كما لم يضطهدهم امبراطور من قبله وهو مصرى ويعتدى مسيحيو الأسكندرية على معابدها جميعـــا وهى معابد تركها لهم آباؤهم ويقفل البطريرك تيوفيدس[5] أكبر هذه المعابد وهو معبـــد سيرابيس بيده وهو مصرى ويخرب شنودة معابد أخميم ليبنى بحجارتها اديرته [6] •

وزعماء هؤلاء المسيحيين يتمتعون بنفوذ لا يعرف بدوره الحدود الاقليمية أو القومية فالامبراطور تيودور يوجه الى يوحنا الأسيوطى داعيا اياه لزيارته فيرفض الراهب الزيارة فلا ينكر الامبراطور منه ذلك

(١) ماسبرو «تاريخ بطاركة الأسكندرية» و Diehl : L'Egypte Chrétienne et Byzantine. (ديهل : « مصر المسيحية والبيزنطية ») •

(٢) درس اورجانس العبرية ليقرأ التوراة بلغتهـــا الأصلية وطـــاف بايطاليا والبلاد العربية متعلما ومبشرا •

(٣) يقول شيب عن انسطاس انه كان اكبر شخصية عرفها عصره .

(٤) يقول بتشر ان تاريخ المسيحية فى القرون الخمسة الأولى هو تاريخ الكنيسة القبطية .

ويقول Warrin مؤلف كتاب « Liturgy and Ritual of the Celtic Church » ان البناء الدينى الأرلندى يشبه الى حد كبير البناء القبطى وان بايرلندا مقبرة لسبعة رهبان مصريين • و Ledwich يدلل على أن الذين بنـــوا Clastonbury قلدوا البناء القبطى الى حد بعيد وهو يجـــزم بأن قانون الأديرة المصرية كان معمولا به فى اديرة بلاد الشمال: Butler : The ancient coptic churches of Egypt.

(٥) كان تيوفيدس من منفيس • بتشر •

(٦) اقرأ وصف هذا التخريب فى « حياة شنودة » لاميلينو •

وكان شنوده لا يذكر الفراعنة الا ماثلا بهم كما كان يفعل معاصروه ويفعل المسيحيون جميعا أسوة بالتوراة • واميلينو يقول أن شنوده كان يحكم مقاطعة اخميم جميعا حكما مستقلا وهو الذى استطاع أن يرد عنها قبائل البدو بعد عجز الامبراطور عن ذلك. Amelineau : La vie de Chenouda.

ويبعث اليه من جديد راجيا أن ينبئه بما ينتظره فى الحرب التى كان مقبلا عليها حينئذ .[1] ثم يكتب لشنودة قائلا أنه يقدسه وان شيوخ الامبراطورية يريدونه بينهم ويبعث اليه من يحمله الى القسطنطينية . ورهبان القسطنطينية يستجلبون من مصر عظام شهدائها ويتبركون بها . وبطريرك الاسكندرية ديوسكور يخلع بطريرك القسطنطينية رغم مناصرة الامبراطور له ويعين أحد أتباعه مكانه[2] . وامبراطورة القسطنطينية العتيدة ديودورة تكتب الى حاكم طيبة المصرى هوريون راجية اياه العمل على نشر مذهبها فى مقاطعته[3] . وجوستنيان القدير يعطى بطريرك الاسكندرية المصرى بيرا السلطة على حاكمها اليونانى[4] . وقد كان أسقف رافنا وأعوانه بين سنة ٣٩٦ وسنة ٤٣٥ شرقيين وكان أسقف باريس فى سنة ٥٩٦ شرقيا وكان الجالسون على عرش البابوية نفسها حول ذلك العهد وطوال قرن ونصف قرن شرقيين[5] .

* * *

وقد قدم عمرو بن العاص مصر فى القرن السابع وأهلها خليط[6] من الروم والقبط والنوبة أى من الشعوب التى صهرتها المسيحية فى أتونها

(١) أميلينو : « حياة شنودة » . ويقول بتشر ان زوجة هذا الامبراطور ايوديسيا كانت تعطف على شاعر مصرى يدعى سيرو وكان سيرو هذا من اخميم واقام فى البلاط الامبراطورى بالقسطنطينية طويلا ثم نصب اسقفا .

(٢) شيب . وقد خلع كيرلس زميله نيستور وحكم عليه بالاقامة فى الواحة الكبرى .

(٣) ماسبرو : « تاريخ بطاركة الاسكندرية » .

(٤) Rouillard: L'Administration civile de l'Egypte byzantine.

(٥) Brehier: L'Eglise et l'Orient au Moyen Age. وهذا المؤلف يلاحظ ان انتشار المسيحية مكن للأثر الشرقى فى الغرب حتى كان الشرق فى القرنين الرابع والخامس مركز الاقتصاد والثقافة والدين والسياسة وكان التجار الشرقيون ينتشرون فى ايطاليا وفرنسا وبريطانيا ويقيمون فى جاليات بروما ورفنا وليون وبوردو وباريس واورليان والهند والصين ويحتكرون التجارة العالمية .

(٦) « واهل مصر حينئذ مصريون واغريق فى الغالب من ناحية الجنس ويعاقبة ومالكيون من ناحية الدين والاغريقى يصح أن يكون يعقوبيا كما ان المصرى يصح أن يكون مالكيا » . خطط المقريزى .

والمعروف أن مذهب اليعاقبة كان المذهب الذى كان الأباطرة يضطهدونه وغالب المصريين يؤمنون به . ويقول بتلر ان العرب كانوا يدعون جميع أهل مصر قبطا ولا يفرقون قبل فتحهم لها بين مصريين واغريق . بتلر : « فتح العرب مصر » .

هذا الرحب . ومن المحقق الآن أن الفتوحات الاسلامية[1] كانت ، من الناحية الاجتماعية ، شكلا من الأشكال التى اتخذها فيض القوى البشرية التى تجمعت فى الجزيرة العربية ، قبيل ظهور الاسلام ، على السهول المحيطة

(١) كان فتح العرب مصر من الأحداث التاريخية الغامضة التى تثير اهتمام الكتاب وتبعث الخلاف بينهم الى ان نشر بتلر كتابه « فتح العرب مصر » فبدد به بعض هذا الغموض ولكنه لم يوضح فيما نرى حقيقة الفتح ومداه توضيحا تاما .

وقد تصدى المستشرق الايطالى كئيتانى لنفس هذا الموضوع بعد بتلر وقام بجمع ما نشر بشأنه من قديم وحديث فى الشرق والغرب وقام بتحليله بأقصى ما يستطيع كاتب عصرى من دقة علمية وانتهى من ذلك الى نتائج يصح أن يكون قد اخطأ بعضها الصواب ولكنها تنفرد بما أفلحت فيه من جعل هذا الفتح شيئا معقولا يستطيع ان يسيغه العقل البشرى فى القرن العشرين .

والأستاذ كئيتانى يقول ان حملة عمرو بن العاص على مصر بدأت فى صورة غارة عادية من الغارات التى كانت القبائل العربية تشنها على حدود البلاد القائمة حول الجزيرة . وكان عمرو بن العاص يعرف مصر معرفة جيدة ويقدر وفرة خيراتها وضعف دفاعها حق التقدير فأطلق رجاله على « أم دنيان » اولا (قرية بالقرب من بابيلون) وتركهم يغزون ما يريدون من الجهات القريبة اليهم مدة ستة أشهر لم تعترضهم حامية البلاد أثناءها بمعركة واحدة رغم ايغال بعضهم حتى أسيوط ، ثم جمعهم وضم اليهم ما كان قد وجه فى طلبه من الامدادات وهاجم هليوبوليس وبابيلون من بعدها . وكانت مصر ــ الى جانب انقسامها الى يعاقبة ومالكيين يبلغون بنزاعهم فى ذلك الوقت بالذات أقصى غاياته حتى يضطر بطريرك اليعاقبة بنيامين الى الاستخفاء فى الأديرة ــ تنقسم الى دوقيات خمس استقلت كل منها عن الأخرى بحكومتها وحاميتها (أنظر فى ذلك J. Maspero: Organisation militaire de l'Egypte byzantine) وقد ظلت هكذا وظلت كل من هذه الدوقيات تجهل ما تفعله الأخرى فى سبيل الدفاع عن سلامة البلاد حتى دخل العرب الاسكندرية وبدات مفاوضاتهم مع حكومتها . وكان تقدم العرب قد ادى بسكان الدلتا الى الاتصال بهم قبل أن يضعوا الحصار حول بابيلون كل فيما يتعلق بمدينته أو قريته ثم جميعهم فى وقت واحد بعمرو بن العاص حين اتخذ الغزو شكل الحملة المنظمة . ويلاحظ هنا ما يتضح من تقصى الوثائق التى يأتى عليها كئيتانى بشأن هذا الاتصال من الاختلاف بين ما كان يبغيه المفاوضون العرب وماكان يرمى اليه القبط والبيزنطيون من تفاوضهم ، وان كان هذا الاختلاف لا يعدو الشكل أو يؤثر فى النهاية التى انتهت اليها الأمور . فقد كان العرب يريدون أول الأمر أن يستضيفهم القبط حينا من الزمن ، كما هى عادة البدو اذا نزلوا أرضا زراعية ، ويبدون ميلا ظاهرا الى الحصول على قيمة الضيافة نقدا بدلا من التمتع بها عينا ، بينما كان المفاوضون القبط يطلبون أن يمسك الغزاة عنهم اذى الحرب نظير التمتع بما كانت تتمتع به حكومة القسطنطينية من حق الحصول على نصيب معين من خراج البلاد . أما البيزنطيون فكانوا

بهذه الجزيرة فى وقت كانت هذه السهول تعانى فيه فقرا فى الرجال • وكانت مصر على وجه الخصوص تسير منذ القرن الثالث الميلادى الى خراب اجتماعى رهيب • كانت تفزع الى الصحراء وتغلق دونها أبواب الأديرة وتنتحر هربا من الاضطهاد الدينى وفوضى الحكم والأزمات المالية

يعرضون الالتزام بدفع جزية معينة ، وهو أمر كانت الامبراطورية الرومانية اعتادت عرضه وقبوله فى الغرب والشرق ، حين كانت قبائل البربر تهاجم حدودها العارية وكانت تفعل ذلك فى ذلك الوقت بالذات مع بدو الحدود المصرية نظير دفاعهم عنها .

وقد أعقب هذا الاتفاق الأول بين العرب واليعاقبة إتفاق ثان عقده عمرو مع المقوقس بشأن بابيلون حين قررت حاميتها التسليم • والمؤرخون يختلفون فى شخصية المقوقس هذا فبعضهم يقول انه كان كبير جباة الضرائب فى البلاد واغرته الحرب التى قامت حينئذ بين البيزنطيين والفرس فكف عن ارسال الخراج الى القسطنطينية،ولكن المراجع القديمة تكاد تجمع على انه كان قبطيا يعقوبيا متخفيا وانه كان يرى أنه خدم الدين خدمة جليلة باتفاقه مع عمرو حتى أبدى ، آخر ايامه ، الرغبة فى أن يدفن فى كنيسة يوحنا بالاسكندرية .

وأخيرا حاصر عمرو الاسكندرية واستولى عليها بعد أن أبرم مع بطريرك المالكيين ثالث المعاهدات التى عقدها فى مصر وأعمها أثرا اذ كانت هذه المعاهدة تنظم علاقة الفاتحين بجميع سكان البلاد ولا تقتصر على طائفة دون طائفة أو ناحية دون ناحية • وقد اتهمت بيزنطة هذا البطريرك بعد ذلك بأنه مالأ العرب الا أن غالب المصادر البيزنطية تميل الى القول بأنه أراد التخلص من خطرهم بدفع ما اعتادته الحكومة البيزنطية من اتاوة يقصر امدها أو يطول .

ويلاحظ أن تقدم العرب فى مصر صحبته كثير من مظاهر الانتقاض والانتقام والتنكيل بين الشيع الدينية المختلفة فثار أهل بعض مدن الدلتا عند ظهور العرب وسطا القبط على حاميات مدنهم أو قراهم حين هاجموها وانقسمت قوات مصر السفلى جميعها قسمين قسم يرأسه تيودورو مالأ العرب وأعانهم وقسم عاداهم وقاتل هذا القسم الأول • كذلك كان حاكم البلاد العام دومنتياتوس ينافس قائد حامياتها مينا ، وهو الذى فر بعد ذلك أمام العرب ، ويحقد عليه ، وكان قواد الجند ينافس بعضهم بعضا ويستأثر كل منهم بجنده ، وكان كبار الكنيسة والجيش يحبذون الاتفاق مع العرب سخطا على المكائد التى كانت تجرى حينئذ فى القسطنطينية حول العرش •

ونحن نريد أن نلاحظ مرة أخرى ما كان قد انحدر اليه أبناء مصر حينئذ من فقد للشعور بمصريتهم يبدو بشكل واضح فى كتابة القس يوسف نقيو ، وهو المؤرخ القبطى الوحيد الذى أرخ الحملة العربية بعد حدوثها بسنوات . فهذا القس يدعو أهل بلاده رعايا الامبراطورية البيزنطية الأمناء ويعد سكان الامبراطورية جميعا اغريقا ويسمى هرم الفيوم «الحجرة» ويرجع انهزام الروم أمام العرب الى سابق تنكيلهم بالقبط ولا يبدى فى تأملاته شعورا مصريا ما • (Leone Caetani: Annali dell'Islam ليون كئيتانى : « حوليات الاسلام ») الجزء الرابع .

المتوالية (١) • وكان انقباضها هذا يحدث داخلها فراغا اجتماعيا نلمس بعض آثاره فى غارات قبائل الرحل التى وقف لها القديس شنودة (٢) وغزوات النوبة التى اشترط المقوقس على عمرو بن العاص حماية مصر من خطرها وكرات البدو على الصعيد (٣) •

وقد أقبلت القبائل العربية على مصر عقب الفتح فى موجات متوالية فقدمها فى العهد الأموى ١٢ قبيلة من قريش وقيس وجهينة والأزد وحمير ولخم (٤) ، وهبطتها فى العهد الفاطمى قبائل أخرى من عرب الشام وأفريقيا الشمالية وبنى سليم وبنى هلال وخزام ، عدا قبائل كتامة وزويلة والبربر التى صحبت جوهر الصقلى والمعز (٥) • وكانت هذه القبائل ، خصوصا ما استجلبه منها الولاة لتعزيز سلطانهم (٦) أو اخضاع الانتقاضات المسيحية التى ظلت تترى حتى نهاية القرن الرابع عشر (٧) واستثمار الأراضى المهجورة التى كانت توجد بوفرة عند دخول عمرو ، تستقر فى الوجه البحرى وتتسرب منه الى حيث تستطيع • وقد استأثر بعضها بالحوف الشرقى واستولى على القرى الواقعة بالشاطىء الغربى للنيل وانصرف الى الزراعة ولاسيما زراعة القصب التى اشتهرت مصر بها حينئذ (٨) ، بينما انتشرت القبائل الأخرى بسائر الأقاليم (٩) ولم تقطع صلتها بقبائل الجزيرة والشام وأفريقيا الشمالية (١٠) بل كانت تدعو من يريد منها الى اللحاق بها وتتناسل بالكثرة

---

(١) اميلينو : « حياة شنودة » . بتلر : « فتح العرب مصر » . بتشر : « الكنيسة القبطية » . ويقول ديهيل ان عدد الرهبان فى مصر فى العهد البيزنطى كان لا يقل عن ١٠٠ الف . « مصر المسيحية والبيزنطية » .

(٢) أميلينو : المرجع السابق .

(٣) كئيتانى : المرجع السابق .

(٤) لطفى السيد : « القبائل العربية فى مصر » .

(٥) الثقافة : العددان ٣٣٣ و ٣٣٤ .

(٦) خطط المقريزى .

(٧) بتشر : المرجع السابق .

(٨) لطفى السيد : « القبائل العربية فى مصر » .

(٩) يأتى لطفى السيد على طريقة توزيع هذه القبائل بين المديريات فيقول ان قبائل العليقات والجعافرة والكنوز استقرت بين قوص والسودان بينما استقرت قبائل الهوارة وجهينة والعبابدة بين قوص وأسيوط وقبائل الجوازى والغوايا واولاد على بين أسيوط والسلوم وأقامت قبائل الحويطات والسنارى والنبعات بين أسيوط والعريش

(١٠) المقريزى : « الخطط » .

التى تعهد بين البدو ، بينما كان أهل البلاد الأصليون يثورون المرة تلو المرة فيسبون أو يقتلون(١) أو يدخلون الاسلام فيصيرون عربا فى الروح والتفكير والتقاليد(٢) ويقل عدد الباقى منهم على كل حال حتى يصيروا أقلية لا تكاد تذكر •

وقد لحق بهذين العاملين فى نهاية العهد الفاطمى وعهد المماليك وبنى عثمان عامل ثالث لا يقل عنهما أثرا وهو ما كان يعقب اضطراب أمور الدولة وقتئذ من خلل فى توزيع المياه كان ينتهى بالفلاحين الى ترك أراضيهم ليهبطوا المدن أو ينصرفوا للسلب والنهب أو يلحقوا ببدو الصحراء فتتسع مساحة الأراضى التى لا تزرع ويجد هؤلاء البدو المجال الذى يحتاجون اليه لرعى قطعانهم أو مزاولة الزراعة الهينة التى يحسنونها وينمو بذلك مجتمعهم على حساب المجتمع المدنى المصرى • وهكذا كانت الموجة العربية تتسع وتعلو بفعل قوتها التناسلية الذاتية وما يلحق بها من امدادات قبائل الصحراوات المحيطة بمصر على مر القرون ، ثم اتساع الأراضى الصحراوية على حساب الأراضى الزراعية فى العصرين المملوكى والعثمانى حتى أصبحت فى هذين العصرين قوة اجتماعية يحسب حسابها وتشغل مركزا خاصا ظلت تتمتع به حتى القرن الثامن عشر •

وعرب مصر هؤلاء هم الذين أهاجوا الحجاز على عثمان بن عفان حتى قتل(٣) وقاتلوا عمال بنى أمية قتالا مريرا(٤) وأقاموا بالصعيد ، آخر أيامهم ، خلافة مستقلة(٥) وحاربوا عمال هرون الرشيد وغلبوهم واضطروا المأمون الى المجىء بنفسه الى مصر لقمع فتنتهم(٦) وأقاموا بمنفلوط سنة ١٣٠٠ حكومة مستقلة بسطت سلطانها على الصعيد وفرضت الضرائب على أهله وأنشأت جيشا لا يقل عن جيش الدولة نظاما واستعدادا(٧) وظلوا بعد ذلك الخطر الدائم الذى أقض مضجع الدولة المملوكية حتى دالت • وليس بين

(١) المقريزى والكندى • وقد وقعت أهم حملات التأديب للقائمين بهذه الانتقاضات تحت هشام بن عبد الملك والمأمون والحاكم وقلاوون وسلاطين بنى عثمان •

(٢) كان أبو مريم قبطيا أسلم وصار شيخ بنى ظبيان • بتلر : « فتح العرب مصر » •

(٣) ابن قتيبة : « تاريخ الخلفاء الراشدين » •

(٤) خطط المقريزى .

(٥) لطفى السيد : المرجع السابق .

(٦) خطط المقريزى .

(٧) لطفى السيد : المرجع السابق

مؤرخى ذلك العصر من يذكر نزاعا بين الأمراء المماليك فى مدينة القاهرة أو انتقالا للحكم من يد الى يد أو هزيمة عسكرية تصيب الحكومة القائمة الا وذكر الى جانب ذلك ثورة للعرب فى مكان ما من مصر أو سطوة لهم على قرى البحيرة أو الشرقية أو الصعيد أو منطقة القاهرة أحيانا • ومعروف أن المماليك والعثمانيين انتهوا الى الاستعانة بالعرب فى حروبهم الخارجية والداخلية رغم تخوفهم من شرهم •

وآثار الفتح العربى لمصر تغنينا بعد عما قد يقتضيه التقصى العلمى من اطالة فى هذا الصدد • فنحن ما نكاد نبلغ القرن الثامن ونلقى أول مصرى كتب عن مصر بعد الفتح وهو ابن عبد الحكم حتى تجدنا أمام مجتمع عربى بارز المعالم مثل مجتمعات دمشق والمدينة ومكة المعاصرة • فأهل هذا المجتمع عرب وتفكيرهم عربى وتقاليدهم عربية وليس فى عروبة من ليس بينهم من أصل عربى كابن عبد الحكم نفسه أى تكلف أوزيف • ومصر ابن عبد الحكم ذاتها مصر سامية عربية منذ أن كانت الخليقة وليس فى تاريخها الطويل ما يستحق أن يذكر سوى قصص ابراهيم واسماعيل وموسى ويوسف ومريم القبطية وايثار النبى القبط وبغض الله كفر المصريين الأولين • وهذا هو رأى معاصرى ابن عبد الحكم المسلمين جميعا من علماء وغير علماء وظل الى حد بعيد رأى من كتب بعدهم حتى الجبرتى لأنهم ربوا عليه وربى عليه كل من نشأ فى مصر من أصل عربى أو مصرى ما دام مسلما •

والمصريون من أبناء هذا المجتمع الجديد حتى من دخل منهم الاسلام بالأمس ينتسبون لأصل عربى ويسمون أنفسهم ابن عبد الحكم وشمس الدين وبهاء الدين زهير وتقى الدين المقريزى • وهم لا يعون أنهم أصحاب قومية خاصة وان شعروا بشىء فانما يشعرون أنهم من أصل مسيحى وهو بعد الشعور الوحيد الذى كانت كنيسة الأسكندرية وما زالت تشعر به فى قيامها على هامش هذا العالم الغريب عنها الجديد عليها لاسلامه ومسيحيتها لا لعروبته ومصريتها • ومجتمعات ناصر خسرو وابن جبير وابن بطوطة وابن خلدون والمقريزى قد تختلف عن مجتمع ابن عبد الحكم والكندى والقضاعى من حيث تعدد الأجناس التى تختلط داخلها ولكنها لا تختلف عنها فى الطابع العربى الذى تتسم به • والمجتمع المصرى مازال بعد مجتمعا عربى الأفق والروح والتفكير وهاهم أولاء نوابغ

كتابه ، وغالبهم ممن اشتركوا فى قيادة الحركة القومية ، كالعقاد وهيكل وطه حسين ، يكتبون « الصديق أبو بكر » و « عبقرية على » و « على هامش السيرة » ، بل ان من يقرأ « قبائل العرب فى مصر » للطفى السيد ، وهو من أنبغ من أنجبت مصر وأكثر من سعى لخير أبنائها ، يلمس فيه نعرة عربية بارزة (١) .

والعلة فى هذا التحول الذى لا يفوقه تحول آخر فى تاريخ البشرية جميعا على ما نعلم — الى جانب سعة الموجة العربية التى صحبته وطول أمد عملها — هى طبيعة المجتمع الذى أنشأته هذه الموجة فقد كان كالمجتمع المسيحى الذى تقدمه ، مجتمعا دينيا يقوم على العقيدة ولا يعرف الحدود الاقليمية أو الجنسية . وقد كانوا يقولون عادة فلان القاهرى المولد الدمشقى الاقامة البغدادى الوفاة ولا يقولون فلان المصرى أو العراقى أو الشامى لأنهم فى الحالة الأولى يشيرون الى أمر محسوس يصح أن يفيد فى وضع صاحبه الوضع الصحيح من جيله أو بيئته أما فى الحالة الثانية فلا يقولون شيئا البتة . كذلك كانوا يجمعون بين الأبيض

(١) ونحن نقرأ فى مقال للدكتور عبد الوهاب عزام فى العدد ٢٣٥ من مجلة الثقافة عن « أثر الثقافة العربية فى الثقافة المصرية الحديثة » :

« الأدب الذى نقراه وندرسه ونحفظه ونعتز به ونمتع به نفوسنا وننشىء به أولادنا ونربى به العاطفة والخيال والخلق والذى نتخذ مكارمه مثلا ومثالبه سبة والذى نأنس به ونسكن اليه ونتتفع بجده ونلهو بهزله ، الأدب الذى نعرف منشأه والذى نتمثل به فى سرائنا وضرائنا وتضرب أمثاله ونحكيه ونحتذيه وكأننا نعايش أشخاصه ونشهد وقائعه هو الأدب العربى لا محالة .

لا تزال حوادث الأدب العربى فى الجاهلية والاسلام موضع عنايتنا نتعرفها ونشيد بها وما يزال شعر زهير وعنترة ولبيد وأوس والحطيئة وجرير والفرزدق والأخطل وذى الرمة والقمين والطرماح وابن أبى ربيعه وبشار وأبى النواس وابن الوليد وأبى تمام والبحترى والمصرى والرضى والابيوردى والارجانى وابن هانىء وابن عمار وابن خفاجه وابن حمديس ومن عاصرهم ولحق بهم من الشعراء لا يزال شعرهم غذاء المتأدب ومهجة الأديب فى مصر ومعينا للشعراء لا يغيض وما يزال الجاحظ والبديع والخوارزمى وابو حيان التوحيدى والصابى وابن الأثير وابن زيدون وابن شهيد وابن خلدون مثلا ومادة ومتعة للمتأدبين من كتابنا ولا يزال المصريون يطمحون الى المثل العالية والأخلاق الكريمة التى شاد بها الأدب العربى ، لا تزال الشجاعة والاقدام والعزة والأباء والوفاء والسخاء تستمد من شعر الجاهليين والاسلاميين من الشعر الحماسى الذى فاض فى الأجيال العربية فيضا من العنترة الى المتنبى وأبى فراس الى البارودى وشوقى » .

والأسود والأصفر فى العائلة الواحدة فيكون للبيض زوجات سود وأبناء سود ويكون للسود زوجات بيض وأبناء بيض ويحدث هذا بكثرة وبين الأثرياء والفقراء على السواء .

وقد ينقسم المسلمون بعد ذلك فيما بينهم ، تبع ميولهم وأمزجتهم ومصالحهم ، خصوصا حين بعد ما بين أطراف الأمة الاسلامية ، فيكونون مالكيين وحنفيين وشافعيين أوشيعة وسنيين أواسماعيلية وقرامطة . ويبتلى مجتمعهم أيضا بالعصبيات فيعرف العصبية العربية والفارسية والتركية . وتختلف وجهاته الفكرية فينفرد أهل العراق بوجهة غير وجهة أهل مصر وأهل الشام . وتتعدد دوله فتقوم دول العباسيين والفاطميين وأموى الأندلس فى زمن واحد ولا يقضى ذلك على وحدتهم . وقد كانت عصبيات الاسلام مرضا يظهر ويسكن وينتهى الى الاختفاء حين تتوافر له أسباب الاختفاء : يظهر كلما دخل الاسلام جنس جديد لما يعمل فيه عمله فيبدل تفكيره ويمزجه بغيره ويسمه بميسمه . وهو يعمل حينئذ فى ميدان النزاع على الحكم حيث تغلب النزعات الدنيوية أو ميدان الجدل الأدبى الذى يتصل بهذا النزاع ، ولكنه لا يعى نفسه وينتج انتاجا ايجابيا فى الميدان الدينى أى الميدان الاسلامى الحقيقى لأن الانتاج فى هذا الميدان يقتضى أن يسبقه تمثل العقيدة التى تتكون منها تربته وهى عقيدة تنكر العصبيات . وكلما واصل الاسلام عمله فى جنس من الأجناس كلما خفت عصبيته وتحللت ولم تبق منها سوى عناصرها الأولى ، عناصرها الطبيعية التى يمثلها مناخه وأرضه وماؤه والتى تلازم الأمم حتى تنقرض وتلازم من ينزل عليها أو يحل محلها ان تمكنت منه . والعصبية فى هذه الحالة ، ان صح تسميتها بهذا الاسم ، لا تتعارض والوحدة الدينية حتى لو تبلورت فى وضع فكرى وأصبحت مذهبا كالمالكية والحنفية أو السنية والشيعية . ثم انها قابلة لفقد الشعور بنفسها والتوارى ، اذا لقح أهلها بدم جديد ، كما حدث للمصريين الذين أسلموا فهم لم يعرفوا غير العصبية الاسلامية ، ان سمح لنا بهذا التعبير ، التى كانت تدفع بهم الى محاربة خصوم الاسلام حتى حين كانوا أقباطا أى مصريين . ونحن نقرأ كتب تغرى بردى المملوكى الدم وابن اياس التركى الأصل والجبرتى الحبشى الجنس ولا نجد لدى واحد منهم صدى ولو بعيد لعصبية جنسية واعية .

والذى يدرس التراث الثقافى الاسلامى اليوم يستطيع أن يميز فيه التفكير المصرى من التفكير العراقى والتفكير الشامى ، نقصد تفكير أهل مصر وأهل العراق وأهل الشام ، لأن طبيعة أولئك غير طبيعة هؤلاء ولكنه لا يستطيع بالغا ما بلغ جهده أن يرتفع بهذا الاختلاف فى التفكير الى قومية مصرية أو عراقية أو شامية واعية . كذلك لا يستطيع الباحث أن يعود بتعدد الدول الاسلامية الى مثل هذا الوعى . وقد كانت هذه الدول تدعى الدولة الأموية والدولة العباسية والدولة الفاطمية لأن الذين أقاموها كانوا من بنى أمية أو العباس أو فاطمة أى أبناء أشخاص بعينهم ، قد يمثلون أو لا يمثلون فكرة بعينها وقد يستندون أو لا يستندون الى عصبية صحيحة ولكنهم لم يمثلوا قط تمثيلا واعيا فكرة قومية ما . وان لم يكن الأمر كذلك فما معنى أن يكون معاوية بن أبى سفيان من أشراف مكة ولا يشعر بوازع الى اقامة مقر حكمه فى هذه المدينة ؟ واذا كانت الظروف التى صحبت قيام خلافة الأمويين هى التى دفعت بها الى ذلك فلم أقام بنو العباس ملكهم فى بغداد وهم من عرب الجزيرة أيضا ؟ ولم استعانوا بالفرس على العرب ؟ ولم فكروا فى نقل مقر حكمهم الى سر من رأى أو أية مدينة أخرى دون ديارهم العربية ؟ وكان الفاطميون عربا طافوا الأقطار وأقاموا لأنفسهم ملكا فى أفريقيا الشمالية دون أن تأنف قبائلها الأبية من الائتمار بأمرهم ولكنهم مادخلوا مصر حتى تركوا مقر حكمهم ذلك وأقاموا بها وهى ليست بلادهم ولعلهم كانوا تاركيها لو أفلحوا فى نزاعهم مع العباسيين .

وأقبلت الموجة التركية بعد ذلك فغيرت من نظم الشعوب الاسلامية واتجاهاتها ولكنها لم تغير شيئا من تركيبها هذا فكان المماليك يأتون من القوقاز ومن الأصقاع الأسيوية الأخرى ويزاولون الحكم فى مصر وآسيا الصغرى جميعا ولا يخطر لواحد منهم أن ينقل هذا الحكم الى وطنه الأصلى أو يخضعه له .

وقد كان العرب يعيشون قبل الاسلام قبائل رحلا تنزل حيث يحلو لها النزول ولا تعرف رابطة اجتماعية غير رابطة القبيلة فأتى الاسلام وقضى على هذه الرابطة وأحل محلها رابطة الأمة الاسلامية . ولما كانت الأمة الاسلامية تعيش فى مملكة الله وكان الله يملك الأرض ومن عليها ويخضعها

لمشيئته الأزلية الشاملة فالأصل فيها أن تكون لها دولة واحدة . ومن ثم كان تنازع الأمويين والعباسيين والفاطميين وادعاء كل فريق منهم حق الولاية على المسلمين دون الفريق الآخر . وكان أيضا عدم اختلاف التشريع والقضاء بين البلاد الاسلامية الى حد بعيد جدا والى عهد قريب جدا . وهكذا كان مسلم مصر الذى يذهب الى بغداد ومسلم الهند الذى يقدم مصر ومسلم العراق الذى يرحل الى الجزائر يخضع لنفس القانون ويظهر أمام نفس القضاء ولا يكاد يقوم بينه وبين أهل البلاد الأصليين فارق قانونى يذكر . هكذا كان ما بين شاطىء البحر المتوسط والمحيط الهندى وحدود الصين مثل وعاء واحد ضخم ، تختلط داخله الأجناس(١) والأفكار والتقاليد ، ويحتل كل جنس منه الطبقة التى تلائم الدور الاجتماعى الذى يجتازه الى أن تذوب جميعا ، ما استطاعت ، فى الوحدة الجديدة التى جمعت بين شتاتها ، فيحتل أصلحهم لحمل السلاح ، وهم عادة أقربهم عهدا بالبداوة وحياتها الخشنة ، مراكز الدفاع ، وكانوا فى أول الأمر عربا فصاروا أكرادا وزنجا ومغاربة وتركا وديلما . ويحتل أقدمها عهدا بالنظم الحكومية مراكز الادارة فيكونون فرسا لدى العباسيين ومصريين لدى الفاطميين والأيوبيين والمماليك ويكون السوريون تجارا وصناعا وقضاة الخ ...

وحكم هذا المجتمع ينتقل بالتالى من اليد التى تضعف الى اليد القوية التى تستطيع النهوض به دون أن يتنازع عليه غير متداوليه ودون أن يتعدى النزاع عليه القدر الذى يستتبعه فقده أو الوصول اليه من حرمان أو متعة شخصية مباشرة . وقد سلمه العرب فى مصر الى المغاربة والمغاربة الى الأكراد والأكراد الى المماليك والمماليك الى بنى عثمان دون أن يعنى به غير متداوليه من أهل المجتمع الا فى حدود ما يصيبهم من أذى ، ان مس مدنهم شىء من شر القتال ، ودون أن يؤثر فيهم تغير الحكم ، فيما عدا ما قد تقتضيه الظروف الاجتماعية أو الاقتصادية أو العسكرية العامة التى كانت تثير هذا التغير فى بعض الأحوال . وقد كان الذين واطأوا

(١) ابن بطوطة يقابل فى الاسكندرية زاهدا يدعى برهان الدين الأعرج فيرجوه أن يبلغ سلامه الى أخيه فريد الدين المقيم بالهند وأخيه ركن الدين المقيم بالسند وأخيه برهان الدين المقيم بالصين . ابن بطوطة .

الفاطميين ومهدوا لدخولهم مصر عربا لا مصريين • بل يخبرنا المقريزى[1] أن أهل تينس ، وكان غالبهم قبطا ، قاتلوا جند المعز فى هذه المدينة قتالا شديداً لأسباب تتصل بسلامة تجارتهم وصناعتهم • كذلك كان أهل الدولة الفاطمية هم الذين دعوا الأيوبيين الى اسقاط هـذه الدولة بعـد أن عجزت عن الوقوف فى وجه الكفار • وكان الأيوبيون بالذات هم الذين أنشأوا فرق المماليك ومهدوا لهم الحكم وكان المماليك هم الذين واطأوا بنى عثمان وانهزموا لهم وتعاونوا معهم فى الحكم حتى جفت عروق الدولة العثمانية •

وكل دولة من هذه الدول حم قضاؤها تتلفت حولها طالبة النجدة فلا تجدها فى غير أعضاء العائلة التى تحكمها وأتباعهـا المباشرين لأنها لم تكن قط الا حكومة شخصية ، حكومة عائلة بعينها • وقد رأينا كيف كانت القبائل العربية ، وهى وقتئذ جزء هام من المجتمع ، تنتهز كل ضائقة كى تثور وتسطو بالحكام القائمين • ونحن نعلم من ابن اياس أن السلطان طومان باى طلب الى المغاربة أن ينضموا الى جيشه فى محاربة بنى عثمان فقالوا له انهم لا يحاربون الا النصارى[2] وكان هذا المنطق هو منطق الجميع حتى السلاطين • كذلك نقرأ مؤرخى ذلك العصر كابن أياس نفسه والمقريزى وتغرى بردى والجبرتى بعـد ذلك فلا نجد تحت ما يبعثه سقوط الدول والسلاطين فى نفوسهم سوى الاشفاق على مصالح الناس أو عزة الاسلام أو خراب الدولة أو تدهور الحضارة أيضا[3] أو كل شىء

(1) خطط المقريزى •

(2) « وفى يوم الاثنين تاسع عشرة جلس السلطان على الدكة فى الحوش وطلع الجم الكثير من المغاربة فلما طلعوا الى القلعة لم يجتمع عليهم السلطان وأرسل اليهم الأمير شاديك الأعور فقال لهم السلطان يقول لكم عينوا منكم ألف انسـان من شجعانكم حتى يخـرجوا مع التجـريدة فأرسلوا يقولون للسلطان نحن ما لنا عادة نخـرج مع العسكر ونحن ما نقاتل الا الافرنج وما نقاتل مسلمين » • تاريخ ابن اياس •

(3) « وأما السلطان سليم فانه لما طلع الى القلعة احتجب عن الناس ولم يظهر لأحد ولم يجلس على الدكة بالحوش السلطانى جلوسا عاما ولم يفصل بين ظالم ومظلوم بل كان يحدث منه ومن وزرائه كل يوم مظلمة جديدة من قتل وأسر وأخذ أموال بغير حق • وكان هذا على غير قياس فانه كان أشيع العدل الزائد عن أولاد ابن عثمان وهم فى بلادهم قبل أن يدخل سليم شاه الى مصر فلم يظهر لهذا الكلام نتيجة ولامشى سليم شاه على قواعد السلاطين السالفة • ولم يكن له نظام يعرف لا هو ولا وزراؤه ولا أمراؤه ولا عسكره بل كانوا همجا لا يعرف الغلام من الأستاذ » • تاريخ ابن اياس •

سوى الشعور بكرامة وطنية ديست أو عزة قومية جرحت[1] •

وقد كان من شأن هذا الوضع الذى اتخذه المجتمع الاسلامى وقتئذ أن ما انهارت الخلافة العباسية وأنشأ الخطر المغولى يهدد آسيا الصغرى بين القرنين الحادى عشر والسادس عشر حتى صارت مصر ملاذ المسلمين من جميع الأجناس • ونحن نعلم أن الصليبيين ما كادوا يهددون مصر فى القرن الحادى عشر حتى ثار أهلها على الفاطميين واتصلوا ببغداد ومهدوا السبيل لقيام حكم صلاح الدين • ونعلم أن صلاح الدين قدم مصر ومعه قوات كبيرة من الأكراد وان أولاده استعانوا بعده بالأتراك والشعوب التى كان المغل يسوقونها أمامهم • وقد جعلت القطعان البشرية التى كانت تتناثر من تطاحن هؤلاء المغل تقبل ، خلف أولئك الفارين ، فى موجات متوالية ، كفى من هبط منها القاهرة وحدها ، بعد سقوط بغداد ، لتعمير ما كانت مجاعات العهدين الفاطمى والأيوبى خربته من أحيائها ، وبلغ من قدم منهم ، تحت كتبغا ، عشرة آلاف عائلة على رأسها تاعز زوج بنت هولاكو ، واتصل اقبالهم هذا على مصر حتى صاروا العنصر الغالب فى جيوشها[2] وظلوا كذلك الى أن هبط الفرنسيون مصر فى القرن الثامن عشر بفضل من كان يجلبه الحكام اليها منهم لهذا الغرض •

وكان هؤلاء النازحون يتلاقون ويختلطون ويتعاونون فى مجتمع واحد يجمع بينهم بروحه الدينية وينشىء منهم دولة واحدة تنعكس على سطحها ملامحهم الغريبة المختلفة : دولة يلقب رئيسها ، منذ بيبرس حتى

(1) وقد تنبه أخيرا بعض مؤرخى المماليك المحدثين الى هذه الظاهرة والى أثرها فى تاريخ مصر وقتئذ • انظر « التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى » لتوفيق الطـويل و « الحـركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى » لعبد اللطيف حمزة •

(2) وهكذا تكون مصر قد تعرضت منذ نهاية العهد الفرعونى الى ثلاث هجرات ضخمة : الهجرة الاغريقيـة والهجرة العربيـة ثم الهجرة المغولية بمشتقاتها الكردية والشركسية والتركية • وقد اختلفت كل من هذه الموجات الثلاث عن الأخرى من نواح متعددة أهمها فيما يتعلق ببحثنا الحالى هى الوسيلة التى تم بها تأثيرها فى المجتمع المصرى • فقد كانت هذه الوسيلة لدى الأغارقة هى الأشـكال الاقتصادية الجديدة والثقافة وكانت لدى العـرب الوحدة فى الدين واللغة وكانت لدى المغل الجيش •

الغورى ، بـ « سلطان الاسلام والمسلمين وارث الملك وسلطان العجم والترك اسكندر الزمان صاحب القبلتين خدام الحرمين الشريفين سيد الملوك والسلاطين » لا سلطان مصر ؛ وتمتد حدودها الى أرمنيا القصية ؛ وتجمع بين المصريين وغير المصريين من أعراب ومغل وأتراك وأكراد ، وتقوم على نظم لم تعرفها مصر فى عصر من عصور حياتها الطويلة قط • وقضى بنو عثمان على هذه الدولة فى القرن السادس عشر فتم بذلك لآسيا الوسطى الظهور على شعوب هذا الجانب من البحر المتوسط فى الحرب المريرة التى دامت بين الطرفين منذ ظهور الخطر المغولى ، وبلغت شعوب هذه القارة السحيقة ما لم تكف طوال ذلك الزمن عن محاولته من اقامة حكم ثابت تديره على طريقتها وبرجالها ولنفسها ، وهو حكم كان الناس يتكلمون الى آخر أيامه التركية لا العربية ، كما كانوا يفعلون فى القاهرة فى أشد أيامها تعرضا للموجات المغولية ، ويكتبون بالتركية لا العربية كما كانوا يفعلون تحت المماليك ، ويتجهون فى حياتهم العامة والخاصة اتجاهات أسيوية بارزة •

* * *

وهكذا تغيرت مصر تغيرا عميقا شاملا بعد الفتح العربى عما كانت عليه من قبله فصار أبناؤها يفكرون بالعربية بعد أن كانوا يفكرون بال « هيروغلفية » أو الاغريقية ويشعرون شعورا اسلاميا لا «فرعونيا» أو مسيحيا ويتنفسون فى جو آسيا المغولية بعد أن كانوا يتنفسون فى جو البحر المتوسط •

ونحن نعلم أن هناك من يحتجون بأن الموجة العربية لم تعد فى مصر قط حدا معينا من الارتفاع ولم تؤثر بالتالى فى كيان المصريين وعلى رأس القائلين بهذا الرأى ماسبرو[1] • ولكننا نخالف هؤلاء بما أوردنا من وقائع لا ريب فيها ونخطئهم بما فى الضمير المصرى من وعى عربى مبين • والعبرة بعد فيما يتعلق ببحثنا هذا هو اللون الفكرى والشعورى قبل كل شىء ولا شك البتة أن هذا اللون عربى حتى اليوم •

(1) Maspero : Les egyptiens.

كذلك نعلم ان هناك من يقول بأن المصريين لم يتغيروا قط وان الذى تغير وتمصر هو من هبط عليهم من الخارج وبين هؤلاء الدكتور طه حسين • ونحن نتفق وهؤلاء ان كان ما يقصدون اليه هو أن من قدم مصر من الشعوب المختلفة تأثر بفعل شمسها ونيلها وماضيها كما يتأثر الأغراب فى كل بلد يهبطونه ، ان اختلف مناخه عن مناخ بلادهم وكانت له حضارة تختلف عن حضارتهم وتفضلها ، ولكننا نخالفهم فيه ان كان ما يقصدونه هو أن المصريين لم يتغيروا ماديا ومعنويا قط ولم يبلغ تغيرهم هذا حد الذهاب بكثير من معالم حضارتهم وشعورهم بوحدتهم كأمة ، وان لم يقض على مقومات هذه الوحدة لأنها مقومات طبيعية وهى بذلك أزلية لا تتحول •

حكم المغـــــل

هبت أعاصير الحرب على العالم الاسلامى ، منتهى القرن الحادى عشر ، وظلت تعنف به عنفا يكاد يكون متصلا حتى مطلع القرن الخامس عشر . وقد بدأت هذه الحرب بهبوط الصليبيين الشام فى سنة ١٠٩٧ وبلغت ذروتها بانقضاض المغل على آسيا الصغرى فى صدر القرن الثالث عشر ثم مالت الى الهدوء فى القرن الذى يليه لتندلع من جديد ، أول القرن الخامس عشر ، اذ عاود المغل غاراتهم الرهيبة على الشام وظلوا يهددونها حتى ظهور الخطر العثمانى ، وهو نفس الخطر الذى استطاع بعد ذلك أن يبطش بمصر أيضا وأن يهدد القارة الأوروبية تهديدا متواليا حتى نهاية القرن السابع عشر .

ولم تكن هذه الحرب من الحروب العادية التى تواترت على الشرق والغرب ، بين سقوط الدول القديمة وظهور الدول الحديثة ، بين مدينة ومدينة أو أمير وأمير أو ما ندعوه بالسلطة الزمنية والسلطة الروحية . كانت حربا ضروسا من الحروب التى يضرمها اصطراع العناصر الاجتماعية من حين الى حين فتنقض نسج التاريخ وتقيم من الدماء حضارات جديدة ، كهجرة الآريين الى الغرب فى فجر التاريخ وغزوات القبائل الجرمانية لجنوب أوروبا فى القرن الخامس والفتوح العربية فى القرن السابع . فكان الصليبيون هم أوروبا الخارجة من ليل الغزوات الجرمانية الى فجر النهضة بعد أن امتزج بها الغزاة بالمغزوين فى مجتمع جديد واحد وبلغوا من الشدة ما قدرهم على دحر الترك السلاجقة والوقوف فى وجه صلاح الدين ومقارعة المماليك قرنين متوالين ، أقاموا ، أثناءهما ، فى قلب سوريا وفلسطين ، امارات ثلاثا ومملكة قوية ، كانت تمتد من بيروت الى العريش وتشرف على مواصلات مصر بالشرق ، وجعلوا يشنون على الممالك الاسلامية الواقعة فى نطاقهم ، الغارة تلو الغارة ، فى غير هوادة أو كلل ، بما لديهم من الجيوش المرابطة فى الأراضى التى أخذوها أو ما كانت توفدها اليهم ديارهم منها فى موجات متوالية ، كانت تتحول أحيانا الى الحملات الضخمة التى يدعوها المؤرخون بالحملات الصليبية . وهى الحملات التى امتدت من سنة ١٠٩٦ الى سنة ١١٠١ ومن سنة ١١٤٧ الى سنة ١١٤٩ ومن سنة ١١٤٩ الى سنة ١١٩٢

ومن سنة ١١٩٤ الى سنة ١١٩٧ ومن سنة ١٢١٧ الى سنة ١٢٢١ ومن سنة ١٢٢٧ الى سنة ١٢٤٧ ومن سنة ١٢٤٧ الى سنة ١٢٥٤ ومن سنة ١٢٦٣ الى سنة ١٢٩١ [1] . وهذه هى تواريخ المواقع الرئيسية لا تواريخ المواقع جميعا فقد كانت هذه لا تفتر الا ريثما يعيد المتحاربون تنظيم صفوفهم وينزلون الى الميدان من جديد .

وكان الصليبيون يشتركون فى هذه الحرب بجيوش ضخمة يشبه المؤرخون الغربيون كثرتها بغزارة رمال البحر ونجوم السماء[2] . فاشتركوا فى الحملة الأولى بـ ٦٠٠ ألف رجل من خير مقاتلة ألمانيا وفرنسا وايطاليا ، لحق بهم بعد سقوط القدس ٣٠٠ ألف مقاتل آخرون وعدد لا حصر له من المتطوعة الذين كانوا يخفون جماعات الى جبهات القتال ، واشتركوا فى الحملة الثانية بثلاثة جيوش تبلغ عدتها مليون راجل و ١٢٠ ألف فارس ، واشتركوا فى الحملة الثالثة بـ ٦٠٠ ألف مقاتل . وكان يقودهم فى الغالب ملوك عظام مثل كراد وفردريك الأول وفردريك الثانى امبراطرة ألمانيا وريشار قلب الأسد ملك انجلترا وفيليب أوجست ولويس السابع ولويس التاسع ملوك فرنسا ، ورجال أشداء ينتسب غالبهم الى أعرق العائلات الحاكمة فى أوروبا وقتئذ كجوفريدى بوليون وريموند كونت تولوز وتنكريدى ، ومن ورائهم الكنيسة الكاثوليكية بوسائلها التى لا تنضب والجمهوريات الايطالية بثرائها العريض وبحريتها التى لا تضارعها بحرية ثانية .

وبينما كانت أوروبا الجديدة تغزو العالم الاسلامى على هذا الوجه ، كانت حمم البركان البشرى الذى انفجر فى قلب آسيا ، ابان القرن الثالث عشر ، عن تنكيزخان وجحافله ، تقبل بدوى قاصف فى سيول وفيرة من الأسرى واللاجئين ، وتطغى على الشعوب الاسلامية التى تلقاها فى طريقها . وثورة تنكيزخان من الظواهر التاريخية التى لا نزال نجهل سرها حتى اليوم كما نجهل سر الثورة المغولية التى انفجرت من قبلها فى القرن الثالث وطوحت بالشعوب الجرمانية الى حوض البحر المتوسط فاكتسحت

(١) دائرة المعارف الانجليزية .
(٢) دائرة المعارف الفرنسية .

فى طريقها امبراطورية الرومان(١) . كل ما نعلمه هو أنه ما حل القرن التاسع حتى جعلت تطرق الامبراطورية الاسلامية موجات بشرية متلاحقة من الديلم والغز والترك ، كانت تقبل من صحراوات آسيا الوسطى وتتسلل الى المقاطعات الشرقية من هـذه الامبراطورية فى شكل رقيق مختلف الأجناس ، أول الأمر ، ثم كقبائل مسلحة ، سرعان ما انتهت الى غمر جيوش الخلفاء والقبض على دفة السلطان(٢) . ثم أقبل القرن الثالث عشر واذا بهذه الموجات تستحيل طوفانا لا حـد له ، طوفانا اكتسح الصين وغمر آسيا الصغرى وروسيا وأوروبا الشرقية وبلغ الهند وسواحل البحر الأحمر ، ثم انحسر عن الامبراطورية الضخمة التى تركها تنكيزخان لأبنائه وأتباعهم . ويقول بعض من أرخ لها انها كانت تكاد تكون خاوية على عروشها أول الأمر لكثرة ما أنزله الغزاة بأهلها من قتل وتنكيل .(٣)

وكان المغل حين انطلقوا الى غزواتهم هذه لا يزالون على البداوة التى عرفوها قبـل تنكيزخان وظلوا عليها بعد وفاته بزمن طويل(٤) ، يمتازون بما يمتاز به البدو عادة من وفرة فى النسل وشغف بالقتال الى جانب تلك القسوة الغريبة الرهيبة التى لا تعرف حرمة للحياة ومازلنا نشهد بعض مظاهرها بين شعوب الشرق الأقصى الى اليوم . وهكذا أقبلوا على الامبراطورية الاسلامية فى النصف الأول من القرن الثالث عشر فى جحافل جرارة تميد بها الأرض وتنهار تحت سنابكها المدن يقتلون ويدمرون ويسفكون لغير ماغاية سوى القتل والتدمير وسفك الدماء . وقد بدأوا بالترك القجاق والروس وثنّوا بأهل الرى ثم انقضوا على مملكة جلال الدين الخوارزمى ففتكوا بها ثم عبروا دجلة(٥) وأطبقوا على العراق فأغرقوا بغداد فى دم أهلها وألقوا بجثة الخليفة فى العراء ثم ساروا الى

(١) Fisher : History of Europe . (فيشر : « تاريخ أوروبا ») .
(٢) انظر « ظهر الاسلام » لأحمد امين .
(٣) Ohsson : Histoire des Mongols. (أوهسن « تاريخ المغل ») .
(٤) كانوا يأكلون لحم الخيل نيئا ويلبسـون جلد الدببة ويسكنون الخيام .
(٥) يقول أبو المحاسن انهم عبروا دجلة فى ١٠٠ طلب كل طلب من ٥٠٠ فارس . « النجوم الزاهرة » .

الشام فمزقوها وبدأوا يناوشون مماليك مصر ويتربصون بهم الدوائر حتى مطلع القرن الخامس عشر حين هبط تيمورلنك الشام من جديد ليرتد عنه الى غير رجعة أمام زحف العثمانيين .

* * *

وقد أصاب مصر من هذه الحروب جميعا شر بالغ ففقدت المدن التى استولى عليها الصليبيون فى الشام وفلسطين وهما حينئـذ جزء منها . وتعرضت للغارات العنيفة التى كانوا يشنونها عليها من الشرق والغرب والشمال ، وهى الغارات التى بدأها ملوك القدس بحرقهم مدينة الفرما فى سنة ١١١٧(١) وواصلها الروم ونورمانديو ايطاليا الجنوبية ، بعد أن أخذوا صقلية وأغاروا منها على المهدية ، مهد الفاطمية ، بما لا يقل عن ٣٥٠ قطعة بحرية ، استخدمت بعد ذلك هى وأساطيل الجمهوريات الايطالية فى مهاجمة الثغور المصرية ومحاصرتها وتخريبها . ثم قاست مرارة المحاولات المتوالية التى قام بها الغزاة لأخذ أراضيها اذ هاجم الروم دمياط فى سنة ١١٦٩ واستولى ملك القدس على بلبيس وكاد يستولى على القاهرة تحت العاضد . وقصدت الحملة الصليبية الخامسة دمياط من جديد فسقطت المدينة فى سنة ١٢١٨ ثم فى سنة ١٢٤٩ وكاد لويس الحادى عشر يفتك بالقوات المصرية لو لم يصمد له المماليك البحرية ، بينما كان المغل يهاجمون الشام ويستولون عليه مرتين ، شلت حياة مصر ، فى المرة الأولى منهما ، شللا تاما وخطب لبركة بن جنكيزخان على منابرها ، ونزل بها ، فى المرة الثانية ، مايدعوه المقريزى بالبلاء العظيم ويصفه قائلا : «فخربها كلها (أى تيمورلنك الشام) وحرقها وأسر أهلها حتى فقرت بها جميع أنواع الحيوانات وتمزق أهلها فى جميع أقطار الأرض ثم دهمها بعد رحيله جراد لم يترك بها خضراء وشرقت الأرض بمصر أيضا لقلة الماء من النيل وعظم البلاء والفناء فباع أهل الصعيد أولادهم وصـاروا أرقاء ومملوكين وشمل الخراب عامة أراضى مصر والشام» (٢) .

ونحن نستطيع أن نلمس الأثر البالغ الذى تركه ما بذلته مصر حينئذ من جهد حربى مرهق فى حياتها العامة والخاصة بالمقارنة بين أوضاع حياتها

(١) « السلوك » للمقريزى .
(٢) خطط المقريزى .

هذه قبل بدء الحروب الصليبية وبعدها . فاننا اذا ألقينا النظر على مصر فى العهد الفاطمى الذى هبط الصليبيون الشام فى نهايته أبصرنا مجتمعا وادعا يمارس شتى أنواع الزراعة والصناعة والتجارة وينهض بالأمر فيه خليفة يزاول السلطة بنفسه أو بواسطة وزيره ويستعين فى ذلك بعناصر يختارها من القضاء أو الوظائف الادارية أو الأعمال المالية ، أى وجدنا مجتمعا مدنيا بالقدر الذى تسمح به طبيعة المجتمعات فى ذلك الزمن . وقد فقد هذا المجتمع بعض لونه هذا المدنى تحت المستنصر حين نكبت البلاد بالمجاعة وهاج الجند وبدأ رجال السيف يظهرون فى مراكز الحكم . ولكنه لم يفقده فقدا تاما اذ ظل الخلفاء يصمدون لميل هؤلاء الرجال الى التفرد بالسلطان حتى دالت دولتهم ، فتخلص أمير من الأفضل شاهنشاه والمأمون وحكم بدونهما وفعل الحافظ بعده مثل ذلك مع كتفيت وحذا حذوهما من جاء بعدهما من الخلفاء حتى العاضد ، آخر الفاطميين ، فأبو المحاسن يقول انه عهد الى صلاح الدين بالوزارة لقلة عساكره وأمله فى التخلص منه وممن بقى معه من جند الشام بمن لديه من الكتامى[1] .

وكان بدر الجمالى ، أول القادة العسكريين الذين نهضوا بالحكم فى نهاية العهد الفاطمى وأعظمهم شأنا ، أرمنيا من أصل مسيحى أبدى نشاطا حسنا فى ادارة الشام فاستوزره المستنصر حين زلزلت المجاعة اقتصاد البلاد فواجه الموقف بالشدة التى اقتضاها وكان حاكما عسكريا مطلقا . ولكنه ظل الى آخر أيامه ظاهرة فاطمية محضة فكان اذا بدأ حياته السياسية من أهل الدولة التى نهض بشئونها ولم يطرأ عليها من الخارج أو يعتمد فى حكمها على غير قوات البلاد وانصرف طوال حكمه الى معالجة أمور مصر القريبة فما كانت له اتجاهات خارجية بعينها . وقد مات بدر الجمالى دون أن يترك أثرا فى نظم الحكم الفاطمى ، دون أن يترك غير المثل الذى ضربه لكل قائد طموح يستطيع أن يجمع حوله قبضة من الجند المغامرين .

(١) « النجوم الزاهرة » . والقلقشندى يقول ان بدر الجمالى كان أول وزير فاطمى من أرباب السيف وكان صلاح الدين آخرهم . انظر « صبح الأعشى » و « نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين » لعطيه مصطفى مشرفة .

يدل على ذلك نجاح أمير فى التخلص من ابنه شاهنشاه ومأمون الذى تولى الوزارة من بعده واستطاعة الحافظ القضاء على وزيره كتفيت وطرد أنيس الأرمنى الذى خلفه وتعيين ابنه سليمان محله ثم معارضة الأمراء للحسن ابن هذا الخليفة ، حين ارتقى الى الوزارة بالقوة ، وفرضهم على أبيه خلعه وقتله . وافلاح الخلفاء هـذا فى تسريح وزرائهم العسكريين هؤلاء سراحا يسيرا يرجع لحد بعيد الى طبيعة النزاع الذى كان يقوم بينهم وبين هؤلاء الوزراء فقد كان نزاعا بين السلطة الشرعية القائمة وقواد جند يستنون فى القوة العسكرية ويتنافسون على الحكم وهم وجندهم من نبات الأرض التى أنبتت أولئك الخلفاء ، بهم ما بهم من وجوه الضعف ولديهم ما لديهم من وسائل القوة ، ولكنهم ينقصون عنهم فى أنهم لا يستندون كما كانوا هم يستندون الى أساس من الحقوق الشرعية المتوارثة . ونحن نعلم أن الأفضل شاهنشاه كان يعنى بتحفه أكثر مما يعنى بالخطر المقبل من ناحية الشام ، كما كان يفعل الخلفاء الفاطميون حينئذ ، وأن مأمونا لم يكن أقل اهمالا من الأفضل للشئون العامة ، كما كان الوزراء الذين جاءوا بعدهما . ونعلم أيضا أن الجند الذين استعان بهم هؤلاء الوزراء لم يتعدوا قط حدا معينا من الكثرة أو الاستعداد أو النظام فقد اضطر بدر الجمالى الى جلب الجند من الشام واحتاج الأمير حسن بن الحافظ الى تعبئة أوباش القاهرة وانتهى رضوان الى مغادرة مصر فى البحث عن جند يقوم بهم أمره . وبانت ضآلة هؤلاء الأمراء جميعا بعد ذلك حين حاولوا الكيد لصلاح الدين فأطلق عليهم جنده فردوهم الى الطاعة ردا عاجلا كما فعلوا بجند الخليفة من السود حين ثاروا فى الصعيد وساروا الى القاهرة يريدون أن يعيدوا الفاطميين .

ونحن نعلم أن صلاح الدين قدم مصر على رأس الغز الذين أرسلهم نور الدين زنكى ، وهو وقتئذ قطر الرحى فى مجاهدة الصليبيين ، لاستنقاذ القاهرة من قوات ملك القدس اذ استنجد بها شاور فى منافسة ضرغام فخفت الى نجدته وأرادت أن تنتهز الفرصة فاستولت على بلبيس وأخذت طريق العاصمة . ونعلم أن الذى طلب الى نور الدين ارسال جنده هؤلاء كان الخليفة العاضد رغم ما بين الشيعة والسنيين وقتئذ من خصام شديد

وشاور نفسه اذ بغتته محاولة ملك القدس ثم الرأى العام فى مصر جميعا حين سقطت ثقته فى قدرة الفاطميين على حماية ثغوره . ونعلم أخيرا أن نور الدين زنكى هو الذى أمر صلاح الدين بخلع الفاطمية ووضع حد للاضطراب الذى كان يعترى علاقات مصر بالشام والخلافة العباسية فى ذلك الوقت . ونحن نلمس هنا صلة الخطر الصليبى بسقوط الفاطميين وقيام الأيوبيين ووجوه الاختلاف بين صلاح الدين ومن تقدمه من وزراء الفاطمية العسكريين . فبينما لم يكن هؤلاء الوزراء ، آخر الأمر ، سوى رؤساء جند طامحين يطلبون الحكم لنفسهم وجندهم كما رأينا ، كان صلاح الدين من الرجال الأشداء الذين شاركوا نور الدين زنكى فى مجاهدة الصليبيين وكان يقدم مصر استجابة لمقتضيات هذا الجهاد على رأس جيش غريب تجمعه به عصبية حية ويفصل بينه وبين المجتمع الفاطمى الذى كان ينزل عليه اختلاف بعيد فى المستوى الاجتماعى[1] ، فضلا عن تميزه بما كان عليه من اتصال مباشر بتلك الأصقاع الأسيوية السحيقة التى كانت تطلق على العالم الاسلامى حينئذ سيلا لا ينضب من الترك والديلم والغز والأكراد والتركمان والمغل وسائر تلك الأجناس المتشابهة المتقاربة المتلاحقة التى لا نفهم من كنهها شيئا حتى اليوم[2] .

وكان أول ما فعله صلاح الدين بعد أن استجمعت له الأمور فى مصر أن أزال الجند الذين وجدهم فيها من سود ومصريين وعربان وأرمن وأحل محلهم الأكراد والترك الذين قدموا معه فى نحو ١٢ ألف فارس ثم انصرف الى التهيؤ لمقاتلة الصليبيين ومات وهو يشنها عليهم حربا عوانا العام تلو العام واقتدى أبناؤه به فى ذلك من بعده فكانوا ينفقون غالب وقتهم فى الشام ، ميدان هذه الحرب ، حتى اذا انتقل القتال الى سواحل الدلتا

(١) ومؤرخو ذلك العهد يلاحظون هذا الاختلاف فيقول القلقشندى ان الأيوبيين كانوا أول عهدهم لا يطرق بين أيديهم حين يسيرون ولا يلفون الشاش على رؤوسهم . « صبح الأعشى ». ويقول المقريزى وأبو المحاسن ان جند صلاح الدين كانوا يلفتون النظر اليهم بغلاظتهم وخشونتهم وبساطة حياتهم . « السلوك » و « النجوم الزاهرة » . انظر أيضا « الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى » لعبد اللطيف حمزه .

(٢) خطط المقريزى .

انتقلوا معه اليها . وكان صلاح الدين وخلفاؤه يعتمدون فى هذه الحرب على الأكراد من أبناء جلدتهم قبل غيرهم ويرسلون فى طلبهم من المشرق ثم انقسموا على أنفسهم وهبطت عصبيتهم فاستعانوا بالمرتزقة من الأجناس الأخرى واستخدم الصالح أيوب الخوارزمية ومماليك القجاق والأصقاع التى تليها ، وهم نفس المماليك الذين أنقذوا بعد ذلك دمياط من ملك فرنسا وقواته وقتلوا توران شاه ابن الصالح أيوب بالذات ثم انطلقوا ينكلون بأهل القاهرة تنكيلا يقول المقريزى انه فاق ما كان الصليبيون ينزلونه حينئذ بالثغور المصرية . وبمقتل توران شاه انتقل الحكم من يد الأكراد الذين قدموا مصر تدعوهم مقتضيات الدفاع عن الاسلام الى يد المماليك الذين حلوا محلهم فى هذا الدفاع والذين تحولوا بعد ذلك الى التصدى للزحف المغولى حين بلغ العراق وأطاح بالخلافة العباسية واتجه الى الشام ومصر . وقد آوت مصر حينئذ الخلافة العباسية واحتضنت المماليك ونزلت الى ميدان الجهاد من جديد لتمنع الاسلام من أشد خطر عرض له منذ نشأته وهو الخطر المغولى .

ونحن ننظر الى مصر فى هذه الفترة فنجد مجتمعا غريبا لا سابق عهد لها به ، مجتمعا تغلب على حياته فكرة الحرب : حرب المسلمين للنصارى وحرب المغل للمسلمين وحرب المماليك بعضهم بعضا وكل هذا فى وحشية كئيبة ، وسط فوضى بدوية لا توصف ، وبكثرة عجيبة حقا . ونجد فى مناصب الحكم الذى كان يقوم بشئون هذا المجتمع أولئك الأمراء الغلاظ من الأيوبيين والمماليك الذين كانوا ينفقون حياتهم فى الحروب وحولهم فرق من العسكر تخضع لارادتهم أو تخضعهم لارادتها وتوجه أمور الحكم كما تشاء . نجد دولة عسكرية من نوع الدول البدائية التى قامت فى الغرب بعد سقوط الامبراطورية الرومانية وقامت فى الشرق على انقاض الامبراطورية العباسية : جند فى الأسفل ثم أمراء عسكريون ثم قائد أعلى يزاول السلطات جميعا والجميع لا يعرفون لهم عملا غير القتال .

وهذه الفترة هى بعد الفترة التى بنيت فيها قلعة المقطم الموحشة

وأقيم سور القاهرة وأنشئت قلعة الروضة ، وهى أكبر الآثار الفنية التى بقيت لنا منها ان لم تكن الآثار الفنية الوحيدة .

* * *

ظهرت طائفة المماليك فى مصر تحت الأيوبيين واكتملت حدودها على الوجه الذى نعرفه الآن فى العهد الذى أعقبهم . وهى اذا من مستحدثات الجو المغولى الذى خيم على الحياة المصرية منذ نهاية القرن الثانى عشر ويجدر بنا لذلك ألا نتقيد ، فى توضيح ملامحها القانونية ، بأحكام الشريعة الاسلامية ، خصوصا اذا تأملنا اختصاص أبناء ذلك العصر ، بلفظ مملوك ، هؤلاء الأغراب دون غيرهم ممن مسهم الرق — وهو الحالة القانونية التى ينسبون اليها فى العادة — ووقفهم اياهم على القتال دون غيره من الأعمال التى يحق للسادة أن يوجهوا اليها عبيدهم ، والتزامهم فى معاملتهم حدودا لا تتفق وما نعرفه عن أصول الرق الصحيح كالاعتراف لهم بحق الملكية وتوريثهم فيما بينهم والسماح لهم بالانتقال من سيد الى سيد بمحض رغبتهم (١) .

والظاهر من وثائق ذلك العصر أن الأيوبيين كانوا يطلقون على أتباعهم ، أول عهدهم ، لفظ « الغلمان » ولا يستعملون فى الغالب لفظ « مملوك » الا فى رسائل الملوك والأمراء للتعبير عن اخلاصهم ووفائهم واستعدادهم للتضحية بكل غال فى سبيل حلفائهم أو من يخطبون وده ثم سقط استعمال لفظ « غلام » وحل محله لفظ « مملوك » دون أن

---

(١) وقد كان المماليك يتزوجون فى القاهرة بمصريات لم يمسهن الرق وكان أساتذتهم لا يملكون أى حق على نسلهم . كذلك كان السلاطين والأمراء يمنعون الجوامك من يعجز من المماليك عن حمل السلاح وينتهون الى فصلهم من الخدمة دون أن يتصرفوا فيهم بعد ذلك بالبيع أو ما يشبهه. انظر الأمثلة على ذلك فى خطط المقريزى .

ونحن نعلم أن الألفى بيع عند مجيئه مصر فى القرن الثامن عشر الى قاهرى يدعى أحمد شاويش ولكنه لم يعجب بأحمد شاويش هذا فطلب أن يباع لغيره وبيع فعلا لسليم اغا . تاريخ الجبرتى .

يفقد هذا المعنى أو يسقط من الوثائق الرسمية (١) . وقد شاع الاستعمال الجديد لهذا اللفظ فى الوقت الذى فترت فيه العصبية الأيوبية واضطر الأمراء الى البحث عن دعامة جديدة لحكمهم فاستخدموا الخوارزمية

---

(١) ونحن نقرأ مثلا فى النجوم الزاهرة : « يقال ان والده (والد العزيز صلاح الدين) لما كان بالشام والقاضى الفاضل عبد الرحيم بالقاهرة عند العزيز ولد للعزيز المذكور ولد فكتب القاضى الفاضل يهنىء والده السلطان صلاح الدين بولد ولده فقال : (« المملوك » يقبل الأرض بين يدى مولانا الملك الناصر) ... » .

« ولما مات (العزيز) كتب القاضى الفاضل الى عمه العادل رسالة يعزيه من جملتها ... وقد كان من امر هذه الحادثة ما قطع كل قلب وجلب كل كرب ومثل وقوع هذه الواقعة لكل احد ولا سيما لأمثال « المملوك » ... و « المملوك » فى حال تسطير هذه الخدمة جامع بين مرضى قلب وجسد » .
ونقرأ فى موضع آخر من نفس الكتاب :

« قال الأمير شمس الدين لؤلؤ : لما التقينا على حمص رأيت الخوارزمة خلقا عظيما وكنا بالنسبة اليهم كالشامة السوداء فى الثور الأبيض فقال لى غلمانى (يعنى مماليكه) ايها أحب اليك ... » .

« وذكر حسام الدين أنه سأل الفرنسيس عن عدة العسكر الذى كان معه لما قدم لأخذ دمياط فقال كان معى تسعة آلاف وخمسمائة فارس ومائة ألف وثلاثون ألف طبس سوى الغلمان والسوقة والبحارة » .

ويلاحظ أن لفظ الغلمان هنا لا يمكن أن يكون مرادفا للفظ العبيد فلم يكن بالجيوش الفرنسية حينئذ عبيد على ما نعلم .

كذلك نقرأ فى « السلوك » : « فاستحضره (اى الصاحب كمال الدين أبى جراده) الصالح وكرمه وزوده برسالة الى الصاحبة ضيفته خاتون منها : « يقبل (الملك الصالح أيوب) الأرض بين يدى الستر العالى ويعرفها أننى « مملوكها » وانى عبد بمحل الملك الكامل وانا اعرض نفسى لخدمتها » .

« هذا والمكاتبات ترد من الأمير فخر الدين وعنوانها من « فخر الدين الخادم ليوسف » فيجيب عليها الأمير حسام الدين ويجعل العنوان « المملوك أبو على » فيتجاملان فى ظاهر الأمر » .

« وقدم كتاب لمتملك الحبشة وهو الحطى يعنى الخليفة يخاطب السلطان فيه بعبارة « أقل المماليك يقبل الأرض وينهى به » .

« وقدمت رسل السلطان المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن بسول

ثم أسارى الحرب الناشئة وقتئذ • وكان هؤلاء وأولئك يرتبطون بهم برباط الوفاء ذلك الذى كانوا لا يغفلون الاشادة به فى مكاتباتهم والذى كان يحل محـل تلك العصبية المفقودة ويتخذ لونا عائليا يشف عنه عدّ مماليك السيد الواحد أنفسهم « خشداشيه » أى أخوة وتوارثهم فيما بينهم

ملك اليمن بعشرين فارسا عليها لامة الحرب وفيلة وحمارة وحش عنابية اللون وعدة تخت وطرف فجهزت له خلعة وسنجق وهدية فيها قميص من ملابس السلطان كان قد سأل فيه ليكون له أمانا وسير اليه أيضا جيوش وغيره من آلة الحروب وقيل له : « قد سيرنا اليه آلة السلم وآلة الحرب فيما لاصق جسدنا فى مواطن الجهاد » . وكتب له : « المقام العـالى المولوى السلطانى » وكتب له السلطان بخطه « مملوك » .

ويعلق الدكتور محمد مصطفى زيادة على استعمال هذا اللفظ فى هذا المكان فى هامش كتاب « السلوك » فيقول : « جرى المصطلح فى دولة المماليك أن ينعت السلطان نفسه بهذا اللفظ فى المكاتبات الصادرة منه الى الملوك والكبار (أنظر القلقشندى صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٤٥ — ٣٧٠) » .

ويلاحظ استعمال لفظ متملك فى كلام المقريزى بمعنى حاكم وهو مشتق من أصل لفظ مملوك • وقد كان المملوك على كل حال أرفع شأنا من الخادم وهو عادة شخص حر فنحن نقرأ فى تاريخ ابن اياس : « وفى يوم الاثنين رابع عشريه أشيع أن طائفة الاصباهية وقفوا الى ملك الأمراء وقالوا مثل ما أنفقت على الانكشارية أنفق علينا أيضا ، فقال لهم الانكشارية مماليك الخنكار وأنتم خدامه وما عندى ما أنفقه عليكم » •

ونقرأ فى موضع آخر من نفس المرجع :

« وقد صارت المماليك الجراكسة فى غاية الذل من الفقر والعرى ومنهم من سأل الناس فى رغيف يقتات به ومنهم من يطوف فى الأسواق يسأل التجار والسوقة فى درهم يشترى به كبشة فول يأكلها فسبحان من يعز ويذل وصاروا يغشون الأسواق لاخيول لهم ولا قماش ولا سلاح ولا بيوت تأويهم ولا اسطبلات ولا عبيد ولا غلمان » •

ويلاحظ هنا تفرقة ابن اياس بين العبيد والغلمان مما يدل على أن هؤلاء لم يكونوا عبيدا بالمعنى الصحيح • كذلك يلاحظ ما يفهم من قوله ان المماليك كانوا يملكون العبيد •

واطلاقهم على سيدهم لفظ الأستاذ[1] أى الوالد أو المخدم ، وهو أمر يذكرنا ببعض عادات المغل وقوانينهم ان لم تكف لتذكيرنا بها الظروف التى ظهر فيها المماليك والتقاليد الاجتماعية التى نعرفها عنهم • فنحن نعلم أن قوانين التوريث التى كان يأخذ بها المغل فى ذلك الوقت كانت تقصر انتقال العقـار بالوفاة على أصغر أبناء المتوفى وتقسم ثروته المنقولة فى بقية الأبناء كل حسب مواهبه فالخيل لأشجعهم والغنم لأدمثهم وهكذا • وكان هذا النظام يؤدى الى بقاء غالب الورثة بتركة زهيـدة أو دون تركة البتة ، الا فى الحالات القليلة التى يكون فيها المتوفى ذا ثروة طائلة ، ويدفع لذلك بأكثرهم الى ترك عائلاتهم والسعى خلف من يستطيعون أن يبيعوه العمل الوحيد الذى يحسنونه وهو مهنة القتال • ولما كانت علاقات العمل بين المغل تتفرع حينئذ فى الغالب على علاقة القربى وكانت الألفاظ التى يطلقونها على مختلف درجات هذه القربى عادة ألفاظا عسكرية فقد كانت العلاقة بين هؤلاء المهاجرين والسيد الذى يأويهم تتخذ شكل التبنى ويعبر عنها بألفاظ عسكرية وتعقد بنفس الطرق التى كانت تتبعها قبائل المغل فى حالات التبنى العادية من مزج بعض دم المتبنى والمتبنَى باللبن الى القسم على انشاء العلاقة الجديدة الى مجرد تبـادل القبول والايجاب • وكانت الى ذلك تنتج جميع آثار التبنى العادى فيتمتع المتبنون بحقوق الأبناء الشرعيين ويحملون لقب عائلتهم الجديدة والاسم الذى يطلقه عليهم آباؤهم الجدد • ومن هذا القبيل كانت علاقة جنكيزخان وتيمورلنك وكثـير من رجالات المغل بملوك آسـيا الوسطى فى ذلك العصر[2] • وواضح أن العلاقة التى كانت تقوم بين المهـاجر ووالده الجديد على هذا الوجه تختلف فى جوهرها عن علاقة العبد بسيده وان انطوت على ما تنطوى عليه علاقة البنوة الطبيعية فى المجتمع البدوى ،

---

(١) كان لفظ الأستاذ يطلق أيضا على أصحاب الاقطاعات فيما يتعلق بفلاحيهم فنحن نقرأ فى تاريخ ابن اياس : « وصار جماعة من الفلاحين اذا أتاهم قاصد من باب استاذهم » . ومن المعروف أن الفلاحين لم يكونوا عبيد أصحاب الاقطاعات بحال من الأحوال .

(٢) Cahun: Introduction à l'histoire d'Asie. (كاهون: « مقدمة لتاريخ آسيا ») .

خصوصا فى آسيا الوسطى فى ذلك الزمن ، من عناصر تصورنا للرق مثل استطاعة الآباء التصرف فى حياة أبنائهم كما يشاءون[1] وخضوع الأبناء لآبائهم خضـوعا يشل ارادتهم ، أو على ما تنطوى عليه علاقة العمل فى المجتمع الزراعى القديم من تحول العامل الى مثل متاع لصاحب عمله[2] ، وغلبة الذلة على صلات الطرفين ، وهى غلبة لا تستغرب خصوصا فى مجتمعات آسيا الوسطى أى الأرض التى ابتدعت مراسيم تقبيل الاقدام والتمرغ فى التراب والانحناء العميق . وهذه هى المراسيم التى أصبحت تنسب الى الشرق جميعا منذ أن شهدها الصليبيون فى آسيا الصغرى تحت المماليك . والذى يهمنا مما تقدم هو أن هذه العلاقة تشبه العلاقة التى كانت تقوم بين مماليك مصر وأساتذتهم . فقد رأينا الأشكال العائلية التى كانت

---

(١) ومعروف أن قوانين روما القديمة أيضا كانت تبيح للآباء بيع أبنائهم ورهنهم .

كذلك يلاحظ أن أهل بعض بلاد آسـيا كالصين واليابان لا يزالون يتخلصون من أبنائهم بعد الولادة مباشرة أو بعد ذلك بقليل بقتلهم أو القائهم أو اعطائهم للغير وذلك لغزارة النسل بتلك البلاد . وقد نقلت الينا الجرائد فى نهاية الحرب الأخيرة أن بعض أهالى فرنسا أيضا كانوا يبيعون أبناءهم سعيا وراء المال أو رفقا بهم .

ونحن نقرأ فى أهرام ١٤/١٢/١٩٤٧ تحت عنوان « لبنانى يشترك فى شراء فرقة » :

« ذكرت صحف امريكا وروى الخبر مراسل « الأهرام » بنيويورك أن المستر ستيفن هانيفان ـ ناظر بريد الولايات المتحدة ومدير اللجنة الوطنية للحزب الديمقراطى ـ اشترى فرقة « كاردينال » للعبة كرة البيسبول المحترفة والتى تجرى على لعبتها مضاربات ومراهنات تدر السمن والعسل . وبلغ ما اشترى به هذا الجرىء هذه الفرقة أكثر من ثلاثة ملايين من الدولارات وظهر أنه اشترك معه فى هذه الصفقة اللبنانى «فريد صائغ» وهو من والدين من جديد مرجعيون ومن سكان ستريتر من أعمال ولاية الميونيز ونشأ فى سانت لويس ومن حملة أجازة الحقوق وله شهرة واسعة فى المحاماة ، وهو نائب رئيس فرقة كاردينال الجديدة وامين صندوقها . والشراء فى العـرف الرياضى معناه توظيف اللاعبين المحترفين بعقود » .

(٢) وقد كانت علاقة العمل فى العالم القديم تختلط عادة بعلاقة القربى وتشبه فى كثير من الوجوه علاقة الرق .

تتخذها هذه العلاقة عادة ، ونحن نعلم أن كثيرا من المماليك المصريين هبطوا القاهرة مختارين فلم يكونوا دائما من الأسارى أو المتخطفين ، ونعلم أيضا أنهم كانوا ينصرفون جميعا الى صناعة الحرب دون غيرها . ولا يقدح فى هذا ما كان يصحب التحاق المماليك بأساتذتهم ، بعد انفجار الحرب فى آسيا وتكاثر الأسرى واقبال المغل على ارسالهم الى حلفائهم البنادقة نظير ما كانوا يقدمونه اليهم من الخدمات أو الألطاف أو الأموال ، أو بعد استقرار النظام المملوكى وتحوله فى العهد العثمانى الى نظام التجنيد الوحيد الذى كانت تعتمد عليه البلاد لحفظ امنها فى الداخل والخارج ، من مكافأة الأساتذة من كان يجلب اليهم مماليكهم ببعض المال ، وان كان علماء المسلمين يرون فى ذلك ضربا من النخاسة ان لم تكن النخاسة بعينها ، ما دام هؤلاء المماليك يضعون حياتهم رهن اشارة أساتذتهم مقابل ما يؤديه هؤلاء لمن يجلبهم والأرزاق التى يصرفونها لهم ويختلفون فى ذلك عن الأجناد العاديين الذين يخاطرون بحياتهم فى سبيل ديارهم ولا يلعب الأجر فى علاقتهم بهذه الديار ، حين ظهر ، الا دورا ثانويا[1] .

والواقع أن نظام المماليك كان ، كغالب نظم الدولة المملوكية ، شيئا قائما بذاته تختلط فيه تقاليد المغل بالشريعة الاسلامية بأنظمة العصر ، فكان المملوك يعطى أسـتاذه ما اعتـاد آباؤه أن يعطوه من آواهم ، أى عمله وقت السلم وسيفه وقت الحرب ، وكان أساتذتهم يقدمون اليهم ما اعتاد أمثالهم أن يقدموه الى من التحق بهم من أولئك الغرباء المهاجرين ، أى طعامهم وكساءهم وما يحتاجون اليه من أدوات القتال ، ولم يكن الجعل

---

(١) من المعروف أن الدول القديمة كانت لا تأجر جندها من الوطنيين أو تقوم بنفقاتهم فى الحرب ولا تمنحهم مقابل اشتراكهم فى القتال سـوى بعض غنائمه . وقد كانت الحال كذلك فى مصر أيضا فى العصر الاسلامى فيما يتعلق بالمصريين حين كانوا يشتركون فى الجهاد . انظر دائرة المعارف الفرنسية والايطالية و « السلوك » .

ولا حاجة بنا الى القول بأن العقود التى يدخلها عنصر المال لا تصير جميعا عقود شراء ضرورة فالمسلمون يشترطون أن يؤدى الأزواج الصداق لزوجاتهم كيما يصير الزواج صحيحا والمسيحيون والاسرائليون يقرون تأدية الزوجات الصداق لأزواجهن ومع ذلك لا يعد عقد الزواج عقد شراء فى دين من هذه الاديان الثلاثة .

الذى كان التاجر البندقى أو المشرقى يتقاضاه مقابل جلبه المملوك الى مصر ، سواء كان هذا قد قدم له نفسه طائعا أو قدمه اليه الجندى أو الأمير الذى سباه أو والد مدقع يرجو الخير لذريته ، الا عنصرا طارئا قد يشبه الجعل الذى تتقاضاه مكاتب التوظيف الآن عن توظيف من يلجأون الى خدماتها ، ولم يظهر على كل حال الا حين اتصل المجتمع الاسلامى بهؤلاء الغرباء واتجه الى الانتفاع بهم فى الحروب • وكان المجتمع الاسلامى يرى فى هذه العملية وفى علاقة المملوك بأستاذه علامات الرق وان شعر بعد ذلك أنه رق من نوع خاص ورأى كيف كان هذا اللفظ يضيق بالمعنى الذى كانت تنطوى عليه هذه العلاقة فوضع له لفظ « مملوك » وعامل الذين يحملونه بالسماحة التى توصى بها الشريعة الاسلامية نحو الرقيق •

وفى اتصال ظاهرة المماليك هذه بالغزو المغولى[1] ما يكشف لنا عن سر ارتفاع عددهم حينا وهبوطه حينا آخر تحت الأيوبيين والسلاطين البرجية • فنحن نعلم أن البنادقة كانوا يرسلون مماليك القجاق الى مصر منذ سنة ١٢٢٣ ولكنهم ضعفوا عددهم منذ سنة ١٢٣٨ وهى سنة غزو المغل تلك الديار[2] • وقد بلغ اقبال المماليك على مصر أشده فى عهد أيبك وقطز وبيبرس وكتبغا ، وهو عهد اشتداد الغزوات المغولية ، حتى كانت تعج بهم القاهرة ثم جعل يهبط بعد ذلك حتى وصل ثمنهم تحت الناصر الى أرقام غاية فى الارتفاع • كذلك فى هذا الاتصال وفيما ذكرنا من تقاليد المماليك ما يعين على توضيح حركتهم والخروج بها من الحدود التى توضع فيها عادة كحركة عبيد شراء ارتفعوا الى السلطان وفرضوا أنفسهم على بعض شعوب الشرق • فلم يكن الرجال الذين استطاعوا الوقوف فى وجه المغل والانتصار عليهم فى الوقت الذى قدروا فيه على اكتساح أوروبا الوسطى والقضاء على جيوش أشد أممها بأسا كبولونيا وهنغاريا وألمانيا ، مضافا اليها ما لحق بها من امدادات فرنسية وايطالية ، فيما

(١) كاهون •

(٢) ونحن نعلم من المقريزى أن أعداء السلطان لاجين من الأمراء هم الذين حرضوا التتار على مهاجمة الشام فى أيامه وأن المماليك كانوا ينضمون الى التتار كما كان هؤلاء يلحقون بهم فى مصر ويتزوجون منهم • انظر « السلوك » •

لا يزيد على ثلاثة أيام[1] ، عبيدا بالمعنى الذى نفهمه الآن حين نذكر عبيد أمريكا أو أفريقيا أو اليونان أو روما • ولم يكن أمرهم أمر ضعفاء قووا أو وضعاء تجبروا بل شكلا غريبا من أشكال الغزو السلمى ان صح هذا التعبير : شعوب فتية تتطاحن فتنتشر أشلاؤها خارج الحدود وتتجمع وتربو حتى تغمر البلاد التى تجمعت داخلها كما لو دخلتها فاتحة[2] • وهى تحتفظ أثناء ذلك بمميزاتها العنصرية من شغف بالقتال وشدة بأس وقوة احتمال فتمكنها هذه المميزات من الارتفاع الى حكم هذه البلاد فى وقت تقتضى حالة الحرب التى تحيط بهذا الحكم أثناءه أن يتعهد به الى العسكريين ويمنع لونه الدينى المحكومين أن يستهجنوا انتقاله الى أيد

(١) Brian Channov: La Russie.

(٢) يصف المقريزى دخول أحد أفواج هؤلاء المغل القاهرة تحت السلطان كتبغا وهو فوج الاويراتية فيقول : « ولما قرب الجماعة من القاهرة خرج الأمراء بالعسكر الى لقائهم فاجتمع الناس من كل مكان حتى امتلأ الفضاء للنظر اليهم فكان لدخولهم يوم عظيم وصاروا الى قلعة الجبل فأنعم السلطان على طرغاء مقدمهم بأمرة طلبخانة وعلى اللصوص بامرة عشرة واعطى البقية تقادما فى الحلقة واقطاعات وأجرى عليهم الرواتب وانزلوا بالحسينية . وكانوا على غير الملة الاسلامية فشق ذلك على الناس وبلوا مع ذلك منهم بأنواع البلاء لسوء أخلاقهم ونفرة نفوسهم وشدة جبروتهم . وكان اذ ذاك بالقاهرة ومصر غلاء كبير وفناء عظيم فتضاعفت المضرة واشتد الأمر على الناس وقال فى ذلك الأديب شمس الدين محمد بن دنيا :

ربنا اكشف عنا العذاب فانا
قد تلفنا فى الدولة المغلية
جاءنا المغل والغلا فانسلقنا
وانطبخنا فى الدولة المغلية

ولما دخل شهر رمضان من سنة خمس وتسعين وستمائة لم يصم أحد من الاويراتية وقيل للسلطان ذلك فأبى أن يكرههم على الاسلام ومنع من معارضتهم ونهى أن يشوش عليهم أحد واظهر العناية بهم وكان مراده أن يجعلهم عونا له يتقوى بهم فان الاويراتية كانوا من جنس كتبغا وكانوا مع ذلك صورا جميلة فافتتن بهم الأمراء وتنافسوا فى أولادهم من الذكور والاناث واتخذوا منهم عدة صيروهم من جملة جندهم . فكان بعضهم يستنشد من صاحبه من اختص به وجعله محل شهوته ثم ما قنع الأمراء بما كان منهم بمصر حتى أرسلوا الى البلاد الشامية واستدعوا منها طائفة كبيرة فتكاثر نسلهم فى القاهرة واشتدت الرغبة فى الكافة فى أولادهم على اختلاف الآراء فى الاناث والذكور فوقع التحاسد بين أهل الدولة الى أن آل الأمر بسببهم وبأسباب أخرى الى خلع السلطان الملك العادل كتبغا من الملك » • خطط المقريزى •

غريبة • كان شكلا من الأشكال التى اتخذها غمر الطوفان المغولى آسيا وأوروبا فى القرن الثالث عشر وكان انهيار الخلافة العباسية واحتلال روسيا واصطباغ أوروبا الشرقية بالصبغة المغولية ثم ظهور الامبراطورية العثمانية وتهديدها أوروبا حتى نهاية القرن السابع عشر من بعض آثاره[1] •

ونحن لا نعلم بالتحديد كم كان عدد المماليك فى الفترة بين الصالح أيوب وقلاوون ، وهى الفترة التى طغت موجة المشارقة أثناءها على مصر ، حذر الغول المغولى ، ولكننا نعلم من المقريزى أن مماليك المعز[2] كانوا شيئا وفيرا وأن مماليك قلاوون كانوا عشرة آلاف ومماليك ابنه اثنى عشر ألفا وجند مصر العاملين جميعا من غير العربان ، حول ذلك الوقت، ٢٤٫٦٣١ جنديا ، ينقسمون الى فرق من عشرة ثم من أربعين ثم من مائة مملوك على رأس كل منها أمير يقودها ، وهو نظام كانت تأخذ به جيوش جنكيزخان وأبناؤه فى ذلك الوقت[3] • كذلك نعلم أن المماليك كانوا يخضعون ، كغيرهم من أهل المجتمع فى مصر حينئذ ، لنظم طائفية محكمة

(١) Brian Channov: La Russie.

(٢) يقول ابو المحاسن انهم كانوا يفوقون فى العدد مماليك الملوك الذين تبعوا المعز . « النجوم الزاهرة » .

(٣) عرف الأغريق والرومان أيضا الجند المرتزقة حين تحول الحكم لديهم الى حكم شخصى ، أى فى عهد الحكومات الملكية المستبدة اليونانية وفى نهاية الجمهورية الرومانية ، وكانوا يدعونهم peregrini miiites أو mercenari milites أى الجند الأغراب او المأجورين • ويلاحظ ان لفظ mercenari يتضمن المعنى الذى تقصد اليه الآن حين نقول «رجلا مباعا» أى رجلا لا يمتنع عن شىء فى سبيل ما يعطى من مال . وكان هؤلاء الجند يفقدون عادة حقوقهم السياسية ولا تقوم علاقتهم بقوادهم الا على اساس الأجر • وقد تحول هذا النظام الى النظام الاقطاعى فى أوروبا حين ارتدت هذه الى الاقتصاد الزراعي فى عصر الوسط واصبح الجند المرتزقة يتقاضون اجورهم اقطاعات زراعية . وشجع هذه الظاهرة اتجاه المجتمع الأوروبى وقتئذ الى تضييق وظيفة الدولة واتخاذ الحروب طابع النزاع الشخصى بين الملوك ثم انصراف المدن الى الصناعة والتجارة ، فقد كان كل ذلك يدفع بالحكومات الى اعطاء الحروب لقواد الجند المرتزقة . وقد بلغ هؤلاء القواد شأنا عظيما من النفوذ فى القرن الخامس عشر خصوصا فى ايطاليا حيث كانوا يتحكمون فى مصير البابوات والامارات الايطالية المختلفة ويقيمون الامارات الخاصة بهم مثل امارة بيروجيا التى اقامها Braccio da Monte فى سنة ١٤٢٤ وامارة برجامو التى انشأها B. Colleoni وامارة ميلانو التى انشأها F. Sforza • انظر دائرة المعارف الايطالية .

فيبدأون صبية متعلمين لا يبرحون دور أساتذتهم ماداموا فى دور التدريب ويمرون بمثل المراحل التى يمر بها الصبية فى طوائف أهل الحرف عادة قبل أن يصيروا مماليك ، أعنى جندا : جندا مرتزقة كأولئك الذين يظهرون عادة حين تميل الدول الى الزوال لضعف نسل أهلها — روما — أو ضعف عصبية الطبقة الحاكمة فيها — العباسيون — أو تتجه بعض الأسر الى اقامة ملكيات جديدة — الجمهوريات الاغريقية والبطالمة والدول الحديثة جلها — أو تتسع الامبراطوريات الشخصية ويتنوع مستوى شعوبها الاجتماعى ويختص بعض هذه الشعوب بصناعة الحرب — الامبراطورية البيزنطية والفاطميون — فيحتاج الحكام الى جند مجلوبين لا يتأثرون بمؤثرات مجتمعهم ويرتبطون بأشخاصهم • وقد يتسع أمر هؤلاء الجند بعد ذلك فيستبدون بالحكم كما حدث فى الجمهورية الرومانية أو يكونون أساس الدولة كما حدث فى أوروبا الاقطاعية أو يرتفعون الى الصدارة كما حدث فى امبراطورية المماليك •

وكانت طائفة المماليك تتكون من الأجناد ثم الأمراء من مختلف الدرجات ثم السلطان • والأجناد والأمراء ، فى الأصل ، هم الذين ينصّبون السلطان[1] ، ولكن الأمراء هم الذين يزاولون هذا الحق عادة فيختارون بينهم من يشاؤون أو يقرون من يستولى منهم على السلطة بالعنف • وهذا الاستيلاء من الوسائل المشروعة للوصول الى الحكم بل الوسيلة التى يغلب اتباعها حتى أيام العثمانيين ، وفى ذلك تقليد آخر من التقاليد المغولية الكثيرة التى عرفتها مصر فى ذلك العهد[2] •

(١) وابن اياس يقول ان الظاهر تمربغا خلع لأن العسكر لم توافق على ابقائه .

(٢) « فلما قتل قطز سار الأمراء الذين قتلوه الى الدهليز السلطانى واتفقوا على سلطنة الأمير بيبرس فقام الأمير اقطاى المستعرب الأتابك وكان بالدهليز وقال للأمراء عند حضورهم : « من قتله منكم ؟ » . فقال الأميربيبرس : «انا قتلته» . فقال الأمير اقطاى : «ياخند اجلس فى مرتبة السلطنة مكانه» . «السلوك» .

ونحن نقرأ فى «مصر فى العصور الوسطى» لعلى ابراهيم حسن : «وكان الاعتقاد السائد أن قاتل السلطان يجب أن يخلفه على العرش فان بيبرس حين سأله الأمير فارس الدين اقطاى نائب السلطنة مع بقية الأمراء عمن قتل قطز قال : « أنا قتلته » ورد اقطاى فى بساطة تستدعى الدهشة ، « ياخوند اجلس فى مرتبة السلطان مكانه » . ولما قتل السلطان خليل فى

والسلطان يعين الأمراء والأجناد ويوزع فيهم الاقطاعات والوظائف ويشرف على شئونهم جميعا . والأمراء ، كما يقول القلقشندى ، سلاطين صغار لكل منهم أقطاع وديوان يديره ومماليك يقودهم[١] ، وهم يشتركون فى سياسة الدولة كأعضاء فى مجلس الأمراء ويشغلون الوظائف العسكرية وبعض الوظائف الادارية الكبرى . والأجناد قوات عاملة واحتياطية : والقوات العاملة تتكون من مماليك السلطان ومماليك الأمراء وتتقاضى مرتباتها من اقطاعات السلطان واقطاعات الأمراء ، والقوات الاحتياطية تتكون من جند الحلقة ، أى ممن يختارهم السلطان من أبناء الأمراء لحمل السلاح . والاقطاع هو الصورة الأصلية لصرف مرتبات السلطان والأمراء وجند الحلقة ، وهؤلاء جميعا لا يحتفظون به الا ما داموا أهلا لحمل السلاح ، فاذا سقطت أهليتهم هذه سقط الاقطاع ، وهم ملزمون أثناء ذلك بصيانة الاقطاع والقيام بما تقتضيه من أشغال خاصة وعامة . والدولة هى مجموع هذه الاقطاعات[٢] بمن يشرف عليها من الأمراء ومن تعوله من المماليك وما تصرف عليه من أشغال عامة . ومن هنا نظرة السلاطين والأمراء والمماليك الى الدولة نظرتهم الى متاع خاص

الحمامات بمديرية البحيرة اتفق الأمراء قبل ان يبرحوا مكان الجريمة على تولية قاتله بيدرا العرش على نحو ما فعله الأمراء حين تشاوروا فى الصالحية بعد قتل قطز . وبعد ان تم لكل من الأميرين طلغجى وكرجى قتل السلطان لاجين بينما كان جالسا فى قصره يلعب الشطرنج عقدا بعد مقتله بيومين اجتماعا حضره الأمراء وقام كرجى وقال : « يا أمراء أنا الذى قتلت السلطان والملك الناصر صغير ما يصلح ولا يكون سلطان الا هذا » واشار لطلغجى « وأنا نائبه » .

وفييت يحصى عدد سلاطين المماليك الذين ماتوا موتا طبيعيا فيجدهم لا يزيدون على ثلاثة عشر (G. Wiet: Les mosquées du Caire، « جوامع القاهرة») .

(١) ظلت الدولة تهتم بأمور مماليك الأمراء حتى بعد اضافة اقطاعاتهم الى اقطاع الأمراء فى عهد لاجين فالنويرى يقول ان دواوين الأمراء كانت ترسل الى مباشر الجيش قوائم جندهم وكيفية صرف الاقطاع على الأمير ورجاله . وكان الجند المذكورون فى الاقطاع يعرضون على ولى الأمر فيجيز من يجيز ويرفض من يرفض . « نهاية الأرب » . ونحن نعلم من المقريزى أن بيبرس قتل سنقر الرومى لأنه قتل مملوكين من مماليكه بغير ذنب . « السلوك » .

(٢) يرى محمد فريد أن المماليك لم تقم لهم دولة واحدة كالعباسيين والعثمانيين بل امارات مختلفة وهكذا يكون أول من شمل المسلمين فى دولة واحدة بعد العرب هم بنو عثمان . « تاريخ السلطنة العلية » .

يملكونه وقيام الصلة بينهم على علاقة الأجر قبل كل شيء . فالجند لا يتحركون للقتال ولو أصبح العدو على الأبواب ان لم ينالوا أرزاقهم أوما يطالبون به من زيادة فيها . والأمراء يطمحون الى الحصول على الاقطاع الأكبر وهو اقطاع السلطان ولا يتحرجون عن خيانة الدولة فى سبيل ذلك . والسلطان يسطو على اقطاعات الأمراء ويستصفى الأموال ويتجر بسلطته ما استطاع . ومن هنا أيضا طابع الغدر والتهتك والتحرز الذى ينفرد به المجتمع المملوكى . فالسلطان دائم العناية بشراء المماليك ليدفع بهم غائلة الأمراء ، وهو ما يكاد يتم له بعض ذلك حتى يلجأ الى الفتك بهم واعطاء وظائفهم واقطاعاتهم مماليكه حتى تخلص لهم وله الدولة . وهو أثناء هذا قابع بين أسوار قلعة الجبل لا يكاد يبرحها ، يستقبل الأمراء جالسا بين مماليكه ولا يسمح أن يتحدث بعضهم الى بعض بحضرته أو يتزاوروا فيما بينهم فى أوقات الفراغ[١] . والأمراء يتآمرون ويتربصون فى غير ما كلل حتى اذا آذنت الساعة وثبوا على السلاطين وفتكوا بهم وسلبوهم عرشهم . والمماليك يثورون كلما اضطرب الامن وأمنوا العقاب .

وبطش أهل هذا المجتمع بعضهم بالبعض يتخذ أشكالا قاسية ممعنة فى القسوة كالتوسيط والاجلاس على الخازوق والتمزيق ، أو مزرية بالغة الازراء ، كضرب السلطان الأمراء بالمقارع على رؤوس الأشهاد أو تجريدهم من ثيابهم أو تطويقهم فى الطرق ، ولكنه لا يظهر الا فى حينه أما قبل ذلك وبعد ذلك فالذلة فى أرذل مظاهرها اذ يستعبر السلاطين ويؤكدون حبهم للأمراء واعتمادهم عليهم اعتماد الأخ على أخيه ، ويدارى الأمراء السلاطين ويلثمون أيديهم ويتمرغون عند أقدامهم ، ويفعل المماليك مثل ذلك وما هو شر منه . وهذا هو ما يحدث كل يوم أى انه ليس بالشيء الشاذ فكل سلطان يجب أن يفتك ببعض أمرائه ، وكل أمير يجب أن يطمع ويتآمر ويتحفز ، وكل مملوك يجب أن يتربص ويعتدى ويسطو ، وما يحدث شيء من ذلك حتى تقفل القلعة أبوابها ويشيع الاضطراب ويفعل كل ما يريد بمن يريد .

---

(١) خطط المقريزى .

ونحن نجد فى تكوين الدولة المملوكة هذا أيضا بعض تقاليد المغل ؛ فمعروف أن الحكم المغولى يقوم على أكتاف حملة السلاح ولا يعترف بحقوق سياسية لسواهم • وهو يدير أمور الدولة كما تدار الضياع ويجهل حدود القانون العام ولا يفرض على من يتولونه غير أن يضمنوا الغذاء والشراب والكساء لرعاياهم ، فاذا لم يستطيعوا فلا حكام ولا محكومون ، ومن حق هؤلاء أن ينفضوا ويبحثوا لهم عن حكم آخر[١] • ولعل بعض هذا التصور للحكم يرجع الى الدور الاجتماعى الذى كان يجتازه المغل حينئذ بدليل وجوده لدى غيرهم ، ولكن الذى لا شك فيه هو أن طابع القسوة الرهيبة هذا الذى امتاز به الحكم المملوكى كان من خواص أهله ، وان هـذا الحكم كان أول حكم دفع بالدولة فى مصر الى هـذا المستوى البدائى وجعل منها مرتعا خصبا تضرب فى أرجائه بضعة آلاف من جند مستجلبين لا يحسنون سوى الفتك والغدر والتعذيب فى غير هوادة أو كلل • كذلك لا شك فى أن قيام النظام المملوكى على استجلاب رجاله من الخارج كان من الأسـباب التى وقفت دون تطوره التطور الطبيعى وحفظت عليه الطابع البدائى هذا الذى انفرد به • وقد أخفق السلاطين فى اقرار مبدأ وراثة العرش رغم ما حاولوه فى سبيل ذلك وبقى قتل السلاطين الوسيلة المفضلة للوصول الى الحكم وظل الأمراء الى العهد العثمانى لا يتوارثون الاقطاعات بل لا يضمنون الاحتفاظ بها حتى آخر أيامهم ولا يستطيعون أن يكفلوا لأبنائهم أكثر من اقطاع ثانوى من اقطاعات جنـد الحلقة وهو اقطاع قد يصل وقد لا يصل بهم الى مناصب الحكم • كذلك كان المماليك يفقدون كل شىء بخروجهم من الخدمة فلا يبقى لأبنائهم غير الانخراط فى حرفة من الحرف • وهكذا كان أهل هذا النظام يتجددون تباعا ولا تكاد تتهذب نفوسهم أو تتأقلم حتى يتركوا مراكزهم ويحل محلهم من استجلب غيرهم من الخارج بعقليتهم وأمزجتهم وطبيعتهم البدائية التى لم تصقل • وقد زاد مافى ذلك من شر حين انحسرت الموجة المغولية وقل أسرى الحرب ولم يبق من سبيل الى تغذية هذا النظام بغير قبول من كان يقدم مصر من قوقازيين معدمين أو أطفال مسروقين أو صبية تعساء دفع بهم أهلهم الى من يبحث لهم عن

(١) كاهون •

سيد يأويهم اذ هبط مستوى المماليك وصاروا حثالة تلك البلاد بعد أن كانوا من خيرة شباب آسيا الوسطى وأبناء أعرق أسرها أحيانا • ونحن نعلم أن المماليك البرجية كانوا يستحبون آخر عهدهم الاشتغال بالبيع والشراء على صناعة الحرب[١] ويقبلون النزول عن بعض أرزاقهم لمن يقبل السير الى القتال بدلهم ويبلغون من الجهل بفنون القتال حد أن يمنعهم السلاطين أرزاقهم[٢] • ونعلم أن انحطاطهم هذا وانصرافهم عن شئون الحرب وهبوط عددهم كان من الأسـباب التى مكنت جيوش بنى عثمان الغزيرة من القضاء على الحكم المملوكى واقامة الحكم العثمانى الذى كان يفوقه بداوة وخشونة وعسفا[٣] •

وقد امتد هذا الحكم العسكرى بعد ذلك حتى ظهور محمد على وكان له بدوره فى حياة البلاد آثار ضخام ، سنحاول أن نحلل فيما يلى ما يهمنا منها فى هذا البحث ، مما يتصل ١ — بالملكية الزراعية و ٢ — النشاط الاقتصادى و ٣ — الدورة الاجتماعية ، مقارنين عند الحاجة بين الحالة التى أوجدها والحالة التى سبقت ظهوره فى العهد العربى •

— ١ —

كان الجند الذين فتح عمرو بن العـاص بهم مصر من القبـائل العربية التى وجهها الخلفاء الى الفتوح ، وهى قبائل كانت تجمع بين أعضائها الوحـدة القبلية ، وتجمع بينها وبين الخلفاء العصبية الجنسية المشتركة ، من الناحية الاجتماعية ، والعلاقة الدستورية التى تقوم بين الحكام والمحكومين ، من الناحية القانونية • وقد ظلت هذه حال القوات العسكرية فى مصر الى أن ظهر الأتراك فى الدولة العباسية • ونحن لا نعلم على وجه التحديد كيف كانت تتكون قوات الولاة العباسيين المتأخرين

(١) خطط المقريزى •
(٢) تاريخ ابن اياس •
(٣) « وأما عسكره (عسكر السلطان سليم) فكانوا جميعاً عيونهم دنية ونفوسهم قذرة يأكلون الأكل وهم راكبون على خيـولهم فى الأسـواق وعندهم عفاشة فى أنفسهم زائدة وقلة دين ويتجاهرون بشرب الخمـر فى الأسواق بين الناس ولما جاءهم شهر رمضان كان غالبهم لا يصـوم ولا يصلى فى الجامع ولا صلاة الجمعة الا قليلا منهم ولم يكن عنـدهم أدب ولا حشمة وليس لهم نظـام يعرف لا هم ولا أمراؤهم ولا وزراؤهم وهم همج كالبهائم » . تاريخ ابن اياس . وهو يقول أيضا ان بنى عثمان منعوا تجار الرقيق من تزويد مصر بالمماليك قبل أن يهاجموها •

حتى عهـد ابن طولون وان كان من السهل أن نستنتج مما نعرفه عن جيوش العباسيين فى ذلك الوقت انها كانت تضم عددا غير قليـل من الأتراك • أما قوات ابن طولون فالمقريزى يقول انها كانت تتكون من ٤٠ ألف أسود و ٢٤ ألف تركى و ٧ آلاف مرتزق • كذلك يقول المقريزى ان قوات الأخشيديين كانت تتكون من ٤٠٠ ألف مقـاتل من الـسود والترك المرتزقة • وقد هبط الفاطميون مصر بعـد ذلك فظهر المغاربة فى الجيش ولكنهم لم يستأثروا به فالمقريزى أيضا يقول ان العزيز بالله كان يستخدم الديلم والترك ويقدمهم على المغاربة والصقالبة من جند والده • وناصر خسرو — وقد زار مصر أيام الفاطميين — يقول ان قوات الخليفـة المستنصر كانت تتكون من ٢٠ ألف فارس كتـامى و ١٥ ألف مغربى و ٢٠ ألف أسود و ١٠ آلاف مشرقى بين تركى وعجمى ولد غالبهم فى مصر[١] و ٣٠ ألف عبد أسود ومشترى و ٥٠ ألف بدوى من الحجاز و ١٠ آلاف رجل من أجناس مختلفـة وفرقة كاملة من أبناء الملوك وأمراء المغرب واليمن والروم والسرب والحبشة والهند وجورجيا ودلماسيا وتركستان الذين كانوا يقيمون فى القاهرة ويلحقون بحاشية الخليفـة[٢] • ومن ثم يتضح أن قوات الفاطمية أيضـا ظلت الى آخر أيامها قوات مختلفة لا تجمع بينها عصبية مشتركة •

وكانت القوات العربية التى اشتركت فى الفتوح تقاتل باسم الأمة الاسلامية التى سيرتها اليها ولا تنال مقابل ذلك سوى الأرزاق التى يصرفها لها بيت المال • وظل هذا شأنها حتى كانت خـلافة الأمويين واقدامهم على ايفاد القبائل الى مصر تقيم بها وتكون عونا لولاتها على الانتقاضات القبطية اذ كانت الدولة تقطع حينئذ هـذه القبائل بعض الأراضى التى تملكها فتستغلها وقت السلم فضلا عن الأرزاق التى كانت تتقاضاها • ثم كان ارتفاع موجة الأتراك فى جيوش العباسيين وأمر المعتصم ولاته باسقاط أرزاق القبائل العربية ، ففقدت هذه القبائل صفة

(١) خطط المقريزى .

(٢) يفهم من هذا أن الموجة التركية لم تكن بلغت مصر بعد ونحن نجد الدليل على ذلك لدى المقريزى فهو يقول ان شراء الأتراك كان امرا عسيرا حتى عهد الصالح أيوب • خطط المقريزى •

الجندية وصاروا قوما مدنيين ينصرفون الى ما ينصرف اليه المدنيون عادة من أسباب الحياة • والظاهر أن اقطاع هذه القبائل فى العصر الأموى كان يشتمل ، على الأقل من ناحية الواقع ، على عناصر الملكية بأوسع ما تنطوى عليه من معنى قانونى يحتمله تصور ذلك العصر • فنحن نعلم أن هذه القبائل كانت لا تزال توجد على اقطاعاتها فى عهد المعتصم[١] ونستطيع أن نستنتج من ظروف اقطاعها أنها كانت تقطع كقبائل لا كأفراد ، فهى قد استجلبت لغايات الدفاع ولا مناص لها اذا من أن تقيم مجتمعة فى مكان واحد • هذا الى أنه من العسير أن يكون الولاة قد أقدموا على اقطاع أعضاء هذه القبائل فردا فردا لما فى ذلك من صعاب ادارية جمة ومجافاة لطبيعة الملكية المشتركة التى لا يعرف البدو سواها عادة • وبديهى أن الأراضى التى تقطع لقبيلة بأسرها لا يمكن أن تعود الى الدولة الا بفناء القبيلة لأنها لو فرض وعادت قطعة قطعة بوفاة المنتفع المباشر لكل قطعة لما استطاعت الدولة أن تتصرف فيها بقطعها أو بيعها أو تأجيرها الى شخص من قبيلة أخرى أو من غير قبيلة ألبتة ، بالنظر الى عدم استطاعة المقطع الجديد العيش فى قبيلة غير قبيلته • يضاف الى ذلك أنه ليس لدينا ما يثبت أن الدولة انتزعت من هذه القبائل بعض اقطاعاتها أو اقطاعاتها جميعـا فى يوم من الأيام •

وناصر خسرو يلاحظ ، فى حـديثه عن تكوين جيش الفـاطميين ، أن هذا الجيش كان يتقاضى أرزاقه جميعا من السلطان ولا ينالها مباشرة من الأهالى بطريق الاقطاع كما كان الحـال وقتئذ فى المشرق ، الا أننا نجد لدى غيره من مؤرخى ذلك العصر ما يدل على أن الفاطميين عرفوا هم أيضا نظام الاقطاعات وان لم تكن هى بعينها اقطاعات العصر العربى أو الاقطاعات المشرقية • فالمقريزى يقول ان الأفضل ابن أمير الجيوش حل اقطاعات الجند الموجودة على أيامه ، وأمر الضعفاء منهم أن يتزايدوا فيها فوقعت الزيادة فى اقطاعات الأقوياء ثم أمر الأقوياء أن يتزايدوا فى الباقى • ويضيف الى ذلك أن نظام التزايد هذا أصبح يتجدد كل ثلاثين عاما • وفى هذا ما يدل على أن الفاطميين كانوا يخصون الجند ببعض أراضى الدولة على الأقل ، آخر أيامهم ، وان الجند كانوا يتزايدون

(١) خطط المقريزى .

فى استغلال هذه الأراضى لأجل معلوم ثم يردونها للدولة فتطرحها للتزايد من جديد • والمقريزى لا يقول لنا كيف نشأ هذا الاقطاع ولكننا ندرك مما يقوله عنه أنه كان يفترق على وجه العموم عن الاقطاع العربى فى أنه كان يعطى الى الجند بعد أن أصبحوا جندا مرتزقة تختلف أجناسهم ولا تربطهم بالدولة عصبية ما ، فهم يعملون اليوم لحساب هذا وغدا لحساب ذاك ولا يحتفظ بهم من يستخدمهم الا آجالا مضروبة أى انه كان أجرا ولم يكن كسابقه شكلا من أشكال الاستعمار الاجتماعى •

وقد انتشر هذا النوع من الاقطاع واتسعت حدوده اتساعا غريبا على أيام الأيوبيين فالمقريزى يقول ان صلاح الدين أقطع أخاه توران شاه قوصا وعيذاب واسوان ثم مدينة الأسكندرية ، وهو أمر لا سابقة له فى مصر فقد كان الفاطميون يقطعون الأمراء خصوصا ، آخر أيامهم ، بعض الأراضى ، كما فعل الخلفاء الراشدين مع كبار المجاهدين وفعل الأمويون والعباسيون من بعدهم ، ولكنهم لم يقطعوهم ، فيما نعلم ، مدنا زاهرة كالاسكندرية أو قوص • ثم ان اقطاعات المجاهدين فى عهد الخلفاء الراشدين كانت على ما يفهم مما نعلمه عنها اقطاعات تملك فى حين كانت اقطاعات توران شاه هذه لا يمكن أن تكون الا مما يدعوه كتاب العصر المملوكى باقطاعات الاستغلال ، أى الاقطاعات التى يقصر حق مقطعها على التصرف فى حصيلتها من الضرائب ، فقد كان سكان المدن المصرية يملكون الأراضى والدور فيها حتى أيام محمد على ولا يعقل أن تكون مدينة كالاسكندرية ملكا كاملا للدولة أول العهد الأيوبى • يضاف الى ذلك أن ما نعلمه عن تقسيم صلاح الدين مدن الشام بين ورثته ومزاولة كل من هؤلاء سلطة المقطع والحاكم فى نفس الوقت فيما أصابه منها يكاد يدفعنا الى الظن بأن صلاح الدين أراد من اقطاع الأسكندرية أخاه توران شاه اعطاءه هذه المدينة على الوجه الذى كان يأخذ به ورثته مدن الشام ويتبادلونها بينهم ، خصوصا اذا ذكرنا أن توران شاه كان من أكبر قواد صلاح الدين ان لم يكن أكبرهم على الاطلاق وانه أقام فى الأسكندرية بجنده ولعله كان يزاول السلطة العامة فيها أيضا •

والمقريزى يضيف الى ما سبق أن الأيوبيين كانوا آخر أيامهم قليلى

العدد كثيرى الخلافات غيورين على الاستقلال بأمرهم ، يحتفظ كل منهم بجند يختلف عددهم باختلاف أهمية اقطاعه (١) • ونحن نفهم من هذا أن الأمراء الأيوبيين كانوا يملكون على الأقل ، آخر عهدهم ، جيوشا خاصة ينفرد كل منهم بواحد منها ، فلم يكن بمصر وقتهم جيش واحد كجيش الدولة الذى رأيناه تحت الفاطميين ، ونفهم أيضا أنهم كانوا ينالون أجورهم وأجور جندهم الخاصة أولئك من غلة الاقطاعات التى كانوا يقطعونها ولا يتقاضونها من الخزانة العامة مباشرة كالأمراء الفاطميين • كذلك نفهم من قول المقريزى ان عدد جند الأمراء الأيوبيين كان يتناسب وأهمية أقطاعاتهم ان هؤلاء الأمراء كانوا يعطون الاقطاعات ليصرفوا منها على جندهم بعكس الأمراء الفاطميين الذين كانوا لا يتقيدون نظير اقطاعاتهم بالتزام عسكرى • وأبو المحاسن لا يدع لنا مجالا للشك فى هذا العنصر الأخير من عناصر الاقطاع الأيوبى حين يقول ان المعظم ملك الشام كتب لأهل دمشق بعد سقوط دمياط فى يد الأفرنج يقول : « اننى كشفت ضياع الشام فوجدتها ألفى قرية منها ألف وستمائة أملاك أهلها وأربعمائة سلطانية وكم مقدار ماتقوم به هذه الأربعمائة من العساكر؟ » (٢) • ومعروف أن القرى السلطانية هى القرى التى كانت تعطى للحاكم •

وأتى المماليك بعد الأيوبيين فأكملوا هذا النظام وثبتوه فيما عدا اقطاع المدن ، فاننا لا نكاد نجد له أثرا تحتهم ، وبسطوه على أراضى مصر جميعا سوى ماوقف منها على أماكن العبادة ووجوه الخير • وكانت تدفعهم الى ذلك الظروف التى هبطوا فيها البلاد وتقاليدهم الاجتماعية ، لاسيما ما يتصل منها بتصور الدولة ، والحالة الاقتصادية التى وجدوها • فقد كان المماليك كما رأينا خليطا من الشعوب الأسيوية التى مزقتها المغل وكانوا يقدمون مصر فرادى أو زمرا لا تجمع بينهم عصبية كالعصبية القبلية التى كانت تجمع بين القبائل العربية التى قادها عمرو أو المغربية التى جاء بها المعز أو الكردية التى تبعت الأيوبيين ، لا يجمع بينهم سوى

(١) خطط المقريزى .

(٢) « النجوم الزاهرة » .

الأسر أو خشية الخطر المغولى أو طلب الرزق فيما بعد[1] • وكانوا لذلك لا يهبطونها بالروح التى هبطتها بها هذه القبائل : روح الفاتحين لبلد مغلوب أو المنشئين لدولة مكان دولة أو المستعمرين لأرض جديدة يستولون عليها بحق الفتح ويورثونها أبناءهم من بعدهم ، وانما يهبطونها بروح ابن الريف الذى يقصد المدينة سعيا وراء الثروة أو المجد ان شئنا ولكنها الثروة الشخصية والمجد الشخصى لا مجد قوم بعينهم أو دين بعينه أو بلد بعينه • فكان قطز أحد أولاد أخت خوارزم شاه ملك خوارزم ، أسر وهو صبى وجلب الى مصر حيث جعل يتقدم فى جيشها حتى نصّب سلطانا وتمكن من التنكيل بالمغل ولكنه لم يحاول ، على ما نعلم ، أن يقيم دولة فارسية جديدة أو أن يعيد الدولة التى قضى عليها أولئك المغل بالذات • وكان بيبرس من أسرى القفجاق قصد به البنادقة الشام وقدموه الى أحد أمراء الصالح أيوب فجعل يتقدم حتى بلغ الامارة ثم قتل قطز بعد غلبه المغل فصار سلطانا لمملكة ضخمة ولكنه لم يعن بأن يستجلب من البلاد التى نشأ بها جندا يستعين بهم أو يمكنهم من بعض ملكه واستمر يعتمد على من كان يهبط مصر من الأسرى أو الفارين أو الأرقاء ، أيا كان جنسهم ، بل دون أن يقدم بينهم من يأتى من بلاده على من يأتى من غيرها • وكان قلاوون من نفس الاصقاع جلب الى مصر صبيا وألحق بأحد أمراء الملك الصالح وجعل يرتقى فى مناصب الدولة حتى مات بيبرس زميله القديم فأخذ يتآمر على ولديه حتى تخلص منهما واستولى على عرشهما دون أن يصل به تفكيره بعد ذلك الى اقامة دولة قفجاقية خاصة به أو بأبناء جلدته • وأعقب بيبرس وقلاوون عشرات السلاطين فلم يشذ عن سيرتهما أحد سوى كتبغا ، زوج بنت هولاكو ، الذى حاول أن يدعم ملكه بمن هبط خلفه مصر من المغل فثار عليه الأمراء وفتكوا به وردوا الأمر الى نصابه •

وكان نظام الاقطاع يرضى بعد ذلك تصور المماليك السلطة العامة

(1) ونحن نقرأ فى خطط المقريزى أن قوصون قال لبيشتاك عند وفاة قلاوون وكانا يتنازعان على السلطنة : « أنا ما يجيء منى سلطان لأنى كنت أبيع الطمسا والبرغالى والكشاتدين وانت اشتريت منى واهل البلد يعرفون ذلك وأنت ما يجيء منك سلطان لأنك كنت تبيع البوزا وأنا اشتريت منك وأهل البلد يعرفون ذلك » •

كمتاع خاص يستأثر به صاحبه ويتصرف فيه كما يشاء • ونحن نعلم كيف كان الأيوبيون يقتسمون المماليك ويتبادلونها فيما بينهم وكيف كان المماليك يصرّفون أمور الدولة كما يصرّف صاحب الضيعة شئون ضيعته[1] وكيف كان النظام الاقطاعى يجعل من الدولة مجموعة دواوين متفرقة يستوى أصحابها فى طبيعة الحقوق والواجبات ويستأثرون بالثروة الوحيدة التى يعرفونها ويستمدون من امتلاكها السلطة العامة فى بلادهم وهى الأرض ، فضلا عما فيه من توزيع لبعض وظائف الدولة توزيعا لا يخلو أحيانا من الفائدة • كذلك نعلم أن السلاطين كانوا يصرفون أرزاق مماليكهم الخاصة من ديوانهم ويقطعون الأمراء وسائر المماليك اقطاعات يحصلون خراجها لأنفسهم حتى عهد لاجين • ثم أتى لاجين فحل اقطاعات المماليك وضمها الى اقطاعات الأمراء على أن يخصص هؤلاء ثلثى ريعها للمماليك الذين يتبعونهم • وندرك من ذلك أن تبعة الجند للأمراء التى نشأت على أيام الأيوبيين ظلت قائمة تحت المماليك وان كان علو نفوذ السلاطين حال بين الأمراء والانقسامات التى حدثت خصوصا بالشام تحت الأيوبيين •

ولكن ما هذه الاقطاعات على وجه التحديد ؟ وكيف تكونت ؟

تكونت الى حد بعيد بفعل الظروف الخاصة بمصر فى ذلك الوقت ، فقد كانت الدولة تملك الى آخر أيام الفراعنة قدرا كبيرا من الأراضى[2] ، وقد انتقلت هذه الملكية الى البطالمة والرومان واتسعت على أيامهم[3] ، ثم ظهرت الكنيسة القبطية بأديرتها العديدة ودب الخلل فى الادارة البيزنطية فانتقلت بعض هذه الملكية الى رجال الدين والأمراء المصريين الذين كانوا يشرفون على تلك الادارة وبقى البعض حتى دخل العرب مصر ولا تزال الدولة تملك فيها شيئا وفيرا من الأراضى المزروعة[4] أو الصالحة للزراعة فوهبوا بعضها القبائل التى نزحت اليها وجعلوا يؤجرون الباقى •

(1) وقد استمرت هذه العقلية فى مصر حتى القرن التاسع عشر فكان الأمراء المماليك يتناطحون ويتصالحون فيقتسمون المديريات فيما بينهم . وقد أخرج السلطان العثمانى الاسكندرية ورشيد ودمياط من ولاية محمد على فى أوائل القرن التاسع عشر واحتفظ بها لنفسه وطلب أن يرسل اليه ايرادها . تاريخ الجبرتى .

(2) هيرودوت .

(3) بيير جوجيه : « تاريخ القانون العام المصرى القديم » .

(4) خطط المقريزى .

والمقريزى يقول ان الولاة كانوا يؤجرون الأراضى الى آخر أيام الفاطميين صفقات صفقات آجالا لا تزيد فى العادة على أربع سنوات(١) ويدعنا ندرك مما يقوله عن الفاطميين انهم كانوا يسرفون ، آخر أيامهم ، فى منح أراضى الدولة أو حق استغلالها كبار موظفيهم . وسواء كان الدافع الذى حـدا بالفاطميين الى ذلك هو اتساع سلطان هؤلاء الموظفين أو الأزمات التى أصابت الخزانة العامة فى آخر عهدهم أو الرغبة فى استصلاح الأراضى الضعيفة باعطائها من يقوى على ذلك أو هذه الأسباب مجتمعة وهو الأرجح ، فقد سقطت الدولة الفاطمية وهى ما زالت تؤجر أراضيها لكل راغب وتنفق ريعها على موظفيها وجندها ومشاريعها العامة وظل الاقطاع على عهدها وجها من وجوه الانتفاع بتلك الأراضى وليس القاعدة العامة لهذا الانتفاع(٢) .

وأتى صلاح الدين بعد ذلك فأورث قواده اقطاعات الأمراء الفاطميين وأنفق أموال الخليفة العاضد جميعا فى حرب الصليبيين(٣) ثم أراد أن يستميل أهل البلاد توطئة لازالة الدولة الفاطمية فألغى ضرائب الاستهلاك التى وجدها بها . وهنا كانت أزمة مالية شديدة اضطرت الحكومة معها الى اجتلاب الأموال من المشرق بعد أن كانت لا تجلب منه سوى الجند . وقد أعقبت حملات صلاح الدين على الصليبيين الغارات التى شنها هؤلاء على مصر أو شنها المماليك عليهم حتى سلطنة خليل بن قلاوون وأعقبت أزمتـه المالية أزمات أخرى متوالية لم تشهد مصر نظيرها الا آخر أيام الفاطميين . فأبو المحاسن يقول ان العزيز ابن صلاح الدين اضطر أن يقترض كيما يدفع أجور موظفيه بينما يصف عبد اللطيف البغدادى الوباء الرهيب الذى أصاب مصر أيام العادل فيقول انه أخلى المدن والقرى

(١) خطط المقريزى .

(٢) كان الفاطميون يخصصون أيضا بعض اراضى الدولة للانفاق من ريعها على الجيش او الأسطول او المرافق العامة الأخرى ويدعون هذه الأراضى احباسا أو اقطاعات فكانت الأحباس الجيوشية واقطاعات الأسطول الخ ... ولكن الأراضى المحبوسة كانت لا تعطى لمن ينفق عليهم من ريعها فيحصلون ريعها مباشرة كما كان الحال فى الاقطاع الأيوبى والمملوكى وانما كانت تبقى تحت يد الدولة فتستثمرها وتحصل ريعها ثم تنفقه أى أنه لم تكن هناك صلة مباشرة بين الجند والأرض على أيامهم . انظر « نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين » لعطية مصطفى مشرفة .

(٣) خطط المقريزى .

من أهلها وخرب القاهرة وعوّد الناس أكل اللحم البشرى . وقد عاد هذا الوباء على أيام الكامل وفتك بأهل القاهرة وأهل الريف مرتين وشحت حياة البلاد فى الوقت الذى كانت تجارتها الخارجية تضطرب فيه غاية الاضطراب وكانت هى تضطر الى مواصلة القتال والاكثار من الجند ولا تجد موردا تعتمد عليه فى مواجهة نفقات الحرب والمصروفات العامة عموما غير الأرض فلجأت اليها وجعلت تتعامل بها وتوفى التزاماتها عن طريقها . ونحن نعلم فعلا أن القاضى الفاضل كان يتقاضى مرتبه اقطاعا على أيام صلاح الدين ، وأن العادل أعطى الأرض جنده يزرعونها بعد وبائه المروع وان الاقطاعات جعلت تكثر بعد ذلك وتتسع حتى كادت تشمل ، آخر أيام الأيوبيين ، جميع الأراضى المزروعة ما عدا ما هو موقوف منها على وجوه الخير(١) .

وقد استقر هذا النظام كما قلنا تحت المماليك ونظمت أدواره جميعا تنظيما دقيقا فكانت الحكومة تمسح الأراضى الصالحة مسحا دوريا وتفرقها بين الأمراء والجند فيستغلها هؤلاء ويحصلون ريعها مقابل الخدمة العسكرية أو المدنية التى يؤدونها حتى اذا ماتوا أو تركوا الخدمة انتقل الاقطاع الى من يخلفهم فيها . وهنا نجد أهم الخصال التى انفرد بها الاقطاع المملوكى دون الاقطاعات التى سبقته فبينما كانت الاقطاعات العربية هبات تورث فى القبيلة ، كما رأينا ، وكانت الاقطاعات الفاطمية منحا لا يعادلها التزام من ناحية المقطَع عادة ، وكانت اقطاعات الأمراء الأيوبيين مثل أنصبة أعضاء العائلة الواحدة فى ملك يتوارثونه ، وبينما كانت هذه الاقطاعات جميعا شيئا شخصيا ينشأ ويقوّم ويكيّف، قانونا حسب رغبة المقطِع وقدر المقطَع ، كان الاقطاع المملوكى منظمة مالية ـ ادارية ذات شخصية خاصة ، توجد بحقوقها وواجباتها ، سواء وجد من يسند اليه أو لم يوجد ، ويعطى للتمكن من الانصراف الى أداء أعمال عامة بعينها ، كما هو أمر الدرجات الآن فى الميزانيات الحكومية أو أمر الوظائف الدينية فى الكنيسة الكاثوليكية الى يومنا هذا . فهذه الكنيسة هى التى تملك ما تحت يد البابا وكرادلته وأساقفته من مال أو عقار وهؤلاء جميعا ان هم الا متمتعون ينشأ لديهم حق التمتع بهذا المال بالارتفاع الى المناصب التى ربط عليها ريعها . وهذا الحق لا يعدو حق صاحب الريع على دخل المال الذى يغله اذا كان لا يحوز هذا المال ، كما كان الحال فى اقطاعات الاستغلال ، وحق

(١) خطط المقريزى .

المنتفع اذا كان يحوز هذا المال ، كما كان الحال فى اقطاعات التملك[1] . وهو يعطى فى الحالتين الى بعض أهل الدولة ورجال الجيش على وجه العموم بعد أن اضطرت البلاد أن تنشىء جيشا ثابتا فى وقت لا موارد ثابتة لديها فيه سوى الأرض[2] .

ونحن نفهم من ابن اياس أن العثمانيين لم يمسوا ، حين دخلوا مصر ، نظم الحكم القائمة بها الا من حيث تزويدها بما كان يقتضيه دخولها نطاق امبراطوريتهم من أجهزة تنفيذية جديدة ، فأحلوا نائبا لسلطانهم محل السلطان المخلوع ، وأقاموا الى جنبه قاضيا ومتصرفا للمالية ، وأضافوا الى القوات المملوكية التى وجدوها قوات أخرى توازنها ، وفعلوا ذلك كما يفعل رؤساء الحكومات عادة حين يديرون أمور المقاطعات المختلفة فى البلد الواحد ويربطون بين أوصالها ، فقد يعمدون لاسناد مناصب الحكم فيها الى أصدقائهم أو أتباعهم أو ذوى قرباهم أيضا لثقتهم فيهم أو رغبتهم فى اسعادهم دون أن يقفوا عند لونهم القومى الذى يشاركهم فيه الجميع[3] . كذلك نفهم من ابن اياس أن المماليك احتفظوا بعد الهزيمة التى نزلت بهم وقتئذ بالاقطاعات التى كانت بيدهم بينما كانت القوات

(1) انظر هذا الرأى أيضا فى Demombynes: La Syrie à l'époque des Mamelucks.

(2) يقول بوشيه ليكلرك ان الجيوش الثابتة لم تعرف قبل ذلك الا فى روما . ونحن نعلم من باريتو أن الجيوش الرومانية كانت من أكبر عوامل الاضطراب الاقتصادى والمالى الذى أصاب الجمهورية منذ أيام ماريو وسيلا وقد انتهى الأمر بهذه الجيوش الى التحكم فى الامبراطورية الرومانية كما فعل المماليك فى مصر . باريتو : « المبادىء العامة لعلم الاجتماع » .

(3) « ثم أن ابن عثمان لما رحل من مصر ترك بها عسكره ممن يقيم بالقاهرة عند خاير بك نحو خمسة آلاف فارس ومن الرماة بالبندق الرصاص نحو خمسمائة رام وقرر من أمرائه شخصا يقال له خير الدين باشا وجعله نائب القلعة يقيم بها ولاينزل الىالمدينة . ومن العجائب أنمصر صارت نيابة بعد ان كان سلطان مصر اعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة لأنه خادم الحرمين الشريفين وحامى ملك مصر الذى افتخر به فرعون اللعين حيث قال اليس لى ملك مصر وقد تباهى بملك مصر على سائر ممالك الدنيا . ولكن ابن عثمان هتك حريم مصر وما خرج منها حتى غنم أموالها وقتل أبطالها ويتم اطفالها وأسر رجالها وبدد أحوالها واظهر اهوالها فلم يدخل اليها أحد من الخوارج ولا ملكها قط أحد ولا جرى مثل ما جرى عليها من ابن عثمان الا ان كان فى زمن بختنصر البابلى » . تاريخ ابن أياس .

العثمانية التى استقرت فى مصر تتقاضى من الخزانة العامة مرتبات دورية[1] وكان كبار الموظفين والقواد العثمانيين يجمعون بين المرتبات الدورية والاقطاعات طوال المدة القصيرة التى يقضونها بالبلاد . وقد رأينا أن الاقطاعات كانت توزع فى عهد السلاطين بين أمراء الدولة لتمكنهم من النهوض بالتزامات عامة أهمها الاحتفاظ بعدد معين من المماليك ، ولكن انتقال مقر الحكم الى الآستانة وقيام قوات عسكرية الى جانب القوات المملوكية ، تشرف عليها الدولة مباشرة وتعدها قواتها الأصلية ، وهى القوات العثمانية ، وتفكك النظم المملوكية عموما ، انتهى قليلا قليلا الى القضاء على هذه الحدود ، وجعل من علاقة الأمراء بمماليكهم علاقة شخصية بحتة ومن الفرق المملوكية جيوشا خاصة تأتمر بأمر سادتها وتعمل لحسابهم . وبذلك أصبح عدد مماليك الأمراء مرتبطا بقدرتهم على الصرف لا بمركزهم فى جيش الدولة وانفتح الباب أمام من يريد منهم لاقتناء المماليك وانشاء الفرق .

وقد استطاع الأمراء فعلا أن يزيدوا بفضل هذا الخلل فى عدد مماليكهم وأن يرتفعوا به الى أرقام تفوق الأرقام التى كانت تبلغها القوات الحكومية ويصلوا من أعدادهم وتسليحهم الى ما كانت لا تصل الحكومة اليه من اعداد قواتها ويتمكنوا بذلك من أن يستولوا من جديد على غالب الأراضى الزراعية ويستبدوا بالمراكز الحكومية الرئيسية ويصيروا بكوات وسناجق وكشافا ، نعنى قوادا وحكاما ومديرين ، ويقود الحامية العثمانية نفسها ويستأثروا بالديوان الكبير الذى يشرف على الحكم ويملك حق خلع الوالى ومحاكمته ورسم سياسته والانصراف بعد ذلك الى اشباع

(1) « وفى يوم الأربعاء رابع عشر رمضان نادى ملك الأمراء خاير بك بأن المماليك الجراكسة الذين ظهروا بمصر يركبون الخيول ويشترون السلاح وكان قبل ذلك نادى فى القاهرة لتجار القبو بأنهم لا يبيعون على المماليك الجراكسة شيئا من آلة السلاح فشق ذلك على العثمانية ووقفوا لخاير بك فى الحوش وكلموه وارادوا معه فتح باب الشر وقالوا له نحن ما يكفينا هذا القدر الذى رتبته لنا وهو ثلاثة انصاف فى كل يوم وكل شىء فى السوق غال ثم قالوا له رتب لنا جوامك فى كل شهر الفين ولحما وعليقا وفرق علينا اقطاعات مثل ما كانت المماليك الجراكسة » . تاريخ ابن أياس .

ما كانت تدفعهم اليه طبيعتهم وتقاليدهم من شهوة التنافس على الانفراد بالحكم والاعتماد فى ذلك على قواتهم العسكرية الخاصة وماكانت تشاركهم فيه من قسوة وانكار لكل تقليد حضارى وجهل لمعنى الكرامة الانسانية • وهكذا ما كادت تهدأ العمليات الحربية التى مكنت العثمانيين من دخول مصر فى الصدر الأول من القرن السادس عشر ، وما كاد الأجناد العثمانيون الذين دخلوا القاهرة والمدن المصرية الكبيرة الأخرى ينتهون من اشباع غرائزهم الهدامة ، وما كادت تسكن الاضطرابات المتوالية بين الفرق العثمانية المختلفة داخل أسوار المدن على الأرزاق والمرتبات والامتيازات العديدة ، حتى انفجر بركان غرائز هؤلاء البكوات ومماليكهم وظل يرسل حممه فى غير هوادة أو كلل الى أن دخل الفرنسيون البلاد فى القرن الثامن عشر ، حتى ليكاد يقوم فى روع من يتبع حوادث مصر فى هذه الحقبة من تاريخها التعس انه فى غابة موحشة تقتتل داخلها وحوش ضوار يفترس بعضها البعض وتفترس جميعا ما تلقاه بهذه الغابة من خلائق وادعة •

— ٣ —

ولكن النظام الاقطاعى كان يصطدم فى مصر حتى آخر أيام السلاطين بما كان يعج به الوادى من حياة مدنية صاخبة • ونحن نعلم فى شيء من الدقة ما كانت عليه هذه الحياة المدنية على أيام الفاطميين من رحلة ناصر خسرو بمصر فى عهد المستنصر • وناصر خسرو يصف المدن المصرية التى زارها مدينة مدينة فيقول ان مدينة تينس، أول ثغر يعترض المقبل على مصر من الشرق، كانت مدينة صناعية هامة ، بها ١٥٠ ألف ساكن وما لا يقل عن خمسة آلاف نول للغزل وصناعة معدنية مزدهرة و ٣٦ معصرة سكر و ٣٦ حمام و ١٠٠ دكان لبيع الروائح وميناء لا يقل عدد المراكب الراسية بها عن ١٠٠ مركب • وكان دخل الدولة من تينس وقتئذ لا يقل عن ألف دينار يوميا حتى دفع ذلك امبراطور القسطنطينية الى مفاتحة الخليفة فى مبادلته اياها بمائة مدينة من مدنه فلم يقبل الخليفة [١] • وناصر خسرو يقول أيضا ان القاهرة كانت تحتوى على عدد لا حصر له من الدكاكين ،

(١) خربت تينس فى أيام العادل الأيوبى بسبب غارات الصليبيين . « السلوك » •

يبلغ ما كان يملكه الخليفة وحده منها ما لا يقل عن ٢٠ ألف دكان ، وسوق للقناديل ترد اليها البضائع من جميع أنحاء العالم ومصانع للصينى والزجاج والنحاس ومصارف تعج بالذهب والجواهر والنقود ومتاجر تضيق بالأقمشة • ويضيف الى ذلك أن مصر وحدها كان بها ما لا يقل عن ٢٠ قيسارية ، ايجار الواحدة منها لا يقل عن ٢٠ ألف دينار فى العام ، ثم يلاحظ أن غزارة انتاج السكر والعسل والفواكه فى البلاد كان يفوق كل حد وان المديريات جميعا كانت توجه انتاجها الى القاهرة وتبيعه فيها •

وقد زار ابن جبير مصر فى سنة ١١٨٣ (ابان العهد الأيوبى) فأعجب بثرائها وثراء مدنها التجارية على وجه الخصوص وهبط قوصا فوجدها « حافلة بالأسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار المصريين والمغاربة واليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة » • ثم سافر الى عيذاب بطريق الصحراء فراعه ما صادفه بها من حركة تجارية وكتب يصف ذلك فقال : « ورمنا فى هذا الطريق احصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن لنا ولاسيما القوافل العيذابية المتحملة بسلع الهند الواصلة الى اليمن ثم الى عيذاب وأكثر ما شاهدنا من ذلك أحمال الفلفل فلقد خيل الينا لكثرته أنه يوازى التراب قيمة » • وكانت عيذاب حين زارها ابن جبير أكبر الثغور المعروفة شأنا « بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائدا الى مراكب الحجاج الصادرة والواردة[١] » •

وزار ابن بطوطة مصر فى سنة ١٣٨٤ فوجد الأسكندرية تتجر اتجارا واسعا خصوصا فى العطور والسكر والحرير • ووجد دسوقا مدينة ضخمة تبلغ ضعف الاسكندرية وتملك تجارة واسعة • وشهد بأسواق القاهرة من السكر والمواد الغذائية والعطارة مالم يره فى عاصمة أخرى • وكانت المدينة تزخر أيام زيارته لها بالسكان فلا يكادون يجدون ما يكفيهم للبيات فيها ويبيت خارجها كل يوم لا أقل من مائة ألف ساكن • وكان بمصر وحدها ١٢٠ ألف سقاء و ٣٠ ألف مكارى و ٣٦ ألف مركب نيلية •

(١) أنظر « الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » لزكى محمد حسن •

كذلك كانت أبيار مدينة كبيرة تصنع الثياب القيمة وتصدرها الى الشام والعراق،والمحلة مدينة جليلة حسنة كثيرة السكان،ودمياط مدينة صناعية تسلح السمك وتصدره الى الشام وبلاد الروم . وكانت مدينتا قوص ودلاص تصنعان الكتان وتصدرانه خصوصا الى افريقيا الشمالية ، وبهنسة تنسج الصوف الجيد ، ومنلوى تصنع السكر ، ومنفلوط تصنع العسل وتمتاز باناقتها . وابن بطوطة يقدر ما كان يحصل وقتئذ على البضائع المصدرة فى جمرك قطا زكاة بما لا يقل عن ألف دينار ذهب فى اليوم ويلاحظ أن الأسواق كانت لا تنقطع بين القاهرة وأسوان حتى لا يكاد المسافرون يحتاجون الى حمل ما يطعمونه .

وفرسكو بالدى — وقد زار مصر فى ذلك الوقت — يقول ان سكان القاهرة كانوا حين مر بها أكثر من سكان مقاطعة توسكانا الايطالية جميعا وان عدد السفن الراسية فى مينائها كان يفوق ما فى موانىء البندقية وجنوا وانكونا معا ولا يقل على كل حال عن ١٥ ألف سفينة .

والمقريزى يصف الحالة الاقتصادية فى مصر على أيامه فيقول : « وسمعت غير واحد ممن أدركته من المعمرين يقول ان القصبة (سوق من أسواق القاهرة) تحتوى على اثنى عشر ألف حانوت كأنهم يعنون ما بين أول الحسينية مما يلى الرملة الى المشهد النفيسى . ومن اعتبر هذه المسافة اعتبارا جيدا لا يكاد أن ينكر هذا الخبر . وقد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة بالحوانيت غاصة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة تبهج رؤيتها ويعجب الناظر هيئتها ويعجز العاد عن احصاء ما فيها من الأنواع فضلا عن احصاء ما فيها من الأشخاص . وسمعت الكافة ممن أدركت يفاخرون بمصر سائر البلاد ويقولون يرمى بمصر فى كل يوم ألف دينار ذهبا على الكيمان والمزابل ، يعنون بذلك ما يستعمله اللبانون والجبانون والطباخون من الشقاف الحمر التى يوضع فيها اللبن والتى يوضع فيها الجبن والتى تأكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت الطباخين وما يستعمله بياعو الجبن من الخيط والحصر التى تعمل تحت الجبن فى الشقاف وما يستعمله العطارون من القراطيس والورق المقوى والخيوط التى تشد بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الحبوب والأفاوية

وغيرها فان هذه الأصناف المذكورة اذا حملت من الأسواق وأخذ ما فيها ألقيت الى المزابل[1] » .

وفييت يقول ان مصر كانت تصدر الى أوروبا وقتئذ البردى والأقمشة وتصنع الورق والجلد والأثاث والحلى والعاج والأوانى والزجاج والصينى والنسيج بكافة أنواعه . وهو يذكر ثروات بعض رجال ذلك العصر فيقول ان الأمير توران تاى ترك عند وفاته ٦٠ ألف دينار أى ما يعادل ٧,٥٩٠,٠٠٠ فرنك ذهبى و ١٧٠ قنطار فضة ومماليك وقوانى وجمالا وخيلا وبهائم وأملاكا وغلالا وسكرا وعسلا وأسلحة وجواهر لا حصر لها . وهو يقدر الخسائر التى أنزلها بعض المماليك بقصر أحد أمراء ذلك العصر فيقول انها بلغت نحو ١,٢٥٠,٠٠٠ فرنك ذهب عدا الجواهر والأوانى ثم يذكر أن بكتمار الساقى كان له سيف وسرج يبلغ ثمنهما ٦,٥٠٠,٠٠٠ فرنك ذهب[2] .

كذلك يشيد هايد بأهمية التجارة فى حياة مصر الاقتصادية فى ذلك الوقت ويقول انها كانت من الأسباب التى وجهت أوروبا بعد اخفاق الحملات الصليبية الى التفكير فى القضاء على المصريين بتحريم التعامل التجارى معهم[3] .

وقد كان هذا النشاط الصناعى التجارى يؤثر فى الحكم المملوكى ويتأثر به فهو الذى كان يوجه انتاج الأقاليم الى العاصمة ، كما لاحظ ناصر خسرو ، فيصل بين أسواق البلاد جميعا فى وحدة اقتصادية شاملة ويحول بذلك بينها وبين الانقسامات التى عرفتها أوروبا بعد الغزوات الجرمانية وارتدادها الى الزراعة وتحول أسواقها الى أسواق محلية[4] . وهو الذى كان يركز الحياة الاجتماعية فى المدن والعاصمة على وجه الخصوص فيحول بين الأمراء المماليك والاستقرار فى اقطاعاتهم استقرارا

(١) خطط المقريزى .

(٢) « مساجد القاهرة » .

(٣) Hyde : Le commerce du Levant. (« تجارة الشرق »)

(٤) Pirenne: Histoire économique et sociale de l'Europe au Moyen Age.

يتطور الى حركات انفصالية كالتى عرفتها أوروبا الوسيطة فى ذلك العصر بالذات • ونحن لا نجد بالفعل أثرا لاستقرار الأمراء المماليك فى الأقاليم فى ذلك العهد ونعلم أن حكام المديريات كانوا عادة ، على أيام السلاطين ، من غير اصحاب الاقطاعات فيها ، ولا نعرف أميرا واحداً حاول أن ينشق باقطاعه عن الدولة،كما كان يحدث فى أوروبا كل يوم،فى حين أننا لا نعرف سلطانا واحدا لم يتآمر الأمراء عليه ليسلبوه عرشه ويخلعوه • يضاف الى ذلك أن اقامة الأمراء ومماليكهم فى المدن كانت تعرضهم لاغراء نشاطها الاقتصادى وتنتهى بهم الى الاشتراك فيه والاتصال بالمدنيين واطراح خشونتهم البدائية قليلا قليلا • وكان السلاطين والأمراء يشتغلون بالتجارة والصناعة فى بعض الأحيان كما كان المماليك ينتهون فى الغالب الى مزاولة الحرف بل والاتجار باقطاعاتهم أيضا فالمقريزى يقول ان أجناد الحلقة كانوا ينزلون عن اقطاعاتهم ويتقايضون عليها وان غالبهم كان يعد على أيامه بين أصحاب الحرف والصناعات[1] • وقد ظهر هذا النوع من التجارة تحت شعبان بين الناصر وعاد الى الظهور تحت حسن بن الناصر واشتد فى أيام صالح بن الناصر الذى أذن للجند ببيع اقطاعاتهم والمقايضة عليها ثم أتى السلطان حاجى فمنعه[2] •

وكان الحكم المملوكى يصطدم أيضا ، خلف هذا النشاط الاقتصادى ، بالنظم العامة التى أقامها الاسلام فى مصر : نظم مملكة الله بدستورها القرآنى وقيمها الأخلاقية وتسويتها بين الجميع ما داموا من دين واحد • ومن ثم كان شبه الانقسام الذى نلحظه على هذا الحكم بين السلطتين التنفيذية والتشريعية[3] • فقد رأينا كيف كان الأمراء ينصّبون السلاطين بعد أن يقع اختيارهم عليهم أو يسطو هؤلاء على العرش ولكن السلاطين كانوا لا يزاولون السلطة الا بعد أن يبايعهم الخلفاء وينقلوا اليهم السلطات

(١) خطط المقريزى •

(٢) « مصر فى العصور الوسطى » لعلى ابراهيم حسن •

(٣) ونحن نرى أثر ذلك فى تقسيم الوظائف الى وظائف قلم ووظائف سيف واشادة مؤرخى ذلك العصر بالوظائف الأولى ورفعهم اياها على الوظائف الأخيرة كما نجد أثره فى محاولة بعض الخلفاء استعادة السلطان • انظر خطط المقريزى •

التى يمثلونها • غير أن محاولة تركيز السلطة فى شخص السلطان على هذا الوجه كانت تؤدى فى الواقع الى انقسامها[1] بسبب انفراد رجال الدين بعد ذلك ، دون السلطان ورجاله ، بتفسير مبادىء الشريعة وتطبيقها واكمالها أى بجميع عناصر التشريع الاسلامى • ولعل مركز السلاطين كان لا يختلف من هذه الناحية كثير الاختلاف عن مركز الخلفاء الذين سبقوهم لو لم يكونوا،بحكم نشأتهم،غرباء على التشريع الاسلامى مشربين بروح تشريعية تخالفه راغبين الى ذلك فى احترام هذا التشريع بحماسة اليافع الذى يعتنق دينا جديدا • فقد كان ذلك يزيد فى حاجتهم الى القائمين بهذا التشريع ويؤدى الى تقلص سلطتهم التشريعية وقصورها،من ناحية الواقع، على تعيين شيخ الاسلام أو القاضى الذى يتفق رأيه وغايتهم ، فى حالة اتجاههم الى غايات معينة ، أو عزله اذا لم يتفق معهم باعتباره موظفا من موظفى الدولة التى نزل الخليفة لهم عن رياستها[2] •

وقد كان السلاطين يجدون هؤلاء القضاة عادة كلما كان زمام السلطة مستتبا فى يدهم وكانت الأمور لا تعدو حدا معينا من الخطورة وكان فى الرأى العام تيار يقبلها أما فيما عدا ذلك فكان من العسير أن يجدوهم وكانوا لا يجدونهم فعلا فى غالب الأحوال • وكان القضاة يجمعون وقتئذ،الى سلطة التشريع،سلطة المحاكمة وانفاذ الأقضية وادارة أموال المؤسسات الدينية ، ويزاولون بذلك سلطة تشريعية ـ قضائية ـ ادارية واسعة[3] ، كانت تكفل للشريعة الاسلامية وقتئذ السيطرة على تشريع

(١) وكان السلطان فى العصر المملوكى يلقب فعلا بقسيم امير المؤمنين • على ابراهيم حسن •

(٢) والقلقشندى يتكلم عن الملك فى نظر أهل عصره فيقول انه « يحتاج الى أشياء ثلاثة : وسم ما يجب للسلطان واستخراج الأموال ثم صرفها على رجال السلطان » . « صبح الأعشى » .

(٣) وما زال لهذا النظام بقية فى اختصاصات قاضى القضاة فى السودان الآن فهذا القاضى يضع القوانين واللوائح ويشرف على الأوقاف والمساجد والشئون الدينية والاجتماعية • انظر مقال « قاضى القضاة فى السودان » • الاهرام فى ١٩٤٦/١١/١١ •

الدولة ، دون ما عداها من القوانين والتقاليد ولاسيما التقاليد المغولية التى انتشرت فى مصر فى ذلك العهد . ونحن نعلم بانتشار هذه التقاليد من المقريزى أيضا فهو يقول : « أعلم أن الناس فى زماننا بل ومنذ عهد دولة تركيا بديار مصر والشام يرون أن الأحكام على قسمين : حكم الشرع وحكم السياسة . ولهذه الجملة شرح فالشريعة هى ما شرع الله تعالى من الدين وأمر به كالصلاة والصوم والحج وسائر أعمال البر ... »

« ... والسياسة نوعان سياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر فهى من الأحكام الشرعية علمها من علمها وجهلها من جهلها وقد صنف الناس فى السياسية الشرعية كتبا متعددة . والنوع الآخر سياسة ظالمة فالشريعة تحرمها . وليس ما يقوله أهل زماننا فى شىء من هذا وانما هى كلمة أصلها ياسة فحرفها أهل مصر وزادوا بأولها سينا فقالوا سياسة وأدخلوا عليها الألف واللام فظن من لا علم عنده أنها كلمة عربية وما الأمر فيها الا ما قلت لك . واسمع الآن كيف نشأت هذه الكلمة حتى انتشرت بمصر والشام وذلك أن جنكيزخان القائم بدولة التتر ببلاد الشرق لما غلب الملك أونك خان وصارت له دولة قرر قواعد وعقوبات أثبتها فى كتاب سماه ياسة ومن الناس من يسميه يسق والأصل فى اسمه ياسة ولما تم وضعه كتب ذلك نقشا فى صفائح الفولاذ وجعله شريعة لقومه فالتزموه بعده حتى قطع الله دابرهم » .

وبعد أن يأتى المقريزى على بعض أحكام السياسة هذه يقول : « فلما كثرت وقائع التتر ببلاد الشرق والشمال وبلاد القجاق وأسروا كثيرا منهم وباعوهم تنقلوا فى الأقطار واشترى الملك الصالح نجم الدين أيوب جماعة منهم سماهم البحرية ومنهم من ملك ديار مصر وأولهم المعز ايبك ثم كانت لقطز معهم الواقعة المشهورة على عين جالوت وهزم التتار وأسر منهم خلقا كثيرا صاروا بمصر والشام وخطب للملك بركة بن جيوش بن جنكيز خان على منابر مصر والشام والحرمين فقصد أرض مصر والشام بطوائف المغل وانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم . هذا وملوك مصر وأمراؤها وعسكرها قد ملئت قلوبهم رعبا من جنكيزخان وبنيه وامتزج بلحمهم ودمهم مهابتهم وتعظيمهم وكانوا انما ربوا بدار الاسلام ولقنوا

القرآن وعرفوا أحكام الملة المحمدية فجمعوا بين الحق والباطل وضموا الجيد الى الردىء وفوضوا لقاضى القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية كالصلاة والصوم والزكاة والحج وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام وجعلوا اليه النظر فى الأقضية الشرعية كتداعى الزوجين وأرباب الديون ونحو ذلك واحتاجوا فى ذات أنفسهم الى الرجوع لعادة جنكيزخان والاقتداء بحكم الياسة فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عوايدهم والأخذ على يد قويهم وانصافهم الضعيف منهم على مقتضى ما فى الياسة وجعلوا اليه مع ذلك النظر فى قضايا الدواوين السلطانية عند الاختلاف فى أمور الاقطاعات » . ثم يقول : « وكان أول ما حكم من الحجاب فى الدولة التركية بين الناس بمصر أن السلطان الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون استدعى الأمير شمس الدين بن سنقر الناصرى نائب طرابلس ليوليه نيابة السلطنة بديار مصر عوضا عن الأمير سيف الدين وعينه أميرا حاجبا كبيرا يحكم بين الناس فخلع عليه فى جمادى الأولى سنة ست وأربعين وستمائة فحكم الناس كما كان نائب السلطنة يحكم وجلس بين يديه موقع من موقعى السلطان لمكاتبة الولاة بالأعمال ونحوه [1] » .

ونحن ندرك من أخبار المقريزى هذه أن المماليك كانوا يحتفظون بقوانينهم وتقاليدهم الأصلية وأن علاقتهم بعضهم ببعض كانت تخضع لهذه القوانين ولا تخضع للشريعة الاسلامية اللهم الا فى الحالات التى يقرر فيها السلطان تطبيق هذه الشريعة عليهم لسكوت القوانين الأصلية أو نقصها . وندرك أن غير المماليك أيضا كانوا يستطيعون المطالبة بتطبيق هذه القوانين فى دعاويهم ويجدون فى شخص أحد الأمراء ، وهو الحاجب الذى رأينا ، القاضى الذى يقضى لهم بها . وقد يكون بعض أحكام السياسة هذه من وضع الادارة الحكومية أو املاء ضرورات الحياة

(١) خطط المقريزى . وابو المحاسن يقول من ناحيته : « ولما ان تسلطن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى أحب أن يسلك فى ملكه بالديار المصرية طريقة جنكيزخان هذا وأموره ففعل ما أمكنه ورتب فى سلطنته أشياء كثيرة لم تكن قبله بديار مصر مثل ضرب البوقات وتجديد الوظائف على ما نذكره ان شاء الله فى ترجمته » . « النجوم الزاهرة » .

اليومية حينئذ ، نعنى أحكام قانون وضعى فى دور التكوين • وقد يكون العمل بها أثرا من آثار الأزمات النفسية التى كانت تعترى السلاطين من حين الى حين لقرب عهدهم بالاسلام • ولكن الذى لا شك فيه هو أن غالب هذه الأحكام كان مأخوذا من قانون جنكيزخان وطرائق المشارقة ، كما يقول المقريزى ، وانه كان يؤثر فى النظم القانونية القائمة بمصر ويتأثر بها الى حد بعيد ، وأن ظلت أسس هذه النظم هى الأسس الاسلامية لاصطباغ الدولة بالطابع الدينى وقصور القوانين المغولية عن معالجة أوضاع المجتمعات المتمدنة التى لم تكن تعرفها حين وضعت • ومن الطبيعى بعد ذلك أن يشتد تفاعل الشريعتين فى دائرة القانون العام ، بسبب اشتراك المماليك فى الدولة اشتراكا فعليا واسعا ، ويخف خارجها شيئا فشيئا حتى يكاد ينعدم فى دائرة الأحوال الشخصية وهى الدائرة التى لا يقبل الاسلام فيها نزيلا • وقد رأينا كيف كان نظام الجيش حينئذ مغوليا وكيف كان تكوين الحكومة مغوليا أيضا ورأينا الى أى حد تأثرت الملكية الزراعية بهذه النظم فى حين أننا نعلم من المقريزى أن السلاطين كانوا يمنعون المأذونين من تزويج المماليك فيضرب المأذونون بمنعهم عرض الحائط[1] •

كان الحكم المملوكى اذا فى جوهره حكما بدائيا نشأ كظاهرة طبيعية من ظواهر الحروب الضروس التى توالت على مصر بين القرن الحادى عشر والقرن الخامس عشر • ثم مالت سورة هذه الحروب الى الهدوء ففقد هذا الحكم حكمة قيامه وقل معينه من الرجال واختلت نظمه وتحول الى ذلك الشىء البشع الذى يتبادر الى نفسنا الآن حين نذكر عصر المماليك • وكانت الحياة المدنية المصرية بحيويتها الذاتية والأوضاع الاسلامية التى اتخذتها تحد من أثر عيوب هذا الحكم بل وتكاد تخرج به عن طوره من حين الى حين وظلت تقوم بوظيفتها هذه على خير وجه حتى ابان عهد المماليك الجراكسة وهو عهد توالى الأزمات المالية الحادة وما صحبها من انحلال فى النظم المملوكية وغلبة الطابع العسكرى على المناصب العامة ،

(١) خطط المقريزى .

اذ انعكست الآية حينئذ وجعل هذا الحكم يعصف بالحياة المدنية وينخر فى عظام البلاد جميعا حتى انتهى بها الى ما وجدها عليه محمد على فى القرن الثامن عشر •

والمقريزى يرجع بأول الأزمات المالية الى اجتياح تيمورلنك الشام فى القرن التاسع فهو لا يكف عن الشكوى مما يدعوه بالبلاء الكبير الذى حل بمصر وقتئذ اذ مزق تيمورلنك الشام وهبط النيل واضطر الفلاحون الى بيع أولادهم وترك أراضيهم • ولكنه يرجع به قبل ذلك الى فساد الحكم وجهل القائمين به فيقول فى « كشف الغمة » :

«وسبب ذلك كله (الأزمة المالية على أيام برقوق) ثلاثة أشياء لا رابع لها : السبب الأول وهو أصل الفساد ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة كالوزارة والقضاء ونيابة الأقاليم وولاية الحسبة وسائر الأعمال حيث لا يمكن التوصل الى شىء منها الا بالمال الجزيل فتخطى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغ الى مالم يكن يؤمله من الأعمال الجليلة والولايات العظيمة » •

ويبين المقريزى بعد ذلك ما يضطر اليه المعينون لسد ما يقترضونه فى سبيل تأدية الرشوة من تعسف مع المكلفين ثم يقول : « فلما دهى أهل الريف بكثرة المغارم وتنوع المظالم اختلت أحوالهم وتمزقوا كل ممزق وجلوا عن أوطانهم فقلت مجالب البلاد ومتحصلها لقلة ما يزرع بها ولخلو أهلها ورحيلهم عنها لشدة الوطأة من الولاة عليهم وعلى من بقى منهم » •

ويشير الى بعض ما حدث تحت برقوق من احتمال الناس ذلك لقرب عهدهم به ثم يقول : « وانسحب الأمر فى ولاية الأعمال بالرشوة الى أن مات الظاهر برقوق وحدث بموته اختلاف بين أهل الدولة الى تنازع وحروب قد ذكرتها فى كتاب مفرد فاقتضى الحال من أجل ذلك ثورة أهل الريف وانتشار الزعار (اللصوص) وقطاع الطرق فخيفت السبل وتعذر الوصول الى البلاد الا بركوب الخطر العظيم وتزايدت غباوة أهل الدولة وأعرضوا عن مصالح العباد وانهمكوا فى اللذات لتحق عليهم كلمة العذاب » •

« السبب الثانى غلاء الأطيان : وذلك أن قوما ترقوا فى خدمة الأمراء يتزلفون اليهم بما جابوا من الأموال الى أن استولوا على أموالهم » . ويشير الى ماعمد اليه هؤلاء من زيادة أجر الأراضى ثم يقول : « فخرب بما ذكرنا معظم القرى وتعطلت أكثر الأراضى من الزراعة وقلت الغلال وغيرها مما تخرجه الأرض بموت أكثر الفلاحين وتشردهم فى البلاد من شدة السنين وهلاك الدواب ولعجز الكثير من أرباب الأراضى عن زرعها لغلو البذر وقلة المزارعين وقد أشرف الاقليم لأجل هذا الذى قلنا على البوار والدمار ... »

«السبب الثالث رواج الفلوس ..» ثم يصف الأدوار التى مر بها النقد فى الامبراطورية الاسلامية وآثار تضخمه فى الاقتصاد المصرى على أيامه .

وفييت يميل للرجوع بالأزمات المالية فى هذا العهد الى الانقباض الذى كان آخذا سبيله الى الصناعة المصرية وقتئذ[١] ، بينما يميل الدكتور زيادة لردها الى اسراف السلاطين فى فرض الرسوم على تجارة الشرق[٢] . ولاشك فى أن هذه الأزمات كانت ترجع الى هذه الأسباب جميعا ، كما كانت ترجع الى اضطراب الأمن فى المدن التجارية من جراء تطاحن المماليك المستمر داخلها . وترجع أيضا ، خصوصا فى المراحل الحادة التى مرت بها بعد ذلك ، الى السبب العالمى الذى يكشف عنه ابن اياس حين يشير الى ما أثارته أخبار وصول البرتغاليين الى رأس الرجاء الصالح ، فى القرن الخامس عشر ، فى الأسواق المصرية ، من جزع شديد . وقد سبق لنا نحن أن رأينا كيف كان البحر المتوسط يتجه منذ القرن الثالث عشر للتحول الى طريق من طرق المبادلات التجارية بين بلاد الشرق الأقصى وشعوب أوروبا الشمالية الجديدة بعد أن ظل زمنا طويلا عالما قائما بذاته يحيا من حياة الشعوب القائمة على ضفافه ولا يعرف لغيرها نشاطا ملموسا . كذلك سبق أن رأينا كيف أخذ بحر الشمال ينشط فى ذلك الوقت أيضا كأداة من أدوات التبادل بين شعوبه تلك الجديدة ثم كطريق طبيعى لاستيراد ما كانت تحتاج اليه هذه الشعوب من سلع الشرق الأقصى وبلاد البحر المتوسط ، حين اتسع أفق التجارة الدولية وفضل التجار النقل البحرى على النقل البرى فى جلب سلعهم من الموانى الايطالية الى

(١) « مساجد القاهرة » .
(٢) M. Ziada : Foreign relations of Egypt in the fifteenth century

بلادهم ، عبر القارة الأوربية جميعا . وكان من علامات هذا التحول ما اشتعل حينئذ من منافسة شديدة بين البندقية ، التى كانت تحتكر الجزء الأكبر من هذه التجارة ، واسبانيا والبرتغال ، اللتين كانتا تنازعانها اياها بسبب ما تتمتعان به من وضع جغرافى يفضل وضع الموانىء الايطالية بالنسبة الى ثغور أوروبا الشمالية ، وما حاولته البندقية أيضا بعد ذلك من الخروج بسفنها الى عرض المحيط ، وما كان يبعثه كل ذلك من انتعاش فى موانىء الجزيرة الأسبانية واقبال عليها وظهور لشعوبها على مسرح التجارة الدولية .

وكان انفجار الطوفان المغولى واتجاهه شطر آسيا الصغرى وشواطىء البحر المتوسط الشرقية يبعث فى الطرق التجارية الشرقية فى ذلك الوقت بالذات بعض ما كان يحدث فى الطرق الغربية من اضطراب فهو قد وسع آفاق التجارة العالمية بضمه آسيا الوسطى اليها ولكنه فتح أمامها أيضا طرقا شرقية جديدة جعلت تنافس الطرق القديمة ومن بينها طريق الاسكندرية . وقد دبت الفوضى بعقب ذلك فى الممالك الأسيوية التى انحسر عنها هذا الطوفان فعادت التجارة العالمية الى طرقها القديمة . ثم أقبل العثمانيون وتصبوا الحرب للمسيحية فى البلقان والبحر المتوسط شرقه ووسطه فاشتد تحول هذه التجارة الى غربه[١] وتضافرت الحاجة وما كانت الملاحة البحرية قد بلغته من تقدم على الانتهاء بالبرتغاليين الى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح أى الطريق البحرى المباشر الى سلع الشرق الأقصى . وكشف كولمبوس عن أمريكا فيما بعد ، وهو يجد فى البحث عن طريق أخرى الى تلك السلع بالذات ، فتركزت المبادلات الدولية فى الأطلنطيق وبحر الشمال واتصلت أوروبا الجديدة اتصالا مباشرا بموارد السلع التى كانت تبتاعها من البحر المتوسط ووضعت يدها على منابع الثروة الأمريكية[٢] .

(١) هايد : « تجارة الشرق » .
(٢) والأستاذ بيزلى يرجع بأول محاولة لاكتشاف طريق الهند البحرى الى بعد سقوط عكا فى يد المسلمين سنة ١٢٩٢ وقنوط أوروبا من الاستقرار فى الشرق الاسلامى . Beazly : Down of Modern Geography عن المرجع السابق للدكتور زيادة .

وقد بدأ هذا التحول فى القرن الثالث عشر وظل بطيئا الى ما بعد اكتشاف طريق الرجاء الصالح ، اذ كانت جمهرة التجار تفضل الطرق القديمة على هذا الطريق ، واستطاعت البندقية أن تقاومه حينا ثم تحولت الى دولة زراعية عزيزة الجانب وعاشت كذلك الى قبيل الثورة الفرنسية •
ولكن مصر لم تبذل فى سبيل هذه المقاومة مسعى جديا ما ، فقد قنع السلطان الغورى ، حين بلغه نبأ وصول البرتغاليين الى الهند عبر المحيط ، بأن يتوعد ملكهم بالاعتداء على القدس ان لم يقلع رجاله عن طرق هذا الطريق • ثم اشترك مع البندقية فى حملة بحرية أرادوا بها القضاء على الأسطول البرتغالى • وقد أخفقت هذه المحاولة كما لم يجد الوعيد الذى سبقها واستمر البرتغاليون يجوبون المحيط بينما كانت الانتفاضات المملوكية المتوالية تدفع بالتجار دفعا الى ترك طريق مصر وتفضيل الطريق البحرية عليها • وهنا جعلت موارد الدولة تهبط هبوطا شديدا وكثرت ثورات المماليك على الأمراء وثورات الأمراء على السلاطين وانتهاز البدو هذه الثورات جميعا للامعان فى السلب والنهب حتى صارت الحياة فى القاهرة والمدن الأخرى جحيما لا طاقة لقوة بشرية باحتماله • وبينما كانت الفوضى الاقتصادية تضرب أطنابها فى مصر على هذا الوجه ، كان العثمانيون يزحفون الى آسيا الصغرى ويخضعونها بلدا بلدا ثم يقتحمون مصر نفسها ويضعون باقتحامها حدا لتلك الحرب العاتية التى كانت آسيا المغولية تشنها على العالم العربى منذ القرن الثالث عشر وكان المصريون كسبوا معاركها المتوالية الى ذلك الوقت ، فخسرت القاهرة مركزها كطريق مبادلات أوروبا مع الشرق وعاصمة أكبر امبراطورية اسلامية أعقبت الخلافة العباسية ، ونزلت عن تجارتها الشرقية للقسطنطينية ، عاصمة الامبراطورية الاسلامية الجديدة[1] ، وخرجت بذلك من مجرى التاريخ ، ان صح هذا التعبير ، لتقع فريسة أبشع ما عرف عن سيئات الحكم المغولى •

وقد سبق أن رأينا ما أدى اليه قيام هذا الحكم فى مصر من انتشار نظام الاقطاعات بها انتشارا واسعا ، وخروج الأراضى التى كان يشملها ،

(١) هذا الى تعطل الصناعة أيضا فابن أياس يقول : « وفى بدء اقامة ابن عثمان فى القاهرة حصل لاهلها الضرر الشامل وبطل فيها نحو خمسين صنعة وتعطلت منها أصحابها ولم يعمل بها فى أيامه بمصر » • تاريخ ابن اياس •

وهى يومئذ كافة الأراضى المزروعة ، فيما عدا الموقوف منها على وجوه الخير ، من دائرة المعاملات الفردية للتحول الى ملكية عامة تأجر بها الدولة عمالها • وقد أدى انتشار الاقطاعات هذا بدوره الى القضاء على ما كان صائرا الى الظهور تحت الفاطميين من ملكيات خاصة • ونحن نعلم بوجود هذه الملكيات من المقريزى فهو يقول ان القاضى الرشيد بن الزبير تحقق فى أيام الخليفة الأفضل الفاطمى أن أرباب الأملاك فى الصعيد سطوا على ما يجاور أملاكهم من أملاك الدولة وان الحكومة أقرت هؤلاء الملاك فى ملكيتهم غير الشرعية هذه تشجيعا لها وترغيبا لأهل الصعيد فى استصلاح أراضيه[1] • ولاشك أن أراضى مصر السفلى كانت تسير فى هذا الاتجاه هى أيضا بسبب ارتباك أمور الدولة واتساع نفوذ الأمراء والوزراء وأتباعهم • كذلك لاشك فى أن انتشار نظام الاقطاعات ذلك هو الذى أدى الى وقوف تطور الملكية فى مصر فى ذلك الوقت ، فما دامت الأراضى لا تملكها الا الهيئات العامة التى تدخل فى صلب الدولة ، وما دام الذين ينهضون بهذه الهيئات لا يتمتعون ازاءها الا بحق انتفاع موقوت فمن العسير ان لم يكن من المستحيل أن يمتلك الأفراد شيئا منها بوسيلة من الوسائل التى تنشأ بها الملكية الخاصة •

ونحن نعلم من المقريزى أيضا أن الزراعة لم تكن بوجه عام على نصيب كبير من الازدهار على أيام المماليك بسبب اهمال الحكومة الأرض وقلة اليد العاملة وعسف الملاك على وجه الخصوص[2] • وقد يكون فى قول المقريزى هذا شىء من الاسراف فقد كان الرجل ناقما على حكام عصره • ومع ذلك لاشك أن الزراعة فى مصر كانت تمضى فى الاضمحلال منذ آخر أيام المماليك البحرية ، على أقل تقدير ، وأن الصحراء كانت لا تنفك تطغى على الأراضى الزراعية ، كما كان أبناؤها البدو يهاجمون المدن • ولاشك أن كل هذا كان يرجع الى الاهمال قبل كل شىء ، فمصر واحة كبيرة والكفاح بينها وبين الصحراء قديم قدم تاريخها الطويل وهذا الكفاح يقتضى عناية خاصة بمنشآت الرى وقد كانت هذه العناية من أسس الحكومة الفرعونية والحكومات التى أعقبتها بينما كانت تكاد لا يكون لها وجود فى عهد المماليك بسبب تصورهم الخاص للدولة وما كان ينبنى عليه من نظرهم الى المنشآت العامة كمنشآت خاصة تقام

(١) خطط المقريزى •
(٢) خطط المقريزى •

أو لا تقام حسب هوية المقطع العارضة أو مصلحته المباشرة أو رغبته
فى ترك ما ينبه به ذكره • وسائر منشآت ذلك العصر من مدارس وجوامع
وخلجان ، فيما عدا ما أقامه السلاطين منها بدافع الظروف الملحة ، اقامة
الأمراء على هذا السبيل • ونحن ما زلنا نقرأ لابن اياس والجبرتى وغيرهما
من مؤرخى ذلك الوقت فنشعر وكأن غالب الأراضى المصرية صارت
صحراء يضرب البدو فى جنباتها •

وكما تأثرت الثروة الزراعية بالحكم المملوكى تأثرت به الملكية
العقارية فى المدن أيضا فانتشرت بها الأوقاف انتشارا كبيرا • والأوقاف
ضرب من الاقطاع للمؤسسات الدينية ينفرد دون الاقطاع العادى بطول
الأجل نظرا لاستطاعة هذه المؤسسات البقاء أجيالا متوالية وعدم استطاعة
الدولة حلها ما دامت تقوم بوظيفتها الدينية • ولاشك فى أن هذا العنصر
الأخير كان من الأسباب التى مالت بأهل ذلك العصر الى الاكثار من
الأوقاف فقد كان الأمراء لا يستطيعون حفظ اقطاعاتهم لذريتهم وكان
اقبال السلاطين على استصفاء أموال الأمراء وكثرة تآمر هؤلاء بعضهم
على بعض وعلى السلاطين يعرض بحياتهم وما يملكون جميعا الى الدمار
ويقضى على كل ثقة لديهم فى المستقبل • ولم يكن لذلك ثمة سبيل الى
النجاة من هذا الاضطراب وحفظ بعض ثروة الآباء للأبناء ، ثم اثبات
الملكية بطريقة قاطعة فى وقت كانت تعد فيه شيئا فذا يفتقر الى الدليل
القوى الثابت ، سوى الخروج بها من دائرة سلطة السلطان وأمرائه
باشراك الأغراض الدينية التى كانوا لا يعرفون حرمة لسواها فى الافادة
منها • ولما كانت الدولة تبيح وقتئذ تملك الأرض التى يبيعها بيت المال
والأرض التى تستصلح وكان الأمراء يستطيعون بنفوذهم وسعة وسائلهم
أن يحصلوا على هذه الأراضى وينشئوا بذلك لأنفسهم ملكية عقارية
حقيقية فقد انتشرت الأوقاف حينئذ انتشارا واسعا حتى فكر السلطان
برقوق فى حلها والاستعانة بها على مواجهة مصاريف الدولة فوقف
المشايخ فى وجهه ومنعوه[1] •

(1) والحكر صورة ثانية لظاهرة الاقطاع فهو فى الأصل أرض مهجورة
يبنى عليها من ينالها بوضع اليد أو يهيئها للبناء أو يزرعها بستانا فتنتقل
ملكيتها اليه ويستطيع التصرف فيها كما يشاء • ولم يكن الأمر وقتئذ فيما
يتعلق بالوقف مقصورا على الأمراء اذ كان كل ثرى يثبت ملكيته بشكل
أو آخر يستطيع أن يحولها الى وقف أما الحكر فنحن لانجده فى الغالب الا بيد
السلاطين والأمراء لأن الحصول عليه كان يقتضى نفوذا لايكفى دونه الثراء •

ولكن أشد آثار الحكم المملوكى فى حياة مصر الاقتصادية على
الاطلاق كان دون شك ذلك الذى أصاب نشاطها الصناعى والتجارى •
ونحن نشهد هذا الأثر بأبشع صوره فيما وجد الفرنسيون عليه الصناعة
والتجارة المصريتين فى نهاية القرن الثامن عشر فقد كانت الصناعة تقتصر
وقتئذ على صنع ما تحتاج اليه السوق المحلية وبعض أسواق سوريا
وأفريقيا الشمالية والوسطى من أنواع النسيج والأغذية والأدوية بطرق
بدائية عتيقة • وكانت التجارة لاتعدو تصدير بعض الخامات المتوفرة فى البلاد
كالقمح والأرز والجلود والعدس والفول والكتان والبلح ، واستيراد بعض
الخامات كالعاج وريش النعام والجلود والنطرون والشب والذهب والعبيد
من أفريقيا وبعض المصنوعات كالصابون والمنسوجات والأسلحة والدخان
من الشام • وكانت صادرات مصر الى أفريقيا الوسطى أقل بكثير
من وارداتها منها بينما كانت صادراتها الى البلاد العربية تعادل ثلثى
وارداتها من هذه البلاد[1] • ومؤلفو « وصف مصر » يقدرون ربح مصر
من تجارتها مع فرنسا وايطاليا بما لا يزيد على ٥٠ ألف قرش فى السنة
ومن تجارتها مع أفريقيا الوسطى باثنى عشر ألف قنطار من تراب الذهب
ومن تجارتها مع السلطنة العثمانية بمليون ريال ، كانت تخسر جزءا كبيرا
منها فى تجارتها مع جدة لامتناع هذه عن قبول المنسوجات المصرية ،
ويحسبون ايرادات الجمارك المصرية جميعا بنحو ثلاثة ملايين فرنك
فى العام • وهذه الأرقام تتعلق بالتجارة المصرية فى النصف الثانى من
القرن الثامن عشر أى فى الوقت الذى عادت أوروبا تنظر فيه الى البحر
المتوسط وتتصل بالشرق من جديد وهى تمثل لذلك حالة انتعاش بالقياس
الى المدة السابقة •

وقد كانت مصر حين نزلها الفرنسيون فى نهاية القرن الثامن عشر
تتكون من بضع مدن يشبهها مؤرخو الحملة بالقرى الكبيرة ، لا يزيد عدد
سكانها جميعا على ٣٣٩٨٠٠ ساكن ، و ٣٦٠٠ قرية ، لا يزيد متوسط عدد
سكان كل منها على ٥٣٤ ساكنا • وكان تعداد المصريين جميعا لا يزيد على
مليونين ونصف • وكانت القاهرة ، عروس الشرق وثانى مدينة فى السلطنة
العثمانية ومركز الحياة المصرية الوحيد فى ذلك الحين — القاهرة التى

(1) Figari: Studi scientifici sull'Egitto.

كانت حين زارها ابن بطوطة لا تكاد تسع سكانها من كثرتهم وكان أهلها فى صبى المقريزى لا يلبسون الا المهاميز الذهب — كانت القاهرة مدينة نصف خربة لا يزيد عدد سكانها على ٢٦٠ ألفا منهم ١٢ ألف مملوك وجندى و٣٠ ألف خادم و٣ آلاف حفار و٢٥ ألف صانع و١٥ ألف عامل أجير [١] و ٥ آلاف بائع وألفا قهوجى و ٦ آلاف مالك وألفا تاجر [٢] بينما كانت الاسكندرية ، عاصمة البحر المتوسط قرونا عديدة ومركز التجارة الدولية فى العصور الوسطى ، قرية كبيرة لا يزيد عدد سكانها على ثمانية آلاف ساكن يشتغلون بالصيد والنسج وصناعة الصابون وتأتى فى الأهمية بعد رشيد . وكان ما بين الأسكندرية ورشيد صحراء يبابا وما بين القاهرة والأسكندرية قرى منتثرة وأكواخا قذرة . أما الصعيد فكان منفى البكوات وميدان الحروب الداخلية المختار بين من يضطر من الأمراء المماليك الى مغادرة القاهرة فرارا من شر زبانيتها .

والجبرتى يصف فى تاريخه الحالة الاقتصادية قبيل دخول الفرنسيين مصر فيقول: «وانقضت هذه السنة (سنة ١١٩٨ هجرية) كالتى قبلها فى الشدة والغلاء وقصور النيل والفتن المستمرة وتواتر المصادرات والمظالم من الأمراء وانتشار أتباعهم فى النواحى لجلب الأموال من القرى والبلدان واحداث أنواع المظالم ويسمونها مال الجهات ودفع المظالم والفردة حتى أهلكوا الفلاحين وضاق ذرعهم واشتد كربهم وطفشوا من بلادهم ، فحولوا الطلب على الملتزمين وبعثوا لهم المعينين فى بيوتهم فاحتاج مساتير الناس لبيع أمتعتهم ودورهم ومواشيهم بسبب ذلك مع ماهم فيه من المصادرات الخارجية من ذلك وتتبع من يشم فيه رائحة الغنى فيؤخذ ويحبس ويكلف بطلب أضعاف ما قدر عليه وتوالى طلب السلف من تجار البن والبهار عن المكوسات المستقبلة . ولما تحقق التجار عدم الرد استعاضوا خساراتهم من زيادة الأسعار ثم مدوا أيديهم الى المواريث فاذا مات الميت أحاطوا بموجوده سواء كان له وارث أو لا وصار بيت المال من جملة المناصب التى

(١) يقدر كتاب « وصف مصر » أجر العامل اليومى حينئذ بما لايزيد على ١٥ بارة .

(٢) لايزيد عدد الفرنسيين بينهم على ثلاثين .

يتولاها شرار الناس بجملة من المال يقوم بدفعه فى كل شهر ولا يعارض فيما يفعل فى الجزئيات وأما الكليات فيختص بها الأمير . فحل بالناس ما لا يوصف من أنواع البلاء الا من تداركه الله برحمته أو اختلس شيئا من حقه فان اشتروا عليه عوقب على استخراجه وفسدت النيات وتغيرت القلوب ونفرت الطباع وكثر الحسد والحقد فى الناس لبعضهم البعض فيتتبع الشخص عورات أخيه ويدلى به الى الظالم حتى خرب الاقليم وانقطعت الطرق وعربدت أولاد الحرام وفقد الأمن ومنعت السبل الا بالخفارة وركوب الغرور وجلت الفلاحون من بلادهم من الشراقى والظلم وانتشروا فى المدينة بنسائهم وأولادهم يصيحون من الجوع ويأكلون ما يتساقط فى الطرق من قشور البطيخ وغيره ولا يجد الزبال شيئا يكنسه واشتد بهم الحال حتى أكلوا الميت من الخيل والحمير فاذا خرج حمار ميت تزاحموا عليه وقطعوه وأخذوه ومنهم من يأكله نيئا من شدة الجوع ومات كثير من الفقراء بالجوع . هذا والغلاء مستمر والأسعار فى الشدة وعز الدرهم والدينار من أيدى الناس وقل التعامل الا فيما يؤكل وصار سمر الناس وحديثهم فى المجالس ذكر المآكل والقمح والسمن ونحو ذلك لا غير» .

والجبرتى أيضا يقول ان التجار كانوا أثناء وجود الانجليز فى الأسكندرية بعد خروج الفرنسيين يتركون التجارة ويبيعون أثاثهم ومنازلهم ويهجرون الثغور ويضيف الى ذلك أن أعيان القاهرة كانوا يستدينون فلا يجدون من يدينهم سوى الجند .

— ٣ —

وقد صحب هذا الانقباض الاقتصادى انقباض اجتماعى لا يقل عنه ضيقا فتوارت العناصر المدنية الفذة ، التى كان النشاط الصناعى والتجارى والعلمى يدفعها الى سطح المجتمع ، وحل العسكريون من المماليك والعثمانيون محل المدنيين فى الوظائف المدنية وهبط أهل المدن والريف الى مستوى العبيد .

ونحن نشهد تلك العناصر المدنية بكثرة الى جانب السلاطين حتى

دخول العثمانيين مصر • فنجد الى جانب صلاح الدين، ابن مماتى ثم القاضى الفاضل، الذى يقول المقريزى ان صلاح الدين لم يفعل شيئا بدونه، وكان يتجر اتجاراً واسعا مع الهند والمغرب ويعد من أكبر أثرياء عصره • ونجد الى جانب أيبك ، الأسعد شرف الدين ابن وهيب الله الفائزى وقد بدأ حياته عاملا بأسيوط ثم جعل يتقدم حتى قلد الوزارة وكان ايبك يثق به ويكاتبه بالمملوك ويرسله بالعسكر الى الصعيد لمقاتلة الأمراء[1] • والفائزى هو الذى وضع سياسة أيبك المالية على أساس التوسع فى فرض الضرائب التجارية والصناعية وهى الضرائب التى كان صلاح الدين ألغاها وكان الأيوبيون والمماليك لا يملكون ناصيتها • ونجد الى جانب بيبرس ، بهاء الدين على بن حنا عديل الفائزى الذى يقول المقريزى ان بيبرس لم يبرم أمرا بدونه[2] ، والى جانب الناصر بن قلاوون ، أدهى سلاطين المماليك على الاطلاق ، مجد الدين اسلامى ، تاجر الخاص الذى عقد الصلح بينه وبين القان بن سعيد[3] ، والفخر محمد بن فضل الله الذى يقول المقريزى انه حمل الناصر على ابطال الوزارة ونيابة السلطنة لأن النائب الأمير أرغون خاصمه وبذلك صار كل شىء بيده حتى هتف الناصر يوم وفاته قائلا : « لعنه الله ! خمس عشرة سنة ما يدعنى أعمل ما أريد[4]» . ونجد الى جانب الأشرف ، خليل شمس الدين السلعوس الذى لجأ الأعسر، أحد أمراء قلاوون ، الى التزوج من ابنته ليتوسط له فى العودة الى مركزه بعد أن صادره الأشرف خليل ، وأدى فى هذا الزواج ألفا وخمسمائة دينار صداقا • ونجد الى جانب المظفر حاجى بن دنبور الذى أعاد تنظيم مالية الدولة كيما يتمكن من مواجهة الأزمة المستحكمة على أيامه وكان يملك معاصر السكر والمراكب والمخازن والمتاجر و ٤٠٠ ألف دينار • ونجد الى

(١) خطط المقريزى .
(٢) خطط المقريزى .
(٣) تزوج الناصر من طولبان حفيدة جنكيزخان بعد مفاوضات طويلة ودفع لها مهرا ٢٠ ألف دينار • وقد وقف موكب العروس فى طريقه الى القاهرة ببلاد الروم خمسة أشهر قام بخدمته أثناءها الأشكرى ملك استانبول وأنفق عليه ٦٠ ألف دينار وكان الناصر يعتمد فى سياسته الشرقية على كبير تجار ذلك العصر مجد الدين الاسلامى • خطط المقريزى .
(٤) خطط المقريزى .

جانب برقوق ، الصاحب كريم الدين بن مكانس وسعد الدين بن البقرى والقاضى عبد الواحد بن اسماعيل الذى كان برقوق يركن اليه فى كل شىء •

ولكن الرجل الذى بذّ هؤلاء القادة جميعا فى سعة السلطان واستطاع أن يجمع فى قبضته أعنة الدولة وينصّب السلاطين ويخلعهم ، كما يشاء ، كان ولا شك القاضى الأمير سعد الدين ابراهيم عبد الرزاق بن غراب الاسكندرانى ناظر الخاص وناظر الجيوش واستادار السلطان وكاتب السر • وكان جده غراب قد أسلم وباشر بالاسكندرية حتى ولّى الثغر وولّى ابنه من بعده • وقد ارتقى سعد الدين الى نظارة الديوان المفرد على أيام برقوق وعمره عشرون عاما وعاون أخاه فخر الدين فى تنصيب الناصر فرج بن برقوق بعد وفاة والده وتدبير أمور الدولة على أيامه • ثم تولى الاستدارية عوضا عن الأمير يلبغا الساعى رغم كونها من وظائف السيف ، دون أن يخلع زى الكتاب ، وصار له ديوان كدواوين الأمراء وطبول وكاتبه الناس بالأمير وعاش عيشة ملكية من حيث الأعطية والأسمطة التى كان يعطيها ، وأكثر من المماليك والخيول والماشية • ثم خرج من القاهرة مغاضبا الأمراء وصار الى ناحية تروجه يريد جمع العربان ومحاربة الدولة فلم يتم له ذلك فعاد الى القاهرة واشترك مع الأمير يشبك فى محاربة فرج بن برقوق وانهزم مع يشبك فذهب الى الشام وحرض الأمير شيخ نائبها على السلطان • ثم استطاع أن يستميل السلطان ويتخلص منه وينصّب عبد العزيز بن برقوق مكانه • ثم أعاد فرجا من جديد فجعله هذا أميرا وفوضه كل شىء • وكان ابن غراب يقول انه لو أراد لأخذ الملك لنفسه[1] •

وهذه أمثلة قليلة نجدها هنا وهناك فى كتب العصر وهى تشعرنا بأن الأمر لم يكن شذوذا وانما كان قاعدة عامة فى عهود السلاطين جميعا وفى دواوين الحكومة ودواوين الأمراء على السواء • وكان هؤلاء الرجال يأتون من صميم الطينة المصرية ويشتركون فى الحكم ويوجهون مصائره دون أن يكون فى سلوكهم شىء من روح العبودية الذى أراد أن يراه الذين عرضوا لتاريخ ذلك العصر ، قياسا على ما حدث تحت المماليك

(١) خطط المقريزى •

الشراكسة حين شل اقتصاد البلاد وضعفت قيم الحياة المدنية فيهـا . ونحن نعلم أن رجال الدين كانوا يتمتعون وقتئذ بنفوذ وامتيازات واسعة ويحسنون استعمال السلاح ويشتركون فى الحروب[1] . ونعلم أنهم كانوا ينهرون السلاطين والأمراء حتى دخول نابليون مصر وأن السلاطين والأمراء كانوا يبجلونهم ويقدمونهم على أنفسهم ويقبلون قدم من يعتقدون فى قداسته منهم ولا يشذ عنهم فى ذلك رجال مثل بيبرس وبرقوق[2] . وقـد كان أقسى المماليك وأشرسـهم خلقا يلوذون بالأزهر ويحتمون بشيوخه اذا خشوا عقاب الدولة حتى آخر أيامهم[3] . كذلك نعلم أن

---

(١) انظر « السلوك » .

(٢) وبين من عرض لهذا العصر من الكتاب المحدثين من يقول بأن هؤلاء المشايخ كانوا لايحجمون عن المعارضة السافرة للحكام . انظر كتاب « البيت السبكى » لمحمد العقاد حسين .

(٣) كان العلماء هم الذين توسطوا لدى نابليون للافراج عن المماليك المسجونين وأضافوهم فى الأزهر .

ونحن نقرأ فى « نهاية الرتبة فى طلب الحسـبة » لعبد الرحمن الشيزرى :

« وذكروا أن أتابك طغتكين سلطان دمشق طلب له محتسبا فذكر له رجل من اهل العلم فأمر باحضاره فلما بصر به قال : انى وليتك أمر الحسبة على الناس بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . قال : ان كان الأمر كذلك فقم عن هذه الطراحة وارفع هذا المسند فانهما حرير واخلع هذا الخاتم فانه ذهب فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الذهب والحرير : « ان هذا حرام على ذكور أمتى حل لأناثها » . قال فنهض السلطان عن طراحته وامر برفع مسنده وخلع الخاتم من اصبعه » .

ونقرأ فى « التصوف فى مصر ابان العهد العثمانى » لتوفيق الطويل :

« وقد ضاق السلطان الغورى بشمس الدين الديروطى لأنه يتهمه بالتقصير فى شأن الجهاد وتسامع الديروطى بذلك فمضى اليه حتى اذا حياه استقبل السلطان تحيته بالصمت فقال الشيخ ان لم ترد السلام سقط وعزلت . فقال السلطان وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . ثم قال علام تحط علينا بين الناس فى ترك الجهاد قد نسيت نعم الله عليك وقابلتها بالعصيان أما تذكر حين كنت نصرانيا ثم أسروك وباعوك من يد الى يد ثم منّ الله عليك بالحرية والاسلام ورقاك الى أن صرت سلطانا على الخلق . عماقريب يصيبك المرض الذى لا ينجح فيه طب ثم تموت وتكفن ويحفرون لك قبرا مظلما ثم يدسون انفك هذا فى التراب ثم تبعث عاريا عطشان جائعا ثم تقف بين يدى الحكم العدل الذى لا يظلم مثقال ذرة ثم ينادى المنادى من كان له حق أو مظلمة على الغورى فليحضر فيحضر خلائق لا يعلم حصرها الا الله .

أرباب الحرف كانوا يسبون السلاطين فى الطرق ومواجهتهم ويتظاهرون

وأرسل السلطان فى طلب الشيخ يترضاه ويتألف قلبه ويستميله بالمال والشيخ يعرض عن ماله ويحقر من شأنه فما رؤى أعز من الشيخ ولا أذل من السلطان فى ذلك المجلس » . عن الشعرانى : « الطبقات الكبرى » .

ونقرأ فى « تاريخ ابن أياس » :

« وفى يوم الثلاثاء تاسعه كانت كائنة الزينى بركات بن موسى مع الشيخ أبى السعود وسبب ذلك أن شخصا من أيتيا يبيع الجلود يقال له الدمراوى كان مكاسا على بيع الجلود فجار عليه ابن موسى فوقع بينه وبين ابن موسى حظ نفس فقصد ابن موسى أن يقبض عليه فتوجه الدمراوى الى الشيخ أبى السعود واحتمى به فأرسل الشيخ ابوالسعود رسالة الى ابن موسى بسبب ذلك وقد شنع فيها فتوقف ابن موسى فى امره ولم يلتفت الى رسالة الشيخ وطاوله فى امر الدمراوى فأرسل الشيخ لابن موسى فأحضره فلما حضر عنده فى كوم الجارح وبخه الشيخ بالكلام ، وقال له : ياكلب كم تظلم المسلمين ؟ فحنق منه ابن موسى وقام من عنده على غير رضا فأمر الشيخ بكشف راس ابن موسى وضربه بالنعال فصفعوه بالنعال على راسه حتى كاد أن يهلك ثم وضعه فى مكان وأرسل خلف الأمير علان الدرادار الكبير فلماحضر قال له ضعه فى الحديد واطلع وشاور السلطان عليه واعلمه بأنه يؤذى المسلمين . فلما طلع الأمير علان وشاوره فى أمر ابن موسى وما جرى له مع الشيخ ابى السعود أرسل السلطان يقول للشيخ أبى السعود مهما اقتضاه رأيك فيه فافعله فلما ورد الجواب على الشيخ بذلك امر باشهار ابن موسى فى القـاهرة ثم يشنقونه على باب زويلة فأخرجوا ابن موسى من زاوية الشيخ التى فى كوم الجارح وهو ماش مكشوف الراس فى الحديد ينـادى عليه هـذا جزاء من يؤذى المسلمين فتوجهوا من كوم الجارح الى ساحل مصر العتيقة وهم ينادون عليه . . . »

ونقرأ فى « تاريخ الجبرتى » :

« وفيها (سنة ١١٩١ هـ) فى أوائل شهر جمادى الأولى وقعت حادثة فى طائفة المغاربة المجاورين بالجامع الأزهر وذلك أنه آل اليهم مكان موقوف وجحد واضع اليد ذلك والتجأ الى بعض الأمراء وكتبوا فتوى فى شأن ذلك واختلفوا فى ثبوت الوقف بالاشاعة ثم أقاموا الدعوى فى المحكمة وثبت الحق للمغاربة ووقع بينهم منازعات وعزلوا شيخهم وولوا آخر . وكان المندفع فى الخصومة واللسانة شيخا منهم يسمى الشيخ عباس والامير الملتجىء اليه الخصم يوسف بك فلما ترافعوا وظهر الحق على خلاف غرض الامير حنق لذلك وتسببهم الى ارتكاب الباطل فأرسل من طرفه من يقبض على الشيخ عباس المذكور من بين المجاورين فطردوا المعينين وشتموهم وأخبروا الشيخ الدردير فكتب مراسلة الى يوسف بك تتضمن عدم تعرضـه لأهل العلم ومعـاندة الحكم الشرعى وأرسلها صحبة الشيخ عبد الرحمن الفرنوى وآخر . فعند ما وصلوا اليه وأعطوه التذكرة نهرهم وأمر بالقبض عليهم وسجنهم بالحبس ووصل الخبر الى الشيخ الدردير وأهل الجامع فاجتمعوا فى صحنها وأبطلوا الدروس والآذان والصلوات وقفلوا أبواب الجامع وجلس المشايخ بالقبلة القديمة وطلع

تحت نوافذ القلعة وينكتون على أهلها [1] ويثورون على الأمراء والمشايخ ويمنعونهم من الزيادة فى الضرائب بل ويحملونهم على ممالأتهم بالغائها

الصغار على المنارات يكثرون الصياح والدعاء على الأمراء وأغلق اهل الأسواق القريبة الحوانيت وبلغ الأمراء ذلك فأرسلوا الى يوسف بك فأطلق المسجونين وأرسل ابراهيم بك من طرفه ابراهيم أغا بيت المال فلم يأخذ جوابا وحضر الأغا الى الغورية ونزل هناك ونادى بالامان وأمر بفتح الحوانيت فبلغ مجاورى المغاربة ذلك فذهب اليه طائفة منهم وتبعهم بعض العوام وبأيديهم العصى والمسارق وضربوا أتباع الأغا ورجموه بالأحجار فركب عليهم وأشهر فيهم السلاح هو ومماليكه فقتل من مجاورى المغاربة ثلاثة أنفار وانجرح منهم كذلك ومن العامة وذهب الأغا ورجع الفريق الآخر وبقى الهرج الى ثانى يوم . فحضر اسماعيل بك والشيخ السادات وعلى أغا كتخدا الجاويشية وحسن اغا آغات المتفرقة والترجمان وحسن أفندى كاتب أحواله وغيرهم فنزلوا الأشرفية وأرسلوا الى أهل الجامع تذكرة بانفضاض الجمع وتمام المطلوب وكان ذلك عند الغروب فلم يرضوا بمجرد الوعد وطلبوا الجامكية والجراية فركبوا ورجعوا . واصبح يوم الأربعاء والحال على ما هو عليه واسماعيل بك مظهر الاهتمام لنصرة أهل الأزهر فحضر مع الشيخ السادات وجلسوا بالجامع المؤيدى وأرسلوا للمشايخ تذكرة صحبة الشيخ ابراهيم السندوبى ملخصها أن اسماعيل بك تكفل بقضاء أشغال المشايخ وقضاء حوائجهم وقبول فتواهم وصرف جماكيهم وجراياتهم وذلك بضمان الشيخ السادات له . فلما حضر الشيخ ابراهيم بالتذكرة وقرأها الشيخ عبد الرحمن العريشى جهارا وهو قائم على أقدامه فلما سمعوها أكثروا من الهرج واللغط وقالوا هذا كلام لا أصل له وترددت الارساليات والذهاب والمجىء بطول النهار ثم اصطلحوا وفتحوا الجامع فى آخر النهار وأرسلوا لهم فى يوم الخميس جانبا من دراهم الجامكية ومن جملة ما اشترطوه فى الصلح عدم مرور الأغا والوالى والمحتسب من حارة الأزهر » . تاريخ الجبرتى .

« . . . وطلق الشيخ حسن الجداوى احدى سيدات القاهرة فى غيبة زوجها على أيام الأمير يوسف بك الكبير وهو من أمراء أبى الذهب فاشتكى الزوج الى هذا الأمير فأراد هذا الأخير أن يعطل الطلاق فثار المشايخ وذهبوا اليه وصرخ عليه الشيخ على الصعيدى وسبه وقال له لعنك الله ولعن اليسرجى الذى جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميرا » . تاريخ الجبرتى .

(١) ولم يكن الأمر يختلف عن ذلك كثير الاختلاف فى القرن الثامن عشر فنحن نقرأ فى تاريخ الجبرتى :

« وفى منتصف شعبان (سنة ١١٩٩) ورد الخبر بوصول باشا مصر الجديد الى ثغر الاسكندرية وكذلك باشا جدة ووقع قبل ورودهما بأيام فتنة بالاسكندرية بين أهل البلد وآغات القلعة والسردار بسبب قتيل من أهل البلد قتله بعض أتباع السردار فثار العامة وقبضوا على السردار وأهانوه وجرسوه على حمار وحلقوا نصف لحيته وطافوا به البلد وهو مكشوف الرأس وهم يضربونه ويصفعونه بالنعالات » .

« . . . وفى يوم السبت ثامنه (جمادى الأولى سنة ١٢٠٢) وقع بين أهل بولاق وبين العسكر معركة بسبب افسادهم وتعديهم وفسقهم مع النساء

كما فعل صلاح الدين وبيبرس والناصر قلاوون من بعده . وكانوا فى أول أيام المماليك يستنكرون صعودهم الى مراكز الحكم جهارا [1] ويبدون فى ذلك روحا من الدعابة أبعد ما تكون عن الاستكانة والخنوع . كذلك نعلم أن أهل المدن كانوا يصنعون وقتئذ أنواع السلاح جميعا ويحملونها فى الطرق ويتبارون بها فى الميادين العامة ويشتركون فى حرب

واذية السوقة وأصحاب الحوانيت وخطفهم الأشياء بدون ثمن فاجتمع جمع من أهل بولاق وخرجوا الى خارج البلدة يريدون الذهاب الى الباشا يشكون ما نزل بهم من البلاء فلما علم عسكر القليونجية ذلك احتموا بأسلحتهم وحضروا اليهم وقاتلوهم وانهزم القليونجية فنزل الأغا وتلافى الأمر وأخذ بخاطر العامة وسكن الفتنة » .

ونهب العرب قافلة لبعض تجار القاهرة فذهب هؤلاء يشكون للوالى فقال لهم هذا انهم يستحقون ذلك بسبب تحايلهم على عدم دفع المكوس فأجابه بعضهم وهو السيد باكير وقال له : « يا مولانا الوزير جرت العادة ان التجار يفعلون ذلك ويقولون ما أمكنهم وعلى الحاكم التفتيش والفحص . فاغتاظ من جوابه وقال انظروا هذا كيف يجاوبنى ويشافهنى ويرد على الكلام والخطاب ما رأيت مثل أهل هذه البلدة ولا أقل حياء منها . وصارت يده ترتعش من الغيظ » . تاريخ الجبرتى .

وقد بلغ الأمر حد أن حرم على المماليك التدخين فى الطريق فالجبرتى يقول: « . . . وفى يوم الجمعة نودى على المماليك ان لا يخرجوا من بيوت اسيادهم ولا يركبوا على انفراد ويمشوا بالمدينة وكان من السنن السابقة فى آداب المماليك أن لا يركبوا من بيوت أسيادهم منفردين أبدا فترك ذلك فى جملة المتروكات وتزوج المماليك وصار لهم بيوت وخدم ويركبون ويغدون ويروحون ويشربون الدخان وهم راكبون فى الشارع الأعظم وفى ايديهم شبكات الدخان من غير انكار وهم فى الرق ولا يخطر ببالهم خروجهم عن الأدب لعدم انكار أسيادهم » .

(١) « وكان (ايبك) ملكا شجاعا كريما عاقلا سيوسا كثير البذل للأموال أطلق فى مدة سلطنته من الأموال والخيول وغير ذلك ما لا يحصى كثرة حتى رضى الناس بسلطان مسه الرق وأما أهل مصر فلم يرضوا بذلك الى أن مات وهم يسمعونه ما يكره حتى فى وجهه اذا ركب ومر بالطرقات ويقولون لا نريد الا سلطانا رئيسا مولودا على الفطرة » . « النجوم الزاهرة » .

والمقريزى يقول ان العامة كانوا يتظاهرون تحت نوافذ القلعة أيام قلاوون صائحين : « يابو عيشة اركب وكون طيب يابو عيشة . » . وذلك حين احتجب خوفا من ثورة الصالحية والظاهرية . « السلوك » .

وقد نشأ حينئذ لون جديد من الأدب انفردت به مصر وهو اللون الذى بداه ابن مماتى بكتابه « الفاشوش فى حكم قراقوش » وكان يرمى الى السخرية من الترك وحكمهم .

لمغل والصليبيين[١] وأن أهل الأسكندرية كانوا يملكون على أيام ابن بطوطة مستودعات كبيرة تزخر بأنواع السلاح ويرفضون أن يقوم السلطان بالدفاع عن المدينة من دونهم • ونعلم أن أبناء البلاد جميعا كانوا يجتمعون وقتئذ فى نقابات لها قوانينها وتقاليدها ورؤساؤها وأن هذه النقابات كانت تتمتع ، ازاء أعضائها ، بسلطة ادارية ـ قضائية ـ مالية واسعة تجعل منها وحدات حكومية قائمة بذاتها تعترف بها الدولة وتعتمد عليها وتحسب حسابها الى حد بعيد[٢] •

ومن السخف ان يقال ان المماليك كانوا ينظرون الى أبناء البلاد كعنصر مغتصب ويرفضون الاختلاط بهم ويكوّنون ارستقراطية قائمة بذاتها • فقد كانت تقوم بين الفريقين فواصل شديدة دون شك ولكنها كانت من طبيعة الفواصل التى تقوم الى اليوم بين الطبقات المختلفة فى المجتمع الواحد ، من طبيعة الفواصل التى تقوم الآن بين الصناع والزراع وأصحاب المهن الحرة وأهل الدولة ، الى جانب الأنفة التى تثيرها صناعة السلاح فيمن يشتغل بها عادة وما كانت تدفع بهم اليه فى ذلك الوقت من الاستهانة بغيرهم خصوصا اذا كانوا ممن ينصرفون لتحصيل خبزهم اليومى بالبيع والشراء • وقد كان المملوك يحمل لابن زميله نفس الشعور الذى يحمله لابن البلد فهو أيضا فى عينه سوقى يتكسب ولا يقضى اليوم مثله ويده على مقبض سيفه • يضاف الى ذلك أن علاقات المماليك بأمرائهم والأمراء بعضهم بالبعض وعلاقاتهم جميعا بالسلطان كانت تتخذ هى أيضا أشكالا ذليلة حقا من تقبيل الأقدام الى السجود الى التمرغ فى التراب الى القيام بأعمال الخدم ، وهى عادات أتوا بها من الاصقاع التى نشأوا فيها ، وكانت لا تمنع بعدُ من أن يثب الأمراء على السلطان فيقتلوه أو يفتك الأمراء بعضهم بالبعض أو يقف المماليك للأمراء فى الطرق ويضربونهم ضربا مبرحا كما كانت لا تمنع السلاطين والأمراء من ضرب المشايخ الذين كانوا يبجلونهم ويريدون الجنة على يديهم بالمقارع أو المماليك من تخطف عمائمهم أو هؤلاء وأولئك جميعا من التزاوج والاختلاط الحقيقى الواسع فلا شك فى أن الأمراء ، مثل سنقر الأعسر الذى رأينا[٣] ، كانوا يتزوجون من العائلات المصرية ، كما كان المصريون

(١) خطط المقريزى •
(٢) انظر مؤرخي ذلك العصر M. Clerget: Le Caire
(٣) أنظر صفحة ٣٥ •

يتزوجون من بناتهم ، مثل القاضى أبى بكر الذى تزوج من ابنة الأمير قانصوه وأخت أبى المحاسن التى تزوجت من قاض سورى ثم من قاض مصرى ، وكما كان المماليك يتزوجون من المدن المصرية التى ينزلونها •

ولم يكن انفراد المماليك فى ذلك الوقت بصنعة السلاح وقيادة الجيش وحيازة الاقطاعات يجعل منهم عنصرا غاصبا يمكن مقارنة وضعه من قريب أو بعيد بوضع الجيوش الأجنبية فى بعض بلاد الشرق اليوم • فقد رأينا كيف كان هؤلاء المماليك يهبطون مصر فرادى سعيا وراء الرزق ولم يتصلوا قط بالبلاد التى استجلبوا منها فضلا عن اعتمادهم عليها فى الصعود الى الحكم أو الاحتفاظ به أو توجيه سياستهم فيه ، ورأينا أن الاقطاعات لم تكن ، آخر الأمر ، سوى الوسيلة التى اهتدى اليها أبناء ذلك العصر لرصد ماندعوه اليوم باعتمادات الدفاع ، كما لم يكن المماليك سوى جند الجيش الثابت الذى اضطرت الحروب المستمرة مصر الى انشائه بين نهاية العصر الفاطمى وآخر أيام الأيوبيين • ونحن نعلم أن عدم وجود نظم التجنيد الحديثة فى ذلك الوقت ، والاتجاه الدينى الذى اتخذه وعى الشعوب فى الوقت نفسه ثم تقدم الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى البلاد ، كان يميل بالمصريين حينئذ عن الانخراط فى الجندية وترك الجيش لمن لا سبيل له الى الارتزاق غيره من أولئك الرجال الغلاظ الذين كانوا يفدون عليهم من أصقاع آسيا ، وذلك طالما كان السلم مستتبا أو كانت الحروب حروبا داخلية تشنها الدول الاسلامية بعضها على بعض ، أو تضرمها الأحزاب المختلفة فى الدولة الواحدة ، ولا تتعرض الأمة الاسلامية من جرائها لخطر كبير يستدعى هبوب المسلمين جميعا لذوده عنها • ونعلم أن المصريين اشتركوا فعلا فى مواقع الحروب الصليبية والمغولية الكبيرة وأن حثالة أهل المدن جعلت تدخل الجيش ، اذ كسدت الأعمال فى المدن بعد ذلك وهبط مستوى المماليك وجعلوا يستنكفون من السير الى الحرب ويفضلون استئجار من يحل محلهم فيها ، قبيل دخول العثمانيين وتحت الأمراء المماليك • وقد ظهرت هذه الظاهرة فى أوروبا أيضا فى ذلك العصر فكان أبناء الجمهوريات الايطالية التى يقارنها مؤرخو أوروبا بالجمهوريات اليونانية فى التعلق بالحرية السياسية، يفضلون فى ذلك الوقت تحمل أرزاق الجند المستجلبين على ترك أعمالهم والذهاب الى

سفك الدماء[1] . ومن الواضح أن الرجل الذى يقضى الأسابيع والشهور فى صنع تحفه او نقش باب أو زخرفة حائط يجد انفاق الوقت فى التقتيل جنونا ليس بعده جنون ويفضل أن يتحمل أجر من يقوم بذلك مكانه مهما ارتفع قدر هـذا الأجر دون أن يفكر فيما قد يؤول به اليه ذلك فى مستقبل الأيام[2] .

ونحن لا نكاد نجد للعناصر المدنية المصرية فى حياة مصر العامة أثرا يذكر منذ نهاية المماليك البرجية ولا نكاد نرى على سطح المجتمع المصرى حتى دخول الفرنسيين سوى البكوات المماليك والموظفين العثمانيين ومشايخ الأزهر وفئة ضئيلة من كبار التجار . ونلحظ اختفاء المدنيين عموما من الوظائف الحكومية وحلول رؤساء الوجاقات العثمانية وفرق المماليك ، الذين كانوا يبدأون حياتهم عسكريين ويظلون عسكريين بطابعهم ونظرهم الى الأمور ومجافاتهم لكل تدبير حضارى ، محل تلك الطبقة الغزيرة المثقفة من القضاة ، التى كانت تدبر أمور الدولة تحت السلاطين ، فى جميع هذه الوظائف ، فيما عدا ما هو خاص منها بالمسائل الدينية أو جباية الضرائب التى كان يقوم بها الأقباط حتى نهاية القرن الثامن عشر . كذلك نلحظ اختفاء كبار رجال العلم أمثال ابن خلدون والمقريزى والسيوطى ، ويروعنا تركز الحياة الفكرية فى الأزهر بعد أن كانت تنتشر بين جوامع القاهرة وجوامع المدن الكبرى جميعا ، وتحول المستوى الفكرى العام الى الجمود الذى وجدنا عليه الحياة الأزهرية فى مطلع هذا القرن .

والمقريزى يصف ما كانت عليه هذه الحال على أيامه وصلتها بالأزمات المالية فيقول : « اعلم حرسك الله بعينيه التى لا تنام وركنه الذى لا يرام ان الناس بأقليم مصر فى المالية على سبعة أقسام : القسم الأول أهل الدولة. والقسم الثانى أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهية .

(١) دائرة المعارف الايطالية .

(٢) وقد كان نظام البدلية من النظم التى عرفتها أوروبا الحديثة أيضا وأقرتها الثورة الفرنسية . انظر L'égalité des citoyens devant les charges publiques, par Jean Belin.

والقسم الثالث الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ويقال لهم أصحاب البز ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة . والقسم الرابع أهل الفلح وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف . والقسم الخامس الفقراء وهم كل الفقراء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم . والقسم السادس أرباب الصنائع والأجراء وأصحاب المهن . والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة وهم السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم .

فأما القسم الأول وهم أهل الدولة فحالهم فى هذه المحن على ما يبدو لهم ولمن لا تأمل عنده ولا معرفة بأحوال الوجود له أن الأموال كثرت بأيديهم بالنسبة لما كانت قبل هذه المحن باعتبار ما يتحصل لهم من خراج الأراضى فان الأراضى التى كان مبلغ خراجها من قبل هذه الحوادث مثلا عشرين ألف درهم صار الآن خراجها مائة ألف درهم » . ويقول ان هذه الزيادة فى دخل أهل الدولة كانت صورية بسبب هبوط القوة الشرائية للنقد ثم يعرض للمياسير من أهل التجار وأصحاب البز فيقول انهم كانوا يخضعون هم أيضا لنفس هذه القاعدة ثم ينتقل الى أهل الفلاحة فيقول : «فهلك معظمهم لما قدمناه من شدة السنين وتوالى المحن بقلة رى الأراضى» . ويلاحظ بعد ذلك أن الفقهاء وطلاب العلم أصبحوا فى عسر شديد ثم ينتقل الى أرباب المهن والأجراء فيقول : « ان أجورهم تضاعفت تضاعفا كثيرا الا أنه لم يبق منهم الا القليل لموت أكثرهم بحيث لم يوجد منهم الواحد الا بعد تطلب وعناء ولله عاقبة الأمور . وأما القسم السابع فهم أهل الخصاصة والمسكنة ففنى معظمهم جوعا وبردا ولم يبق منهم الا أقل من القليل لا يسأل عما يفعل وهم يسألون[1] » .

ولكن أثقل آثار النظام المملوكى فى حياة المجتمع المصرى كان بلا شك ذلك الذى أصاب طائفة الزراع منذ أول عهد المماليك . والمقريزى يصف هذا الأثر فيقول :

« يسمى المزارع المقيم بالبلد فلاحا قرارا فيصير عبدا قنا لمن أقطع تلك الناحية الا أنه لا يرجو أن يباع ولا أن يعتق بل هو قن ما بقى ومن ولد له[2] » . وذلك أن الزراع كانوا يستطيعون حتى آخر أيام الفاطميين أن

(١) « كشف الغمة » .

(٢) خطط المقريزى .

يرتقوا من أدنى درجات المجتمع الى أسماها دون أن يعوقهم عائق من النظم العامة اللهم الا شرط الدين ان كانوا غير مسلمين فيما يتعلق بشغل بعض المناصب الحكومية ومصاهرة الأسر الاسلامية • فقد كانت الدولة تطرح الأراضى الزراعية التى تملكها ، وهى غالب الأراضى الصالحة للزراعة ، فى مزايدات عامة دورية • وكان لكل من يريد أن يتقدم الى هذه المزايدات أن يصل عن طريقها الى ما يستطيعه من الثراء • كذلك كانوا يستطيعون أن يتركوا الزراعة للاشتغال بأى عمل آخر وأن يتنقلوا من مكان الى مكان كما يشاؤون ، ثم ظهرت الاقطاعات العسكرية بنظمها الدقيقة فخرجت الأراضى الزراعية من نطاق الاقتصاد العادى لـ« تتحجّر » فى نظام ادارى خاص وأصبح الزراع لا يستطيعون أن يكونوا غير اجراء لدى المقطعين • ومن البديهى ألا تكون علاقة الزراع بمقطعيهم قد هوت الى الصورة التى يرسمها المقريزى مرة واحدة وأن تكون تدحرجت اليها شيئا فشيئا بدافع ثقلها الذاتى وتطور الظروف الاقتصادية العامة • فقد رأينا أن الأصل فى الاقطاع العسكرى كان أن يربط ريع بعض الأراضى على نفقات الدفاع ، ومن ثم كانت الأحباس الجيوشية وأحباس صلاح الدين فى العهد الأيوبى ، وهى أحباس كانت الدولة تستغلها بطريق المزايدات ولا تغير بذلك من حالة الزراع شيئا • ثم كان ضغط الحرب وتوالى الأزمات المالية وتغلب التقاليد المغولية فكان توزيع الدولة هذه الأراضى بين رجال الجيش ليحصّلوا منها أجورهم • والظاهر أن حق هؤلاء الرجال كان مقصورا ، أول الأمر ، على الحلول محل الخزانة العامة فى علاقتها المالية بمؤجر الأرض المقطعة فينال أجره من المؤجر مباشرة بدل أن يناله من الخزانة العامة بعد أن يؤدى اليها هذا الأخير ما عليه [1] ثم تحول الى حق انتفاع كما رأينا حين ظهرت فكرة تنمية الانتاج الزراعى بالاستعانة بالمقطعين فى الاشراف عليه وبرزت حدود الاقطاع •

(١) وقد حدث مثل ذلك فى الامبراطورية العثمانية فنحن نقرأ فى « تاريخ الدولة العلية العثمانية » لمحمد فريد أن ديمورطاش باشا وزير مراد خان أسس فرق سيباه وأقطع كل نفر منها جزءا من الأرض يزرعه أصحابه الأصليون مقابل جعل معين لصاحب الاقطاع وذلك بشرط أن يسكن الجندى فى أرضه وقت السلم ويستعد للحرب عند الاقتضاء على نفقته وأن يقدم جنديا آخر معه وكان لا يرث هذه الاقطاعات الا الذكور فاذا لم يكن هناك ذكور عادت للدولة •

ولم يكن أمام المقطع حينئذ الا أن يزرع الأرض بنفسه أو لحسابه أو يؤجرها أو يشارك فى زراعتها • ونحن نستطيع أن نجزم بأن مقطعى العهد الأيوبى والعهد المملوكى لم يزرعوا الأرض بنفسهم قط فلا وجود لأثر لهذه الزراعة لدى مؤرخى ذلك العصر ، اذا استثنينا ما يقوله المقريزى فى « كشف الغمة » عن حراثة الجند الأرض على أيام العادل عندما فتك الوباء بالفلاحين وخلا الريف من أهله وهو أمر يبدو أنه لم يمتد العهد به أو يتكرر • ثم اننا نعلم أن حروب العهد الأيوبى المتصلة كانت تضطر الجند الى البقاء فى الثغور والتنقل الدائم ونعلم أن صناعة الحرب تقدمت حينئذ تقدما كبيرا كان لاشك يضطر المشتغلين بها الى الانصراف لشئونها ونفهم ذلك خصوصا من النظام الدقيق الذى وضعه قلاوون لتنظيم حياة المماليك منذ صباهم الى أن يدخلوا الجيش العامل ومن محاولات السلاطين الذين سبقوه فى هذا السبيل • ونعلم أخيرا أن المماليك كانوا يقدمون مصر للعمل فى جيشها والارتقاء عن طريقه الى أرفع المناصب لا للاشتغال بالفلاحة •

•

بقى أن يزرع المقطع الأرض لحسابه أو يؤجرها أو يزارع فيها أى أن يقدّم الأرض للزارع فيزرعها ثم يشترك الاثنان فى المحصول •

ونحن نجد علامات المزارعة هنا وهناك حتى آخر أيام المماليك الشراكسة فمؤرخو ذلك العهد يقولون ان الزراع كانوا يضيفون المقطعين ويهادونهم بأقدار مختلفة من الكشك والفراخ وما أشبه ذلك حتى سلطنة الناصر اذ انقلبت هذه المهاداة الى حق ثابت من حقوق المقْطَع • ويقولون أيضا ان الدولة كانت تحصل الخراج ، أى ضريبة الأرض ، من المحصول تحت يد الزراع • فيقول المقريزى ان زراع اقطاع برقوق كانوا يأتون القاهرة يحاسبونه على خراجه ، أى نصيبه من محصول الاقطاع ، فيحيلهم الى صديقه القاضى عبد الواحد بن اسماعيل • ويقول ابن اياس ان الأمراء كانوا يتذمرون من زيادة الخراج على الأرض لأنه كان يدفع الفلاحين الى تركها وان الفلاحين رفضوا تقديم خراج المقطعين حين علموا بانهزامهم للعثمانيين لأنهم لم يعودوا أصحاب الحق فيه • وفى هذا ما يدل على أن الزراع لم يكونوا

فى جميع هذه الحالات عمالا مأجورين ، والا لما التزموا بمهاداة مؤجريهم ولما كان تحت أيديهم محصول تتقاضى الدولة منه ضريبتها ويأخذ منه المقطع نصيبه • ويلاحظ أن نصيب المقطعين من المحاصيل كان يدعى ، كما نفهم من عبارة المقريزى ، بالخراج، نقصد بنفس الاسم الذى كان يطلق على ضريبة الدولة ، نعنى أن الفلاح كان ملزما بخراجين خراج للدولة يصيب نصيبه ونصيب المقطع جميعا ، وهو الضريبة التى كان يؤديها أيضا قبل ظهور الاقطاعات ، وخراج المقطع ، أى نصيبه من المحصول بدل الأجر الذى كان يؤديه عند التأجير بالمزايدة حين كان نظام المزايدات قائما •

ولكننا لا نجد أثرا للزراعة لحساب المقطعين وتحول الزراع الى اجراء مقيدين بالأرض كما يقول المقريزى ، خصوصا وانه هو نفسه يقول ان الفلاحين كانوا يهجرون الأرض لارتفاع أجرها أى انهم كانوا يؤجرونها ، اللهم الا اذا كان المقصود بهذه الحالة ما كان يحدث فى ذلك العصر بالذات فى الامارات الاقطاعية الأوربية من قيام الزراع بزراعة اقطاع سيدهم نظير منحه اياهم مساحة معينة يزرعونها لأنفسهم ويتقوتون بمحصولها المعهود • غير أن انتشار الاقطاعات وتوحّد نظم العمل بها ثم ميل الفلاحين المعهود الى ملازمة الأرض التى ولدوا عليها وما كان ينبنى على توارثهم العلاقات بالمقطعين وعدم تخلصهم منها بانتقال الاقطاع من مقطع الى آخر كانت لا بد تنتهى فى الأزمات المالية الشديدة ، وعلى وجه الخصوص فى آخر أيام المماليك والعصر العثمانى ، بهذه الحالات جميعا الى ما يشير اليه المقريزى من سقوط الزراع الى حالة تشبه الرق وتؤدى على كل حال الى قيام طبقتين مقفلتين لا تداخل بينهما : طبقة المقطعين أى الحائزين للأراضى ، وهم جميعا من المشارقة الأغراب ، كما شهدنا ، وطبقة الزراع أى أهل الريف الذين يعملون بالزراعة ولا يستطيعون أن يصبوا الى أكثر من استئجار بعض هذه الأرض •

وهكذا كان المجتمع يتكون وقتئذ فى مصر من طوائف أربع : المماليك ورجال الدين وأهل الصناعة والتجارة والفلاحون • والطبقة الأولى تنفرد ، من حيث تكوينها ، بقصرها الانتماء اليها على من يستجلب من أصقاع آسيا خصيصا للانخراط فى الجيش • كذلك تنفرد طائفة الفلاحين بتقيدها الى طائفة المماليك فهى تعمل فى العادة لديها ومن أجلها • أما الطائفتان الأخريان فمفتوحتان لمن يريد أن ينتمى اليهما — وان كانت

طائفة أصحاب الحرف تأخذ الى حد بعيد بقاعدة التوارث — وكانتا تغذيان صفوفهما فعلا من أبناء الريف وأبناء المماليك على السواء • ونحن اذا لحظنا ما كان للزراعة من أهمية بالغة فى الحياة الاقتصادية فى ذلك العصر فى الغرب والشرق ، وما كانت تقتضيه مواجهة حالة الحرب التى كانت تكتنف مصر حينئذ من بروز الطبقات التى تتناسل وتتكاثر وتكسب الأمم مناعتها الجنسية ، وهى الطبقات الزراعية ، وتركيز السلطة العامة فى أيد قوية صلبة ، وهى أيد لا تنتجها عادة الا هذه الطبقات ، استطعنا أن نتصور مدى الأثر الرهيب الذى كان ينجم عن اقصاء أبناء الريف المصرى ، وهم بعد غالبية أهل البلاد الأصليين ، عن الطبقة الحاكمة ، التى كان يستحيل عليهم الارتقاء اليها ، فى حياة البلاد العامة • استطعنا أن نتصور فظاعة الشلل الاجتماعى الذى كان يصيب مصر فى عصر الاختلاط ذلك بالذات من جراء القفل على أصلح أبنائها للعيش فيه والقيام بالتزاماته فى طبقة مغلقة لا تستطيع أن ترتفع عن الأرض ، واستطعنا أن نفهم لم كانت مصر تضطر الى استعارة من يشغل بعض أجهزتها الحكومية من الخارج ، وكل هذا فى الوقت الذى افترقت أثناءه عن الخلافة العباسية ، أى أصبحت دولة قائمة بذاتها ، ودخل غالب أبنائها الاسلام فصاروا يستطيعون الارتقاء الى مراكز الحكم دون أن تقوم فى وجههم عقبة اختلاف الدين التى كانت تقوم فى وجههم من قبل والتى كانت أكبر عقبة تعترض الدورة الاجتماعية فى ذلك الزمن •

وقد كان هذا النقص الرهيب الذى امتد حتى آخر أيام المماليك يجد بعض ما يسده فى الدور الذى كان يقوم به رجال الدين وطوائف أهل الحرف فى الحياة الاجتماعية والحياة العامة تحت السلاطين كما رأينا • ولكنه لم يكن يسده سدا تاما فرجال الدين ، أو هكذا كانوا على الأقل وقتئذ ، قوم يفضلون السماء على الأرض ويدينون بالعالمية ويرون يد الله فى كل شيء • وهم يميلون لذلك الى ترك تصريف أمور هذه الدنيا الى هذه اليد القادرة والانصراف الى العمل الصالح بعيدا عن مغريات الحياة وما من شأنه أن يعرّض بهم لارتكاب الخطيئة ولاسيما الاشتغال بأمور الحكم • وقد تكون هذه الفلسفة فلسفة صادقة تنبعث من شعور صحيح ولا تمنع أصحابها أن يكونوا رجالا أشداء يسوسون الأمم ويخوضون الحروب اذا كان المجتمع فى دور صعود كما كان الأمر فى صدر الاسلام

أو كان معتنقوها أصحاب استعداد ذاتى كما كان بعض خلفاء عصر الأفول الاسلامى • وقد تكون دعوى فارغة ترمى الى ستر قصور شخصى أو حب السلامة أو قلة الحيلة كما كان الأمر ولاشك الى حد بعيد فى ذلك العصر ، فيضعف أصحابها عن مواجهة أعباء الحياة العامة ويتجنبون مشاكلها ويقبعون فى بيوتهم يزدردون ما قسمه الله لهم من رزق حتى اذا أقحموا فى هذه الحياة اقحاما كانت نظرتهم اليها مخالفة لما يجب أن تكون ، تحمل على سطحها وفى جوهرها آثار بصر غير عاد أعشاه طول التأمل فى نور السماء • وقد كان كبار أهل الدين يرفضون حينئذ الاهتمام بالحياة العامة صراحة وينعون على من يشذ منهم عن هذه القاعدة ويعدون الاشتغال بأمور الحكم عارا وأى عار[1] ويغلبون نص أحكام الشريعة على كل اعتبار آخر فيرفضون أن تزاد الضرائب لمواجهة مصاريف الدفاع فى الوقت الذى يهدد فيه المغول الحدود المصرية ويهددون معها الحضارة الانسانية جميعا[2] •

والتجار والصناع يشاركون فى الغالب رجال الدين فى عالميتهم هذه الى حد بعيد فالتكسب ورأس المال عادة شىء لا وطن له يتلمس غايته فى كل مكان[3] • وهو الى هذا ماكر مرن محب للاستقرار لا يقدم على الثورة وقلب الأوضاع وانشاء النظم الجديدة الا اذا ضاقت به ظروفه ضيقا شديدا • وقد كان للتجار وأهل الحرف فى الحياة العامة الغربية بعد الحروب الصليبية دور هام بل الدور الأول أحيانا لأنهم استطاعوا أن يعيشوا خارج دائرة المجتمع الاقطاعى الذى نشأوا فيه وأن يقيموا بالمدن التى كانوا هم أهلها وحكامها وأن يستعينوا بالكنيسة فى محاربة الأمراء الاقطاعيين وبالأمراء الاقطاعيين فى محاربة الكنيسة ويقيموا لأنفسهم دولا يدافعون عنها ويشرعون لها ويدبرون أمورها • ولكن مصر لم تنقسم

(١) ونحن نقرأ فى « تاريخ ابن اياس » : « وأما ما كان من أمر الشيخ أبى السعود فانه لما فعل بابن موسى ما فعل وعاقبه على اساءته لبعض العامة قامت عليه الثائرة وأنكر عليه الناس والفقراء وقالوا ايش للشيخ شغل فى أمور السلطنة واستقلت الناس به ولم يشكوه أحد على ما فعله بابن موسى » •

(٢) وتوفيق الطويل يرجع الى تصوف هؤلاء المشايخ حالة مصر الاجتماعية فى العهد العثمانى أنظر « التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى » •

(٣) وقد تعاون المحروقى فعلا فى القرن الثامن عشر مع الفرنسيين والأتراك والمماليك ومحمد على ، على التوالى • انظر « تاريخ الجبرتى » •

الى ممالك وامارات أو بلديات مستقلة قط ولم يقم فيها مجتمع مدنى منفصل عن المجتمع الريفى يوما ما ولم تفلت السلطة فيها من العاصمة لتنتهى الى يد هيئة مستقلة عنها أو تتخذ أوضاعا جديدة مرة واحدة • فكان السلطان وقضاته ونوابه ومماليكه هم الذين يحكمون فى القاهرة وأعلى الأرض وأسفل الأرض على السواء وكان التشريع هو التشريع والنظام العام هو النظام العام ولم يكن لذلك من سبيل لنشوء مجتمعات غريبة تختلف عن المجتمع الأصلى • ونحن نعلم فعلا أن التجار وأصحاب الحرف كانوا يفضلون وقتئذ مداراة أهل الدولة وتجنب شرهم واستمالتهم على الوقوف فى وجههم ما استطاعوا • فما يصطدم الأمراء بعضهم بالبعض أو يثور المماليك على الأمراء أو يتربص الجميع بالسلطان حتى يقفل كل منهم حانوته وينقلب الى أهله ينتظر انقضاء الأزمة أو فورة الغفلة التى أثارتها • وكان يمكن لهذه الظاهرة وقتئذ ما عرفه ذلك العصر من نظم ادارية ومالية خاصة كانت تجعل من مختلف طبقاته مثل مجتمعات متفرقة فقد رأينا كيف كان أصحاب الحرف يجتمعون وقتئذ فى طوائف منتظمة تتمتع بسلطة ذاتية واسعة تجعل منها شبه حكومات صغيرة الى جانب الحكومة الأصلية • يضاف الى ذلك أن اعتماد المالية العامة وقتئذ ، سواء فى الشرق أو الغرب ، على دخل الأموال التى تملكها الدولة دون الضرائب الحقيقية ، كان يبعد ما بين الحاكمين والمحكومين فى ميدان السياسة وميدان الحرب على السواء ، ويجعل من الحكم مسألة خاصة لا تكاد تعنى غير القائمين به اللهم الا فى الحالات التى تعظم فيها الأمور ويضطر الحاكم الى طلب المال من الرعية فتنتبه هذه وتسمع صوتها وكثيرا ما تثور أيضا •

وقد وهنت طبقة رجال العلم وأهل الحرف فى هذا المجتمع بعد ذلك ، كما شهدنا ، بوهن الحياة المدنية التى كانت تنجبها ، وطغت الموجة المملوكية على كل شىء منذ ابان عصر المماليك الشراكسة حتى ظهور محمد على ، وهذه هى الفترة التى عاشت مصر أثناءها أظلم أيام حياتها الطويلة على الاطلاق •

الموجة الغربية

قلنا ان حروب الصليبيين كانت ترجع ، فيما كانت ترجع اليه ، لما بدا على المجتمع الأوروبى فى نهاية عصر الوسط من انتعاش • وقد اتصل هذا الانتعاش بعد ذلك وكان من بوادره ظهور بحر الشمال وسيطرة أوروبا على البحر المتوسط واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح والأمريكتين ، هذا الاكتشاف الذى يعده آدم سميث بحق أكبر حدث فى تاريخ الانسانية الى أيامه على الاطلاق ، ثم ما أعقب ذلك من نمو اقتصادى لا سابق له ، اذ كانت أوروبا تتصل بأسواق الشرق الأقصى اتصالا مباشرا وتضع يدها بغتة على عالم ثان وتنتقل بالتالى ، من الانتاج المحلى البسيط لأسواقها المحدودة ، الى الانتاج الضخم للعالم الجديد وشعوب آسيا وأفريقيا أيضا ، وتزاول ما يستتبع هذا الانتاج من اتجار ونقل[1] • ومن ثم كان ازدهار التجارة والصناعة فيها ازدهارا رائعا [2] وكانت عودة الحياة الى مدنها بعد أن هجرتها الى الريف ، عشية العصر الاقطاعى ، وكان ظهور المنشآت الصناعية والتجارية والمصرفية الحديثة [3] •

وكان المجتمع القائم على هذا النمو الاقتصادى يأخذ من ناحيته ، أثناء ذلك ، بأسباب الرقى الذى نشهده فى الغرب وننفسه عليه الى اليوم ، فقد اتسع نشاطه حتى أصبح يشمل الشرق الأقصى والعالم الجديد وآسيا الوسطى ، أى المناطق التى جعل أبناء أوروبا يتزحون اليها ويتجرون معها فيثرون ويتكاثرون ويحيون حياة رخية جديدة • وتمايزت وظائفه فافترقت الشئون الزمنية عن الشئون الدينية وتنوع الاقتصاد وظهرت العلوم المختلفة • وبرزت أجهزته فكانت الدولة الحديثة والكنيسة الحديثة والجامعات والمصارف • وكان يوجه عام أن هبط الناس من العالم السماوى الذى حملتهم اليه المسيحية الى الأرض هذه

(1) A. Smith : The wealth of nations.

(2) Luzzato : Storia economica.

(3) بيرين : Pirenne: Histoire économique et sociale de l'Europe au Moyen Age. (« التاريخ الاقتصادى والاجتماعى لأوروبا الوسيطة »)

الماثلة بين أيديهم واقبالهم خفافا على استثمار خيراتها ، وقد أسرتهم متعها وملأت مشاعرهم مباهجها وراعتهم أسرارها وما يحمله الكشف عنها من ترغيب فى المادة وشحذ للهمم واعتداد بالنفس بدل انتظار المعجزات وترقب يد الله أن تمتد من بين السحب •

وقد لازم هذا النمو وتفاعل معه ما كان لابد حادث فى عالم الفكر أيضا من تحول عميق شامل فعاد المفكرون يدرسون آثار الماضى الاغريقى – الرومانى ، حين كان الناس يعيشون على هذه الأرض كما كان معاصروهم يريدون أن يعيشوا ، ويبنون من حيث انتهى أسلافهم ويتعمقون مشاكل الحياة المادية بعد أن طال تعمقهم للحياة الآخرة ، ومن ثم كان الأومنيزم والنهضة ومذهب العقليين والمذاهب الفلسفية الحديثة ، وكان الاتجاه الى العلوم الطبيعية والدراسات التطبيقية التى ثارت بالعالم من جديد باختراعات القرن التاسع عشر •

وصحب هذا التحول تطور بالغ فى الأوضاع الاجتماعية والسياسية أيضا فقد استطاعت المدن أن تسيطر على المجتمع الريفى القائم حولها باجتذاب أهله وتمويل أشرافه والتحكم فى اقتصاده أى اخضاع حياته جميعا لمقتضيات حياتها هى • وهنا تتحطم القيود التى تربط الريفيين بالأرض وتتراخى علاقاتهم بسادتهم وتظهر الملكية الفردية ، نعنى تتحلل مقومات النظام الاقطاعى وتتجه الى الاستخفاء[1] • وتنتعش الدورة الاجتماعية أثناء ذلك فينشط تنقل الفرد داخل طبقته ويسرع ارتفاع الطبقات من الأسفل الى الأعلى وتطفو على سطح المجتمع عناصر جديدة من رجال أعمال وساسة وعلماء ، صعدوا من صفوف الصناع والتجار ومزاولى الأعمال الحرة الذين نهضوا بالمدن وخبروا حياتها وأقاموا نظمها ، أو هبطوا من صفوف النبلاء الاقطاعيين الذين استطاعت الحياة الجديدة أن تشدهم الى عربتها • وعندئذ يبدأ النزاع على الحكم بين هذه العناصرُ الجديدة والعقلية الاقطاعية القديمة فينادى الأولون بالحرية التى يحتاجون اليها للوصول الى الحكم وتوجيهه الوجهة التى تلائمهم ويتمسك الاقطاعيون بالنظم القديمة ولا ينفك هذا النزاع قائما

(٣) بيرين : « التاريخ الاقتصادى والاجتماعى لأوروبا الوسيطة » •

حتى يتخذ الشكل الذى بلغه بروسو ومنتسكيو وفولتير وأتباعهم ثم ينفجر بالثورة الفرنسية ، اذ تداعت النظم الاقطاعية جميعا وانتقل الحكم من أيدى الأقطاعيين الى أيدى هـــذه الطبقة الجديدة من أبناء الصناع والتجار والزراع الذين شـــقوا الحياة بسواعدهم وعاشوا مسائلها يوما بعد يوم وأقاموا مجتمعا جديدا واسع الأفق كثير المشاكل دقيق التركيب(١) .

* * *

وكان الشرق العثمانى يحيا أثناء ذلك حياته الخاصـــة بعيدا عن التطورات التى أصابت الحيـــاة الغربية ومقوماتهـــا وقوانينها . وقد سبق أن رأينا ما انتهت اليه الحياة الاجتماعية لهذا الشرق تحت المماليك وما نزل بمصر خاصة عقب انتقال التجارة العالمية الى الاطلنطيق وظهور العثمانيين . ورأينا كيف ارتدت مصر الى الحياة الاقليمية المحدودة بعد ذلك وكيف لم يكن العثمانيون فى نهاية الأمر سوى موجة جديدة من هجرة أهل آسيا الوسطى الى حوض البحر المتوسط ، يمتازون بما امتاز به من سبقهم الى تلك الهجرة من اكراد ومغل وشراكسة من خشـــونة بدوية مقاتلة . ومن ثم كانت غاراتهم المتوالية على المسيحية الأوروبية وضعف استجابتهم لدواعى الحيـــاة المدنية وعـــدم اكتراثهم أيضـــا للاكتشافات الجغرافية الجديدة على الاطلاق، فهم لم يتصلوا بأمريكا من بعيد أو قريب ولم يحاولوا شيئا فى سبيل مناقسة طريق الرجاء الصالح بله تعطيله (٢) وقنعوا بما عرفوه وعرفته البلاد التى استولوا عليها من نظم اقتصادية أصابها ما أصابها من انتكاس فى ذلك الوقت بالذات .

وقد كان من شأن مضى الغرب فى الطريق الفسيح الجديد الذى رأينا ، بعد انقباضه فى عصر الوسط ، وتعثر الشرق فى الطريق الذى كان آخذا به منذ الفتوح العربية ، بعد الامعان فى الاتساع ، وعدم طروء عوامل فعـــالة ، كالعوامل الخارقة التى طرأت على حيـــاة الغرب ، من اكتشافات جغرافية الى اختراعات علمية الى ظهور طبقات جديدة ،

(١) Guglielmo Ferrero : Le Pouvoir (غليوم فريرو : « الحكم ») .

(٢) ونحن نفهم من مصطفى زياده ان المماليك ظلوا يحاولون تعطيل هذا الطريق حتى دخل العثمانيون مصر فاهملوا ذلك انظر Foreign Relations of Egypt in the fifteenth century.

على حياته ، كان من شأن ذلك أن ما انكسرت سورة الغارات العثمانية فى القرن الســـابع عشر والتقى العالمان فى ميـــدان الحياة المدنية حتى طغى الغرب على الشرق وغمره غمرا ، كما يحدث حين يلتقى سائل فى مستوى عال بسائل فى مستوى أقل منه ارتفاعا فيطغى عليه ويغمره ؛ ومن ثم كانت جهود العثمانيين منذ ذلك الوقت لسد هـــذا الفراغ والسمو بسلطنتهم الى المستوى الذى بلغه الغرب أى كان ما تواضع مؤرخو بنى عثمان على تسميته بالاصلاح الاسلامى ، وهو الاصلاح الذى لا نزال نسمع عنه ونشهد بعض مظاهره فى بلاد الشرق جميعا ليومنا هذا(١) . وقد بدأت هـــذه الحركة فى صورة محاولات قام بها السلاطين وأعوانهم المباشرون لتوطيد نظم الامبراطورية ومعالجة ما بدا بها من نقص، كانت ترجع اليه ، فى رأيهم ، الهزائم العسكرية التى نزلت بها خلال القرن السابع عشر ، تقصد فى صورة السعى للعودة الى تقاليد السلف الصالح ، ومن هنا كان الاتجاه الى اعادة تنظيم الجيش والوقوف فى وجه الميول الانفصالية للولايات والنظر فى احكام المالية العامة ؛ ثم اتخذت صورة الاستجابة للضغط الدولى ، اذ كان ما يثيره اتجاه السلاطين هذا الجديد من معارضة داخلية ، وما كانت هذه المعارضة تبعثه من اضطراب فى بنيان الامبراطورية ، يغرى بها الدول الكبرى جميعا . واذ كان فريق من هذه الدول يقصد وقتئذ الى القضاء على العثمانيين وكان الفريق الآخر يريد الابقاء عليهم كعنصر من عناصر التوازن الدولى ، فقد كان الخلاف يقف بها جميعا عند التدخل السلمى فى شؤونها الداخلية والعمل على الملاءمة بين نظمها والنظم الغربية بطريق الايعاز أولا ثم طريق الضغط السياسى والعسكرى ؛ ومن ثم كانت المذكرات الدبلوماسية والمؤتمرات الدولية والاتفاقات السياسية التى شغلت العواصم الغربية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وكانت تلك السلسلة الطويلة من التنظيمات التى امتدت حتى أول القرن العشرين ، وكانت المستحدثات

(١) Berard : Le Sultan, l'Islam et les Puissances, Engelhardt : La Turquie et le Tanzimat.

العسكرية والادارية والدستورية التى أخذت بها الاستانة أثناء ذلك كالنظام الجديد والمحاكم المختلطة والمجالس الشورية[1] .

وكان فى هـذا الاتجاه الغربى شىء من شتى العناصر التى كانت تكيف موقف الدول الكبرى من المسألة العثمانية حينئذ : كان فيه شىء من رغبة روسيا فى تفكيك أوصال الامبراطورية العثمانية باثارة شعوبها المسيحية واحلالها المحل الذى يمكّنها ، وهى المتصدرة لزعامتها ، من تحقيق غاياتها الخاصة . وكان فيه شىء من رغبة انجلترا فى تثبيت العثمانيين والاحتماء بهم من سورة الخطر الروسى . وكان فيه شىء من نزعة فرنسا الى التوسع وخلافها مع النمسا وسيرها خلف عربة السياسة الانجليزية . وكان فيه الكثير من ميل أوروبا جميعا الى بسط سلطانها على السلطنة العثمانية واستثمار أموالهـا وتوظيف أبنائها فيها ، كذلك كان فيـه دون شك بعض العداء القديم بين المسيحية والاسلام ، وهو العداء الذى برز بعد ذلك فى ثورة أوروبا للدفاع عن الحركة الانفصـالية اليونانية وما صحبها من تهويل ، لا يزال ما كتب حينئذ وبعد ذلك فى تاريخ الاغريق وآدابهم وعلومهم يحمل طابعه الى اليوم .

* * *

وقد أثر تحول وضع الغرب من الشرق على هذا الوجه فى حياة مصر أيضا منذ نهاية القرن السابع عشر : أثر فيها من ناحية علاقاتها بالسلطنة العثمانية وأثر فيها من ناحية اتصالها بالقارة الأوروبية مباشرة . وكانت مصر تمس فى ذلك الوقت قاع الهوة التى دفعتها اليها أحداث القرنين الخامس عشر والسادس عشر بعد أن تحللت صلتها بالآستانة تحللا زاد فى خلل أوضاعها الداخلية والخارجية جميعا فتفاعل ذلك التحول وظروفها الخاصة هذه فى تكييف الاتجاهات التى أخذتها بعد ذلك .

ونحن نعلم فعلا أن مصر استهلت القرن الثامن عشر بحركة على الكبير وهى حركة تحولت من منافسة عادية على مشيخة البلد بين الأمراء المماليك

(١) المرجع السابق .

الى حرب انفصالية شنها شيخ البلد المنتصر على السلطان[1] واتجه أثناءها اتجاها دوليا لا عهد للبلاد به منذ أمد بعيد فاتصل بروسيا[2] وتعاون مع حكومة البندقية وفتح الثغور المصرية للتجارة الغربية[3] . وقد أجابت تركيا على حركة على الكبير بحملة عسكرية قصدت بها الى التخلص من أصدقاء الروس فى مصر ورد نظم الحكم الى ما كانت عليه قبل أن تتحول تحت ضغط المماليك[4] ولكنها لم تعد تعديل بعض الأنظمة العسكرية والحجر على حرية الذميين ورفع نصيب الجند من حصيلة الخراج ، كما حدث فى الولايات الأخرى اذ كانت السياسة العثمانية تقوم فيها وقتئذ جميعا بمثل هذه المحاولات ولا تصل الى أبعد من هذه النتائج .

كذلك نعلم أن تطاحن الأمراء وضعف الولاة واضمحلال الماليات خصوصا بعد سنة ١٧٨٦ ، وهى السنة التى منع فيها السلطان بيع الرقيق الى مصر ، وما كان يبعثه كل ذلك من شعث فى الشئون العامـة ، دفع وقتئذ بالمدنيين الى الثورة وزاد فى قيمة صوتهم لدى هذه الجهات جميعا حتى انتهى الأمر بهم الى المطالبة بتسوية جديدة لعلاقاتهم بالحكام . ونحن نعلم بهذه التسوية من الجبرتى فهو يقول : « وفى شهر ذى الحجة

---

(١) S.L. Aly bey el Kebir . وقد خلع على الكبير الوالى وفتح الشام والحجاز واليمن ونادى به شريف مكه سلطانا لمصر والبحرين . تاريخ الجبرتى .

(٢) Marcel : L'Egypte (مارسيل : « مصر ») . وهو يقول ان محاولات روسيا السياسية فى مصر استمرت بعـد على الكبير أيضـا حتى كان ربع مماليكها فى سنة ١٧٦٨ من الروس وصار عهد ابراهيم ومراد يعد عهد النفوذ الروسى . كذلك يقول محمد فريد ان الجيش الذى قاتل به على الكبير أبا الذهب كان به ٤٠٠ جندى روسى وأربعة ضباط من نفس الجنس : « تاريخ السلطنة العثمانية » .

ويلاحظ أن اتصال على الكبير بروسيا وتعاونه مع البندقية يفسران الى حد بعيد ما كان يتهم به من ميل للمسيحيين .

(٣) Charles Roux : L'Angleterre, l'Isthme de Suez et l'Egypte.

(شارل رو : « انجلترا وقنال السويس ومصر »)

وكان لعلى الكبير مستشار بندقى الجنس يدعى روستو .

(٤) ومع ذلك كانت فرق المماليك خير مافى السلطنة العثمانية وقتئذ على الاطلاق . وقد ظهر ذلك فى الاصطدامات التى وقعت فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر بينهم وبين القوات العثمانية والفرنسية والانجليزية والجبرتى يقول ان الشيخ العروسى قال لاسماعيل بك حين فكر فى استقدام الجند من الاستانة للاستعانة بهم على أعدائه ان الجند المصريين خير من الأتراك وانه من الأفضل اعطاء الأولين ما كان يريد اعطاءه الأخيرين .

(سنة ١٢٠٩ هجرية)وقع به من الحوادث أن الشيخ الشرقاوى له حصة
فى قرية بشرق بلبيس حضر اليه أهلها وشكوا من محمد بك الألفى وذكروا
ان أتباعه حضروا اليهم وظلموهم وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه
فاستغاثوا بالشيخ فاغتاظ وحضر الى الأزهر وجمع المشايخ وقفلوا أبواب
الجامع وذلك بعد ما خاطب مراد بك وابراهيم بك فلم يبديا شيئا ، ففعل
ذلك فى ثانى يوم وقفلوا الجامع وأمروا الناس بغلق الأسواق والحوانيت
ثم ركبوا فى ثانى يوم واجتمع عليهم خلق كثير من العامة وتبعوهم وذهبوا
الى بيت شيخ السادات وازدحم الناس على بيت الشيخ من جهة الباب
والبركة بحيث يراهم ابراهيم بك . وقد بلغه اجتماعهم فبعث من قبله
أيوب بك الدفتردار فحضر اليهم وسلم عليهم ووقف بين يديهم فسألهم
عن مرادهم فقالوا له نريد العدل ورفع الظلم والجور واقامة الشرع
وابطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها . فقال
لا يمكن الاجابة الى هذا كله فاننا ان فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش
والنفقات فقيل له هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس وما الباعث
على الاكثار من النفقات وشراء المماليك والأمير يكون أميرا بالاعطاء
لا بالأخذ . فقال حتى أبلغ وانصرف ولم يعد لهم بجواب فانفض المجلس
وركب المشايخ الى الجامع الأزهر فاجتمع أهل الأطراف من العامة والرعية
وباتوا فى المسجد . وأرسل ابراهيم بك الى المشايخ يعضدهم ويقول لهم
أنا معكم وهذه الأمور على غير خاطرى ومرادى وأرسل الى مراد بك
يخيفه عاقبة ذلك فبعث مراد بك يقول أجيبكم الى جميع ما ذكرتموه
الا شيئين ديوان بولاق وطلبتكم المنكسر من الجامكية ونبطل ما عدا
ذلك من الحوادث والظلم وندفع لكم جامكية سنة تاريخية اثلاثا ثم
طلب أربعة من المشايخ وعينهم بأسمائهم فذهبوا اليه بالجيزة فلاطفهم
والتمس منهم السعى فى الصلح على ما ذكر . ورجعوا من عنده وباتوا
على ذلك تلك الليلة وفى اليوم الثالث حضر الباشا الى منزل ابراهيم بك
فاجتمع الأمراء هناك وأرسلوا الى المشايخ فحضر الشيخ السادات والسيد
النقيب والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ الأمير وكان المرسل
اليهم رضوان كتخدا ابراهيم بك فذهبوا معه ومنعوا العامة من السعى

خلفهم ودار الكلام بينهم وطال الحديث وانحط الأمر على أنهم تابوا
ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء وانعقد الصلح على أن يدفعوا
سبعمائة وخمسين كيسا موزعة على أن يرسلوا غلال الحرمين ويصرفوا
غلال الشون وأموال الرزق ويبطلوا رفع المظالم المحدثة والكشوفيات
والتفاريد والمكوس ما عدا ديوان بولاق وأن يكفوا أتباعهم عن امتداد
أيديهم الى أموال الناس ويرسلوا صرة الحرمين والعوائد المقررة من قديم
الزمان ويسيروا فى الناس سيرة حسنة . وكان القاضى حاضرا بالمجلس فكتب
حجة عليهم بذلك وفرمن عليها الباشا وختم عليها ابراهيم بك وأرسلها
الى مراد بك فختم عليها أيضا وانجلت الفتنة » .

وهكذا كان مشايخ الأزهر يقومون فى هذا المجتمع بدور كبير يجعل
منهم جهازا من أجهزة الحكم القائم ويؤدى بهم الى الوقوف فى صفه كلما
هدده خطر خارجى[1] . وقد وقفوا فى صفه فعلا حين فجأ حسن باشا
القبطان الأمراء المماليك بحملته ثم هبط الفرنسيون مصر . كذلك كان
امعانهم فى الاشتغال بأمور الحياة يؤثر فى وضعهم الاجتماعى ويكاد
يجعلهم سادة اقطاعيين كالأمراء المماليك سواء بسواء . والجبرتى
لا ينى يشير الى هذه الظاهرة وينعيها على مشايخ عصره فيقول :
«ولما انقضى هذا الأمر واستقر الباشا واطمأن خاطره وخلص له الاقليم
المصرى وثغر الأسكندرية الذى كان خارجا من حكمه حتى قبل مجىء
الانجليز — فان الأسكندرية كانت خارجة عن حكمه فلما حصل مجىء
الانكليز وخروجهم صار الثغر فى حكمه أيضا — فأول ما بدأ به أنه أبطل
مسموح المشايخ والفقهاء ومعافى البلاد التى التزموا بها لأنه لما ابتدع
المغارم والشهريات والفرض التى فرضها على القرى ونظام الكشوفية
جعل ذلك عاما على جميع الالتزامات والحصص التى بأيدى جميع الناس
حتى أكابر العسكر وأصاغرهم ما عدا البلاد والحصص التى للمشايخ

(١) لاحظ الشيخ محمد عبده هذه الظاهرة ورأى ما كانت تشتمل
عليه من اتجاه الى القيام بالحكم يرجع بعضه دون شك الى طبيعة وظيفة
رجال الدين فى الحكم الاسلامى من ناحية والى تحلل نظم الحكم المملوكية الذى
كان سائرا فى طريقه حينئذ من الناحية الأخرى . انظر ذلك فى
« محمد على الكبير » لشفيق غربال وان كان سعادته لا يؤيد هذا الرأى .

خارجة عن ذلك ولا يؤخذ منها نصف الفائظ ولا ثلثه ولا ربعه وكذلك من ينتسب لهم أو يحتمى فيهم • ويأخذون الجعالات والهدايا من أصحابها ومن فلاحيهم تحت حمايتهم ونظير صيانتها واغتروا بذلك واعتقدوا به وأكثروا من شراء الحصص من أصحابها المحتاجين بدون القيمة وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم الا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء الألوف الأقدمين واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان وأجروا الحبس والتعذيب والضرب بالفلكة والكرابيج المعروفة بذب الفيل واستخدموا كتبة الأقباط وقطاع الجرائم فى الارساليات بالبلاد وقدروا حق طرق لاتباعهم وصارت لهم استعجالات وتحذيرات وانذارات عند تأخر المطلوب مع عدم سماع شكاوى الفلاحين ومخاصمتهم القديمة مع بعضهم بموجبات التحاسد والكراهية المجبولة والمركوزة فى طباعهم الخبيثة وانقلب الوضع فيهم بضده وصار دينهم واجتماعهم ذكر الامور الدنيوية والحصص والالتزام وحساب الميرى والفائظ والمضاف والرماية والمرافعات والمراسلات والتشكى والتناجى مع الأقباط واستدعاء عظمائهم فى جمعياتهم وولائمهم والاعتناء بشأنهم والتفاخر بترددهم والترداد عليهم والمهاداة فيما بينهم الى غير ذلك مما يطول شرحه » •

وقد قال المشايخ أنفسهم للوالى أحمد باشا حين هبط القاهرة : « لسنا أعظم علمائها (أى علماء مصر) بل نحن المتصدرون لخدمة أهلها وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة وأهل الحكم فيها » • وبلغ بعضهم فعلا وقتئذ حدا من النفوذ لابأس به ، كالشيخ شمس الدين محمد أبو الأنوار [١] وجمع الى الثراء مصاهرة الأمراء كوالد الجبرتى الذى ورث عن صهره قيادة حصون الطور والسويس بالرغم من اشتغاله بالعلم •

(١) كان الشيخ شمس الدين محمد أبو الأنوار يتشبه بالأمراء حتى فى اللباس ويقتنى العبيد والقصور وقد رفض أن يسلم حسن باشا الجزائرلى مبلغا أودعه لديه ابراهيم بك وأنب الباشا لقبضه على نساء الأمراء ورغبته فى بيعهن ثم قال له حين أمر بأن يأخذ الكاتب اسمه واسم المشايخ الذين من رأيه ليبلغها للسلطان : « أكتب ما تشاء من الأسماء ولا مانع لدى من التوقيع عليها » . تاريخ الجبرتى .

ونحن نعلم أيضا أن اخفاق تركيا فى استعادة سلطانها على مصر ، وقصور القوى التى كانت تتجاذب النفوذ فى البلاد عن اجتياز مرحلة هذا التجاذب الى دور الانشاء لحكم جديد ، أديا الى ما كان يؤدى اليه حينئذ ضعف الشرق فى جميع الميادين ، من تحول التيار الغربى ، الذى كان يهب على ربوعه ، من الضغط الخارجى الى التدخل المباشر ، فكانت الحملة الفرنسية ونقلها بغتة الى صميم مصر أحدث ثمرات التقدم الغربى[١] اذ كانت فرنسا تسير حينئذ على رأس هذا التقدم وكان نابليون أنبه عبقرية سياسية عسكرية عرفتها القارة الأوروبية بعد قيصر وشارلمان وكان الجيش الذى هبط معه الاسكندرية خير من يمثل أحدث ما بلغته هذه القارة فى العلوم والفنون والاتجاهات الاجتماعية الحديثة على وجه العموم •

وقد أقبل نابليون على مصر وفى صدره ذكرى الاسكندر وقيصر وماضى البحر المتوسط ، تعنى ذكرى العالم الذى اشتركت مصر فى بناء صرحه ، وما استقر بها حتى صرف بعض قواده الى البحث عن معالمها القديمة [٢] واتجه الى تنظيم ادارتها وتنسيق مواردها وربط ما بينها وبين بلاد البحر المتوسط ثم وصل هذا البحر بالبحر الأحمر[٣] وكان هو ما كاد يهبط الأسكندرية حتى أذاع على أهل البلاد منشورا يحدثهم فيه عن ماضيهم البعيد وينوه لهم بصداقته للسلطان ورعاياه ويعرّض لهم بالحكم الذاتى[٤] • ولكن هذا المنشور لم يغن عنه شيئا ولم يكد المصريون يلتقون بالقادمين وجها لوجه حتى انفجرت الحرب وظلت تتقد بلا انقطاع طوال مدة الحملة[٥] • فقاوم أهل الأسكندرية الغزاة

(١) كانت أوروبا تحاول فتح أبواب مصر لنفوذها خصوصا الاقتصادى منذ القرن السادس عشر وكان ممثلو فرنسا فى القاهرة والاستانة يقترحون احتلالها منذ أوائل القرن الثامن عشر . Freycinet : La question égyptienne (فريسنيه « المسألة المصرية ») • وشارل رو يقول ان النمسا كانت تفكر فى الاستيلاء على مصر من قبل ذلك •

(٢) كانت لدى نابليون تعليمات بوصف أرض الفراعنة وصفا علميا . فريسنيه •

(٣) أعلن نابليون عن رغبته فى وصل البحرين وسافر الى السويس للنظر فى تحقيق ذلك . تاريخ الجبرتى .

(٤) وكان قد لوح بالحكم الذاتى للايطاليين أيضا فى مستهل حملة ايطاليا فيسر له ذلك الحملة تيسيرا بالغا .

(٥) Jonquière: l'Expédition d'Egypte.

بعصيهم — وكان زعماؤهم قالوا لرجال نلسون قبل ذلك بأيام أن مصر أرض السلطان ولا شأن لأحد بها وطردوهم شر طردة « حتى تتحقق ارادة الله » كما يقول الجبرتى — بينما كان مشايخهم يجأرون بالدعاء فى الجوامع وكانت الحامية التى استجلبوها من بدو البحيرة تنسحب مدحورة على عجل . وقاتلهم الدمنهوريون قتالا شديدا ثم وقف لهم المماليك فى الرحمانية وانهزموا لهم بالقرب من القاهرة فى موقعة عنيفة، لعلها آخر موقعة نازل فيها فرسان عصر الوسط علم الحرب الحديث ، واستمروا يهاجمونهم بعد ذلك من وقت لآخر . وثارت عليهم القاهرة المرة تلو المرة كما ثارت عليهم المدن الأخرى ما استطاعت .

وقد قاتلهم الجميع لأنهم رأوا فيهم أعداء دينهم الدائبين وأبعدوا فى ذلك حتى أقبلوا على التنكيل بمن كان يقوم بين ظهرانيهم من غير المسلمين خصوصا بعد أن انقاد بعض هؤلاء لعصبيتهم الدينية وانضموا الى الغزاة وخامروهم واحتضنهم الغزاة واستعانوا بهم[1] . وقاتلوهم لأنهم لم يفقهوا دعوتهم الى الحرية السياسية فأبى العلماء أن يزينوا صدورهم بالطيلسان ، رمز الثورة الفرنسية ، وكان أحرار أوروبا يتخاطفونه حينئذ[2] ، ورأوا فيه رجسا من عمل الشيطان ، ورفضوا أن يعينوا

---

(١) وقد دفع المصريون الضريبة التى فرضها السلطان لترحيل الفرنسيين بلا تردد لأنها كانت تخلصهم من الكفار . تاريخ الجبرتى . والجبرتى أيضا يقول ان عثمان بك رفض عرض الانجليز عليه معونتهم بعد نزولهم الاسكندرية ، أول أيام محمد على ، قائلا أنه مسلم وهم نصارى . « وحضر الانجليز بعد ذلك الى الاسكندرية فوجدوه (أى الألفى) قد مات فلم يسعهم الرجوع فأرسلوا الى الأمراء القبليين يستدعونهم ليكونوا مساعدين لهم على عدوهم فيقولون لهم انما جئنا الى بلادكم باستدعاء الألفى لمساعدته ومساعدتكم فوجدنا الألفى قد مات وهو شخص واحد منكم وانتم جمع فلا يكون عندكم تأخير فى الحضور لقضاء شغلكم فانكم لا تجدون فرصة بعد هذه وتندمون بعد ذلك أن تلكأتم . فلما وصلتهم مراسلة الانجليز تفرق رايهم وكان عثمان بك حسن منعزلا عنهم وهو يدعى الورع وعنده جيش كبير فأرسلوا اليه يستدعونه فقال أنا مسلم هاجرت وجاهدت وقاتلت الفرنساوية والآن اختم عملى والتجىء الى الأفرنج وانتصر بهم على المسلمين أنا لا أفعل ذلك » . تاريخ الجبرتى .

(٢) وفيه (٢٠ ربيع الأول سنة ١٢١٣) طلب صارى عسكر بونابرت المشايخ فلما استقروا عنده نهض بونابرت من المجلس ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان كل طيلسان ثلاثة عروض أبيض وأحمر وكحلى فوضع منها واحدا على كتف الشيخ الشرقاوى فرمى به الى الأرض واستعفى وتغير مزاجه وامتقع لونه واحتد طبعه . فقال الترجمان يا مشايخ أنتم صرتم

قاضيا من بينهم بدل القاضى التركى قائلين ان تعيينه من حق السلطان ، وأنكروا عرض نابليون الوظائف العامة عليهم وقالوا له ان العامة لا يخشون سوى الأتراك[1] . ولم تبعث الحملة فى مفكريهم وعلى رأسهم الجبرتى سوى العبر الدينية والاخلاقية بل ان الجبرتى لا ينى ينعى على الثوار ثورتهم التى ألحقت البلاء بالناس . ولكنهم اشتدوا فى قتالهم قبل كل شىء حين اصطدم تصورهم الحكم ووظيفته ومداه بتصورهم هم . فقد كان المصريون فى ذلك الوقت لا يكادون يعرفون لهم حكومة حقيقية تحكمهم[2] وكان تدخل ادارة السلطان فى أمورهم ضيقا متقطعا ، بينما كان الفرنسيون يجيئون من عالم تطور فيه الحكم الى حلقة متتابعة من الأنظمة الدقيقة المتصلة بنشاط الأفراد جميعا وكان هذا التطور هو الذى قاد خطاهم الى تنظيم الملكية وترتيب الأحوال الشخصية واعادة ربط الضرائب وهو الأمر الذى أثار القاهرة مرتين[3] .

وقد أخفقت الحملة الفرنسية كحملة عسكرية ولكنها أفلحت فى

أحباب الصارى عسكر وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته فان تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس وصار لكم منزلة فى قلوبهم . فقالوا له لكن قدرنا يضيع عند الله وعند اخواننا المسلمين » . تاريخ الجبرتى .

(١) » وفى يوم الخميس ثالث عشر صفر (سنة ١٢١٣ هـ) أرسلوا لطلب المشايخ والوجاقلية عند قائمقام صارى عسكر فلما استقر بهم الجلوس خاطبوهم وتشاوروا معهم فى تعيين عشرة أنفار من المشايخ للديوان وفصل الحكومات فوقع الاتفاق على . . » . وحضر ذلك المجلس أيضا مصطفى كتخدا بكر باشا والقاضى وقلدوا محمد أغا المسلمانى اغات مستحفظان وعلى أغا الشعراوى والى الشرطة وحسن اغا محرم امين احتساب وذلك باشارة ارباب الديوان فانهم كانوا ممتنعين من تقليد المناصب لجنس المماليك فعرفوهم أن سوقة مصر لا يخافون الا من الاتراك فلا يحكمهم سواهم » . تاريخ الجبرتى .

(٢) سبق أن عرضنا لهذا الموضوع عند التحدث عن نظام الحكم تحت السلاطين وأشرنا الى استئثار رجال الدين بالتشريع والقضاء وقيام الطوائف بجانب كبير من وظائف الدولة . وقد زاد هذا الاتجاه تحت المماليك بسبب فوضى الحكم وتنازع الحكام . ونحن نعلم ان مهمة الأمراء كانت لا تعدو وقتئذ جباية الضرائب والمحافظة على الأمن والسير الى حروب تركيا مع المسيحيين .

(٣) Lacroix : Bonaparte en Egypte .

توجيه أضواء العلم الحديث الى ماضي مصر البعيد ولفت نظر الدول لفتا عنيفا الى أهمية مركزها السياسي ثم فتح نفوس بعض أبنائها للتيارات الغربية الحديثة . ونحن نجد أول صدى هـذه التيارات فى مشروع المعلم يعقوب لتحرير مصر من الحكم العثمانى[1] . ويعقوب من الأقباط الذين لازموا الفرنسيين منذ بدأت حملتهم فتمثل آراءهم السياسية ، وكانت الى ذلك الوقت مشبعة بروح الثورة الفرنسية . وما كاد يتبين اضطرارهم الى ترك البلاد حتى عزم من ناحيته على الرحيل الى أوروبا والسعى لتحقيق الاستقلال المصرى بتخويف انجلترا مما لا بد سوف يبعثه انهيار السلطنة العثمانية من تنافس بين الدول ويعرّض مواصلاتها مع الهند له من أخطار . واستمالة الرأى العالمى بما لمصر القديمة من أياد على الحضارة الانسانية . والأثر الفرنسى فى تفكير يعقوب هذا واضح لا يحتاج الى تبيين فقد كان المصريون وقتئذ ، مسلمون ومسيحيون ، لا يذكرون من ماضيهم القديم شيئا . وكانت فكرة الاستقلال الحقيقى عن السلطنة العثمانية لا تخطر لهم على بال . ولم تكن انتفاضات الأمراء المماليك ، فيما عدا حركة على الكبير — وقد رأينا صلتها بالسياسة الروسية والبندقية — تذهب الى أكثر من محاولة ايثار أصحابها بالحكم دون الولاة . وما كان من الممكن أن تتجه غير هذه الوجهة والامبراطورية العثمانية يومئذ هى العالم الاسلامى فى مجاهدته المسيحية ، وسلطانها على مصر مقصـور على تعيين وال ، يحق لمن ولى عليهم أن يحاكموه ويخلعوه ، وارسال فرمانات تشريعية أو ادارية أو مالية ، يحق لمن أرسلت

(١) كان يعقوب من الأقباط الذين ظهروا فى تيار على الكبير وسياسته الدينية السمحة . وقد مكنه العمل لدى سليمان بك ، وكان يومئذ من أعظم الأمراء شأنا ، من تتبع أحوال مصر السياسية والمالية والعسكرية فى فترة من أشد فترات حياتها تعقدا والاشتراك فيها اشتراكا أكسبه خبرة واسعة . وهكذا ما كاد نابليون يدخل القاهرة ويتصل برؤساء الطائفة القبطية ويفكر فى الاستعانة بهم فى سياسته المالية والادارية حتى برز بروزا سريعا واختير لمعاونة ديسيه فى حملة الصعيد . وقد رحل فعلا مع هذه الحملة وبقى الى جانب ديسيه حتى نهايتها ثم عاد معه الى القاهرة وظل يتعاون مع الفرنسيين حتى صار أمير القوات القبطية التى اقـدم هؤلاء على انشائها حين فكروا فى تجنيد اهل البلاد . دوين .
انظر أيضا Homsy : Le général Jacob

لهم أن يبطلوها ، واستجلاب خراج يستطيع من حين لآخر ألا يرسل ، فضلا عن ما ينبنى على التغير عن طاعة السلطان من دخول فى عالم العلاقات الدولية الذى كان المماليك لا يعلمون من أمره الا ما يبلغهم عن طريق التجار أو الرسل[1] . وقد اتجه الألفى[2] بعد يعقوب الى الانجليز واستعان بهم فى محاولة استعادة الحكم ومضى فى ذلك شوطا بعيدا ، ولكنه لم يكن فى ذلك أكثر من حاكم معزول يلتمس السبيل الى استرداد حكمه فلم يرتفع الى الوعى المصرى الذى بلغه يعقوب . ونحن لا نحس خلجة استقلالية واحدة فى سرد الجبرتى سيرة على الكبير أو الألفى فهو لا يعدو سرد كاتب أمين سيرة رجلين نابهين ، بل ان الجبرتى لا يذكر انقطاع الباب العالى عن ارسال الولاة الى مصر على أيام على الكبير الا عابرا ولا ينفك يثنى على حسن بلاء العثمانيين فى ذودهم عن الاسلام والمسلمين[3] . هذا الى أننا نعلم أن أفكار يعقوب كانت تنتشر وقتئذ بشكل أو آخر على ألسنة الفرنسيين والغربيين على وجه العموم[4] وان حركته ماتت بموته فى فرنسا بعد ذلك وعادت أمور مصر سيرتها الأولى فكان زعيم أكبر حركة سياسية هزت كيانها بين نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر رجل دينى هو السيد عمر مكرم .

(١) وقد كتب المشايخ الى السلطان والى شريف مكة بايعاز من نابليون يخبرونهما بأن الفرنسيين لم يمسوا حقوق السلطان فقد كانت النقود المصرية لا تزال تضرب بصورته وكان اسمه لا يزال يذكر فى خطبة الجمعة . تاريخ الجبرتى .

(٢) كان الألفى بعكس معاصريه من الأمراء على نصيب من الثقافة والفطنة السياسية وقد ادرك ان انتصارات الفرنسيين على الانجليز انتصارات عابرة وان اقتتالهم لابد آيل الى توطيد النظم الملوكية بينما كان مجىء الأتراك الى مصر بمناسبة الحملة الفرنسية الخطر الحقيقى الذى يهدد هـذه النظم . كذلك أدرك الخطر الذى نجم عن تمزيق الحملة الفرنسية للفرق المملوكية وحاول ان يعالجه بلم شمل المماليك الباقين وتوطيد صلته بقبائل البدو فتزوج منهم وعاشرهم . تاريخ الجبرتى .

(٣) وهو ثناء ردده محمد فريد بعد ذلك فى كتابه « تاريخ السلطنة العلية » .

(٤) يقول جويمار ان السكرتير الذى اشترك فى أحاديث يعقوب وحرر المذكرة التى حفظها ربان الباخرة الانجليزية التى نقلته كان من رجال الحملة الفرنسية المعروفين بكثرة المشاريع وسعة الخيال .

والسيد عمر مكرم من نقباء الطوائف التى كانت تقتسم السلطة العامة فى ذلك الوقت وتقوم كوحدات حكومية صغيرة الى جانب الحكومة فكان له حرس وجند وكان يزاول السلطة القضائية ازاء المنتمين الى طائفته ويدير أوقافا واسعة تكفل له استقلالا ماليا لا بأس به وتصل بينه وبين الحياة الاقتصادية التى كانت تتأثر يومئذ باضطراب السلطة العامة وثقل الضرائب وهياج الجند ٠ وقد اشترك فى جميع المؤامرات التى حيكت بالقاهرة لاخراج الفرنسيين من مصر وقاد ثورة المدينة عليهم وانتهى الى الانفراد بزعامتها عند ما تركوا البلاد وبدأ النزاع بين القوات العثمانية على مغانم الحرب وشعر المدنيون بالحاجة الشديدة الى التكتل والذود عن أنفسهم [١] ٠ كذلك نظم دفاع الدمنهوريين [٢] عن مدينتهم حين هاجمها مماليك الألفى فى ذلك الوقت بالذات وغذّى الدفاع عن رشيد من الانجليز ٠ وكان يصحب نشاطه العسكرى هذا بنشاط سياسى عريض فيوجه ممثليه خارج القاهرة ويراسل الأمراء محاولا اقصاءهم عن المدينة ، حين يخشى شر دخولهم على أمنها ، ويقف فى وجه فرقهم ، حين تدخلها مرغما اياها على الانسحاب ، ثم يظاهر محمد على فى التخلص من الجند الثائرين وقوادهم وينصبه واليا ويخرق بهذه التولية التقاليد التى ألفتها البلاد الى ذلك الوقت خرقا شديدا ٠ فقد كان المتبع قبل ذلك أن يخلع الأمراء الوالى الذى لا يريدونه وينتدبون من يقوم مقامه الى أن يأتى الوالى الجديد فيحل محله ٠ ولكن الخلع هذه المرة جاء على يد المدنيين ولم يأت على يد الأمراء ثم انه لم يقف عند حد انتداب من يقوم مقام

(١) باع أهل القاهرة حينئذ ثيابهم ليشتروا السلاح ويدافعوا به عن أنفسهم وقد ساهم المحروقى فى هذه الثورة بادارته وثروته وعلاقاته فى جميع أنحاء البلاد ٠ تاريخ الجبرتى ٠

(٢) كتب أهل دمنهور الى السيد عمر مكرم يخبرونه بأن جند الاسكندرية تركوا المدينة حين نزلها الانجليز ولجاوا الى دمنهور وان هذا الأمر اخاف كاشف المدينة وجنده وحملهم على الهرب بأسلحتهم رغم تذكير الأعيان اياهم بمعاونتهم لهم ضد الألفى ٠ وقد اشترك الدمنهوريون جميعا فى الدفاع عن مدينتهم حتى النساء ٠ ويلاحظ ان محمد على كان قد نصب واليا فى ذلك الوقت ٠ تاريخ الجبرتى ٠

الوالى المخلوع الى أن يأتى الوالى الجديد بل تجاوزه الى تعيين هذا الوالى أيضا ، ومن ثم كان اعتراض الوالى المعزول وعدّه خلع أهل البلاد له اعتداء على حقوق السلطان وقوله ان الفلاحين لا يملكون الحق فى خلعه ٠ وقد جلس السيد عمر مكرم بعد ذلك يرقب أعمال الوالى الجديد ويحصيها عليه فعاونه فيما أجازه منها وبدأ يناوئه حين تخلص هذا الوالى من الخطر الانجليزى وبعض الخطر المملوكى وبدأ يقيم حكمه الجديد ويحتاج فى ذلك الى مال كثير كان لا يستطيع أن يجده الا بضبط الحسابات القديمة وفرض الضرائب الجديدة والاعتداء على الحقوق المكتسبة ٠ ولكن هذه المناوأة لم تمتد حينا حتى استطاع محمد على أن يبذر الشقاق بين السيد عمر مكرم وأعوانه وينفى السيد عمر مكرم الى دمياط ويخضع المشايخ جميعا لارادته ٠

وقد برر السيد عمر مكرم السياسة التى اتبعها مع الولاة فى حديث له مع صديق لأحدهم ٠ فقال له ان المقصود من «أولى الأمر منكم» فى الآية القرآنية الكريمة هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان حين يكون عادلا ٠ وأضاف الى ذلك أن الشعب يخلع الولاة من قديم الزمن ويستطيع أن يخلع الخليفة والسلطان اذا حادا عن الصراط المستقيم وأنه ما دام العلماء قد أفتوا بوجوب مقاتلة الوالى وأعوانه لافتئاتهم على حقوق الناس فقد أصبح فى حل هو ورجاله من مقاتلتهم [١] ٠ ونحن نعثر هنا على التصور الاسلامى للحكم فى جميع العصور ٠ نعثر عليه فى القرن التاسع عشر ولدى أكبر شخصية ظهرت على مسرح السياسة المصرية بين الحملة الفرنسية ومحمد على ٠ وندرك من مقارنة الأثر العميق الذى كان لحركة السيد عمر مكرم بضيق الحدود التى اتخذتها حركة يعقوب كم كان ضمير مصر لا يزال أقرب الى ماضيها الاسلامى منه الى التيارات الغربية الحديثة ٠

* * *

وقد أخفق يعقوب لأنه كان يمثل فى مطلع القرن التاسع عشر أول محاولة فى طريق لم تتبين معالمه الا فى القرن العشرين وأخفق السيد عمر

(١) تاريخ الجبرتى ٠

مكرم لأنه لم يستطع أن يؤدى ثمن الحكم الاسلامى الذى أراده ، أخفق الاثنان ونجح محمد على .

ومحمد على من أبناء مقدونيا الصلبة الذين جندتهم تركيا لاستخلاص مصر من الفرنسيين ، فلم يكن من الرجال الذين كانوا يحكمون حينئذ الامبراطورية العثمانية[1] ويبدون ما تبديه من تفكك وتردد وانحلال ، وما ولج القاهرة وهى وقتئذ فى معترك التيارات المختلفة حتى رسبت به طبيعته السليمة واتجهت به الى التمكن من القبض على ناصيتها وتوجيهها وجهته . وكانت هذه التيارات حينئذ عنيفة حقا فقد قبل الفرنسيون أن يغادروا البلاد ولكنهم لم يقبلوا النزول عنها حتى لا تقع فى يد منافسيهم . وساهم الانجليز فى اجلاء الفرنسيين . بعد أن شهدوا الضرر البالغ الذى يستطيع من يأخذ مصر أن يلحقه بمصالحهم الجديدة فى الشرق ؛ وصاروا يرون لهم حقوقا عليها ويشعرون على كل حال بالحاجة الشديدة الى تتبع ما يحدث فيها فأبقوا بها بعض جندهم وجعلوا يأتلفون المماليك لعلهم ناصروهم فى سياستهم هذه . واستعاد العثمانيون مصر بعد تضحيات كبار ولكنهم لم يستطيعوا أن يستخلصوها لأنفسهم من جراء هذه السياسة الانجليزية الفرنسية ورغبة المماليك فى الاستئثار بالحكم من جديد . وكان يزيد فى هذا التضارب شدة انشقاق المماليك على أنفسهم وتفكك القوات العثمانية [2] وتردد السياسة الانجليزية والفرنسية فيما يخلق بها أن تتبعه ازاء مسألة مصر هذه الجديدة ثم اضطراب أمور الحكم أشد الاضطراب بعد ما أصاب نظام المماليك أثناء حملة العثمانيين والحملة الفرنسية من رجات شداد [3] . وهكذا اتصلت الحرب فى مصر بعد

(١) وقد عيَّره السلطان فى فرمان خلعه فى حرب سوريا الأولى بأنه كان شخصا عاديا . انظر دوين فى مطبوعات الجمعية الجغرافية الملكية . وقد اعتمدنا فى الصفحات الآتية على الوثائق الغزيرة المنشورة فى هذه المطبوعات نقلا عن محفوظات سراى عابدين وسنكتفى عند الاشارة اليها بذكر جامعى المجاميع المختلفة منها .

(٢) كان يوسف باشا يحتل القاهرة واهم قواعد الصعيد بثلاثة آلاف رجل وقبطان باشا يحتل الدلتا بعشرة آلاف رجل . سان ماركو : مطبوعات الجمعية الجغرافية الملكية .

(٣) سان ماركو : مطبوعات الجمعية الجغرافية الملكية .

خروج الفرنسيين وانقسمت البلاد الى مناطق يحتلها الأتراك ومناطق يحتلها الانجليز ومناطق يحتلها المماليك . وضاقت سلطة الحكومة الشرعية حتى صارت لا تكاد تتجاوز مدينة القاهرة . وجعل الجند يتكتلون طوائف حول من يعطيهم ما يريدون أو يرون أنهم يستطيعون برفعه وتمكينه من السلطان أن ينالوا ما يريدون . وأخذ القتال يمتد من القاهرة الى مديريات الدلتا ، حيث الألفى ورجاله ، والصعيد حيث بقية المماليك وغالب الفرق العثمانية ويتحول الى سطوات على المدن والقرى وما بين يدى أهلها من زاد ومال . وقد دفع هذا المدنيين الى قفل محالهم واللجوء الى مشايخهم فأغلق المشايخ جامعهم واجتمعوا بالقاضى وقدموا له شروطا علقوا بقبولها انتهاء هذا الاضراب العام ومضاعفاته فأرسل القاضى هذه الشروط الى الوالى فطلبهم الوالى ولكنهم رفضوا الذهاب اليه وأعلنوا الثورة .

وقد شهد محمد على هذا الانحلال العام فثار بنفسه ما ثار بنفس أقرانه من رغبة فى محاولة أمر . وتطورت هذه الرغبة لديه الى ادارة الحكم حين خبر الحوادث وقاس مواهبه بمواهب من يحيط به من قواد وحكام متهافتين فوسمت هذه الارادة سلوكه بطابع الزهد فى المغانم العارضة والميل الى التعاون مع القوى السياسية الحقيقية المشتركة فى هذا النزاع فعارض الولاة المغامرين وخامر المماليك ، وهم أول الأمر القوة العسكرية القوية الوحيدة فى البلاد ؛ ثم اصطف الى جانب المشايخ حين تبلور الشعور العام فى ثورة صحيحة . وكان فيما لدى قادة هذه الثورة من رغبة فى القضاء على الفوضى ، دون طموح واع الى الحكم المباشر ، وحاجة دفينة الى ساعد قوى يحل محل سواعد المماليك التى نعم نسيجها ، وما به هو من حاجة الى سند يوصله الى الحكم ، وهو ليس من رجال الاستانة فيستعين بها أو أصحاب العصبيات الكبيرة بين الجند فيعتمد عليهم ، ما يقرب بينه وبينهم ويشركهم فى اتجاه واحد . وهكذا ما انفجر بركان القاهرة حين آذن تولى خورشيد ببلوغ الفوضى غايتها حتى كان محمد على الرجل الوحيد الذى يستطيع الثائرون أن يطمئنوا اليه ويأنس من نفسه قبول الأخذ بسياستهم . وقد صارحهم بذلك وأشار

الى ما كان لهم من سلطان وما كانوا يستطيعونه بهذا السلطان من الزامه بهذه السياسة ان حاد عنها فبايعوه واليا وكتبوا الى الآستانة بذلك[1] ٠

(١) وقد شهدت القاهرة حينئذ أياما من انبل الأيام يصفها الجبرتى فيقول : « فلما أصبح الأحد ثانى عشرة (سنة ١٢٢٠) ركب المشايخ الى بيت القاضى واجتمع به الكثير من المتعممين والعامة والأطفال حتى امتلأ الحوش والمقعد بالناس وصرخوا بقولهم شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم ٠ ومن الاولاد من يقول يا لطيف ومنهم من يقول يا رب يا متجلى أهلك العثمانلى ومنهم من يقول حسبنا الله ونعم الوكيل وغير ذلك ٠ وطلبوا من القاضى ان يرسل باحضار المتكلمين فى الدولة لمجلس الشرع فأرسل سعيد أغا الوكيل وبشير اغا الذى حضر قبل تاريخه وعثمان اغا كتخدا والدفتردار والشمق انجى ٠ فحضر الجميع واتفقوا على كتابة عرضحال بالمطلوبات ففعلوا ذلك وذكروا فيه تعدى طوائف العسكر والايذاء منهم للناس واخراجهم من مساكنهم والمظالم والفرد وقبض مال الميرى المسجل وحق طرق المباشرين ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة وغير ذلك واخذوه معهم ووعدوه برد الجواب فى ثانى يوم ٠ وفى تلك الليلة أرسل الباشا مراسلة الى القاضى يرقق فيها الجواب ويظهر الامتثال ويطلب حضوره اليه من الغد مع العلماء ليعمل معهم مشورة فلما وصلته التذكرة حضر بها الى السيد عمر أفندى واستشاروا فى الذهاب ثم اتفقوا على عدم التوجه اليه وغلب على ظنهم انها منه خديعة وفى عزمه شىء آخر لأنه حضر بعد ذلك من اخبرهم أنه كان اعد اشخاصا لاغتيالهم فى الطريق وينسب ذلك الفعل لأوباش العسكر ان عوتب بعد ذلك ٠ فلما أصبح يوم الاثنين اجتمعوا ببيت القاضى وكذلك اجتمع الكثير من العامة فمنعوهم من الدخول الى بيت القاضى وقفلوا بابه وحضر اليهم سعيد أغا والجماعة وركب الجميع وذهبوا الى محمد على وقالوا له : اننا لا نريد هذا الباشا حاكما علينا ولا بد من عزله من الولاية فقال : ومن تريدونه يكون واليا ؟ قالوا له لا نرضى الا بك وتكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير ، فامتنع أولا ثم رضى وأحضروا له كركا وعليه قفطان وقام اليه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى فألبساه له ، وذلك وقت العصر ، ونادوا بذلك فى تلك الليلة فى المدينة ، وأرسلوا الى احمد باشا الخبر بذلك فقال : انى مولى من طرف السلطان فلا اعزل بأمر الفلاحين ، ولا أنزل من القلعة الا بأمر من السلطنة !! وأصبح الناس وتجمعوا أيضا فركب المشايخ ومعهم الجم الغفير من العامة وبأيديهم الأسلحة والعصي وذهبوا الى بركة الأزبكية حتى ملأوها . وارسل الباشا الى مصر العتيقة فحمل جمالا من البقسماط والذخيرة والجبخانة وأخذ اغلالا من عرصة الرملة وطلع عمر بك الارنؤودى الساكن ببولاق عند الباشا بالقلعة ٠٠ » ٠ « ٠٠ واجتهد السيد عمر النقيب وحرض الناس على الاجتماع والاستعداد وركب هو والمشايخ الى بيت محمد على ومعهم الكثير من المشايخ والعامة والوجاقلية ، والكل بالأسلحة والعصى والنبابيت ولازموا السهر بالليل فى الشوارع والحارات ويسرحون احزابا وطوائف ومعهم

ولئن كان تولى محمد على الحكم يستطيع أن يوجّهه وجهة جديدة فما كان بمستطيع أن يغير الظروف التى أنشأته بين عشية وضحاها ٠ فقد كان المماليك لا يزالون يريدون العودة الى الحكم وكان جند الحكومة هم نفس أولئك المرتزقة المتمردين الذين تمكنوا بالولاة السابقين وكان الانجليز والفرنسيون ما زالوا يناوئون بعضهم بعضا فى مصر وفى الأستانة ، حيث بدأ القائمون بأمور السلطنة يشعرون أن والى مصر هذا الجديد ليس كغيره من الولاة ٠ ومن هنا امتداد الحرب الداخلية وحاجة هذا الوالى الشديدة الى المال واضطراره من جراء ذلك الى فرض الضرائب الجديدة والمطالبة بالضرائب القديمة وتسوية المشايخ بالمكلفين العاديين واحتجاج هؤلاء وبخاصة السيد عمر مكرم على ذلك ثم تغيرهم عليه ٠ وقد تحرجت حاله تحرجا شديدا حين استطاع الألفى أن ينال بمعونة الحكومة الانجليزية أمر خلعه وتعيين موسى باشا محله ٠ واقدم الانجليز على مهاجمته بأنفسهم فأخذوا الأسكندرية وزحفوا الى رشيد ٠ ولكنه استطاع أن يتغلب على الوالى الجديد وعلى

المشاعل ويطوفون بالجهات والنواحى وجهات السور ٠ ثم اتفقوا على محاصرة القلعة ، فأرسل محمد على باشا عساكره فى جهات الرميلة والحطابة والطرق النافذة مثل باب القرافة والحصرية وطريق الصليبة وناحية بيت اقبردى وجلسوا بالمحمودية والسلطان حسن وعملوا متاريس فى تلك الجهات ، وذلك فى تاسع عشرة ، ومنعوا من يطلع ومن ينزل من القلعة ٠٠ » ٠

« وفى ذلك اليوم ركب السيد عمر أفندى فى قلة من الناس وذهب الى بيت حسين بك أخى طاهر باشا ، وكان هناك عمر بك الذى نزل من القلعة فوقع بينه وبين السيد عمر مناقشة فى الكلام طويلة ٠ ومن جملة ما قال : كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ؟ فقال له : أولو الأمر العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، وهذا رجل ظالم ، وجرت العادة من قديم الزمان أهل البلد يعزلون الولاة ، وهذا شىء من زمان حتى الخليفة والسلطان اذا سار فيهم بالجور فانهم يعزلونه ويخلعونه ٠ ثم قال : كيف تحصروننا وتمنعون عنا الماء والأكل وتقاتلوننا ؟ نحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك ؟ قال : قد أفتى العلماء والقاضى بجواز قتالكم ومحاربتكم لأنكم عصاه ٠ فقال : ان القاضى هذا كافر ! فقال : اذا كان قاضيكم كافرا فكيف بكم وحاشاه الله من ذلك ، انه رجل شرع لا يميل عن الحق ٠ وانفصل المجلس على ذلك وخاطبه الشيخ السادات فى مثل ذلك فلم يتحول عن الخلاف والعناد ٠ هذا والأمر مستمر من اجتماع الناس وسهرهم وطوافهم بالليل واتخاذهم الاسلحة والنبابيت حتى ان الفقير من العامة كان يبيع ملبوسه أو يستدين ويشترى سلاحا » ٠ تاريخ الجبرتى ٠

الانجليز(١) وعلى المماليك وأن يفرق شمل المشايخ ويضرب على أيديهم ويركز السلطة فى يده كما لم يركزها وال عثمانى أو أمير من الأمراء الذين تعاقبوا فى مشيخة البلد منذ أول القرن الثامن عشر . فقد كان هؤلاء الولاة يصطدمون أول الأمر بنفوذ السلطان ثم جعلوا يصطدمون بسلطة الأمراء حين ضعف السلاطين ، وكان الأمراء اذ استأثروا بالحكم ينقسمون على أنفسهم ويشعرون فى هذا الانقسام بحاجتهم الى أبناء البلاد فيلتمسون معونة مشايخهم ويستشيرونهم ويستجيبون لتوجيهاتهم ، أما هو فكان يستأثر بالحكم فى وقت احتاج فيه السلطان لولاته وانتهى المماليك أو كادوا وفقد المشايخ استقلالهم الاقتصادى بفقدهم الالتزامات والأوقاف وأصبح هو الحاكم وحده .

وكان هو يختلف بعد ذلك عمن سبقه وعاصره من الولاة حنكة وعزما ، ولكنه كان مثلهم ومثل معاصريه منهم على وجه الخصوص رغبة فى الاحتفاظ بولايته والاستقلال بها ما استطاع . وهو يقول فعلا لقنصل فرنسا — حين يهبط قبطان باشا الاسكندرية بأمر خلعه وتولية موسى باشا — انه لن يترك له مصر بعد أن أخذها بحد السيف . ويطلب معونة حكومة هذا القنصل المالية والعسكرية عند نزول الانجليز فى الأسكندرية استجابة لدعوة الألفى ثم يقول له اذ تمتد الحرب معهم انه اذا ما واجههم وانتهى منهم فسيحتفظ بولايته تلك ويحاول أن يصل بها الى ما كان عليه بايات أفريقيا الشمالية فى علاقتهم بالسلطان . وهو يخشى بعد ذلك تربص انجلترا لحكمه فى البحر المتوسط والبحر الأحمر واضمار فرنسا أخذ مصر وأشراف السلطنة العثمانية على الانهيار والتفتت بين وريثيها العديدين (٢) فيتجه بتفكيره أول الأمر الى مصادقة الانجليز والتحالف معهم حتى ينجو بولايته هذه الثمينة (٣) ثم يتجه الى

(١) وقد رفض اهل الاسكندرية حينئذ السماح بدخول جند الباشا مدينتهم وأرادوا الدفاع عنها بأنفسهم . تاريخ الجبرتى .

(٢) كانت المفاوضات بين الدول على اقتسام الامبراطورية العثمانية على قدم وساق : فريسينيه .

(٣) وارتين بك يقول لقنصل انجلترا بعد اتفاق لندن أيضا ان محمد على نادم على مخالفته السياسة الانجليزية فى سوريا ويرى فى صداقة الانجليز خير ضمان له . M. Sabri : L'Empire égyptien sous Mohamed Ali
(محمد صبرى : « الامبراطورية المصرية تحت محمد على ») .

فرنسا حين يرفض الانجليز عروضه ويبدأ معها ذلك التعاون الطويل الذى امتد حتى أيام اسماعيل . وهو لا يهمل فى تقلبه هذا بين أبواب السلامة المختلفة أمر تقوية حكمه باستجلاب من تصل اليه يده من جند مرتزقة حتى يستطيع أن يحتفظ بمصر على كل حال . كذلك لا ينسى أنه من كبار موظفى السلطنة العلية،وأنه يستطيع أن يتقدم برضا السلطان عليه فى مناصب السلطنة حتى يصل الى أعلاها(١) ، ومن هنا سلسلة الحروب التى خاض غمارها منذ سنة ١٨١١ حتى نهاية حرب اليونان ، اذ بدأ حرب الحجاز ولما تهدأ البلاد من سطوات المماليك ، وهاجم السودان سنة ١٨٢٠ ، وهاجم اليمن سنة ١٨٣٣ . وقد قام بحرب الحجاز استجابة لأمر السلطان ورغبته هو فى بسط نفوذه واخضاع الوهابيين الذين كانوا يهددون كيان الامبراطورية العثمانية حينئذ . وأقدم على حرب السودان وحرب اليمن . استرضاء للسلطان . وسعيا وراء المال والرجال ، وسيلتيه المفضلتين للظهور والدفاع عن النفس ، أو المساومة بقوة اذا ما انهارت هذه الامبراطورية وأذن وقت انقسامها .

وقد بلغ فعلا من ذلك ما أراد فارتفع نجمه فى سماء الآستانة . واتجهت الأنظار صوبه حين شبت حرب اليونان وأخذت تتطور تطورا خطيرا حقا،وكان هو قد رأى ما قد يؤدى اليه اشتراكه فى هذه الحرب من ظهور على مسرح السياسة الدولية ، وصعود الى المرتبة التى تصبو اليها نفسه ، فلم يتردد فى انتهاز الفرصة التى أتاحتها له . وكانت أوروبا المعنية بمسألة اليونان — لا سيما فرنسا وانجلترا — قد رفضت الى تلك الساعة المشاريع الكثيرة التى عرضها عليها هذا الوالى من تعاون الى تحالف الى احتماء . وفضلت المضى فى طريق الآستانة القديم على سلوك طريقه الأسكندرى الوعر . كذلك كان السلطان قد رفض السماع الى المشاريع العديدة التى أنهاها اليه بعد أن عنى بوضعها فى اطار مصالح سلطنته ، من العمل على تحويل مصر الى حصن يدفع عن الامبراطورية

(١) كان ولاة مصر يطمحون لارفع مراكز الامبراطورية ويعودون الى الآستانة أثرياء ويتحكمون فى سياستها . L'Empire Ottoman

غائلة الغرب أو شبه مملكة قائمة بذاتها يكون لها فى مقاتلة هذا الغرب المسلمين موقف خاص يمكنها من تعزيز مركزهم ، اذا وقــع ما كان يخشاه الجميع واستولت أوروبا على أراضيهم . الى ضم سوريا لمصر أو توحيد القيادة العسكرية للقــاهرة ودمشق وبغــداد فى يده ، الى الاعتراف له بمثل مركز بايات أفريقيا الشمالية . اذ أدرك السلطان ما كان ينطوى عليه هــذا المنطق من ناحية الواقع من قضــاء على وحــدة الامبراطورية — كان الطرفان قد رفضا السماع له ، ولكنهما ما شهدا الدور الحاسم الذى قامت به قواته فى تلك الحرب العصيبة حتى بادر كل منهما الى طرق بابه فعرضت أوروبا عليه أن يخرج من الحرب وله صداقتها وطلب اليه السلطان أن يواصلها وهو يعرض له بولايات سوريا الثلاث والقيادة العامة فى هذه الحرب بالذات . وقد اشتد بعد ذلك ضغط أوروبا على الآستانة وتحول الى شبه حملة أوروبية على العثمانيين ، ورأى هو مافى ذلك من خطر على العالم الاسلامى . فاتجه بتفكيره اتجاها جديدا وكتب الى الآستانة يحذرها من التردى فى ذلك المأزق ويقترح قبول صلح مؤقت تفيد منه الامبراطورية فى تقــوية نفسها والاستعداد للحرب من جديد . ثم يخطو خطوة ثانية ويقترح أن يعهد اليه السلطان فى انهاض الامبراطورية واســتغلال مواردها واعدادها للدفاع عن نفسها . ويشير الى بعض ما يجب عمله فى سبيل ذلك من تعبئة الشباب المثقف وتوجيهه الى العلوم العسكرية والانتفاع به فى انشاء قوات حديثة ويطالب أن يزوده السلطان ويزود ابنــه ومساعده بثلاثة أو أربعة من خيرة رجاله . كيما يستعينا بهم (١) فى تحقيق هذه النهضة . ولكن الآســتانة جعلت أصابعها فى آذانها وواصلت العمل بسياستها الموضوعة حتى بلغ الروس ادريانوبل . وفرضت الدول عليها الاعتراف باستقلال اليونان . وهنا عاد محمد على من سماء فلسفته السياسية العثمانية الى حقيقة حاله الراهنة . فهو قد خسر قسما من جيشه فى اليونان ، وفقد أسطوله جميعا فى نافارين . ولم يفز بشىء جديد من السلطان . وهو قد لمس بيده عبث الأمل فى قدرة حكام الامبراطورية على انهاضها . كما كان يريد المسلمون حينئذ جميعا ، وفى قبول السلطان

(١) محمد صبرى .

الاعتماد عليه فى ذلك رغم رغبته الشديدة فيه واعتقاده فى استطاعته ، وهو قد لمس أيضا ، ان كان ما زال فى حاجة الى ذلك ، الضعف الرهيب الذى كانت عليه الامبراطورية العثمانية والذى كان لا يقصيها عن غايته الا انشقاق الدول الكبرى فى ذلك الوقت على نفسها بصدد سياستها الشرقية . وهو ينتهى من ذلك الى العدول عما كان قد أخذ به نفسه لتلك الساعة من تجنب الخروج السافر على السلطان ومحاولة الارتفاع بالامبراطورية برضاه والامتناع عن فرض نفسه عليه فرضا . ويفكر فى الاعتماد على ضعف السلطان وقوته هو . وفســاد ضمائر أعوان السلطان وثرائه هو . واختلاف أوروبا وترددها . فى الوصول الى ما يريد اليه . بعد لفه فى الأشكال الجذابة التى تبرد جروح المجروح وتيسر قبول المعارض . كما سبق أن فعل فى مصر حين قصــد الى الاستئثار بولايتها . وكان هو قد اتجه منذ حرب الحجاز الى الرغبة فى الحصول على سوريا (١) ، وطالب السلطان بها كضرورة عسكرية لانهاء هذه الحرب على خير وجه ثم كجزء من مشاريعه الدفاعية عن الامبراطورية العثمانية ثم كثواب له على خدماته الثمينة . وكانت تميل به ناحية سوريا وقتئذ صلتها الطبيعية بمصر وتفوقها على الولايات العثمانية القريبة منه فى الرجال والمال ، ثم أمل بعيد قريب ظل يملأ صدره حتى مماته ، فقد كان هو قبل كل شىء وزيرا من وزراء تلك الامبراطورية الضخمة التى اتفق المسؤولون عنها والمهاجمون لهــا على حاجتها الى الاصلاح ولكنهم لم يدروا من أين يبدأونه أو يشعروا بالقدرة على تحقيقه . وكانت الولايات العثمانية تثور حينئذ الواحدة أثر الأخرى فتهز بثوراتها أهــل الآستانة وتوشك أن تحملهم كل حين على خلع السلطان . وكان هو بعد ما أتم من فتوح ومد من أسباب قد رفع نفسه فوق الولاة جميعا وأصبح علما من أعلام هذه الامبراطورية ، والرجل الذى آمن غالب رجالها بقدرته على تحقيق ما لم يحققه لها غيره . وهكذا من يدرى ؟ لعله اذا تقدم فى سوريا وقارب الآستانة ، وأشار الى أعوانه

(١) محمد صبرى .

داخلها وخارجها ، أو زحف الروس اليها ، لعله يشهد ما كان يتوقعه الجميع من خلع كبار السلطنة لعاهلهم ودعوتهم له هو الى العاصمة ، قائدا أو مشيرا أو وصيا أو من يدرى ماذا ؟ وحينئذ يستطيع أن يحتل المركز الذى خلق له ويشرف على مصائر العالم الاسلامى ويملأ الفراغ الذى كان يحطه عن الغرب . وكان قناصل الدول يدركون ذلك ويتحدثون به ، فكتب قنصل فرنسا الى حكومته يقول ان محمد على يريد الذهاب الى الشرق من طريق سوريا أملا فى أن يحمله حادث هو وابنه الى غايته . وكتب قنصل انجلترا الى وزيره يقول ان ابراهيم دعا رجاله الى شرب نخب انتقال محمد على الى الآستانة وهو يغادر الاسكندرية مبحرا الى سوريا وان هذه الدعوة كانت تعبر عن حقيقة أفكار والده . وكتب قنصل النمسا الى امبراطوره بما يشبه ذلك [1] .

وهكذا كانت سياسة محمد على تقوم على الاحتفاظ بمصر وتقويتها والقدرة على الدفاع عنها، ثم تمتد، بدافع تخوفها من انهيار الامبراطورية العثمانية ، وطموحه الشخصى ، الى الرغبة فى توسيع حدودها، والبلوغ بها الى الخطوط الطبيعية التى تمكنها من القيام بنفسها ، ثم تعلو الى محاولة الوصول الى الآستانة لتحقيق ما كان يصبو اليه العالم الاسلامى حينئذ من انهاض الامبراطورية العثمانية . وكانت تدفع لذلك به دفعا نحو سوريا ، وتميل به عن الانسياق خلف مشروعات تركيا فى آسيا (حملة بغداد) أو شرق البحر المتوسط (حملة المورة وكريت) ، ومشروعات فرنسا فى أفريقيا الشمالية (حملة الجزائر) . وان كانت لم تمنعه من النظر فى جميع هذه المشروعات والانتفاع بها أوسع الانتفاع ، كما فعل باستغلال كريت فى سياسته البحرية حين أعطتها تركيا اياه ، وانتهاز مشروع الجزائر لمحاولة الحصول على ما كان يحتاج اليه من مال فرنسا وسفنها حين عرضته عليه الحكومة الفرنسية . كذلك لم تمنعه من السعى للتحالف مع انجلترا خوفا من اتساع نفوذ فرنسا فى أفريقيا الشمالية وأثره عليه ، ومن عرض التحالف على فرنسا ليؤثر بوساطته فى سياسة أوروبا ويبعث فيها الشقاق .

(١) المرجع السابق .

وقد وقع أثناء ذلك بألبانيا ما غذى آماله تلك ومد لها فى الاتساع ، اذ ثار واليها على السلطان وتآمر الولاة الآخرون على خلعه ، واتصل بمحمد على طالبا مؤازرته . ورأى محمد على ألا يتورط مع هؤلاء الثائرين ما دام يستطيع بالوقوف بينهم وبين السلطان أن يستفيد منهم ومنه على السواء ، فقنع بتمويلهم والتربص خلف حدوده حتى اذا انتصروا فرض عليهم ارادته واستولى على ما يستطيع أن تصل اليه يده من أراضى الامبراطورية . واذا انهزموا لم تتأثر علاقاته الدقيقة بالسلطان. واستمر يعبىء الجند ، ويبنى السفن ، ويضع المشروعات انتظارا لما يأتى به الغد . ولكن الثورة أخفقت بعكس ما كان يتوقعه الجميع . ووقع الثوار فى الأسر . ووقف السلطان على دخائل المؤامرة ومنها الجزء الخاص به . فزاد بذلك توتر العلاقات بين الطرفين . وأصبح لا أمل له فى المحافظة حتى على الشكليات . ولا مفر له من اللجوء الى الحرب ان أراد أن يأخذ سوريا . ويحمل الآستانة على الاستجابة لارادته . وقد لجأ الى الحرب فعلا . وان هو أعطاها شكل الحملة العقابية على والى عكا لتعطيله تجارته ورفضه رد من فر اليه من الفلاحين المصريين . وعزم على الوقوف أول الأمر عند دمشق نظرا لأهمية هذه المدينة لدى السلطان حتى لا يضطره الى المعارضة . على أن يفعل الله بعد ذلك ما يشاء . ولكن عكا لم تسقط بالسرعة التى تسمح للسلطان بقبول ما أريد له . وأثارت الحرب بسوريا والولايات الأخرى ما كان يثيره كل اعتداء على عاهلها من تحفز وتمرد وقلب لروح التذمر المنتشرة الى ثورة سافرة ، فبدأ السلطان يحتج . وبدأت أوروبا تنتبه . وبدأ الجو يتوتر . ووقف السلطان من كل ذلك موقف صاحب الحق المهضوم . ومحمد على موقف المعتدى العاصى . وأخذ كل من الاثنين يتلمس ما يدفع به عن نفسه ، فأعلن السلطان عصيان محمد على وولده ، واتهم محمد على السلطان بافساد الاسلام والمسلمين . ثم هدد بخلعه واعادة الخلافة العربية . وكان مشروع الخلافة العربية حينئذ فى جو السياسة الدولية ، فقد سعى

له الوهابيون وثاروا من أجله[1] ، وفكرت فيه فرنسا غير مرة[2] ، وكان المحيطون بمحمد على وابراهيم من الضباط والفنيين الغربيين الذين كانوا يدرسون ماضى العرب ويعجبون به لا ينفكون يتحدثون به . وقد انتهى احتدام النزاع بينه وبين السلطان الى العزم به على السير بالحرب الى أقصى ما يستطيع ما دامت انفجرت ، وما دام هو أصبح فى غير حاجة الى مهادنة الآستانة . وهكذا لم يقنع بعكا حين سقطت ، وأمر قواته بالاستيلاء على سوريا جميعا ، وبرر أمره هذا لقناصل الدول بقوله ان الامبراطورية العثمانية شارفت الانهيار ، وان القسم العربى منها حقيقة لا ريب فيها ، وان روسيا لا شك ماضية فى الدفع بتركيا الى مقاتلته حتى تقضى عليهما معا . ولكنه يريد مع ذلك أن يحتاط لغده فيستطلع رأى فرنسا وانجلترا فى الموقف . ويصرح لفرنسا أنه لا مانع لديه من أن يقف عند حده ويبلغ انجلترا انه ان أرادت أمسك عن الزحف الى الآستانة . ثم يخشى امتداد الحرب وانتقاض الولايات ، وما قد يعقبه من تدخل الدول[3] ، فيدعو الدولتين لتنبيه السلطان الى ما فى سياسته ازاءه من خرق ، والى ضرورة قبول الأمر الواقع وانهاء الحرب ، ويطلب من فرنسا أن تستميل انجلترا اليه وتمنعها من مساعدة خصومه . وتتسع انتصاراته أثناء ذلك فيشتد ميله للذهاب الى الآستانة حيث يستطيع أن يسوى كل شىء ، ويحقق ما يريد ، وينفذ مشروعاته العربية والانفصالية والوراثية جميعا . ولكنه يفضل الانتظار الى أن تثور الآستانة على سلطانها[4] حتى لا يستفز الدول ، وينهى ابنه عن التسرع

---

(1) J. Raymond: Mémoire sur l'origine des Wahabys. وكانت الثورة الوهابية ترمى الى خلع سلطان الاتراك واحياء الخلافة العربية .

(2) فريسينية . وهو يقول ان البرلمان الفرنسى كان فيه اتجاه لانشاء دولة عربية تضم القسم العربى من الامبراطورية العثمانية . وقد تحدث نابليون الى علماء القاهرة فى اعادة الخلافة العربية وخاطب قنصل فرنسا فيها محمد على .

(3) كان زحف محمد على يفرح الاتراك لانهم كانوا يعدون السلطان رجلا متفرنجا ويثير اضطرابات كبيرة فى الولايات .

(4) دوين . وكان هناك مشروع ثورة على السلطان فى ازمير والآستانة معا .

فى الزحف اليها ، فقد كان ابراهيم يريد هذا الزحف ويرى فيه الضمان الوحيد لمستقبل أسرته ، ولا يسوءه أن تسقط الامبراطورية ، وهو لا يشعر نحوها بما كان يشعر به والده الذى شب تحت سمائها ولم يود فى حياته شيئا كما ود أن يصلحها . وكلما زاد دنو قواته من الآستانة قل حديثه عن الخلافة العربية وكثر تأكيده للقناصل بأنه لم يفكر قط فى الاستقلال عن السلطنة وترددت اشاراته الى موقف روسيا من تركيا وضرورة اصلاح الامبراطورية وما سيؤدى اليه اصلاحها من تقوية تفيد انجلترا وفرنسا فى نزاعهما مع روسيا ، وحذر الدولتين من التدخل المسلح بما قد يثيره ذلك من حرب دينية بين المسلمين والمسيحيين . ولكن تدخل الدول لم يتأخر بعد ذلك طويلا ، فقد رأى السلطان أن حركة محمد على هذه لم تكن فى نهاية الأمر الا حركة عدائية تقصد الى عرشه ، فألقى بنفسه بين ذراعى روسيا ، وهنا اضطربت أوروبا جميعا وبادرت الى العمل فى الآستانة والاسكندرية فى وقت واحد ، طاغية بمصالحها العالمية على هذا النزاع العثمانى الداخلى . وقد انتهى الأمر بأن أقرت تركيا الحالة القائمة على أن يبقى محمد على فى حظيرتها ، وانقلب كل من المتخاصمين الى داره وهو يشعر أن الأزمة ما زالت قائمة ، وأنها لا شك منفجرة من جديد ، وأن هذا الاتفاق ما كان الا هدنة ترجع الى تردد الدول وعدم استعدادها ورغبتها فى التخلص من الخطر الروسى قبل كل شىء . ومن ثم كانت مواصلتهما الاستعداد للقاء جديد ، وتحرش تركيا بعد ذلك بمحمد على تحرشا قابله بالتململ الصامت والتفكير العميق ، ثم الكتابة الى الدول بأنه لم يسبق أن فكر فى الاستقلال بمصر ولكنه أصبح مضطرا ازاء تحرش السلطان واستعداداته الى التفكير فى هذا الاستقلال ، وبخاصة أنه يتفق واختلاف البلاد العربية التى كان يحكمها عن بقية الامبراطورية ، فضلا عن كونه الضمان الوحيد الممكن لانهاء الحرب بين الاسكندرية والآستانة التى كان يفيد منها الروس ولا يفيد منها أحد سواهم ، ويضيف الى ذلك أنه اذا أفلح فى مسعاه فسيجرد جيشا قويا ينقذ به تركيا من الخطر الروسى . وقد أعقب ذلك بعرض الأمر على الآستانة فى سنة ١٨٣٧

عرضا صريحا ، ولكنه لم يلق الا الرفض الرسمى منها ومن تلك الدول ثم العداء السافر من ناحية السلطان اذ اجتازت جيوشه الجديدة حدود سوريا . وهنا انفجرت الحرب من جديد ، وانهزمت القوات العثمانية مرة أخرى ، وعادت الولايات تتحفز وتثور ، فتدخلت أوروبا تدخلا سريعا ، بل ومنعت الطرفين من التفاوض فيما بينهما ، وتولت الأمر بنفسها لتفصل فيه طبقا لمصالحها التى كان هذا النزاع المستحكم يقلقها كل حين .

ومحمد على فى هذه الحرب الثانية يتجه بتفكيره أول الأمر اتجاها جديدا ، ولا سيما بعد ما وثق من رفض أوروبا مشروعه الانفصالى عن الامبراطورية العثمانية . فهو يقول لقنصل روسيا — قبل أن تلتقى قوات ابنه بقوات السلطان فى سوريا — انه لا يريد الاستقلال ، ولكنه يريد الوراثة لأسرته . ويقول لقنصل فرنسا انه لم يعمل ما عمل فى مصر ليتمتع بثماره وال تركى يأتى من بعده . وهو لا يكاد يثير هذه المرة مشروع الخلافة العربية القديم أو ذكر ما كان يوحى به من الوحدة الجنسية بين البلاد التى كان يحكمها ، بل لا يفكر فى الرد على اعتداء السلطان بالتلويح باعادة هذه الخلافة أو التمهيد لها . ولكن نبأ يأتى من الآستانة فيحفزه من جديد ويعدل به عن وجهته هذه ، فقد سقط السلطان حينئذ مريضا ، واتجه التفكير الى الوصاية على ولى عهده ، نعنى عاد المشروع الذى كان والى البانيا وضعه وكان هو اشترك فيه ، ولاحت له من جديد فرصة الانتقال الى مقر السلطنة حيث مجال العمل الحقيقى الذى كان يصبو اليه . وهنا يرتد تفكيره الى الآستانة وتعبئة القوات اللازمة للدفاع عن المسلمين ، ان عزم الروس على الزحف اليها ، واقامة وصاية قوية يكون له أمرها . ويبعد فى ذلك حتى يبشر قنصل فرنسا بقرب اتساع نفوذ حكومته فى الآستانة ، يريد بذلك التلويح بدنو أجل انتقاله اليها وهو صديق الفرنسيين الحميم . ثم يفكر فى تزويج ابنه سعيد من أخت السلطان توثيقا للعلاقة بين الأسرتين ، ويتأهب للسفر من وقت لآخر . وقد فطن قنصل فرنسا لتحول محمد على هذا التحول الجديد ، وكتب الى حكومته مؤكدا أنه سيقدم هذه المرة على العمل وحده مهما فعلت

الدول . ويعلن نفسه حاميا للاسلام والمسلمين ، فهو لم ينس عثمانيته ، ولم ينس أنه ملزم بالدفاع عن الأراضى المقدسة وديار المسلمين . وقد صرح محمد على نفسه بعد ذلك للقناصل أنه اذا زحف الروس الى الآستانة فسيبادر الى مساعدة اخوته ويأمر ابنه بالسير الى الأناضول ويجند من لديه من عمال لا يقلون عن ٧٠ ألف ويقاتل بهم أعداء المسلمين[1] . ولكن السلطان يموت دون أن يحدث هذه المرة أيضا شىء من ذلك أو يدعوه داع الى تولى الوصاية التى عهد بها على عجل الى خسرو . وهنا هاجت هائجة محمد على من جديد ، فقد كان خسرو خصما شخصيا له منذ أن عرفه فى مصر واحتك به فى حرب اليونان وواجهه فى سوريا ، ثم انه كان متهما بممالأة الروس والتفريط فى السلطنة ، وقد جهر لذلك بعزمه على السير الى الآستانة لينقذ السلطان الشاب من هذا الرجل . واستدرج القوات البحرية العثمانية بعد أن هزم القوات البرية فى سوريا فأتى الأسطول التركى الى الأسكندرية يقوده قائده . وكان خسرو يتوقع ثورة محمد على هذه فكتب اليه يعده بالوراثة فى ولاية مصر . ولكن هذا الوعد يزيد فى ثورة محمد على بدل أن يهدئها فيطالب الدول باقصاء خسرو من منصبه وارضاء رغباته جميعا ، ويعود مرة أخرى الى سماء فلسفته العثمانية من ضرورة اصلاح الامبراطورية وانفراده هو بالقدرة على ذلك ، الى توقعه أن تثور الآستانة أو يدعوه كبارها بينهم الى التهديد باثارة ثورة اسلامية شاملة ان وقفت الدول فى طريقه . ثم يكتب الى حكام الولايات وشيخ الاسلام مقارنا ماضيه بماضى خسرو ، طالبا معونتهم فى اقصائه والعمل على انهاض امبراطوريتهم ، ولاينى يستعد أثناء ذلك للسير الى الآستانة وترك حكم مصر لابنه ، وهو لا يلحظ ما بين طموحه هذا الى حكم الامبراطورية وسعيه الى الاحتفاظ بحكم مصر والبلاد العربية الأخرى من تناقض صارخ لعله كان السبب الأكبر فى رفض السلطان ورفض الدول مشروعاته العديدة فى الاعتراف لمصر بمركز

(١) كان وزراء السلطان يقولون حينئذ ان المصريين مسلمون مثلهم ومن الأفضل أن يحكموا هم الآستانة من أن يحكمها الروس . مجلة القاهرة مارس سنة ١٩٤١ .

خاص يتخذه وسيلة يدعم بها الامبراطورية العثمانية ، ما دامت كل تقوية لمصر لابد مفضية الى اضعاف تركيا ، وما دام ذهابه هو الى الآستانة لابد مفض اما الى عودة مصر الى حظيرة الامبراطورية واما الى ارتفاع مصر على تركيا وهو ما كان لا يريده أحد . ولعله هو كان فى قرارة نفسه لا يرمى الى أكثر من أن يُعهَد اليه فى القيام بشئون السلطنة على أن تنال أسرته مقابل خدماته اقطاعا وراثيا كالاقطاعات التى كانت تقرها نظم الحكم التركية منذ أن نشأت[١] .

ولكن أوروبا تأبى السماع له هذه المرة أيضا ، وتقنع بدفع الآستانة الى الاجابة على الدعاوى الاصلاحية العريضة التى كان يروج بها لحكمه ، بنشر مشروع من المشروعات الاصلاحية الكثيرة التى كانت توضع حينئذ فى وزاراتها . فيصدر دستور كلخانة ويبلغ الى جميع الولايات . والى مصر أيضا .

وهنا تنصح له فرنسا بالنزول عن الولايات التى تحت يده مقابل الحصول على حق الوراثة فى حكم مصر ؛ ولكنه لا يقبل النصيحة بعد أن انتصر على السلطان . وأخذ أسطوله وجعل يواصل السعى للذهاب الى الآستانة . وعندئذ وقفت أوروبا جميعا فى وجهه مرة أخرى وفرضت عليه اتفاق لندن الذى أقر له الوراثة . ولكنه كبل يديه وقيده الى عربة الامبراطورية العثمانية من جديد .

* * *

وكما كانت سياسة محمد على الخارجية نتيجة تفكيره العثمانى وعلاقة مصر بتركيا والضغط الغربى ، كانت سياسته الداخلية تصدر عن تفاعل هذه العوامل نفسها وملابسات مصر الخاصة . وقد سبق أن رأينا كيف كان قد قضى على المماليك وأقصى مشايخ الأزهر من الحياة العامة واستأثر بالسلطان من دونهم هو وأعوانه من رجال الحملة العثمانية . وكان القضاء على المماليك يحرم الحكومة خير جندها

(١) وكان قنصل النمسا يعد اصراره على بتر القسم العربى من جسم الامبراطورية العثمانية فى سبيل دعمها شيئا خارقا (Paradox) . سان ماركو .

وأجهزتها التنفيذية جميعا . ولكنه كان يرد اليها الاقطاعات التى كانوا يملكونها . وكانت تعادل ثلث الأراضى المزروعة . فى الوقت الذى كانت الملكية الزراعية تكاد تكون فيه منبع الثروة الوحيد بالبلاد . بيد أن يد محمد على لم تقف عند جنى هذه الثمرة الطبيعية لاختفاء المماليك ، وامتدت الى الملكيات الأخرى أيضا ؛ فقد كانت الخزانة العامة وقتئذ فارغة ؛ وكان هو يريد جيشا يمكنه من الاحتفاظ بولايته ويطمع فى توسيع هذه الولاية وفرض نفسه على الآستانة . وكان يحتاج فى ذلك الى نظام دقيق واستعداد مستمر محكم . ومالية قوية تقوم به . ولكنه — فيما عدا هذه الأراضى التى آلت اليه — كان لا يكاد يملك شيئا يذكر . فقد بلغت التجارة والصناعة حالة شديدة من البؤس . وتوزعت الأراضى الأخرى المزروعة بين مشايخ الأزهر . وهم معفون من الضرائب . والأوقاف الدينية وهى تصرف ولا تغل . وبعض صغار الملتزمين الذين كانوا لا يحسنون الاستغلال الاقتصادى . وكانت حقوق هذه الطوائف الثلاث الى ذلك حقوقا تكاد تكون غير شرعية . وان اتصلت مدة من الزمن ؛ فقد نال المشايخ أراضيهم عن طريق الالتزام . ولكنهم لم يتقيدوا بشروطه ، ولم تكن الأوقاف آخر الأمر سوى صورة من صور التحايل على ابتذاذ مال الدولة . كذلك لم يكن صغار الملتزمين على الدوام ممن يطرقون الى الأمر سبله الصحيحة . ومن ثم كان فرضه الضريبة على أراضى المشايخ والأرزاق والأوقاف . ثم استيلاؤه على هذه الأراضى . ثم الغاؤه نظام الالتزام وقضاؤه على الطبقة الموسعة الوحيدة فى البلاد وهى طبقة الملتزمين ، اذا استثنينا بعض كبار التجار ، واضطراره من لا مورد آخر له منهم الى مزاولة الزراعة أجراء . واستئثاره بالنشاط الاقتصادى كاستئثاره بالنشاط السياسى من قبل . وقد أراد بعد ذلك أن يستغل هذه الأراضى أوسع استغلال ، فاتجه الى ضبط ريها ، وتوزيع اليد العاملة فيها ، والملاءمة بين حاصلاتها وحاجات الاستهلاك المحلى والتصدير ، واستعان فى ذلك بما وضعه فريق السان سيمونيين — وكانوا يجدون فى انفاذ سياستهم الاشتراكية فى مصر وقتئذ — من مشروعات الاصلاح

والتعمير(١) • واندفع فى سياسته المالية هذه حتى منع الفلاحين من التصرف فى حاصلاتهم ، فكان يعين لهم الأنواع التى يريدها لهم ثم يأخذها منهم بالسعر الذى يقدّره ويقوم بتوزيعها فى الداخل والخارج (٢) • وكان يلجأ الى العنف حين يشهد ما يؤدى اليه هذا العنت من نتائج اجتماعية واقتصادية ، اذ يهجر الفلاحون الريف هربا من هذا النصب الذى لا غناء فيه ، أو يقللون من انتاجهم فيدفعهم الى الحقول دفعا وهو لا يرى لمَ يجب أن يترك هؤلاء الفلاحين وشأنهم يزرعون ما يشاؤون ويبيعونه كما يشاؤون فينال التجار وبخاصة المصدرين منهم وغالبهم من الأجانب غالب ربحهم ولا ينال هو هذا الربح لينفقه فيما هو أجدى على البلاد مما يصرفه فيه هؤلاء التجار ، ويستطيع أن يزيد منه بادخال الحاصلات المختارة ، ويقول ذلك للقناصل حين يراجعونه فى سياسته الاقتصادية هذه فى غير استنكار أو استكبار •

وهكذا امتد احتكار الحاصلات الزراعية الى احتكار توزيعها وتصديرها ، وتصنيع الباقى منها • واستمر محمد على يحمل على كتفيه هذا العبء الضخم حتى كان الاتفاق التجارى الانجليزى — التركى فى سنة ١٨٣٨ وتعهد تركيا بالغاء نظام الاحتكار فى أنحاء الامبراطورية العثمانية والزامها اياه بالعدول عن نظامه هذا وقفل مصانعه الواحد بعد الآخر والاستعاضة عن أرباحه الزراعية والتجارية برفع ضرائب الأرباح على التجارة والزراعة رفعا شديدا (٣) • وقد بلغ محمد على من سياسته هذه ما أراد رغم الأثر الاقتصادى والاجتماعى الرهيب الذى تركته ، فارتفع دخله من ١١٠٣٥ جنيه فى نهاية القرن الثامن عشر الى ١١٩٩٧٠٠ جنيه

(١) ومن ثم ما يعمد اليه بعض مؤرخى محمد على من رد سياسته الاقتصادية الى اشتراكية السان سيمونيين واهمالهم صلة هذه السياسة بنظام الاحتكارات التى كانت تزاوله الامبراطورية العثمانية وقتئذ (يلاحظ ما بين هذا النظام ونظام الاقطاعات تحت السلاطين من صلة) وأوضاع الاقتصاد الاسلامى عموما .

(٢) Crouchly : The economic development of modern Egypt .
(كروشلى • التقدم الاقتصادى فى مصر الحديثة •)

(٣) كروشلى .

فى سنة ١٨٢١ و٣٠٦٤٣٠٠ جنيه فى سنة ١٨٢٦ • ولكنه استطاع قبل كل شىء أن يعنى بمسائل لم يألف حكام الشرق فى ذلك العهد أن يعنوا بها عناية كبيرة • وقد رأينا كيف كان المماليك قليلى الحساسية بالمسائل الاقتصادية على وجه العموم ، وكيف كانت أيام العثمانيين أيام كساد شامل • أما هو فقد اضطر أن يزرع وينتج ويتجر ويصنع واضطر ، لما كان يرمى اليه بالنزول الى هذه الميادين من الاستعانة بثمارها فى حلبة سياسته الخارجية ورغبته فى أن يحكم كما يجب بلادا كانت القارة الأوروبية تمد اليها منذ نحو قرن شباكها الاقتصادية المشعبة ، أن يفعل كل ذلك فى أحدث صورة يستطيعها ، مستعينا بالاكتشافات العلمية والفنيين الغربيين • ومن ثم كان فتحه أبواب مصر لهجرة الأجانب وكانت اقامته القنوات والقناطر والطرق . وكان انشاؤه المصانع والبيوتات التجارية وخلقه الادارات اللازمة للاشراف عليها • وكان ظهوره أيضا بمظهر المصلح الذى ينفذ الى جانب المصلحين الكثيرين الذين لا ينفذون ، أو اذا نفذوا وقفوا عند الأشكال فارتدوا الملابس الأفرنجية وحلقوا لحاهم ولوّوا ألسنتهم ببعض اللغات الأجنبية ، مثل حكام الآستانة الذين كانوا يجدون أنفسهم بعكسه أمام نظم قائمة لا يقوون على التخلص منها ، كما تخلص هو من بقايا النظم المملوكية ومنطق المشايخ ، ويتلقون من الغرب مشاريع ضخمة تعرض للمسائل من جميع نواحيها ولكنها لا تقف بها عند ما يمكن ازدراده وتنفيذه تنفيذا شرقيا كما كان يستطيع هو أن يفعل بالتعاون مع قناصله وفنييه الذين كانوا رجال أعمال قبل أن يكونوا شيئا آخر •

وقد استطاع بفضل هذه السياسة أن ينشىء الجيش الجديد الذى كاد يحمله الى الآستانة وينفق على الحروب المتصلة التى خاض غمارها ويقيم الصناعات الأساسية اللازمة لها • وكان هو قد عمد أول حكمه الى الاستعانة بالمرتزقة من الجند متأثرا فى ذلك بتقاليد الامبراطورية العثمانية • ثم أراد أن يفرض على من لديه منهم التنظيم الحديث الذى اقتنع رجال الامبراطورية بضرورته منذ أن اتصلوا بالغرب الجديد

فثاروا عليه فعزم على التخلص منهم وتحول الى تجنيد أهل البلاد كما كان يفعل بعض الولاة والأمراء المماليك حين كانوا يستعينون فى حروبهم بالبدو والسود وأبناء الريف . وشجعه على المضى فى ذلك ما كان يكفله له هذا النظام من قصد فى النفقات وقدرة على تجديد صفوف الجيش تجديدا يسيرا . وهكذا كان المصريون يعودون الى صنعة السلاح بعد أن هجروها منذ أن اتصلت مصر بالامبراطورية اليونانية والرومانية والعربية وهى امبراطوريات كانت تعتمد فى حروبها على المرتزقة من شعوبها الخشنة ، ويجتمعون فى كتلة واحدة منتظمة ويلتقون فى ميادين القتال بالشعوب الأخرى فيشعرون بشخصيتهم ووحدتهم واختلافهم عن غيرهم . وقد استتبع تكوين هذا الجيش قيام المرافق والمدارس والادارات اللازمة لتغذيته ، وكانت تستخدم هى أيضا أهل البلاد وتدربهم وتوجههم الوجهة التى تقتضيها الحياة الجديدة . أى تبعث نواة هذه الدولة الفتية بجوهرها المصرى ، وأوضاعها الأهلية ومواردها الخاصة .

وأفاد من هذه السياسة أيضا الاتصال المستمر بأبناء أوروبا هؤلاء الذين كانوا يعملون حينئذ كل شىء ، ويشرفون على كل أمر ، ويمثلون الحضارة الجديدة والنفوذ السياسى فى أجلى معانيهما [١] . فكان يلقى تجارهم وصناعهم وعلماءهم كل يوم . وكان يسمر فى ساعات فراغه مع طائفة ذكية منهم ، ويحاول أن يتعلم كل ما يستطيع أن يتعلمه من خيارهم ، ويتطور بذلك تطورا لم يفتر قط فى السنين الأربعين التى قضاها فى الحكم [٢] . بيد أن أثر اتصاله هذا بالغرب لم يبلغ صميم نفسه ، أو ينل من معدنها البتة . وانما ظل يعمل خارجها ، ظل يعمل فى دائرة الوسائل التى كانت تتلمسها لبلوغ غاياتها الخاصة ، ومن هنا ما تنفرد به سياسته من حزم ، وما يبدو عليها أيضا من تناقض بين المظاهر الحديثة والنزعات القديمة . فهو يقيم المجالس الاستشارية ولكنه يغلب عليها

(١) وقد كتب الى الاستانة فعلا يقول انه يعلم ما يحدث فى أوروبا من تداخله مع التجار . أمين سامى : « تقويم النيل » .

(٢) وكان يعترف بذلك للقناصل صراحة .

ارادة الحاكم [١] . وهو ينشىء المدارس ثم يغلقها فى غير ما تردد حين يرى تحقيقها للغايات القريبة التى قصد بها اليها [٢] . وهو يقيم المنشآت الزراعية والصناعية الحديثة ، فى الوقت الذى يتمسك فيه بسياسة اقتصادية عتيقة تكاد تنتهى بالبلاد الى الخراب . والنزعات القديمة تتغلغل لديه فى المظاهر الحديثة وتكبح جماحها بقوة تنبثق من شخصية سليمة لم ينلها الشك أو يتطرق اليها التردد . وهى بعد شخصية حاكم عثمانى عريق من نسيج الحكام الذين قادوا المسلمين الى الانتصارات الصليبية والمغولية وأقاموا حكم المماليك وبنى عثمان . فهو مثلهم لا يرى من الحكم الا الجانب العسكرى ، ولا ينظر الى الحياة المدنية الا كوسيلة من وسائل الانتصارات فى ميادين القتال [٣] ، فيسأل القناصل ماذا لم يفعل لمصر ؟ ألم يعطها جيشا وأسطولا ومدافع ؟ ويقول لقنصل فرنسا انه يريد أن يكون فى كل وقت على أتم استعداد عسكرى حتى لا ينساه المسلمون . ويكتب لمديريه قائلا ان رفاهية مصر ترجع لجيشها . ويستنكر تفكير أوروبا فى حرمانه من بلاد أخذها بحد سيفه . واذا أراد أن يعبر عن نجاح حكم أو ثراء ولاية ذكر عدد الجند الذين يستطيع أن يجندهم منها [٤] . وهو مثلهم لا يفرق بين الناس الا بمقياس الدين ، فلا يفهم لما تقف أوروبا فى وجهه على طريق الآستانة وهو وسلطانه من دين واحد . ولا يدرك لم تخش أوروبا انفصاله مادام باقيا على اسلامه كما كان . ويعجب من استنكار القناصل التجاء الأسطول العثمانى الى الأسكندرية ما دامت ميناء اسلامية كالآستانة . ويخطب فى قواد هذا الأسطول فيدعوهم ألا ينسوا أنهم ورجاله من دين واحد [٥] . وهو يصرّف أمور المحكومين تصريف رب العائلة أمور أبنائه ، فلا يفرق بين المالية العامة والمالية الخاصة ، ويهدد مرؤوسيه « بالفلكة » ان أهملوا فى تأدية

(١) أنظر مثلا محمد عبد الكريم عزت : «تاريخ التعليم فى مصر» .

(٢) محمد عبد الكريم عزت : المرجع السابق .

(٣) وقد اعترف لقنصل فرنسا بنفسه انه لم يفرغ لمسائل مصر الداخلية كما يجب . سان ماركو .

(٤) أنظر تقويم النيل وسان ماركو .

(٥) المراجع نفسها .

واجباتهم ، ويخاطب أعوانه مخاطبة الشيخ أبناءه القصر[١] . وهو الى ذلك يكاد لا يخرج طوال حياته فى تصور علاقته بالسلطان عن دائرة صلات الحاكم الاقطاعى بعاهله : فيعد نفسه مكلفا بوضع سيفه وماله رهن مشيئة السلطان ، ويرى فى ارضائه الوسيلة المثلى للارتفاع الى أسمى مناصب الامبراطورية ، ويفخر بأنه لم يحكم مصر قط كما كان يحكمها على أيامه ، ويغتبط أشد الاغتباط بتوليته اياه قيادة قواته فى اليونان ، ولا يظهر فى نهاية حكمه الا وقد شد الى وسطه السيف الذى أهداه له بعد تصفية نزاعهما ، وما ترتفع به الحوادث الى سماء الفلسفة السياسية حتى ينسى كل شىء ما عدا سلامة السلطنة العثمانية وضرورة العمل على صيانتها واصلاح أمرها . فيتحدث الى خليل باشا رسول السلطان اليه فى أشد ساعات نزاعهما فى اعداد جيش كبير يذود به عن هذه السلطنة . ويداعب الأمل كل حين فى أن تدعوه الآستانة الى تذليل ما لم تقو على تذليله من مشاكلها المعقدة . ولم تكن فى رغبته فى الاستئثار بحكم مصر ما يتعارض شديد التعارض وتصوره هذا ؛ فقد كانت السلطنة العثمانية تقطع ولاياتها الى عهده ، وقد وعده السلطان صراحة بشىء من ذلك فى حرب الحجاز [٢] ، وقال هو لقنصل فرنسا أثناء الحملة الانجليزية أنه سيعمل على تثبيت أمره فى مصر والوصول بها الى مركز ولايات أفريقيا الشمالية . ولم يفكر حين رأى ألا فائدة من محاولة التعاون مع السلطان فى غير الاحتفاظ بولايته لأبنائه ضمن نطاق السلطنة العثمانية . هو حاكم عثمانى فذ شاء له عدم انتمائه الى الطبقة الحاكمة العثمانية لعهده ، وما اضطره اليه من فرض ارادته على هذه الطبقة فرضا ، وتفكك الامبراطورية العثمانية الذى منعها من القضاء عليه قبل أن يستفحل أمره ، أو الانتفاع بمواهبه حين استفحل ، ووقوف أوروبا بينه وبين السلطان بما كانت تتمتع به وقتئذ من نفوذ فائق ، شاء له كل ذلك أن يقف ارتفاعه الطبيعى الى سماء السلطنة ، وأن يقصى عن مقرها الرئيسى

(١) شفيق غربال : «محمد على الكبير» .

(٢) دى فييت : « مجلة القاهرة » عدد مارس سنة ١٩٤١ . انظر أيضا رينيه قطاوى فى مطبوعات الجمعية الجغرافية الملكية .

ويزدهر فى الأقاليم ، حيث أقام من ولايته دولة جديدة ، استمدت من مركزها وشخصيته هو بريقا خاصا ، وبقى طوال حياته بريئا من الانحلال الذى خص به حكام تركيا وقتئذ ، ولا نزال نرى بعض أعراضه فى حكام الشرق الى اليوم من جراء توزع ضميرهم بين الشرق والغرب . وهو يختم بذلك سلسلة الحكام العمالقة الذين أنجبتهم الامبراطورية الاسلامية . ويضع حدا فاصلا بين عصرين مختلفين فى تاريخ هذا الجانب من الشرق الاسلامى بقامته هذه الجبارة التى تجعل منه ندا عظيما لبيبرس وقلاوون وأباطرة بنى عثمان الأولين . ولعل السلطنة العثمانية لم تخسر آخر أيامها مثل ما خسرت باقصائه عن مقاليد الحكم فيها .

* * *

قلنا أن النزاع بين محمد على وحكومة الآستانة انتهى الى معاهدة لندن فى سنة ١٨٤٠ . وكانت هذه المعاهدة تحقق نقطة التوازن بين ميول أطراف النزاع جميعا : كانت تحقق الغاية التى لا يستطيع محمد على بقواه السياسية الخاصة بلوغ ما يفوقها ، وتشبع رغبة الآستانة فى المحافظة على وحدة السلطنة . وهى محافظة كانت لا تتعارض حينئذ واعطاء الولاة حق الوراثة مادام مقيدا تقييدا محكما ، وترضى رغبة الدول العظمى فى الابقاء على الامبراطورية العثمانية واعطاء ولاياتها وخصوصا مصر الاستقرار الذى تحتاج اليه فى توسعها الاقتصادى . وكانت الى ذلك لا تقفل الباب دون تحقيق الغايات الأخيرة لهذه الأطراف جميعا ؛ فقد كان توارث الحكم فى مصر يمكن محمد على وأولاده من انتظار اليوم الذى يستطيعون فيه الاستقلال بولايتهم أو يقرر فيه السلطان الاستعانة بهم فيصلون الى قمة السلطنة التى كان حكمها أمل جدهم الأكبر . وكان بقاء مصر ضمن نطاق الامبراطورية يمكن الآستانة من ترقب الساعة التى تقدرها على العودة بالحالة الى ما كانت عليه . وكان اشتراك أوروبا فى تسوية النزاع بين السلطان ووزيره يعطيها المركز الممتاز الذى أرادته ويمكنها من الاشراف على شئون الطرفين[١] .

وقد كان الاعتراف لأبناء محمد على بحق الوراثة فى حكم مصر ينشىء

(١) نريسينيه ومحمد أبو طائلة : « مركز مصر الدولى » .

بها أسرة حاكمة تتعاقب على عرشها فى الوقت الذى كانت عودة الحياة الى البحر المتوسط تفتح فيه أمامها آفاقا واسعة ، وكانت تركيا تميل الى الأفول بعد أن بلغت غاية ما تستطيع أن تصل اليه امبراطورية قديمة ، وكان يقيم بذلك مصالح محلية ازاء المصالح العثمانية والأوروبية القائمة . وتاريخ مصر حتى قبيل سقوط اسماعيل هو تاريخ جهود هذه الأسرة فى تثبيت أقدامها ومحاولة تركيا استرجاع ما نزلت لها عنه من سلطان وتسرب الموجة الغربية من كل ثغرة تصل اليها فى بناء هذا الحكم الجديد . وكان محمد على قد عمد بعد عقد معاهدة لندن واطمئنانه الى علاقتـه الجديدة بالسلطان(١) الى التقرب من تركيـا وتجنب النفوذ الأجنبى بعد أن تلون بلون الوصاية ذلك الثقيل ، فزار الآستانة ، ووطد صلته برجالها ، وعارض فى فتح قناة السويس ، ووضع يده على المواصلات التى أنشأتها الشركات الانجليزية ، وجعل يتحاشى انجلترا بفرنسا وفرنسا بانجلترا محاولا التخلص منهما جميعا . وأتى عباس بعده فاقتدى به فى ذلك ، وأبعد ابعادا كبيرا . فقد كان عباس يؤمن بسلامة هذه السياسة من تلقاء نفسه ويميل اليهـا ميلا طبيعيا ، وهو قد ربى تربيـة عثمانية محضة(٢) ، ولم يعرف الغرب من قريب أو بعيد ، ولم يستطع أن يساير تيار جده وعمه فنأى عنهما فى آخر أيامهما وعاش على اتصال بمن كان ينكر سياستهما ويحقد على أعوانهما وبخاصة الأجانب(٣) . وما تولى الحكم حتى بادر الى القضاء على بقايا هذه السياسة ، فأنقص الجيش وأزال ما كان يقوم على هامشه من منشآت . وأقفل ما وجد من المدارس . وهدم الأسطول الذى كان يصل البلاد بالخارج(٤) . وفرض القيود على الأجانب المقيمين بالبلاد ، وتخلص ممن كان يعمل منهم فى المصالح والمعاهد . وفعل كل ذلك وهو يضع يده على ما فيه من وجوه النقص

(١) محمد صبرى وهاناتو .

(٢) سان ماركو .

(٣) امين سامى : « تقويم النيـل » . وقد صرح ليونج انه يبغض الفرنسيين ويعتقد انهم خانوا محمد على .

(٤) Brehier: L'Egypte de 6971 à 1800.

والاهمال وكأنه يعالج ما غر فيه جده . ثم أراد أن يتفادى قناصل الدول أيضا فانتقل الى صحراء العباسية واحتجب عنهم هم الذين استعبدوا جده وكان هو يفضّل عليهم السلطان لاسلامه ومسيحيتهم على الأقل . ولكنه ما كاد يصطدم بميل تركيا الى ابتزاز سياسته هذه الشرقية ومحاولة تضييق حقوقه حتى اضطر أن يخرج من عزلته هذه ويتقرب الى ضامنى معاهدة لندن وانجلترا صاحبة الأثر البعيد فى نفسه ونفس جده على وجه الخصوص فأعانته انجلترا وتقاضته ثمن معونتها هـذه خطا حـديديا تستخدمه تجارتها الشرقية بين الأسكندرية والسويس . ثم تركته يعود الى صحرائه من جديد(١) .

وقد أعقب عباسا سعيد فعاد الاتجاه الى الغرب . وعاد هذه المرة شديدا جارفا . وكان سعيد ولد فى مصر بعد أن استجمعت الأمور لوالده واتضحت لعينيه مشروعاته السياسية الواسعة وما يتصل منها بالتعاون الغربى فرباه تربية حـديثة مع لفيف من المصريين تحت اشراف بعض الأساتذة من الفرنسيين . وقد أكسبته هذه التربية الحديثة شغفا بأشكال الحضارة الغربية ، ولكنها لم تكشف له عن سر انحطاط العالم العثمانى الذى كان يخرج منـه وكانت تكرهـه فيه . أو تكشف له عن جوهر الازدهار الغربى الذى كان يبهره : لم تضع تحت عينيه المسائل بحدودها جميعا فيستطيع أن يتبين معالمهـا ويرى طريقه بينها ، ومن ثم كانت مشاركته حكام الامبراطورية . الذين كانوا ينالون مثل هـذه التربية وقتئذ ، فى بوادر الانحلال والتردد التى برأت منها طبيعة جده ، وسيره سيرتهم فى حب الظهور بمظهر الحاكم العصرى ، والأخذ بأساليب الحياة الحديثة ، وبغضه الأتراك الذين كانت أوروبا ترميهم حينئذ بكل نقيصة ، وتقربه الى المصريين ، واتخاذه لهجة قومية لا عهد لأحد من الحكام بها

(١) وعاش ايضا عيشة الولاة المتقدمين فصاحب البدو والمشايخ وامر موظفيه بارسال لحاهم كما يفعلون فى «دار السعادة» واوصى بمعاملة ذوات مصر بالشدة لانهم اعتادوا ذلك واقتنى المماليك وكون جيشا البانيا من ستة آلاف رجل وأخذ ما وصلت اليه يده من مال الدولة وصادر ونفى. «تقويم النيل» .

فى مصر من قبل[1] ، ثم مبادرته الى تطبيق ما كانت الآستانة تحاول
تطبيقه من التنظيمات ومبادىء الحكم الحديثة ، كالقرعة والملكية الفردية
وحرية التجارة ، وابعاده فى ذلك بايعاز مستشاريه الغربيين الذين كانوا
يهبطون عليه ولكل منهم مشروع يعرضه ، وقنصل يوصى به ، ويدافع
عنه ، ومواجهة كل ذلك دون أن يكون له مرجع ثابت يرجع اليه ، أو طبقة
حاكمة قوية تثبت خطاه ، أو نظرة شاملة توجه سيره . وكان سعيد يشبه
عباسا بعد ذلك فى براءته مما يمكن أن يعد طموحا سياسيا حقيقيا فيما عدا
الاحتفاظ بالحكم ، فهو لم يفكر فى توسيع ولايته أو الانفراد بأمورها
الا حين هددت الحرب تركيا بالانهيار ، ولم يصطدم بالسلطان الا على
سبيل الدفاع عن حقوقه المقررة ، ومن هنا خلو عهده من الرجات الشداد
وما يصحبها من ارهاق فى الداخل ، ورضا العامة على حكمه وتمكنهم
تحته من الانصراف الى أمورهم والعمل على انمائها الى حد بعيد .

ونحن نجد فى هذا الجانب المشترك بين عباس وسعيد أحد وجوه
الاختلاف بينهما وبين اسماعيل الذى ولى بعدهما ، فقد كان اسماعيل
بعكسهما ذا طموح وارادة واتجاهات خاصة . وكان قد أقام حينا
فى النمسا وفرنسا ، واتصل بحكامهما ، واختلف الى معاهدهما ، ثم قضى
بعض شبابه فى الآستانة متنقلا بين مناصبها الكبرى ، ثم استقر فى مصر
بين مزارعه ودواوين القاهرة . وكان يعرف لذلك الشرق والغرب معرفة
مباشرة ، ويعرف مشاكل مصر من قريب ، ويصل من طريق هذه المعرفة
الى ما كانت طبيعته تجعله أهلا له من رغبة فى حكم حقيقى يصدر
فى اتجاهاته عن وحيه هو لا عن وحى خارجى ، ويتخذ تلك الأوضاع
الغربية الحديثة التى راقته ، وكان حكام الشرق يحتذون على مثالها منذ
قرن أو يزيد . وكانت الحياة المصرية تنذر حين ولى اسماعيل بتطور
عاجل ، فقد رأينا كيف كان محمد على قد أقدم على الاستعانة بالغرب
ولكن الى حد ، فلم يستقدم سوى الخبراء أو الصناع أو المشيرين ،
ولم يتوان فى العمل على اعداد الشرقيين الذين يحلون محلهم ، ولم يطلق

(1) Holynsky : « Nubar » .

الحياة الاقتصادية من قيودها الحكومية الا حين فرضت عليه علاقته بتركيا
ذلك فرضا . وأتى عباس من بعده فذهب بسياسة الحذر هذه الى غايتها ،
ثم تولى سعيد فكانت حرية التجارة والصناعة والمواصلات كما أرادها
الغرب ، وكان تعاقب المهاجرين على مصر من كل صوب ، ثم اقبال
رؤوس الأموال الأجنبية ، ومصر وقتئذ فى مثل الظروف الاقتصادية
التى وجدها الفرنسيون عليها حين هبطها نابليون ، مضافا اليها اختفاء
طبقة الملتزمين والتجار وأهل الحرف التى كانت تشغل قبل ذلك مركز
الطبقتين الثرية والمتوسطة فيها ، بعد أن احتكرت الحكومة الزراعة
والتجارة والصناعة جميعا ، فتحول أربابها الى أجراء ، ولم يبق هناك
الا مالك واحد هو هذه الحكومة المحتكرة . وكانت الحكومة الى عهد
سعيد تحصل ما تستحقه لدى أجرائها عينا ، ولا تملك رؤوس أموال
سائلة تذكر ، وتخضع الى ذلك فى مزاولة سلطاتها جميعا للنفوذ السياسى
الذى كانت تتمتع به الدول فى القاهرة بحق الوصاية التى خولته اياها
معاهدة لندن . وكان قناصل هذه الدول يعاملون ولاة مصر وقتئذ
كصنائع من عمل حكوماتهم ، أو وكلاء عهد اليهم فى رعاية مصالحها ،
ويتولونهم بالثناء والوعيد . ومن ثم كان اتجاه الأموال القادمة الى طرق
أبواب الحكومة بصفتها المنتج الأكبر والوحيد الذى يريدها ، أو السلطة
الوحيدة القائمة التى يستطيع أن يتجه اليها أصحابها للحصول على
ما يدعونه فى مجتمع لم تمهد أرضه للاستغلال الصناعى والتجارى ،
وفوزها على الدوام بما تريد ، وانقلاب القناصل الى سماسرة ينالون
الامتيازات لأصدقائهم أو شركائهم ، ويقرضون القروض ويتممون
الصفقات ، وتحولهم على كل حال الى أدوات لهذا الغزو المالى الخاطف
الذى كان يغزو الاقتصاد الزراعى المصرى ويعمل فيه عمله المحتوم .
وكان أحكم ما يعرض على الولاة حينئذ من مشروعات مالية وأضخمها
وأخطرها مشروعات عالمية تفوق حاجات البلاد ، وتدور جميعا حول وصل
مراكز الانتاج الغربية بمنابع تموينها ، وأسواق استهلاكها ، فى آسيا
وأفريقيا ، كسكة حديد السويس والقناة وسلسلة السكك الحديدية
والتلغرافية والموانى والفنارات التى تمت تحت اسماعيل . فلم تكن

سكة حديد السويس — حين دفع الانجليز اليها عباسا دفعا — تدور بخلده . أو تتصل بحاجات البلاد الاقتصادية اتصالا مباشرا • وما كان مشروع القناة — حين احتال دى ليسبس على سعيد للشروع فيه — بالشيء الذى تؤمن به أوروبا نفسها ايمانا صادقا . ومع ذلك نالت انجلترا سكة حديد السويس ثمنا لمساعدة عباس فى الاحتفاظ بحقوقه كاملة ، ونال دى ليسبس قناة السويس مقابل ثنائه العاطر ووعوده السخية • ومضت القاهرة فى تنفيذ المشروعين بخطى سريعة كانت تثير أهل البلاد ومعارضة الدول التى كانت لا تفيد من مثل هذه المشروعات فائدة مباشرة •

وهكذا كان اسماعيل يجد خلف ارادته فى الحكم الحقيقى ، حين ولى مصر ، تيارا دوليا قويا ، وروحا داخلية ظاهرة . ومن هنا اعتناقه السياسة التى كانت تنتهجها انجلترا فى محاربة مشروع القناة ، من المناداة بوحشية السخرة التى كانت تلجأ اليها شركة القناة ، الى ابراز الخطورة السياسية التى كان ينطوى عليها امتلاك هذه الشركة مساحات واسعة من الأراضى المصرية ، الى الالحاح فى انشاء قضاء منظم يضع علاقة الأجانب بحكومة البلاد ورعاياها فى حدود طبيعية . ويقفل الباب فى وجه الامتيازات التى كان ممثلو فرنسا ينالونها من حكامهم[1] ، ثم كثرة الاعتداءات على الأجانب التى صحبت ارتقاءه العرش • وقد أثارت هذه السياسة فرنسا فى وجهه فبدأت تناوئه وتهيج عليه الآستانة والرأى العام المصرى • وكانت الآستانة التى أراد هو الاحتماء بها تتردد بين لندن وباريس ولا تجسر على الانحياز لاحداهما • كذلك كانت انجلترا لا تريد أن تسير معه الى آخر الشوط ، أو أن تغير من سياسة الشك التى كانت تتمسك بها ازاء أبناء محمد على • وهكذا اضطر هو أن يلين ويلتقى بشركة القناة عند النقطة التى ترضاها ولا تؤذى كرامته ، ويدفع ثمن

(١) انظر محمد صبرى وسان ماركو • وقد طلب اسماعيل من قنصل فرنسا حين ذهب يهنئه أن يبلغ امبراطوره انه رجل جد يحسب حسابه وكان ذلك اول النزاع بينه وبين الحكومة الفرنسية M. Sabri: L'Empire egyptien sous Ismail (محمد صبرى : « الامبراطورية المصرية تحت اسماعيل ») •

ذلك ملايين الجنيهات التى أقرضته اياها البنوك الفرنسية ، وبخاصة حين وجد أن فرنسا كانت لا تزال الدولة الوحيدة التى يستطيع أن يلجأ اليها الولاة حين يريدون الوقوف فى وجه تركيا أو الحصول على ما يريدونه منها • وكان هو يريد الكثير ، كان يريد أن يتخلص من قيود اتفاقية لندن وينشىء ملكية زاهرة كتلك التى أعجب ببريقها فى الغرب ، ويصدر فى ذلك عن طموح شخصى لحياة تلك الملكيات ، ومعرفة دقيقة لنقط الضعف فى الآستانة ، ثم عزة نفس شديدة أورثه اياها الاتصال بالغرب والشعور بضآلة مركزه • ومن ثم كان ميله لمحاولة شراء الأعوان فى مقر السلطنة دون الالتجاء للحرب ، وكان التردد الذى يبدو فى نقط كثيرة من سياسته ، وكان اهتمامه بالرأى العام الغربى أىّ اهتمام • وقد استطاع أن ينال حق الوراثة الذى أراده لأبنائه واللقب الذى أراده لنفسه ليخرج من زمرة الولاة العاديين • واستطاع أن يعيد الصفاء الى جو صلاته بالآستانة حين أراد أن يتمتع بما نال من النجاح فى جولته بالعواصم الأوروبية قبيل افتتاح القناة ، ويحصل على ذلك القدر من الاستقلال الادارى والمالى الذى كان يحتاج اليه احتياجا شديدا لمحاولة السيطرة على الظروف المالية التى كان يواجهها حينئذ ، فأنكرت عليه الآستانة ذلك وخاصمته •

وكانت هذه الظروف المالية ترجع الى ما اضطر أن يحتمله فى سبيل تسوية النزاع الخاص بمشروع القناة ، وترضّى السلطان ، والتقرب من العواصم الغربية ، ثم ما اختطه لنفسه من سياسة مالية أراد أن يتجنب بها ما انتهت اليه اتجاهات سعيد المالية من نتائج وخيمة • وكانت هذه السياسة تقوم على استثمار مرافق البلاد بانشاء شركات قوية كالتى كانت تقوم فى أوروبا لذلك الوقت ، يعهد اليها بهذا الاستثمار ، ويشترك هو ورجاله فى رأسمالها ، ويخضعها لقضائه • وكان هو يقصد من ذلك الى تنسيق الاستغلال الاقتصادى ، والاسراع فيه ، وتفادى الضغط الأجنبى من طريقه ، ولكنه كان يعرّض الخزانة العامة ، وكانت ما زالت منذ أيام المماليك المتأخرين لا تفترق عن مال الولاة ، الى أخطار الاستغلال التجارى ، دون أن يستطيع بعد ذلك الاستغناء عن رؤوس الأموال الأجنبية وخبرة أصحابها ، وما يصحب ذلك من تدخل قناصل الدول بنفوذهم السياسى العريض • وقد أخفقت غالب هذه الشركات كما تخفق

مثيلاتها من شركات الاستغلال المالى الحكومية عادة وتحولت ، مثل امتيازات سعيد ، الى وسيلة من وسائل ابتزاز الخزانة العامة . كذلك تحول القضاء المختلط ، الذى أنشأه الى جانبها ليحد به من تدخل الدول وتسربه من ميدان الأعمال المالية الفردية الى دائرة الصلات السياسية ، الى أداة حجر على تصرفاته وماليته هو ، فلم يكن الأمر بعد أمر قناصل يتكسبون أو يتحكمون ، بل أمر أوضاع اقتصادية واجتماعية جديدة تتسرب من الغرب الى المجتمع المصرى الزراعى القديم ، وتتخذ فيه مكانها ، وتفرض عليه قوانينها . وكانت هـذه الأوضاع تفعل ذلك حينئذ فى جميع بلاد الشرق : كانت تفعله فى تركيا ، وتفعله فى تونس ، وتفعله فى بلاد العجم أيضا . ولكن هذا الاخفاق كان يدفع نفسه المغامرة الى الابعاد فى هذه السياسة ، ومحاولة الاستعاضة عما خسره فيها ، وتوسيع سلطانه التوسيع الذى يمكنه من المضى الى غايتها ، بدل الوقوف به عند محاولاته الأولى . وهكذا كان يقيم السكك الحديدية والتلغرافية والقناطر والمبانى وهو يقترض . ويرشى السلطان ورجاله والعواصم الغربيـة وساستها ويرسل الحملات العلمية والعسكرية الى أفريقيا وحالة البلاد المالية على شر ما يكون . ويصرف مليون جنيـه على افتتاح القناة وهو يشارف الافلاس[1] .

---

(1) ترجع فخامة هذا الافتتاح الى رغبة اسماعيل فى انتهاز فرصته والسير بالأزمة التى كانت تقوم حينئذ بينه وبين الآستانة الى غايتها ، ولكنها لا شك تتصل أيضا بميول الترف التى صحبت حكمه ، والتى أراد غالب مؤرخيه ان يردوا اليها افلاسه (عبد الرحمن الرافعى ومحمد صبرى) وحاول الباقون تغطيتها مستعينين بما عرف عنه فى شبابه من ميل للادخار أو ما قام به من مشروعات عامة لم تكن كلها اسرافا (سان ماركو وكرابيتس) . والحقيقة عندنا هى انه بينما كان محمد على لا يريد من القاب الشرف غير اسمه ولا يصبو الى منافسة السلطان الا فى سلطته ، كان أبناؤه يريدون أن يكونوا ملوكا ويتمسكون بمظاهر الملك فى انتظار ذلك ويفعلون هـذا بحماسة الملكيات الجديدة وعلى سبيل الدعوة الداخلية والخـارجية . وقد أنشأ عباس لنفسه قصورا وفرض على رجاله أن يقيموا لانفسهم مثلها . وأراد سعيد لنفسه بلاطا عصريا كبيرا وحرسا ملكيا زاهيا . ودأب الاثنان على احاطـة حركاتهما بأبهة مسرحية فائقة ، ولكنهما لم يتركا لاسماعيل شـيئا يذكر خصوصا بالقيـاس الى ما كانت تصبو اليه نفسه الطموح بطبيعتها . وهكذا اضطر اسماعيل ان يقيم ما تحتاج اليه الأسرة الجديدة من قصور دفعة واحدة ، وأن يجمع بين ذلك وبين تجميل عاصمته تجميلا حديثا ، وأن يفعل هذا فى الوقت الذى كان يسير أثناءه بسياسته المالية الانشائية سيرا سريعا .

وكان اسماعيل يمضى فى سياسته هذه بنفسية الشرقيين الأولين ، الذين قضوا طرفا من شبابهم فى الغرب ، فبهرتهم أنواره ، وعادوا الى بلادهم يتوقدون رغبة فى الوصول بها الى ماوصل اليه أقرانهم هناك . وما تتيح لهم فرصـة العمل لذلك حتى يندفعوا فى تغييـر ما يحيط بهم وعيونهم مسددة الى المثل التى بهرتهم . وهم يستعملون فى تغييرهم هذا وسائل البيئة التى نشأوا منها ، ويصلون الى نتائج تخالف النتائج التى ترقبوها لاختلاف المادة التى بين أيديهم عن المادة التى صنعت منها مثلهم ، وما يتنبهون الى ذلك حتى ينتهوا الى حالة بين الشك والاستهتـار ، ويقيموا فى مكان منعزل بين عالمهم هذا الذى لم يعد يروق لهم وذلك العالم المثالى الآخر الذى لم يستطيعوا الانخراط فيه . وهم يكادون يبدون عندئذ بطبيعتين : طبيعة المزدرى للعالم الأول وما هو حقيقى بأن يصدر عنهـا من صرامة ، وطبيعة الدخيـل فى ذلك العالم الثانى وما هو قمين بأن يصحبهـا من تكلف . ومن ثم كان الطـابع الحـديث الذى جهـد طوال حكمـه أن يطبع مصر به ، واسرافه فى المنـاسبات التى كان يقيمهـا لأهـل البـلاد[1] والأجانب[2] ، وسـعيه لتـكوين أرستقراطية مصرية[3] يزين بها بلاطه . وكان فى الوقت نفسه ما يأخذه بعض مؤرخيـه على حكمه من استبداد واستهتار واقدام على أشـد الوسـائل للتخلص من الأعوان السابقين أو المنافسين الخطرين . وقد استطاع اسماعيل أن يدعم بسياسته هذه بناء الدولة المصرية الناشئة ، وأن يدعم شخصيتها . واستطاع أن يوجه الى القاهرة كثيرا من الرجال الأقوياء الذين كانوا يفكرون حينئذ فى مصائر الشرق ومشاكل اصلاحه ، كالأفغـانى ومريديه . ولكنه اضطر أن يستدين ليؤدى ثمن كل ذلك فى الداخل والخارج ، واضطر أن يستدين بالشروط الباهظة ، التى كانت ماليتـه الزراعية ومركزه الخاص من الامبراطورية العثمانيـة والدول

---

(1) كحفلات زواج بناته ، انظر وصفها فى تقويم النيل .

(2) مثل حفلة قناة السويس .

(3) وكان يكثر فى سـبيل ذلك من اهداء الأراضى لرجال حاشـيته وتزويجهم من جواريه . تقويم النيل .

الغربية وبعض الحظر الذى فرضته عليه الآستانة فيما يتعلق بالقروض الخارجية ، ثم بقاء ادارته على الأسس المرتبكة القديمة ، تدفعه الى قبولها دفعا • وما توانى فى الوفاء بديونه حتى تداخلت مصالح دائنيه فى مصالح الدول التى ينتمون اليها ، وأرادت هذه الدول أن تقيد يديه وتحكم باسمه ، وما كاد يرفض ارادتها هذه حتى أسقطته •

* * *

ونحن نلمس فيما أسلفنا من سيرة ولاة مصر هؤلاء ، فى الوقت الذى كانوا يمثلون فيه القوة السياسية المصرية الوحيدة ، الدور الكبير الذى كان يلعبه الغرب فى الحياة العامة المصرية • نلمسه فى تحول النزاع بينهم وبين السلطان من نزاع اقطاعى داخلى الى مسألة دولية مشعبة ، ونلمسه فى أهمية المركز الذى كان يشغله الفنيون الغربيون فى جميع ميادين نشاط هؤلاء الولاة ، وميدان النشاط الاقتصادى على وجه الخصوص • ونلمسه فى نحو حياة البلاد جميعا نحوا ، نجد دوافعه فى اتجاهات الحياة العالمية أكثر مما نجدها فى مقتضياتها الخاصة ، وينتهى لذلك الى الخروج بظواهرها الاقتصادية والاجتماعيـة والسياسـية جميعا عن مجراها الطبيعى وافساد تكوينها وتشويه معالمها • نلمس ذلك ونرى بعد أثره فى تحول تفكير الولاة ورجالهم أيضا من عدم الانقياد لتعاليم الغرب ، الا تحت الضغط الخارجى ، الى السعى الملح لتأثر هـذه التعاليم عن ايمان ورغبة فيها ، وارتفاع الأساليب الغربية تبعا لذلك الى مثل عليا يحتذى بحياة المصريين على منوالها ، وشعور المصريين فى سبيل تحقيق ذلك الى الحاجة للخبرة التى أنتجتها هذه الأساليب •

والغرب فى هـذه الفترة ينظر الى مصر نظرة الصانع الى شىء من صنعه ، فيذكّر ممثلو فرنسا محمد على كل حين بأيادى حكومتهم البيضاء عليه ويصرح « السان سيمونيون » المرة تلو المرة أنه منفذ وصية نابليون الأمين فى مصر[1] ويعد الموظفون الأجانب فى الحكومة المصرية نفسهم تابعين لحكوماتهم ويخاطبون زملاءهم المصريين وكأنهم أصحاب البلاد •

(١) وقد شربوا نخبه ونخب نابليون عند وضع حجر الأسـاس فى قناطر محمد على •

ويختلف قنصل فرنسا فى الأسكندرية مع السلطات المصرية فيدعو مواطنيه صراحة الى الوقوف فى وجه هـذه السلطات • ويقول المسؤولون عن مشروع القناة فى عريضتهم الى نابليون الثالث ان اسـتقلال مصر من صنع فرنسا ، ويطلبون تدخله على هذا الأساس[1] • والولاة يشعرون بما فى ذلك من خطر يهـددهم فيتملقون هـذا الغرب ويخشون ممثليه ويجتهدون فى كسب اعجاب الرأى العام فيه ، حتى اذا أخفقوا فى ذلك عادوا يتجهون الى الآستانة ، عاصمة تلك الامبراطورية العثمانية الضخمة التى ظلوا الى آخر أيامهم يعدون نفسهم من كبار موظفيها قبل أن يكونوا شيئا آخر[2] •

(١) محمد صبرى •

(٢) وقد ترك الهامى مصر الى الاستانة بعد وفاة والده عباس وأقام بها اخوه اسماعيل من بعده وعمل اسماعيل نفسه فى حكومتها قبل ان يتقلد الولاية وتولى اخوه وزارة المالية فيها بينما كان هو يحكم مصر . « تقويم النيل » .

أعراض المراهقة

أسقطت الدول اذا اسماعيل قبل أن تستكمل الدولة التى أنشأها جده عناصر تكوينها جميعا • وكان سقوطه عاقبة رفضه النزول لها عن معنى الحكم الذى كانت هذه الأسرة الحاكمة الفتية تريد أن تزاوله ورغبة الدول فى تعهد مصالحها بنفسها بعد أن بلغت ما بلغت من نمو فى مصر ثم بقاء الحكم الذى كان يمثله من غير سند حقيقى يستند اليه : فلا هو بقى فى حظيرة الحكم العثمانى فيستطيع أن يلوذ بعطفه ، ولا هو انخرط فى العالم الغربى الذى كانت ظروف نشـأته تدفعه الى ابتغاء رضاه ، ولا هو استطاع أن يثبت جذوره فى الأرض التى اتخذها فيتمكن من الاعتماد عليها فيما عسى يفجأ به من ضغط خارجى • وهكذا لم يثر خلع اسماعيل معارضة مصرية حقيقية[1] وان كان معنى هذا الخلع ، نعنى اتجاه التيار الغربى الى الاستيلاء على الحكم ، قد وجد من هـذه الأرض بالذات تلك المعارضة المستميتة التى أدت الى الثورة العرابية ، ثم حركة سنة ١٩١٩ ، ثم المفاوضات المصرية الانجليزية المتوالية •

وقد سبق أن رأينا كيف أقصى محمد على عن مناصب الحكم العناصر التى كانت تنهض به منذ أيام الأيوبيين ، بقضائه على النظم المملوكية ، وكيف استعان بمن اجتلب من عثمانيين ، واستقدم من قنين غربيين ، وعبأ من أهل البلاد ، فى انشاء جيش حـديث وادارة جـديدة ومالية انشائية • وقد احتفظ خلفاؤه بهذا الجيش، وحاولوا اكمال هذه الادارة، وساروا حثيثا فى طريق تنمية هذه المالية الانشائية • فأبقى عباس على المدارس العسكرية الرئيسية ، رغم غلقه المدارس عامة ، ووضع سعيد نظام اقتراع ثابت مثل ما فعلت تركيا وقتئذ ، واستقدم اسماعيل المدربين العسكريين من أمريكا ، وعمل ثلاثتهم على اقامة الدواوين الجديدة وانفاذ المشروعات الاقتصادية الضخمة ، فكانت الوزارات المختلفة ، وكانت سـكة حديد السويس وقناته والسكك التلغرافية والمنشآت

(١) بل وافق الأفغانى وأعوانه على الخلع • انظر « الاسلام والتجديد فى مصر » لتشارلس آدمس •

الزراعيـة والصناعيـة والتجارية الأخرى[1] ، وكان ما صحب ذلك من ارتفاع فى الدخل القومى ، وزيادة فى عـدد السكان ، وتطور فى الملكية الزراعية أيضا ، اذ تبلور حق الانتفاع الذى أنشأه محمد على ، وثبتت معالمه على أيام سعيد ، وتحول الى ملكية تكاد تكون تامة ، حين قبل اسـماعيل مشروع المقابلة ، ثم الى ملكيـة تامة بقانون سنة ١٨٨٠ • وهكذا قام على أنقاض النظام المملوكى الذى كان يتنفس فى جو الأمة الاسلامية العالمى ، والى جانب الأسرة الحاكمة الجديدة التى كانت تتعاقب على عرش البلاد ، جيش أهلى ، وطبقة من موظفين وطنيين ، وطائفة ملاك زراعيين محليين ، أى ظهرت مصالح أهلية تنفرد بأوضاعها الخاصة ، وتصدر فى حركاتها عن نفسها ، وتقيم هيكل مجتمع جديد •

ونحن نشعر بظهور هـذا المجتمع منذ الصـدر الأول من القرن الثامن عشر فيما يذكره الجبرتى عن الكبرياء التى كان يثيرها الثوب العسكرى فيمن كان يجندهم محمد على من أهل الريف وفقراء المدن ، وما يقوله المؤرخون الفرنسيون[2] عن النعرة التى كانت حملات الشام تثيرها فى جند ابراهيم ، وما نلحظه من تردد معانى الوطنية فى كتابة رفاعة الطهطـاوى[3] وعلى مبارك وغيرهمـا من كتاب ذلك العصر ، ووصف عرابى لأثر أحاديث سعيد معه فى أمور مصر فى نفسه ونفس من تصل اليهم من أهل البلاد[4] • ثم نلمسه لمسا يسيرا تحت اسماعيل فى ظهور

(١) ارتفعت مساحة الأراضى المزروعة بفضل هـذه المشروعات الى ٤ر٧٤٢ر٦١٠ فدان وارتفع عدد السكان فى الوقت نفسه الى خمسة ملايين وربع مليون • كروشلى •

(٢) دوين ودريول وسان ماركو •

(٣) « ويضع لمطالعة المدارس كتاب « مباهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية » وهو أول كتاب عربى ينزع الى الناحية الوطنية ، فيذكر معنى الوطن ، ومصر ومزاياها • وتشغل ذهنه المنافع العامة فيخصص لها أكثر الكتاب ، فيذكر كيف تؤدى فى البلاد المتمدنة ، ونبذا مما قام به بعض رجال المسلمين فى سبيل المنفعة العامة وواجب الأغنياء ، وكيف يربى الأولاد ، وفصولا فى الاقتصاد المصرى من منابع الثروة وتقسيم الأعمال الى منتجة الأموال وغير منتجة ، ويعود الى المنافع العامة ويقسمها ويبين تاريخها فى الأمم وتاريخ مصر ازاءها الى عهد محمد على ، ويذكر الاصلاحات التى عملها ، ثم يذكر الآمال التى يأملها فى المنافع العامة فى المستقبل • ثم خاتمة فيما يجب للوطن الشريف على أبنائه من الأمور المستحسنة • وهو ــ فى كل ذلك ــ يجمع بين ثقافته الاسلامية وثقافته الفرنسية » • رفاعة الطهطاوى • مجلة الثقافة عدد ٢٣٥ فى ٢٩ يونيو سنة ١٩٤٧ •

(٤) مثل خطاب ٤ نوفمبر سنة ١٨٥٩ • انظر محمد صبرى •

طبقة ذكية من رجال الحكم لا نجد لها نظيرا الى جانب محمد على أو عباس أو سعيد ، تصدر فى أعمالها عن تقدير مستقل لمصالح البلاد ، وتحجب الجالس على العرش تارة وتقف فى وجهه طورا • فنوبار يضع الجانب الأكبر من سياسة اسماعيل الخارجية والمالية والداخلية ويرمى، بين ما يرمى اليه من انشـاء المحاكم المختلطة ، الى الحد من سـلطة الخديوى[1] • وصديق المفتش يتزعم التيار الوطنى الذى أدى الى وضع قانون المقابلة ، ويجالد التدخل الانجليزى الفرنسى فى مالية البلاد ، وينتهى الى السقوط صريعا فى سبيل مجالدته هذه • وشريف يرفض أن يصدر فى الحكم عن غير تقديره للأمور ويذهب بالتفكير فى اصلاح نظمه الى حد المعارضة السافرة للخديوى[2] • كذلك نلمسه فى الاتجاه الذى اتخذته الحياة النيابية المصرية فى الصدر الأخير من القرن التاسع عشر • فنحن نعلم أن اسماعيل أنشأ فى سنة ١٨٦٦ مجلسا استشاريا يقوم الى جانب الدواوين الحكومية ويعينها على تأدية وظيفتها • وقد جعل هذا المجلس يظهر ويستخفى دون أن يكون له أثر فى حياة البلاد حتى كانت الأزمة المالية ، وتناوش اسماعيل ومدينيه ، واتجاه فرنسا وانجلترا الى التدخل فى الادارة المالية ، اذ أخذ اسماعيل يشعر بالحاجة الى سند يعتمد عليه ، وجعلت قيمة المحكومين ترتفع فى جلبة العراك السياسى ، وانتهى الأمر الى تعـاون اسماعيل وهؤلاء المحكومين ، حين فكرت انجلترا وفرنسا فى الحجر عليه ووضع يدهما على ادارته ، فكان قانون المقابلة ، واقالة الوزارة المختلطة ، ثم اقامة الحكم النيابى الحقيقى ، اذ أجمع اسماعيل على المضى فى معارضة دائنيه ، وطمح أهل البلاد الى الاستيثاق من ثمرة تعاونهم هذا ، وكان ما أعقب ذلك من وقوف النواب الجدد فى وجه التدخل الأجنبى والفساد الداخلى وما أدت اليه وقفتهم من انفجار الثورة العرابية •

وهذا المجتمع الجديد يتجه قليلا قليلا الى الشعور بنفسه كشىء

(١) عبد الرحمن الرافعى : « الثورة العرابية » •

(٢) « محمد شريف باشا » نشرة الحزب الوطنى •

يختلف عن المجتمعات الأخرى ، اسلامية كانت أو غير اسلامية : يتجه الى تكوين ما ندعوه بالوعى القومى • فالطهطاوى[1] يكتب فى الوطنية والتاريخ المصرى القديم وواجب العمل لرفاهية مصر ، وهو أمر لا نجده فى الجبرتى مع قرب العهد بينهما • وعلى مبارك يضع لفظ «مواطن»[2] للتفريق بين أهل البلاد وغيرهم • وعرابى يستعمل لفظ « المصريين » و « الأمة المصرية » بمعناه الحديث ، ويعد من ليسوا من أهل البلاد ، سواء كانوا من الأرمن أو الأتراك ، أى سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين ، أجانب لا يحق لهم أن يحكموها[3] ، وهو أمر جديد أيضا لا نجد له أثرا فى التفكير المصرى منذ أن احتضنته الموجة المسيحية • وكتاب العصر الآخرون يشعرون بهذه الحقيقة ، وان فى اضطراب ، ويشعرون من يقرأهم بها أيضا بطريق أو آخر •

والأسرة الحاكمة الناشئة تقوم فى هذا التحول بدور هام ، فهى التى تلقى بذوره بسعيها الملح فى اقامة حكمها الجديد ، وتنضج ثماره بكفاحها فى سبيل استكمال عناصر هذا الحكم ، وتبرز حدوده باتجاهها الانفصالى عن الامبراطورية العثمانية • فينشىء محمد على الجيش الذى ثار على الشراكسة أيام عرابى ويرسـل البعثـات العلمية التى ركزت الوعى الحديث ويثير حرب الشام التى بعثت النعرة المصرية ، ويغذى ابراهيم بنداءاته وتصريحاته حركة الخروج السافر على الامبراطورية العثمانية ،

(١) « وهناك صفة هامة من صفات رفاعة تستحق الالتفات والتسجيل ؛ فقد كان فيها الرائد الأول للمصريين جميعا فى العصر الحديث ؛ تلك هى عاطفة الوطنية القومية • كان رفاعة يحب مصر حبا قويا ملك عليه نفسه ، وكان الدافع له الى الاخلاص فى عمله والتفانى فى أداء واجبه • وقد تغنى بهذا الحب كثيرا فى شعره بل نحن لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان معظم شعره قصائد ومقطوعات وأناشيد وطنية لم يسبق اليها أو الى مثلها أحد من المصريين •

وفى كتبه المختلفة كان يعقد الفصول الطوال للتحدث عن الوطن والوطنية وتحليل هذا المعنى وضرب الأمثلة بمن عاشوا وضحوا فى سبيل أوطانهم • أثارت هـذه العاطفة فى نفسه طبيعته الخيرة وقواها ثقـافته الواسعة فى باريس ودراسته للعلوم الفلسفية والاجتماعية والسياسية هناك ، وأذكاها أيضا أنه شاهد ثورة الشعب الفرنسى فى سنة ١٨٣٠ فقد رأى بعينيه كيف يبذل الفرنسيون أرواحهم فى سبيل وطنهم وحريتهم » • جمال الدين الشيال : « رفاعة الطهطاوى » •

(٢) وهى ترجمة لفظ citoyen الشائع حينئذ فى فرنسا •

(٣) « تقرير عرابى » •

ويبعث سعيد ، بتقريب أهل البلاد اليه واعادته اللغة العربية لغة رسمية ونفخه فى المصريين المحيطين به ، الروح التى خرج منها عرابى [1] ، ويقضى اسماعيل حكمه عاملا على انشاء الأرستقراطية الوطنية التى ثارت فى وجهه ووجه ابنه من بعده •

وكل هذا يبدأ هينا ثم يغلظ ويتبلور ، فالطهطاوى يكتب فى الوطنية المصرية ولكنه اسلامى قبل كل شىء • وعلى مبارك يقرب عنه الى الفكرة القومية ولكنه لا يظهر وعيا مصريا كاملا • وعرابى يحيط الشعور المصرى بغلاف عربى اسلامى لا يزال يحيط بشعور الكثير منا حتى اليوم • وقد رأينا كيف كان محمد على وابراهيم يترددان بين الفكرة العثمانية والفكرة العربية • وكيف كان عباس وسعيد واسماعيل من رجال السلطنة العلية قبل أن يكونوا شيئا آخر • وكيف كان ثلاثتهم بعيدين عن الشعور بقومية مصرية صحيحة بعد أهل البلاد نفسهم عنها • وقد كان الحكام يدعون أهل البلاد ، وكان أهل البلاد يدعون بعضهم البعض حتى مطلع القرن العشرين بـ « الأهالى » و « العباد » و « الناس » و « أولاد العرب » كما كان الحال على أيام الامبراطورية الاسلامية •

---

(١) قال عرابى لبلنت ان سعيدا أهداه كتابا عن الحملة الفرنسية على مصر وقال له : انظر كيف ترك أبناء وطنك الفرنسيين يضربونهم (ولم يلاحظ أن المضروبين كانوا مماليك وأتراكا) • وأضاف عرابى الى ذلك أنه فهم من قراءة الكتاب أن انتصار الفرنسيين يرجع الى تنظيمهم وتمرينهم (لم ير هو أيضا غير الناحية العسكرية) وانه من الممكن أن يؤخذ بهذا التنظيم فى مصر اذا أنشىء فيها الحكم الدستورى • أنظر بلنت : « التاريخ السرى لاحتلال مصر » •

وقد خطب سعيد فى نوفمبر سنة ١٨٥٩ أثناء الحرب الفرنسية النمساوية فى مأدبة عامة قائلا انه تأمل حال الشعب المصرى المضطهد الذى استعبدته شعوب الأرض من الرعاة الى الأشوريين الى العجم الى الليبيين الى السودانيين الى الاغريق الى الرومان الى الأيوبيين الى العباسيين والفاطميين والكرد والشراكسة والاتراك ونابليون (من الجلى أنه درس تاريخ مصر فى مراجع غربية) ويريد كمصرى أن يربى هذا الشعب ويجعله كفءا للاستغناء عن مساعدة الأجانب • وقد أغضب هذا الخطاب بعض الأمراء والحكام من الأتراك • أنظر محمد صبرى •

(٢) انظر وثائق العصر فى « تقويم النيل » •

وهذا التمايز التدريجى يبدو بقوة نسبية بين الذين يواجهون مشاكل الحكم أو يشغلون المراكز الرسمية أو يمثلون المصالح المادية ، ثم يضعف بين الطبقات الأخرى حتى يكاديختفى بين المفكرين ، ويظل مختفيا بين العامة الى عهد قريب ، نعنى أنه ينبثق من طبيعة الأمور ، ولا يهبط من وعى سابق أو فكرة جديدة أو قديمة تجددت • فمحمد على يحس الفروق الكبيرة التى تقوم بين مصر وسائر السلطنة العثمانية رغم عثمانيته ، وابراهيم يفوقه فى هذا الشعور وان لم يرتفع به ذلك الى درجة الوعى المصرى • وقد كان الطهطاوى من أبناء الملتزمين الذين فقدوا التزاماتهم وهبطوا الى الفلاحة أو طرقوا أبواب الوظائف الحكومية ، فكان اماما ، ثم مبعوثا يدرس فى باريس ويتصل بمستشرقيها ويطلع على بحوثهم فى تاريخ الاسلام وتاريخ مصر [1] • وكان على مبارك أحد الصبية الذين انتزعوا من آبائهم وأغلقت خلفهم أبواب المدارس الأميرية ثم عادوا ذات يوم الى عائلاتهم فى ملابس « ولى النعم » الرسمية المقتصبة [2] • وكان عرابى من أبناء الريف الذين دخلوا الجيش وعاشوا فى بلاط سعيد واسماعيل [3] • كذلك كان نوبار من حفدة باغوس ربيب محمد على [4] • وشريف ابن قاضى تركى رباه محمد على أيضا [5] • وصديق المفتش من المقربين الى الأسرة الحاكمة [6] • وسلطان باشا وزملاؤه المطالبون بالحياة النيابية والقائمون بشئونها بعد ذلك من الملاك الزراعيين الذين أقرضوا الخديو وشعروا بضعف

---

(١) جمال الدين الشيال : « رفاعة الطهطاوى » • وأحمد أمين : مجلة الثقافة أعداد ٢٣٠ و ٢٣١ و ٢٣٢ سنة ١٩٤٣ •

(٢) نشأ على مبارك كرفاعة الطهطاوى فى عائلة شتتها ظلم الحكام فهاجرت الى الشرقية ونزلت على بعض قبائلها • وقد أراد لنفسه أن يكون كاتبا لا فقيها كما كان والده ، حتى يكون قريبا من الحكام ثم عرف ذات يوم أن هؤلاء الحكام يتربون فى المدارس الأميرية فاستعلم هل كان أبناء الفلاحين أيضا يستطيعون دخول هذه المدارس والتحق باحداها بالرغم من معارضة أهله واختطافهم اياه منها وثابر على الدرس حتى بعث الى فرنسا فى حياة محمد على • على مبارك : الخطط التوفيقية •

(٣) « الحركة القومية » لعبد الرحمن الرافعى •

(٤) Holynsky: Nubar.

(٥) « محمد شريف » •

(٦) Egypt's Ruin.

مركزه فأرادوا أن يقاسموه سلطانه[1] . كذلك كان العرابيون أول أمرهم ضباطا ثائرين على ما نزل أو خشوا أن ينزل بهم من ضيم ، وقواد جند يريدون أن يشغلوا المراكز الرئيسية التى كان لا يشغلها لذلك الوقت الا الشراكسة ، ويقبضوا على ناصية الحكم كوسيلة للدفاع عن نفسهم مما كانوا يدعونه الغدر الشركسى[2] . وفى هذا ما يفسر بعض اتهام الشيخ محمد عبده العرابيين والعثمانيين والخديويين بالأثرة والهوى ، وان كان ليس فيه ما يطعن فى حركتهم كحركة وطنية فليس فى تاريخ الحركات الوطنية حركة واحدة لا تتصل نارها من بعيد أو قريب بالمصالح المادية للذين أثاروها أو قاموا بها[3] .

وقد كان محمد عبده وأقرانه من مفكرى ذلك العصر يتجهون بعكس ذلك اتجاها اسلاميا قبل كل شيء . فكان الأفغانى يجوب البلاد الاسلامية وكأنه يجوب المقاطعات المتجاورة فى البلد الواحد ويدعو أهلها جميعا الى احياء الاسلام[4] ؛ وكان محمد عبده يكافح فى سبيل الأمة

(١) « وقد أشعر مشروع البكرى لتسديد الديون الناس بقوتهم وحاجة الحاكم لهم وزادت من رغبتهم فى الاشتراك فى الحكم » . « تاريخ الشيخ محمد عبده » .

(٢) قال محمد عبده : « أما عرابى فلم يكن يخطر بباله أن يطلب اصلاح حكومة أو تغيير رئيسها فذلك مما كان يكبر على وهمه أن يتعالى اليه ، وانما الذى أحاط بفكره وملك جميع مقاصده هو الخوف على مركزه مع شدة البغضاء لمن كان معه من أمراء الجراكسة والمنافرة من عثمان باشا فلم يكن له هم سوى الأمن على مقامه والانتقام من ذلك العدد والتغلب على ما كان بيد الجراكسة من الوظائف العسكرية قصد التمتع بما كانوا يتمتعون به من رواتب أو نفوذ لأنه هو واخوانه أبناء البلاد أحق من غيرهم بمزاياها الخاصة » . عثمان أمين : « محمد عبده » .

(٣) « تاريخ الشيخ محمد عبده » و « الاسلام والتجديد فى مصر » .

(٤) وكان يرى فى التدخل الغربى حربا صليبية جديدة ويظن أن سبيل الشرق الوحيد الى النهوض هو القيام بحركة دينية كحركة لوثير فى الغرب ويلاحظ أنه أفغانى يدعو دعوة سياسية فى مصر . أنظر محمد سلام مدكور : « جمال الدين الأفغانى » .

« . . . هال الأفغانى أن يرى الشرق بين أنياب الاستعمار الأوروبى تنوشه من كل جانب وتدميه فى الصميم من قلبه ووجدانه ، ومع هذا فهو يغط فى سبات عميق ، وأهله فى فرقة كلها التخاذل والتنافر ، والدولة التى تحمل لواء الخلافة ليست لها صلات صحيحة – كما يقول – بأمم الشرق وأقطار العربية ... » .

« ...أقول هال السيد الأفغانى ما رأى وما كان يتوقع من مقدمات الحوادث ، وأفزعه ذلك الشتات فى الجامعة الاسلامية ، وتحقق له أن الفرقة علة الشرق المتوطنة وداؤه المتمكن ، فنهض يصيح بأرباب الغيرة من ملوك

الاسلامية قبل كل شيء[1] وكان صديقه وزميل كفاحه الشيخ رشيد

المسلمين وعلمائهم من أهل الحجة والحق ألا يتوانوا فيما يوحد جمعهم ، ويجمع شتتهم ، وأن يتعاونوا على صون الوحدة عن كل ما يثلمها ، فيكونوا بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة ، وطلبوا سعادة ، والرمق باق ، والآمال مقبلة . ولقد كان ذلك المصلح العظيم يرى أن قيام هذه الوحدة للمسلمين مما تقضى به الضرورة ، وتحكم به العادة حتى يقيموا بذلك سدا يحول عنهم تدفق السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب ، ومن ثم ظل طول حياته ينهض بهذه الدعوة وينادى بضرورتها فى كل مناسبة سانحة ، وفى كل مكان تنزله به قدمه ، ثم أراد أن ينظم سبيل الدعوة ، وأن يقوى من صوتها وأغراضها ، فأنشأ جمعية « أم القرى » وهو فى مكة لتدعو الى الجامعة الاسلامية تحت لواء خليفة واحد يسيطر على العالم الاسلامى أجمع ثم ألف جماعة « العروة الوثقى » وهو فى باريس من مسلمى الهند ومصر وشمال افريقيا وسوريا ، وأصدر بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده مجلة « العروة الوثقى » لسانا لحالها وتعبيرا عن أغراضها ، وكان هدفها وحدة المسلمين وايقاظهم من سباتهم ، وتنبيههم الى المخاطر التى كانت تهددهم ، وارشادهم الى سبل مواجهتها والتغلب عليها.

كانت دعوة جمال الدين تتلخص فى أن الوحدة بين المسلمين ضرورة تقضى بها الطبيعة والعادة ، ويؤيدها العقل والنقل ، وتقرها شواهد التاريخ للجماعات البشرية ، وعوامل الاجتماع والالفة بين الامم والشعوب ، وكان يضرب لذلك الأمثال والسوابق فى تاريخ الوحدة الاسلامية فى الصدر الأول ، والوحدة الجرمانية فى العصر الحديث ،أما المبررات والدعائم التى تقوم عليها هذه الوحدة ، فقد أشار اليها اشارة عابرة فى احدى مقالاته اذ يقول : « ان من أدربه الى بيشاور دولة اسلامية متصلة الأراضى متحدة العقيدة لاينقص عددهم عن خمسين مليونا ، وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة ، فلو اتفقوا فليس ذلك ببدع بينهم ... » .

« ... ماذا كان يرجو السيد الافغانى من وراء الوحدة ؟ وماذا كان يعلق عليها من الآمال والأغراض ؟ ويحدد لها من الأهداف والغايات ؟ .

لقد كان الرجل يقف من ذلك بادىء الأمر عند مسألة المسائل ، فكان كل ما يرجو أن تكون الوحدة قوة دفاعية تقف فى وجه الاستعمار ، وتقوم سدا يحول عن المسلمين السيول المتدفقة عليهم من كل جانب ، ومعنى هذا أنه كان يرجو من الوحدة أن تكون وقاية وحماية ، هدفها الوقوف فى وجه الخطر وكفى » . الأفغانى والوحدة الاسلامية . الرسالة عدد ٦١٦ فى ٢٣ ابريل سنة ١٩٤٥ .

(١) « وكان (الشيخ محمد عبده) يرى أن المحافظة على الدولة العثمانية ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله فانها وحدها المحافظة لسلطة الدين الكافلة ببقاء حوزته ويقول : وانا ولله الحمد على هذه العقيدة عليها نحيا وعليها نموت » . « تاريخ الشيخ محمد عبده » .

ويبدو سوء ظنه بالأجانب ومقته لنفوذهم فى وصفه لهم بال « شياطين » وقوله ان « الأجانب من فرنسا وانجلترا وألمانيا وأمريكا أنشأوا مدارس أجنبية فى البلاد الاسلامية ليحاولوا هدم عقائد المسلمين ويستغلوا أهواءهم نحو البلاد التى يمثلونها » . انظر « الاسلام والتجديد » .

رضا ينكر الروح القومية ويجدها بدعة مؤذية حتى آخر أيامه[١] • وهذا الشعور الدينى هو الغالب على العامة فى مصر والبلاد الاسلامية الأخرى الى اليوم • وآية ذلك ما انتهت اليه الحركة العرابية وما تنتهى اليه فى الغالب كل فورة شعبية من نوعها •

والوعى المصرى الجديد يبدى فى اتصاله بالتيارات الخارجية مظاهر رد فعل بينة وان ضعفت[٢] ، تبدأ فى الميدان السياسى ، بحكم اشتداد هذه التيارات فيه وتكوّن طبقة حاكمة وطنية ، ثم تمتد الى الميادين الأخرى • وقد قاوم محمد على هذه التيارات ، وقاومها اسماعيل ، ثم انتقلت المقاومة من الولاة الى أهل البلاد ، فكانت الثورة العرابية ، وكان اخفاق كل هذا فى الدورة الأولى منه لحداثة هذا الوعى وميوعته وتوزع أفكار أصحابه فقد رأينا كيف كان محمد على عثمانيا قبل أن يكون شيئا آخر ، وكيف كان سعيد واسماعيل يترجحان بين الشرق

« وكان يرى أن « علاج هذه العلل (علل مصر) لا يكون بنشر الجرائد اذ هى ضعيفة السلطان وليس شفاؤها بانشاء المدارس العمومية دفعة واحدة على الطراز المعروف بأوروبا ، لأن هذه المدارس وما يدرس بها من علوم يمكن أن تتخذ وسيلة لتقوية النفوذ الأجنبى ولا هو بالتعليم الأوروبى وتقليد العادات الافرنجية فلم ينجح التقليد الا فى اطفاء روح الناس واخضاعها لسلطان الأمم التى يقلدونها فعلاجها الناجع انما يكون برجوعها الى قواعد دينها والأخذ بأحكامها على ما كان فى بداية أيام الخلفاء الأوائل ، فاذا قاموا بشئونهم ووضعوا أقدامهم على طريق نجاحهم وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الانسانى » • « مجموعة العروة الوثقى » • انظر « الاسلام والتجديد فى مصر » •

وقد كتب فى العدد الثانى من العروة الوثقى تحت عنوان « الجنسية والديانة الاسلامية » ، يقول ان العصبية الدينية تعلو العصبية الجنسية ويطالب بحكومة اسلامية عامة ويريد اصلاح الأمة الاسلامية •

(١) « فعلت (الوطنية) فعلها فى غير أصحاب العمائم من المتعلمين : لأن هؤلاء لا يعرفون لهم جنسية الا فى الدين » • الشيخ رشيد رضا • انظر « الاسلام والتجديد فى مصر » •

(٢) والشيخ محمد عبده يقول ان أحكام المحاكم المختلطة على الخديو وعمل الناظرين الانجليزى والفرنسى وتأليف اللجنة المالية المختلطة وما أثاره كل ذلك من الكتابة فى أنواع الحكومات هى التى أثارت الرأى العام • « تاريخ الشيخ محمد عبده » •

والغرب[١] • ونحن نعلم أن الحياة النيابية لم تكن أول عهد البلاد بها الا شكلا من أشكال نشاط السلطة التنفيذية[٢] ، وان هذه السلطة لم تكن حينئذ فى جوهرها الا صورة من صور الحكم العثمانى الفاسد بكل ما خص به من خشونة وقسوة واضطراب[٣] • وكانت الطبقة الحاكمة سواء القائم منها بالحكم أو المتربع على كراسى النيابة ما زالت تتلمس الطريق الى العثور على نفسها فهى تتكلم لغة مهشمة بين عربية وتركية وتبدى أفكارا مشوهة بين تركية وعربية وغربية وتتخذ اتجاهات تتأرجح بين الحيطة الشديدة والشطط الأهوج • ومعاصرو عرابى يرجعون اخفاق حركته الى جهله[٤] وعدم ايمان أعوانه بالقضية التى كانوا يدافعون عنها ، ونحن لا نستطيع أن نقرأ تاريخ الحركة العرابية اليوم ولا نميل الى الأخذ بهذا الرأى • وقد خسر الرجل المعركة فكان أول ما فكر فيه أن ينجو بنفسه من انتقام الشراكسة الذين خاصمهم وانتقام الحكومة التى كانت الى عهده تلقى بأعدائها فى البحر « بعد أن تضعهم فى صناديق مقفلة مثقوبة » كما يقول فى تقريره وأن يلجأ الى الانجليز[٥] • وخسر النيابيون معه معركتهم فنفضوا يدهم منها وانقلبوا الى ديارهم راشدين[٦] •

* * *

وقد دخلت مصر بالاحتلال الانجليزى الذى أعقب الثورة العرابية دورا جديدا من أدوار التطور الذى أخذت بأسبابه منذ نهاية القرن الثامن عشر ، اذ كان التيار الغربى ، الذى كان يؤثر فيها من خارج الحكم ،

(١) Wallace : The egyptian question (والاس « المسألة المصرية »)

(٢) « كان أعوان اسماعيل وتوفيق ممن لا يقيمون وزنا للشعوب • ومعاصروا اسماعيل يعتقدون أنه أراد بانشاء المجلس النيابى فى سنة ١٨٦٦ أن يعيد ديوان محمد على • وقد فكر بعد ذلك فى تحويله الى برلمان حقيقى حين فكرت انجلترا وفرنسا فى الغاء المقابلة » • « تاريخ الشيخ محمد عبده » • انظر أيضا Broadly : How we defended Arabi

(٣) وقد أقر اسماعيل بنفسه فى سنة ١٨٧٨ أن ادارته ما زالت ادارة افريقية ووافق على اقتراحات ويلسون باصلاحها •

(٤) « تاريخ محمد عبده » • ووالاس يقول ان عرابى كان رجلا سليم النية وانه تنازل عن مشاريعه القومية عند أول اخفاق صادفه •

(٥) والاس •

(٦) عبد الرحمن الرافعى •

يعمل فيها من داخله أيضا ، بعد أن انتقلت السلطة العامة من الولاة الى ممثلى أكبر دولة تستطيع أن تمثل هذا التيار وهى انجلترا . وكانت هذه السلطة تنتقل حينئذ الى الأيدى الجديدة فى أوسع ما بلغته من حـدود ، وترتكز من طريقها على سـطوة امبراطورية قوية ، أقوى امبراطورية عرفهـا العصر الحديث . ولكن هذه الامبراطورية كانت تواجه فى البلاد خصوما ثلاثة : كانت تواجه معارضة الدول الكبرى التى هبطت الوادى باسم الذود عن مصالحها وعلى رأسها فرنسا ، وتواجه برم العرش الذى قدمت بحجة تثبيته ، وتواجه سخط المحكومين الذين كانوا يقومون فى ذلك الحين بالذات بأول المحـاولات الواعيـة للاشتراك فى حكم نفسهم . وقد كان من شأن معارضة الدول تلك أن بقى مركز انجلترا فى مصر دون سند قانونى صحيح(١) وان اتجهت السياسة الفرنسية فى القاهرة الى الأخذ بيد الحركة الاستقلالية المصرية . كما كان من شأن تناطح صاحب السلطة الشرعى ومزاوليها غير الشرعيين أن جعل كل من الطرفين يجهد جهده فى تثبيت جذوره فى ميدان صراعهما المشترك واثارة الغبار فى وجه الآخر ، والبحث عن الأعوان بين أهل البـلاد . ومن ثم كان الدور الذى لعبه الخديو عباس فى حركة مصطفى كامل وكان التجاوب الذى حدث بين حـزب الأمة ولورد كرومر . كذلك كان من شـأن تزمر المجتمع المصرى الجديد أن ظهرت هـذه الحركة الوطنية المصرية التى بدأت بمصطفى كامل وما زالت تتأجج نارها حتى اليوم .

ونحن نشهد أثر هذا التحول فى الوجهة التى أخذتها حياة البلاد بعد الاحتلال فى جميع الميادين ولا سيما الميدان الاقتصادى . وقد سبق أن رأينا كيف تدهور الاقتصـاد المصرى تحت العثمانيين حتى كانت الصناعة حين هبط الفرنسيون الاسكندرية خليطا من حرف بدائية لا غناء فيها ، وكانت التجارة فى غالبها تجارة اقليمية محدودة . ورأينا كيف اتجهت سياسة محمد على فى هذا الميدان الى الاستغلال الحكومى والتركيز والدفع الى الأشكال الجديدة ، وكيف اضطر فى الجزء الأخير من حكمه الى الرجوع عن ذلك . ثم تولى سعيد واستجابت مصر من جديد الى التيارات الغربية فظهرت المشروعات الاقتصادية الضخمة والاتجاه

(١) وهو أمر دهش له اللورد لويد جورج فيما بعـد . انظر Egypt since Cromer.

الى انفاذها بمنح امتيازات الاستغلال للراغبين فيها ، وما انبنى على ذلك من اقبال رؤوس الأموال الأجنبية . ثم أتى اسماعيل فكانت سياسة انشاء الشركات التى تشارك الحكومة فيها رؤوس الأموال الأجنبية هذه . وكان أبناء البلاد يقفون فى هذه الحالات جميعا بعيدا عن هذا الميدان ، بعد أن فقدوا خبرتهم به أيام العثمانيين ، وهبطوا بما كانوا يزاولونه منه الى المستوى البدائى الذى كانت عليه حياتهم الاجتماعية فى نهاية القرن الثامن عشر ، ثم قضى على كل احتمال لمقاومتهم باختفاء الهيئات التى كانت تجمع بينهم فى صدر القرن التاسع عشر(١) ، وتحولهم الى اجراء للدولة الجديدة ، وبقى الميدان الاقتصادى مقصور على عمل الحكومة ونشاط ممثلى الاقتصاد الغربى .

ونحن نعثر بطلائع هذا النشاط فى مصر منذ الصدر الأول من القرن الثامن عشر فيما نعلمه عن اقبـال عليه المجتمع المصرى على استيراد الفاخر من ثيابهم وأثاثهم وأسلحتهم من الخارج وارتفاع عدد المهاجرين بين تجار الأسكندرية والقـاهرة ، وظهور الأجانب فى مصانع الأسلحة ببيوت الأمراء المماليك قبيل الحملة الفرنسية ، ثم اتصال سياسة على الكبير الاقتصادية بسياسة حكومة البندقية ، وفتح الانجليز طريق البحر الأحمر على أيام أبى الذهب ، واحتياج محمد على الى الفنيين الأجانب فى كل ما أخذ به من أسباب التعمير ، وشعور عباس وسعيد واسماعيل بنفس الحاجة(٢) . وقد اشتد هذا النشاط بعد ذلك وتغلغل فى سائر فروع الاقتصاد المصرى حتى صار هذا الاقتصاد جزءا مكملا للاقتصاد الغربى قبل أن يكون شيئا آخر . فلم تنشأ سكة حديد السويس كما رأينا الابغية تسهيل المواصلات البريطانية مع الهند ولم تشق قناة السويس بعدها الا لسد حاجات التجارة العالمية . وظهرت البيوتات المالية الكبيرة فيما بعد، فكان أكبر عمل لها هو تزويد الأسواق الأوروبية بالخامات المصرية . وكانت البلاد توجه حينئذ انتاجها تبع حاجات هذه الأسواق قبل كل شيء فتزرع القمح اذا أرادت هذه الأسواق قمحا ، وتزرع القطن اذا

(١) نقصـد بهـذه الهيئات الطوائف التى كان ينتظم فيها التجار والصناع والتى حلتها الحكومة فى الصدر الأول من القرن التاسع عشر أمين سامى : « تقويم النيل » . ونحن لانجد فى مصر بعد وفاة المحروقى تاجرا واحدا يشغل المركز الذى كان يشغله فى الحياة الاقتصادية .

(٢) ارتفع تعـداد الأجانب فى مصر سـنة ١٨٧٦ الى ١٠٠ ألف . فريسينيه .

أرادت هذه الأسواق قطنا ، وتربح أو تخسر تبعا لنزوع أو سقوط أثمان محصولاتها هـذه فيها[1] • وقد زار سعيد انجلترا فطلب اليه رجال الأعمال من الانجليز أن يزيد فى زراعة القطن وزارها اسماعيل من بعده فقابله ممثلو الصناعة الانجليزية واحتجوا على عدم اهتمام حكومته بتيسير اصدار الخامات المصرية اليهم[2] • وكانت الأزمة التى انتهت بخلع اسماعيل أزمة مالية قبل أن تكون أزمة سياسية ، كما كان أول مظاهر السياسة الانجليزية والفرنسية ازاءها هو المطالبة بتعيين فرنسى وانجليزى بوزارتى المالية والأشغال ، وهما وزارتا الاستغلال المالى فى ذلك الوقت.[3] وحدث كل هذا حدوثا هينا وبنفس الشكل الذى كان يحدث به فى ذلك الوقت بالذات فى تركيا وتونس وفارس والبلاد الشرقية الأخرى[4] ولا بد أن يحدث به كلما اتصل اقتصاد زراعى

(١) ولا تزال هذه الظاهرة واضحة الى الآن فى محصول القطن .
(٢) محمد صبرى .
(٣) « مصر للمصريين » للنقاش .
(٤) وانتشار هـذه الظـاهرة فى أكثر من ولاية عثمانية وفى تركيا نفسها فى وقت واحد ثم تشابه أجزاؤها فى هذه البلاد جميعا وانتهاؤها الى نفس النتائج الاجتماعية والسياسية يبين لنا كم يشط الذين كتبوا تاريخ مصر فى ذلك العصر حين يرجعون بها الى اسراف الحكام واعوانهم أو الى سياسة أوروبية محكمة طويلة الأجل لم يكن ساسة أوروبا أهلا لها يوما الا فى حسن ظنهم (عبد الرحمن الرافعى ومحمد صبرى) .
ونحن نقرأ فى بحث للاستاذ أحمد أمين بالعدد ٣٢٧ من مجلة الثقافة (٣ أبريل سنة ١٩٤٥) فى حياة خير الدين باشا التونسى وصفا للحالة المالية والاجتماعية فى تونس فى القرن التاسع عشر ، من الخير أن يقرأه كل من لايؤمن بهذا الرأى . فهو يقول :
« وعماد أهلها (أهل تونس) الفـلاحة ، وآلاتها وأساليبهـا هى بعينها ما كانت عليه فى القرون الأولى قبل الاسلام وقبل الرومان ، وساهم بعض الاوروبيين فى الزراعة ، فطعموا الأشجار وبخروها ولقحوها ، فدرت عليهم من الأرباح ما لم ينله سكان البلاد . ثم قبض هؤلاء الأجانب على الأسواق الخارجية ، وخاصة فى أكبر غلة للبلاد ، وهى زيت الزيتون ، فمن ناحية أنشئوا المعاصر التى تدار بالبخار ، ومن ناحية وضعوا أيديهم على ما ينتجونه وما ينتجه الأهالى واحتكروا التجارة الى الخارج الا القليل النادر من أهل البلاد . وكان التونيسيون يصنعون نوعا من النسيج اسمه « الشاشية » وكانت مصانعها كثيرة ، وكانت مصدر رزق لكثير منهـم ولكنها كانت تصنع بالآلات القديمة ، فلما تقدمت الصناعة فى أوروبا ، وكانت الآلات تدار بالبخار وتنتج انتاجا كثيرا حتى من الشاش هذا رخص سـعره ، وأصيبت الصنـاعة فى تونس بضربة قاضيـة حتى لم يبـق من مصانعها التى تبلغ الألف غير ثلاثين ، وناهيك بما يجره ذلك من الفقر والخراب ، كما زاحمت « الجزمة » « البلغة » وقضت عليها ، واختل الميزان

متأخر باقتصاد صناعى حديث[1] .

التجارى فكثر الوارد وقل الصادر وتغلب الفرنساويون والايطاليون على السوق وأمسكوا بزمامه ... »
« ... وأما ادارة البلاد ففوضى أى فوضى ، فالحاكم حاكم بأمره ، وأحب الناس اليه من يجمع له من حله وحرامه ، ولا ضـبط فى دخل ولا خرج ، والعدل والظلم متروكان للمصـادفات ، فان تولى بعض الأمور عادل عدل ، وكان العدل موقوتا بحياته — وقلما يكون — ونظام القضاء والجيش والادارة والضرائب وجباية المال وانفاقه على النمط العتيق البالى وكثير من الأمور تنفذ بالأوامر الشفوية، لا مرجع لها ولا يمكن الحساب عليها.
وكانت تونس اذ ذاك تحت حـكم البايات ، والبـاى فى تونس لقب كالخـديو فى مصر وكان البـاى يتبع الدولة العثمـانية تبعية ضعيفـة ، فيساعدها فى حروبها ويحمل اليها مقدارا من المال وكثيرا من الهدايا ، واذا حدث مشكل دولى فى تونس تدخلت الدولة العثمانية لفض النزاع ، وأرسلت مندوبا من قبلها ليشرف على الحل ونحو ذلك ، أما فيما عدا هذا فولاية تونس شبه مستقلة والباى حر التصرف .
ولـكن فرنسا كانت قد استولت على جارتهـا « الجزائر » ووضعت نصب عينيها أضعاف علاقة تونس بالدولة العثمانية شيئا فشيئا وتوثيق علاقاتها هى بها شيئا فشيئا وانتهاز الفرص للتغلب عليها نهائيا .
وكان باى تونس الذى ملك خير الدين هو الباى أحمد باشا الذى كان واليا من (١٢٤٣ — ١٢٧١) وقد أنعم عليه السلطان محمود بالخلعة السنية ورتبة المشيرية . ونحن نعلم أنه فى عهد السلطان محمود هذا ألجأته الظروف القاسية ، وضغط أوروبا ومطالبها وضعف حال دولتـه الداخلية ، الى أن يجتهد فى تنظيم الدولة على أسس جديدة يقتبس فيها من نظم اوروبا وقوانينها وادارتها .
وكان مما فعل أن أرسل الى الباى أحمد هذا يطلب اليه أن يدخل الانظمة الحديثة فى تونس وخاصة فى الجيش فطلب الباى الامهال قليلا والتدرج فى التغيير بسبب عادات البلاد وتقاليدها وعقليتها ، ثم أخذ فعلا فى تنظيم الجيش ... »
« وما زال مصطفى خزنة دار يستنزف موارد البـلاد حتى نضب معينها فاتجه الى أوروبا يستدين منها وفى أقل من سبع سنوات بلـغ الدين ١٥٠ مليون فرنك ... »
ويصف المؤلف الأزمة المـالية فى تونس وهى لا تعـدو ما حدث فى مصر ثم يقول :
« ومن ناحية أخرى تدخلت الدول الأوروبية تريد المحافظة عـلى ديونها واقترحت فرنسا تشكيل لجنة مالية ووافقتها انجلترا وايطاليـا وصدر مرسوم من الباى سنة ١٢٨٦ هـ بتشكيلها من فرنسيين وانجليز وايطاليين ويرأسها موظف تونسى وجعلت مهمتها توحيد الدين وتحديد الفوائد وادارة المرافق التى خصصت لهذا الدين.. » تماما كما حدث فى مصر.

(١) يونج : « مصر منذ عهد المماليك » . وهو يلاحظ ان الافلاس الذى انتشر فى الدول الشرقية حينئذ كان ظاهرة من ظواهر انتقالها الى النظم الغربية .

وقد اتسع هذا النشاط بعد الاحتلال الانجليزى فشمل أدوار الانتاج والتوزيع جميعا • وكثر المشتركون فيه فصاروا يعدون بمئات الآلاف بعد أن كان عددهم لا يزيد على بضع مئات ، أول حكم محمد على • وارتفعت رؤوس الأموال الأجنبية الموظفة فى مصر فبلغت ٧ر٦٣٢ر٠٠٠ جنيه فى سنة ١٨٩٢ و ٦ر٢٨٠ر٠٠٠ جنيه فى سنة ١٩٠٢ و ٨٧ر١٧٦ر٠٠٠ جنيه فى سنة ١٩٠٧ و ١٠٠ر١٥٢ر٠٠٠ جنيه فى سنة ١٩١٢ ، فيما عدا الدين العام ورأسمال شركة القنال • وكانت ثلاثة أرباع هذه الأموال تشتغل بالاستغلال الزراعى والعمليات المتصلة به من توزيع وتصدير ، بينما كان الباقى يشتغل بالخدمات اللازمة للمجتمع القائم على هامشه من نقل واضاءة الخ ... ، وتبعث حركة تصدير ترتفع قيمتها فى سنة ١٩١٢ الى ٣١ر٦٦٢ر٠٠٠ جنيه ، بلغت نسبة القطن فيها ٩٣٪ ، وحركة استيراد ترتفع قيمتها فى سنة ١٩١٣ الى ٢٧ر٨٦٥ر٠٠٠ جنيه ، استنفدت غالبها المنسوجات والمنتجات المعدنية ، وتوجه بذلك اقتصاد البلاد نحو التوسع فى الاستثمار الزراعى والاعتماد على الاستيراد فيما يتعلق بالمنتجات المصنوعة[1] •

وهذا النشاط الاقتصادى يتركز فى يد العناصر الأجنبية التى تموله وتشرف عليه وتنهض بشئونه جميعا فيما عدا الأعمال البسيطة التى لا يمكن جلب من يقوم بها من الخارج جلبا اقتصاديا • وغالب هذه العناصر من أنشط من نشأ فى الغرب من تجار وصناع وفنيين زاولوا مهنهم فى أشد من ظروف مصر ، أى هى العناصر التى كانت تنقص المجتمع المصرى بعد أربعة قرون من الحياة الزراعية المغلقة • وهذه العناصر تحتفظ بعد هبوطها البلاد بدينها ولغتها وعاداتها فتقوم بذلك بينها وبين المجتمع المصرى طبقة عازلة تفصل بينهما • ويزيد من صفاقة هذه الطبقة استئثار هؤلاء الأغراب مع قلة عددهم[2] بالثروة المنقولة وقنوع أهل البلاد بالثروة الزراعية ، اذ يتأثر وضع كل من المجتمعين بطبيعة الاقتصاد الذى يزاوله ، فيكون المجتمع الأجنبى مجتمعا مدنيا رخى الحال خفيف الحركة رائق الاشكال ، ويكون المجتمع الوطنى مجتمعا زراعيا محدود الربح

(١) كروشلى • وكانت نسبة مساحة زراعة القطن من المساحة المزروعة جميعا حينئذ ٢٢٪ وتأتى مباشرة بعد المساحة المزروعة ذرة •

(٢) عدد الأجانب فى مصر حسب تعداد سنة ١٩٣٧ : ٥١٥ر١٨٦ نسمة •

بطىء الحركة متواضعا ، ويبلغ هذا الاختلاف حد أن تتأثر به النظم العامة أيضا فتكون للأجانب قوانين ومحاكم وادارة خاصة تكتسب من شدة القاهرة التى لفظتها واستنادها الى النفوذ السياسى الأوروبى حيوية بارزة وتصير بذلك لسانا أوروبيا ممتدا فى صميم المجتمع المصرى •

وقد كان المجتمع المصرى يتكون فى سنة ١٨٨٣ من ٦ر٨٠٤ر٠٣١ شخص لا يكادون يعرفون غير الزراعة ، فصار ٢ر٢٥٨ر٠٠٥ منهم يعملون فى سنة ١٩٠٧ فى الزراعة و ٣٥٦ر٤٢٥ يعملون فى المرافق العامة و ١٣٥ر٦٤٥ يعملون فى التجارة و ١٠١ر٠٣٦ يعملون فى النقل • وكان غالبه يعمل أجيرا لدى الدولة أول حكم اسماعيل ، فتكونت له طبقة من أثرياء الملاك لا يقل عددها فى سنة ١٩١٣ عن ٤٠ ألف شخص ، وظهرت على سطحه طبقة من مزاولى الأعمال الحرة بلغت عدتها فى سنة ١٩١٣ ١٣٥ر٧٣٣ شخص[1] • وكان ينتشر فى الريف ولا تكاد تقوم له فيما عدا القاهرة والاسكندرية مدن حقيقية ، فأخذ يتجمع عند عقد المواصلات ومراكز التصدير والاستيراد فى القاهرة والاسكندرية والمدن الأخرى ، وينشىء بها حياة حضرية تحمل ميسم طبيعته الزراعية هذه وأثر التيار الجديد الذى يعمل فيه • ففى هذه المدن يلتقى أبناء البلاد من ريفيين وحضر قريبى العهد بالريف من مستخدمى المنشآت التجارية الجديدة وموظفى الادارة الحكومية ومزاولى الأعمال الحرة بأولئك الأجانب الذين قدموا البلاد ليعملوا فيها ، وكانوا يعيشون الى جانبهم ويعملون معهم فى ميدان الانتاج • وهم ينكرون هؤلاء الأجانب وينظرون اليهم شذرا ويحذرونهم[2] اذهم يشعرون بضآلة الدور الذى يقومون به فى ميدان

(١) كروشلى •

(٢) « ان الذى يسمع أحاديث الاجانب وراء ظهورنا يعجب من هؤلاء الذين عاشوا بيننا عشرات السنين ولم يفهمونا ، بل لم يحاولوا أن يفهمونا فالأجانب فى مصر خائفون من نيات المصريين ، يتصور بعضهم ان استقلال مصر التام خطر عليهم وأنه لولا جيش الاحتلال لما بقى عندنا أجنبى على قيد الحياة وأنه اذا خرج الانجليز من مصر فسيقوم المصريون قومة رجل واحد ويذبحون الاجانب أجمعين !!!

هذه الصورة البشعة التى يهمس بها بعضهم فى آذان بعض وفى آذان كبار الأجانب الذين يزورون مصر أو زاروها أثناء الحرب ... »

« ... والذى يجب أن يفهمه الأجانب هو أن المصريين لا يكرهونهم بل أنهم يؤمنون بما أداه بعضهم لمصر من خدمات جليلة ، ويعترفون

هذا التعاون المشترك وينفسون على هؤلاء الأغراب حياتهم هذه الأنيقة ويرون فى نشاطهم الصناعى – التجارى وأرباحه السريعة ابتزازا لكدهم ومالهم ليس بعده ابتزازا • وقد يزيد من ألم شعورهم هذا اشتراك باعثيه فى المسيحية تلك التى كانت لا تزال فى نظر السواد الأعظم منهم عنصر التفريق بين المجتمعات ثم مشاركتهم فى المصالح والتفكير أولئك الغاصبين من الانجليز الذين كانوا يزاولون السلطة العامة حينئذ • كذلك يشعر الأجانب بعلو شأن الدور الذى يشغلونه ويصعب أن يشغلوا مثله فى بلاد استكملت نظمها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ويجتهدون فى الذود عن المراكز التى نالوها بذلك الاستهتار الذى يثيره الشعور بضعف المنافسين والقيام فى بلاد غريبة لا رقيب فيها من السلطة العامة أو البيئة الاجتماعية وشىء من العداء الدينى والعنصرى لا شك فيه أيضا • ولكنهم يتفاعلون بحكم قيامهم جنبا الى جنب وخضوعهم جميعا لأثر البيئة الطبيعية المشتركة ، فيتأقلم الأجانب خصوصا المستوطنين منهم حتى يكادوا يضيقون بالاقامة فى بلادهم اذا عادوا اليها ويسيرون على كل حال الى اتخاذ عادات المجتمع الوطنى والتحدث بلغته والاندماج فيه • ويتجه المصريون الى الأخذ بأساليب الحياة الغربية عن رغبة فيما لهذه الحياة من رونق يروقهم ، ويبعدون فى ذلك قبل أن يكمل تحول حياتهم الى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التى تبعث هذه الأساليب ، فيسقطون فى التفرنج وهذا الاختلاف العنيف بين الحياة فى المنازل والحياة خارجها ، ثم ما يلحظ الآن على الجيل الجديد من تكالب على الربح العاجل لمواجهة

بفضل كثير منهم على الصناعة والتجارة فى مصر ، ونحن نرى أن هؤلاء من حقهم ومن واجبنا نحوهم أن نفسح لهم الطريق وأن نعاملهم كأنهم منا ... »

« ونقطة الخلاف الوحيدة هى أننا نرغب فى أن يكون الأجانب كالمصريين سواء بسواء ، لهم حقوقنا وعليهم واجباتنا ، ولكننا لانقبل أن تكون الحقوق لهم والواجبات علينا !! ولا نرضى أن يجعل الأجنبى ملاذة السفارة البريطانية لا الحكومة المصرية ونرفض أن يعد هؤلاء الكتابة باللغة العربية تعصبا وهمجية ورجوعا الى القرون الوسطى .. ونأبى أن يرى المالطى نفسه من جنس أعلى من الجنس المصرى ، ونعجب عند ما نسمع أن المصرى المتعلم الذى قضى سبعة عشر عاما فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية وحصل على أرقى الشهادات لا يساوى مرتبه فى شركة أجنبية مرتب أجنبي قضى عامين فى مدرسة ابتدائية ولا يعرف سوى أن يرطن بلغة أجنبية » . « لسنا متعصبين » : أخبار اليوم ٧/٧/٤٥ .

مقتضيات الحياة العصرية ومخلفات الحياة القديمة وبخاصة قلة الدخل الزراعى وكثرة نسل العائلة الزراعية وثقل التزاماتها [1] .

وهذا التفاعل بين المجتمع المصرى والمجتمع الغربى سريع بين غير المسلمين من أبناء البلاد والشرقيين النازلين عليهم ، بطىء بين المسلمين ، وهو بين الفريقين أنشط فى محيط المتعلمين والمشتغلين بالحياة الصناعية والتجارية منه بين من عداهم • والأمر فى الحالة الأولى أمر التجاوب الدينى ، فالمصرى والشرقى المسيحى عموما لذلك العهد أقرب الى الأجنبى المسيحى منه الى المصرى أو الشرقى المسلم ، وفى الحالة الثانية أمر الاستجابة للظروف الاقتصادية والاجتماعية التى تصحب الحياة الصناعية الحديثة حيثما وجدت . وهو فى الحالتين مصدر هذه الحياة المهلهلة التى نجدها لعهدنا هذا خصوصا فى المدن الكبرى ، حيث تقوم هذه الدور العصرية ، التى لا تختلف فى شىء عن دور مدن الغرب ، الى جانب البيوت المتواضعة التى تمثل مجتمعا آخر قبل أن تمثل عدم مساواة اجتماعية حقيقية ، وتلتقى أحدث الأزياء العصرية بأزياء الشرق القديم وتختلط العربية باللغات الأجنبية فى كل مكان .

ولم تكن السياسة المسيرة لهذا المجتمع تبدى الى بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ما من شأنه الخروج به من هذه الأوضاع السقيمة الى حياة كاملة يحياها لنفسه فاتجاهها العام طوال القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين اتجاه زراعى يرمى الى تنمية المحصولات الزراعية التى يمولها الغرب كما يشاء ويشتريها بالأسعار التى يريد [2] ثم يبيع أصحابها ما يحتاجون اليه منها بعد أن يحولها الى منتجات مصنوعة • وهى تقصد بصفة عامة الى تثبيت أهل البلاد فى وضعهم وقتئذ من المجتمع الغربى بتضييق آفاقهم وابعادهم عن مقومات الحياة الحديثة وتشويه ماضيهم التشويه الذى يلقى فى روعهم أنهم لم يكونوا قط غير ما كانوا أو خيرا مما كانوا • وهكذا كان القطن المصرى يزرع

(١) والذين تصدوا لتشريعنا الاجتماعى أهملوا حتى الآن هذه الظاهرة أى ظاهرة قيام العامل أو الموظف عادة بالصرف على أسر عديدة يكاد يكون الوحيد الذى يعمل فيها ، ومن ثم كان اتجاههم لرفع الأجر بدل الاكثار من العمل .

(٢) أنظر : A.A.I. El Gritly و T. Rothestein: Egypt's ruin, Structure of Modern Industry in Egypt فى عددى نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٤٧ من « مصر المعاصرة » .

ويصدر الى حد كبير بأموال انجليزية ، وكانت معاهدنا الحديثة تقوم الواحد بعد الآخر بالرغم من معارضة الحكام ، وكان تاريخنا القديم والقريب وما زال يُدرّس فى مدارسنا تدريسا بادى التشويه واضح الأغراض .

وليس يعنينا هنا أن نستوضح هل كانت هذه السياسة تصدر عن ارادة مبيتة لابقاء مصر فى الوضع الذى كانت تشغله من النظام الاقتصادى – السياسى الانجليزى أو تنبعث عن خطأ فى تقدير الحكام أو ترجع للظروف المالية التى كانت عليها مصر فى القرن التاسع عشر ، ولا الى شىء عداها ، فاننا كما بينّا نردها فى الأصل الى الفروق التى وجدها الشرق والغرب بينهما حين عادا الى الالتقاء فى القرن الثامن عشر . المهم عندنا هو أن دخول انجلترا مصر أعقبه اتساع فى التيار الغربى الذى كان ينفخ فى أطرافها منذ القرن الثامن عشر ، وأن انتقال السلطة الى يد الانجليز صحبه الاتجاه بالنمو الذى كانت تمضى فيه ، سواء بقواها الخاصة أو بدافع هذا التيار ، الى خدمة المجتمع الغربى الى حد بعيد ، وأن العامل الأكبر الذى كان يتسلح به التيار الغربى ، سواء حين اتخذ شكل النفوذ السياسى أو شكل التأثير الاجتماعى ، كان العامل الاقتصادى الذى كان ينقص المجتمع المصرى حينئذ بحكم الظروف التى أحاطت به تحت المماليك .

وقد ظل المجتمع المصرى محتفظا بطابعه الزراعى ذلك حتى قبيل الحرب العالمية الثانية اذ ظهرت صناعة الغزل والنسج والصناعات الأخرى التى شهدنا ازدهارها أثناء هذه الحرب وتشهد كفاحها الآن . وهى صناعات تختلف عن ما عهدته مصر فى القرن التاسع عشر من حيث قيامها كثمرة من ثمرات التفكير الاقتصادى الفردى فلم تكن ضرورة من ضرورات الحرب أو المالية العامة كصناعات محمد على أو صورة من صور النشاط الحكومى كغالب صناعات اسماعيل . واحتوت على جناح مصرى بحت هو جناح بنك مصر وشركاته . ولكنها تشاركها فى قيام غالبها برؤوس أموال أجنبية وتركز ادارتها وقواعدها الفنية الى حد كبير فى يد ممثلى رؤوس هذه الأموال .

وهذا التوسع الصناعى يتضافر وانتشار التعليم ، ثم استعادة البلاد سلطتها التشريعية فى سنة ١٩٣٦ ، وما انبنى عليه من خضوع الجاليات الأجنبية التى تشتغل بهذا النشاط لنفس القوانين التى تنظم حياة بقية المجتمع ، الى دفع ظاهرة التفاعل بين الحياة المصرية والحياة الغربية ، التى أشرنا لها ، الى الانتشار وانشاء طبقة صناعية جديدة تتكون — فى الأسفل من عمال وموظفين يبلغون فى سنة ١٩٣٧ ، ٣٧٩ر٠٣٧ عاملا وموظفا ، ويرتفعون فيما بين سنتى ١٩٣٩ و ١٩٤٥ الى نحو مليون — وفى الأعلى من طاقة من الفنيين وأصحاب المصانع والشركاء فى الشركات المختلفة . وهذه الطبقة الجديدة لا تزال تتذبذب بين التكوين الزراعى الذى نشأت عليه والتكوين الصناعى الذى تتجه اليه ، فغالب عمال الصناعة يأتون من الريف ويترددون عليه ويتزوجون منه وقد يعودون اليه أيضا ، وغالب رجال الأعمال ينحدرون من أصل زراعى ويجمعون بين الأعمال الصناعية والزراعية فى وقت واحد ويهتمون بهذه أكثر مما يهتمون بتلك عادة . ومن هنا صدى العقلية الزراعية لدى العمال وأصحاب الأعمال على السواء ، وميوعة العقلية الصناعية لديهم ، وقلة من يدعون « بالمقاولين »[1] ، نقصد أصحاب المشاريع الصناعية والتجارية الحقيقيين بينهم ، وقنوعهم فى الغالب بتوظيف بعض أموالهم فى الصناعة أو التجارة . وهذا التكوّن القلق لعقليتنا الصناعية يتضافر وقلة عدد الذين يحملونها فى الحد من تأثيرها فى الحياة العامة . ونحن نشعر الآن فى المدن بوجود عمال الصناعة ونكاد نشعر به فى الريف أيضا لما يحدث من اتجاه الشباب الريفى الى المراكز الصناعية ونشهد ظهور طبقة من موظفى المؤسسات الصناعية والتجارية فى دور التكوين . كما نجد فى مجالس المنشآت أسماء مصرية غير قليلة ولكننا لا نجد أثرا لكل ذلك فى تكوّن الطبقة الحاكمة أو اتجاهاتها ؛ فالغالبية الساحقة من أعضاء هيئتنا التشريعية زراعيون ، ومن النادر أن نجد وزيرا غير زراعى أو حقوقى أو موظف سابق ، قد يكون له نصيب كبير أو صغير فى منشأة صناعية ولكنه مازال زراعيا تكوينا ومصلحة واتجاها .

(١) entrepreneurs.

وهنا نضع يدنا على خصلة هامة من خصال مجتمعنا الحديث ، فهو كما رأينا مجتمع زراعى يتجه الى الاقتصاد الصناعى . ولكن هذا الاقتصاد الصناعى الذى ينتهى الى مشاركة التجارة الخارجية فى التحكم فى حياة البلاد الاقتصادية جميعا ، اذ هو الذى يشترى محصولات الأرض ويحولها ويلقيها الى الاستهلاك ، وهو الذى يعول بالضرائب التى يؤديها مرافق حياتها الجديدة ، وهو الذى يعطى عملا لمن يزيد عن حاجات العمل الزراعى ، هـذا الاقتصاد مازال يتركز فى أيد أجنبية تقوم بينها وبين المجتمع الوطنى حدود من الفوارق الجنسية والدينية والفكرية . وهو بحكم وضعه هـذا يؤثر فى المجتمع الوطنى من حيث المشاركة فى تنمية ثروته واعداد عناصره الصناعية وتجديد حياته ولكنه لا يؤثر مباشرة فى الحكم ولا يشترك بالتالى فى وضع التشريع الخاص به لأنه لا يتمتع بالحقوق السياسية ولا يعقل أن يتمتع بها فى دولة حـديثة تقوم على التفريق القومى .

* * *

وقد عاد الحكم الى أبناء البلاد بمعاهدة سنة ١٩٣٦ المصرية الانجليزية بعد الكفاح السياسى الذى بدأ بمصطفى كامل .

ومصطفى كامل[١] من بيئة على مبـارك[٢] ، تقصـد من ثمرات العهد الجديد ، فهو ابن مهندس تربى فى المدارس الأميرية وخـدم فى الجيش واختلف هو أيضا الى المدارس الأميرية فلم يتصل بالأزهر صغيرا أو كبيرا ثم التحق بالمعاهد الفرنسية فى القاهرة ثم فى فرنسا . وقـد رأينا كيف كان الجيش المنبت الأول للفكرة المصرية[٣] ونحن نعلم أن الخديو عباس ما كاد يرتقى العرش حتى أنشأ يهيج طلبة المدارس الأميرية على الانجليز وقرّب اليه مصطفى كامل ولم يقطع صلته به حتى غادر

(١) على كامل : « مصطفى كامل » .

(٢) كان طلبـة المدارس حينئذ يترددون على على مبـارك . المرجع السابق .

(٣) كان والده يتحدث اليه فى شئون مصر وتاريخها وأبطالها . المرجع السابق .

كرومر مصر[١] . كذلك نعلم أن مصطفى كامل كان وثيق الصـلة بممثلى فرنسا فى الوقت الذى كانوا يعلمون فيـه فى مصر على معاكسة السياسة الانجليزية[٢] .

ونحن نرى أثر تربيـة مصطفى كامل بالمدارس الأميرية والمعاهد الفرنسية فى تفكيره والوجهة التى اتخذتها حركته . فهو بلا منـازع أول مصرى اكتمل لديه الوعى المصرى وأدى هـذا الوعى تأدية من يشعر بمعناه شعورا لا تردد فيه ، وان ظل يتمسك بفكرة الوحـدة العثمانية التى كانت تعتمد عليها سياسة الخديو عباس حينئذ ويجهد فى الملاءمة بينه وبين هذه الفكرة فى كتاباته وأحاديثه مع من يتصل بهم

(١) « الاسلام والتجديد فى مصر » .

« ... لقد كنا سبعة : الخديو ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ولبيب محرم (أخو عثمان باشا محرم) وسعيد شينى ومحمد عثمان (أبو أمين عثمان باشا) وأنا — فكوّنا تحت رعاية الخديو عباس جمعية سرية فى بادىء الأمر — وكانت هذه الجمعية هى الحزب الوطنى . كانت الكلمة فى تحرير مصر يومئذ فى يد أوروبا على العموم ، وفرنسا على الخصوص ، ومن أجل هذا قرر الحزب أن يوفدنى الى سويسرا لمحاولة الحصول على الجنسية السويسرية (التى كانت تكتسب بقضاء سنة فى سويسرا) . وكان الغرض من الحصول على الجنسية السويسرية أن أعود الى مصر وأقوم بتحرير صحيفة تحميها الامتيازات الأجنبية » . لطفى السيد : « حديث للطفى السيد باشا » . « اللواء الجديد » العدد ٥ فى ١٩٤٤/١٢/١٠ .

« ... حدثنا سموه يوما بمونترو — وقد استمع الى الحديث معى اثنان من رؤساء الوزارات فى البلاد العربية لا يزال أحدهما على قيد الحياة وهو الآن بالقاهرة — عن ذكرياته الأولى فقال :

« تملكتنى وأنا عائد من النمسا على أثر وفاة والدى فكرة واحدة هى فكرة انقاذ الوطن من غاصبيه . وكنت أردد فى نفسى أن والدى اذا كان يحسب أنه مدين للانجليز بمناصرته على « العرابيين » فانى لا أدين لهم بشىء على الاطلاق ، اذ اتولى الحكم بحق الوراثة وبفرمان من الباب العالى ولا علاقة لهم البتة بالاثنين ، انما أنا أحب بلادى وأريد لها الحرية والسيادة . ولما وصلت الى مصر اتجهت الى الجيش اعتمد على ضباطه وأشير الى شدة اتصالى بهم واتخاذى اللباس العسكرى لباسى العادى ، ولما أفلت الضباط من يدى اذ دخلوا الماسونية الايقوسية التى كان يرأسها السردار تحولت الى الشـباب فلبست اللبـاس المدنى وقربت منى مصطـفى كامل ولجنتـه السرية التى كنت أجتمع بها ليلا فى مسجد بناحية سراى القبة » . محمود عزمى : « عباس حلمى الثانى » . جريدة المصرى ١٩٤٤/١٢/٢٣ .

(٢) « الاسلام والتجديد فى مصر » .

من ساسة غربيين (١) . وهو يعتمد على فرنسا فى محاولة استخلاص مصر من الانجليز ويأخذ من الفرنسيين أسلوبهم فى نقد هؤلاء ولا يكف عن ذلك حتى يرى بعينيه تخلى الفرنسيين عن القضية المصرية . وهو الى ذلك أول مفكر مصرى نقرأه فنكاد لا نجد له الا ثقافة غربية (٢) ، يختلف حظها من العمق والاتساع ولكنها غربية فى جوهرها وطابعها . فهو يطرق الأبحاث القانونية فيكتب فى « الادارة » و « الرق عند الرومان » . ويريد أن يفيد بمجلته المدرسية فيغمرها بالبيانات عن أوروبا والطرائف المقتطفة من المراجع الأوروبية . وهو يخطب وينشىء فلا ينسى أن يقول أن أوروبا فيها هذا وفيها ذلك . وهو يكتب الى أخيه برغبته فى دخـول مدرسة الحقـوق الفرنسية فيقول له انها مدرسـة « الحرية » ومن « صنع فرنسا » ، ثم يكثر من الكتابة فى معنى الوطنية وينشر الأناشيد التى تمجدها ويذكر حق المحكومين فى اسقاط الحاكمين ويريد أن يكون حكم البلاد الى الأذكياء المتعلمين من أبنائها . وهذه جميعا أفكار جديدة لاشك انها أو أن لهجتها على الأقل ليست من نتاج التربية الشرقية الخالصة فى ذلك الحين .

وتربية مصطفى كامل هذه الجديدة تنتهى به الى تصور أوروبا وعلاقتها بالشرق والوسائل القمينة بسد الفراغ القائم بينهما تصورا أقرب الى اتجاه مفكرى القرن العشرين منه الى اتجاه المفكرين الذين سبقوه . وهو يتحدث يوما الى على مبارك فى ذلك فيقول له آن تقدم أوروبا يرجع عنده الى العقائد السياسية التى تؤمن بها طبقتها الحاكمة وانصراف هذه الطبقة الى خدمة الشعب واثابتها الصالحين من أبنائه . ويكتب فى وصف له للقسم الشرقى من معـرض ليون الفرنسى فيقول : « أن للشرقى الذى يزوره أن يبكى بلاده وأوطانه ويندب بعد ذلك قومه وعشيرته ويأسف على بلاد ضاعت من أبنائها بالحقد والحسد وذهبت غنيمة الغرب

(١) اقرأ حديثه مع الأميرلاى بادنج فى « مصطفى كامل » لعلى كامل .

(٢) وقد انصرف بعد أن خاب أمله فى فرنسا الى دراسة تاريخ مصر والاسلام ولكن الوفاة أعجلته عن الابعاد فيها .

بسبب حب الذات المستحكم بين أهلها ودس الأجنبى » (١) . ثم يبدى الشك فى حكمه الاتجاه الغربى الذى أراده جيله لمصر ، فيقول فى وصفه ذلك أنه كلم حراس هذا القسم الجزائرين بالعربيـة « فسألونى عن تقليدنا للأفرنج فى الملابس ، فأجبتهم جوابا فى الحقيقة غير مقنع » . ونحن نلمس هنا أثر هذا التثقف بالثقافة الأجنبية دون أساس شرقى تستند اليه فى تفخيم الحياة الغربية لدى أصحابه ونرى الجـزع الذى مازال الاطلاع على حضـارة الغرب يبعثه فى نفس أجيالنا الجـديدة وما يصحبه من سعى لتعليل هـذه الحضارة بالفضائل الأخلاقية التى تنسب للغربيين حينا وحكمه حكامهم حينا آخر ثم ما يحيط بذلك من حيرة من شأن الطريق التى أخذتها مصر هل هى الطريق الصواب وماحكمة سلوكها على كل حال دون أية طريق أخرى .

وكما قام الحزب الوطنى مستندا أول أمره الى العرش نشأ حزب الأمة على صلة بوجود الانجليز (٢) . وقـد ورث حزب الأمة من الحـركة الوطنية التى سبقت الاحتلال مجافاتها الخديو ونزعتها الاصلاحية (٣) . وكان يتكوّن فعلا من أبناء الملاك الزراعيين الذين اشتركوا فى الحركة العرابية وبعض المفكرين المجددين ويتجه الى معالجة مشاكل البـلاد الاجتماعية بحكم صلة رجاله بمصالح البلاد المادية وهى مصالح كان تنظيمها لا يتعارض وقتئذ وسياسة الانجليز (٤) بينما كان نشاط الحزب الوطنى يتجه فى الغالب الى الدعاية الوطنية واستمالة الرأى العام الدولى بحكم صلته بسياسة الخديو وفرنسا وقرب عهد البلاد بالاحتلال (٥)

(١) وقد كتب فى هذا الدس رواية الاندلس عند ما اتجه الى درس التاريخ الاسلامى .

(٢) عباس العقاد : « قصة الأحزاب » أخبار اليوم ١٦/١١/١٩٤٦ .

(٣) وقد وضع حزب الأمة عند تشكيله برنامجا سياسيا على غرار برامج الأحزاب فى الخارج .

(٤) ومن ثم كان التجاوب الذى نشأ بين كرومر ومحمد عبده .

(٥) وكان هذا الاتجاه يبعد مصطفى كامل عن الوطنيين الآخرين كمحمد عبده وسعد زغلول . انظر رأى محمد عبده وسعد زغلول فى مصطفى كامل فى « الاسلام والتجديد فى مصر » .

وقد حرم انقلاب السياسة الانجليزية ، بعد عزل كرومر ، من مناوأة السلطة الشرعية الى مصافاتها — حرم الحزب الوطنى وحزب الأمة من الدعاية الخارجية التى كانا يعتمدان عليها وتركهما لقواهما الخاصة ، فمال الحزب الوطنى الى انتقال الخديو واتجه حزب الأمة الى مهاجمة السلطة المحتلة واشترك الاثنان فى المطالبة بالحياة النيابية حتى خفت صوت الحزب الوطنى بعد وفاة الرجلين اللذين قام على أكتافهما وتحول حزب الأمة الى حزب الوفد ، عقب الحرب العالمية الأولى ، وسلّم قيادة لسعد زغلول .

وسعد زغلول ينفرد دون عامة كبار ساسة مصر فى القرن العشرين بنشأته المصرية الفاقعة ومروره بجميع أطوار الحياة المصرية بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين . فهو قد نشأ فى البيئة الريفية الوطنية واختلف الى الأزهر أيام الأفغانى ومحمد عبده واشترك فى الحركة العرابية ثم درس الحقوق الفرنسية وصاهر مصطفى فهمى صديق الانجليز ، أى جمع الى التربية المصرية والثقافة الأزهرية المجددة شيئا من الثقافة الغربية ووفد من التيار الدستورى العرابى على بيئة المتصلين بالانجليز [1] . ومن ثم كان اختلاف معنى الوطنية عنده عنه عند مصطفى كامل وعند معاصريه فهى لم تكن لديه الحس المرهف والجرح الدامى والتفزز المتصل الذى كوّنته لدى مصطفى كامل بنيته العليلة وقرب عهده بالعدوان الانجليزى واتصاله المباشر بالغرب . ولم يكن الشعور بما بين مصر والغرب من فروق تؤدى التربية الغربية ، وما يصحبها فى العادة من ابتعاد عن القوى الشعبية ، الى التهويل من قدرها والرغبة فى تخطيها كما كانت لدى ثروت وعدلى ومحمد محمود . وانما كانت عزة نفس قوية ونفرة حق مهضوم وإباء ريفيا عريضا ، كانت مجموعة صفات أخلاقية ، ان صح تعبيرنا هذا ، صقلتها الجبلة الريفية والتربية الاسلامية والثقة

(١) «ثم ان سعدا دخل فى أطوار التفرنج فى معيشته وأفكاره الاجتماعية والقانونية وغلبت نزعته الوطنية عنده فكرة الجامعة الاسلامية وظل يقول بأن المسلمين لا يرتقون ارتقاء صحيحا الا بالاصلاح الدينى الذى كان يدعو اليه الحكيمان أستاذه وأستاذ أستاذه » . الشيخ رشيد رضا: المنار الجزء ٣٨ .

بالنفس ، وهى ثقة عززتها بعد ذلك الانتصارات الشعبية الساحقة ، فهو بلاشك أقوى من استطاع هز ضمير المصريين والشرقيين على وجه العموم فى الصدر الأول من القرن العشرين . ومن ثم كان أيضا قبوله الحكم والتعامل مع الانجليز المسيطرين عليه ومحاولته حل القضية المصرية بمراودتهم بعد أن تأصلت جذور الاحتلال وألف المصريون مظاهرة ويئسوا من معاونة تركيا وفرنسا لهم فى مناهضته مناهضة جدية .

وبسعد زغلول أصبحت الحركة الوطنية حركة مستقلة تستمد قواها من ذات نفسها ، وتقتعد مكان الصدارة من الحياة السياسية المصرية . وقد انصرفت هذه الحركة أول الأمر الى منازلة المحتلين وبخاصة فى المؤتمرات الدولية . ثم أعلن تصريح فبراير سنة ١٩٢٢ وصدر الدستور ، فجمعت الى ذلك السعى الى الحكم كحق من حقوقها الأصلية والوسيلة المباشرة لمعالجة علاقاتها الخارجية والعناية بمصالح البلاد عناية مصرية صميمة . وأبرمت المعاهدة المصرية الانجليزية فى سنة ١٩٣٦ فمالت الى محاولة تعهد هذه المصالح . وكانت هذه الحركة تنمو أثناء ذلك وتتشعب فى جداول صغيرة تتخذ مكانا خاصا من المجرى العام وتقوم أحزابا يفترق بعضها عن البعض ولكنها تشترك جميعا فى نسيجها وتفكيرها ووسائلها : فهى على كل حال لفيف من الملاك الزراعيين وخريجى المدارس الجديدة ولاسيما المحامين والأدباء وطلبة العلم . وهى على كل حال تعد القضية المصرية مسألة اقناع يحاوله أصحاب حق يريدون استعادته كما يحملوا غاصبى هذا الحق على رده فى سبيل المحافظة على مصالحهم الخاصة . وهى على كل حال تتخذ شكل الدعاية الصحفية والمساعى الشخصية ، وتلجأ الى هذه وتلك فى الحكم وخارج الحكم على السواء . ووضع المسألة هذا الوضع يهبط بها من مستوى النضال بين أمة تريد أن تستقل ودولة تريد أن تستعمر الى مستوى التحايل على الفوز بالحكم بين بضعة أفراد يطمحون اليه وممثلى الدولة المحتلة التى تتصرف فى أمره . وهؤلاء الطامحون لا يجدون وراءهم عادة سوى صلاتهم الخاصة [1]

(١) « اجتمع منذ أيام فى مكتب الأستاذ عبد الحميد عبد الحق فريق كبير من المشتغلين بالسياسة والشيوخ والنواب وأساتذة الجامعة والصحفيين للتباحث فى أهم مسائلنا القومية ورسم الطريق لتنفيذها بصرف النظر عن النعرات الحزبية ، ونحن نقتطف هنا فيما يلى بعض أقوال خطباء هذا الاجتماع :
عبد القوى أحمد باشا : « اننا لا نجد فى سياستنا ، بل نتبع وسائل قديمة لا ابتكار فيها ؛ فنحن نعتمد على المظاهرات والهتافات ، ومنذ

وما قد يعملون على اثارته من تيارات شعبية لا يطول أجلها لعدم صدورها عن مصالح واعية ، ومن ثم انتهاؤهم في الغالب للاستناد الى احدى السلطتين القائمتين ، أى سلطة العرش أو سلطة المحتلين ، وتحول الأزمات المصرية عادة الى مناوشات بين هاتين السلطتين ، وقنوع المجالس التمثيلية الوطنية فى هذه المناوشات بدور ثانوى .

سنة ١٩١٩ الى سنة ١٩٣٦ كان بيد الزعماء مزايدات وطنية ، فاذا طالب أحدهم بالاستقلال طالب الآخر بالاستقلال التام وبعد هذا التاريخ أصبحت هناك مناقصات وطنية لتقديم البضاعة بأسهل ما يمكن بغية اقتناص الحكم ، بشرط أن يرضى رجل الشارع الذى يحمل جلاده على كتفيه ! وأصبح الكثير من الزعماء أثرياء من سوق السياسة ، وأصبحت الأحزاب شركات مؤسسة ومساهمة » . وقال : « النفوس مسممة ، وأعتقد أننى لو حملت القرآن بيمينى والانجيل بيسارى وذهبت الى النحاس ومكرم لتصفية ما بينهما فلن يسمع لى أحدهما ... فكيف نصفى جو الاتهام ! ويجب تعديل الدستور وتعديل قانون الانتخاب للقضاء على الخلافات الحزبية والتحكم الحزبى » .

عبد الملك حمزه بك : « هذه الخصومة القتالة بين الأحزاب نريد فضها أو عقد مهادنة بين بعضها وبعضها الآخر ، حتى نستطيع أن نرسم سياسة قومية خارجية يقبلها الجميع لنتخلص من هذا الجمود القديم ، فنحن نتدهور من سنة ١٩٢٠ الى الآن ، حتى لقد أصبحنا على حافة الهاوية .

يجب أن نعجل باصطفاء جماعة تتعاون لله والوطن على وضع برنامج قومى تلتزم به جميع الحكومات ، ليستطيع الشعب العمل بدلا من تعطيله الآن عن كل انتاج مثمر ، ولنتمكن من استغلال الموارد المدهشة الموجودة فى البلد » .

فكرى أباظه بك : « ان الذى أعلمه أن هذه الوزارة تقف للانجليز ، فمن واجب الجميع أن يقولوا ان ما ترفضه الوزارة الحاضرة يرفضه كل مصرى .

من يريد خلق فكرة يجب أن يلاحظ السباق من الزمن ، والأبحاث تحتاج الى وقت ، والعالم الآن فى دور تصفية ، فنريد فكرة معقولة مقبولة نضمن ألا تقاوم تحت ضغط العنف والتعسف والحزبية .

الصحف هى التى تستطيع توجيه الرأى العام ، وهى بين حزبية تنطق بلسان الأحزاب بالحق أو بالباطل ، أو مستقلة لا تتدخل بين الأحزاب ، وما نريده أولا هو تصفية الموقف بين الأحزاب لنضمن اتجاه الصحافة الى القومية والى معالجة المسائل الخطيرة بعيدا عن التيار الحزبى ، ونريد لجانا تضم شخصيات قوية من مختلف الأحزاب ، لتواجه الأحزاب ، ولتنفث مبادئنا فى الأحزاب ، ونريد لجنة يمثل فيها كل حزب بعضو معتدل يعمل معنا للاتصال بالزعماء ، لنعقد هدنة فى المعركة الصحفية الحزبية الملوثة . وهذه اللجنة « السمباتيك » للأحزاب جميعا تذهب للنحاس وللنقراشى ولمكرم وتقول لهم : اختلفوا فى المسائل الداخلية ... واتفقوا فى المسائل الوطنية ...

آه لو تعلمون حقيقة مركز مصر فى الخارج ، ستتألمون عندما ترونه عظيما ممتازا .. بينما تجدون هنا « الحيطة مايلة » .

واتجاه حركتنا القومية هذا الاتجاه يقصى عن مجالها القوى الشعبية التى لا قوى لديها دونها ، فما دامت الجماهير شاعرة بأن الأمر لا يعدو أن يكون أمر وصول بعض الرجال الى الحكم ، ولا تجد لدى من يحكم منهم ما يتصل بحياتها اليومية ، ولا ترى نهاية مقارعتهم المحتلين أو مواقعها الهامة ، فهى منتهية الى عدم الاهتمام بها ، اللهم الا فى الأزمات المستحكمة التى ينقلب أثناءها الأمر فيصير أمر كرامة تمنع . ومن هنا قصور حركتنا القومية على طلبة العلم قبل كل شىء وما يعتور حياتنا البرلمانية من تنص

نريد خطة اجتماعية نتفق فيها على المسائل الهامة ، وتكون نقطة التقاء بين الأحزاب .

ومع الأسف ، ولسوء حظ البلد ، ينقصنا الوسيط القديم الذى يتوسط بين الأحزاب .

أين الأمير عمر طوسون ؟ وأين عدلى باشا ؟ لا يوجد محايد فى هذا البلد ! والمستقل المحايد مطعم بميل حزبى ... » .

عبد الجليل أبو سمرة باشا : « أرى تأليف لجنة لبحث — اليوم لا غدا — المطالب القومية مثل تعديل المعاهدة وغيرها ، وتقر الميثاق الذى تضعه ، كما تقره لجنة الـ ١٧ . ولن يرفض النحاس باشا هذا الميثاق ، كما لن ترفضه كل الأحزاب بل ستعتنقه ، أما مسائلنا الداخلية فأمامنا الوقت لبحثها » .

الأستاذ عبد الحميد عبد الحق : « رأيت حسب خبرتى أن السياسة المصرية ارتجالية ، سواء السياسة الداخلية أو الخارجية ، والأحزاب لا تهتم الا بالتوافه ؛ فمثلا اجتماعات الوفد الخطيرة التى تحاط بالسرية لا تسفر الا عن مسائل تافهة لا تتعلق بشئون البلاد ، مثل ترشيح انتخابى أو جمع نقود لجريدة ، أما التعرض لمسائل البلد فتكون من باب العلم ! وأعتقد أن باقى الأحزاب كذلك .

بعد سنة ١٩١٩ بقليل أصبحت الأحزاب أحزاب حكم ، لا تبحث عن تخليص البلد من الاحتلال ، ولا يوجد زعيم أو فرد فكر فى مدى الاستقلال وأغلب الزعماء جاهلون بالسياسة الدولية ، ومطامع كل دولة فى الشرق الأوسط ، وهم يعتمدون فى معلوماتهم على أنباء الشركات التلغرافية ... » .

محمد بك خطاب : « اختلاف الزعماء يؤدى الى الشتائم والاتهام ، واذا اصطلحوا يتقارضون الثناء ويتبادلون المديح ، ونحن نريد أن نظهر للزعماء أننا نفكر وأننا غير مسلوبى العقل ، ويجب أن يعرف الجميع أن المركز الخارجى فى منتهى الدقة ، وأن الحرب المقبلة ستكون مصر مسرحها » .

الأستاذ زكى عبد القادر : « ألاحظ أن أكثريتنا تتشاءم من المستقبل ، فلم ؟ لقد خطت بلادنا كثيرا ، فيجب أن نتفاءل وأن نحسن الظن بالمستقبل ، ودليلى على ثقتى بالمستقبل هو احساسنا بعيوبنا ، وهذا هو بداية الاصلاح .

أما اذا رفض الزعماء معاونتنا فى العمل لتحقيق أهدافنا الوطنية ، فاننا نحتكم الى الرأى العام ، وهو صاحب الرأى الأول ليفرض رأيه على الزعماء » .

الأستاذ زهير جبرانة : « ان الزعماء يتملقون الرأى العام بدل هدايته وتقويمه وتوجيهه التوجيه الصحيح وهم يسعون الى استدرار تصفيقه وهتافه » . « قالوا عن أهدافنا الوطنية » : أخبار اليوم ١٩٤٥/٧/٧ .

وقلق ، وخضوع الانتخابات النيابية لدينا الى سلطان السلطة التنفيذية ، ثم بقاء الأداة الحكومية دون تعديل أو اصلاح ، واهمال الدولة لدينا الحياة الاقتصادية والاجتماعية للبلاد الى عهد قريب •

* * *

وقد صحب الكفاح السياسي واتصل به كفاح فكرى عريض بدأ كما رأينا فى البيئة الدينية وقت أن كانت هى البيئة الفكرية الوحيدة بالبلاد ثم تحول عنها الى بيئة أعضاء البعثات العلمية وخريجى المدارس الأميرية الذين كانوا يتثقفون بالثقافة الغربية ويشعرون بتفوق الغرب ويريدون مداركته ، أى يمثلون الحياة المصرية الجديدة[1] • ونحن نعلم عن أعلام هذا الكفاح فى القرن التاسع عشر أنهم كانوا فى الغالب ممن اتصلوا بالموجة الغربية الزاحفة وتأثروا بها تأثر رد الفعل بالفعل الذى يبعثه ، واتجهوا الى الاصلاح الذى يمكن البلاد من الوقوف فى وجه هذه الموجة أو مسايرتها • فكان حسن العطار أستاذ الطهطاوى من مشايخ الأزهر الذين شهدوا الحملة الفرنسية وآثارها[2] • وكان حسن الطويل أستاذ

(١) وكان غالب مريدى الأفغانى ومحمد عبده فعلا من الموظفين وطلبة المدارس والمطربشين عموما • « الاسلام والتجديد فى مصر » •

(٢) جمال الدين الشيال : « رفاعة الطهطاوى » ، وأحمد أمين أعداد الثقافة من ٢٣ الى ٣٤ •

« ••• وعندما وصلت الحملة الفرنسية الى مصر كان العطار فى الثانية والثلاثين من عمره فسافر الى أسيوط ، ولما استقرت الأحوال عاد الى القاهرة • يقول على مبارك باشا : « واتصل بناس من الفرنساوية فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة فى بلادهم ، ويفيدهم اللغة العربية ، ويقول : ان بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها ، ويتعجب مما وصلت اليه تلك الأمة من المعارف والعلوم ، وكثرة كتبهم وتحريرها ، وتقريبها لطرق الاستفادة •• » •

« أيقظت الحملة الفرنسية اذا عقول بعض علماء مصر وخاصة عقول هؤلاء الأقطاب الثلاثة ، وبهرتهم علوم الفرنسيين وأثرت فى فن كل منهم ، فكانت كتابة الجبرتى فى تاريخه بعد الحملة أدق وأكثر نقدا لسير الحوادث ورجالها مما كانت عليه قبل الحملة ••• » « كما أصبح شعر الخشاب أرق حاشية ، وأسلس أسلوبا • أما العطار فقد انحرف عن علماء عصره وترك الدراسات الدينية واللغوية جانبا ، وعنى عناية كبيرة بالدراسات الأدبية وكون له فى هذا الميدان مدرسة جديدة كان من تلاميذها الذين حذوا حذوه : الشيخ ابراهيم الدسوقى ، ومحمد عياد الطنطاوى ، ومحمد عمر التونسى ، ورفاعة رافع الطهطاوى الخ • وسيكون لهذه النخبة الطيبة جهود محمودة فى حياة الترجمة الحافلة فى عصر محمد على •

وقد عاش الشيخ العطار حتى ولى مشيخة الأزهر فى عهد محمد على وشهد

محمد عبده من العلماء الذين اتصلوا بحاشية اسماعيل • وكان الأفغانى رجل دولة قاتل الانجليز فى بلاده وشهد الحكم الانجليزى فى الهند وطوف بالبلاد الاسلامية التى كان هذا الحكم يعنف بها أو يهددها • وكان محمد عبده وأعوانه من الأزهريين الذين اشتركوا فى الحركة الوطنية المصرية • وقد كان حسن العطار يريد أن يلاحق المسلمون الحضارة التى لمسها فى الحملة الفرنسية بمعاودة درس العلوم التى كانت تقوم عليها هذه الحضارة بعد أن ألقوها وراءهم منذ أن خبت حياتهم الفكرية تحت العثمانيين • وكان الأفغانى يقصد الى احياء الاسلام ويرى فى ذلك الوسيلة الوحيدة لانقاذ المسلمين • وكان محمد عبده يعمل على تجديد الشريعة الاسلامية وتخليصها مما علق بها فى قرون العبودية • كانوا يرون جميعا الخطر المقبل من الغرب ويريدون الوقوف فى وجهه[1] بالاعتكاف على أنفسهم وتحليل الأوضاع القائمة وتجديدها ، كانوا يريدون الاصلاح من الداخل ولا ينظرون الى الحضارة الغربية الا كتجربة يستأنس بها حين يحسن الاستئناس[2] • ومن ثم كانت ثقافة هؤلاء المفكرين ونحوهم فى تصور الأمور ونسيج تتاجهم شيئا شرقيا فاقعا •

هذا التغيير فى الأحوال والمعارف الذى تنبأ به ، وخطب فى الاحتفال الذى عقد بمناسبة عقد الامتحانات الأولى لمدرسة الطب ، وهو أخيرا صاحب الفضل على تلميذه رفاعة الطهطاوى زعيم النهضة العلمية الحديثة ، وهو الذى قدمه لمحمد على ليكون امام البعثة المصرية الى فرنسا (سنة ١٨٢٦) . وهو الذى أشار عليه أن يسجل مشاهداته فى هذه البعثة التى أخرجها رفاعة فيما بعد فى كتابه الممتع « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » : جمال الدين الشيال •

(١) الشيخ مصطفى عبد الرازق : « محمد عبده » •

(٢) ويلاحظ أن حركة الاصلاح ظهرت فى مصر والأفغان وايران معا وهى المنطقة التى كانت تمتد بها شرايين المواصلات التجارية الامبراطورية ، كذلك ظهرت فى تركيا وهى حينئذ ميدان التدخل الغربى فى أوسع صوره •

(٣) « •••• وانه (الأفغانى) ليضرب للمسلمين المثل فى ذلك بامة الروس وهى كما كانت أمة متأخرة فى الفنون والصنائع عن سائر أمم أوروبا ، وليس فى ممالكها ينابيع للثروة ، ولكن كانت ، فليس هناك ما يستفيضها من الأعمال الصناعية ، فهى مصابة بالحاجة والفاقة والعوز ، غير أن تنبيه أفكار آحادها لما به يكون الدفاع عن أمتهم ، واتفاقهم على النهوض به ، وارتباط قلوبهم صير لها دولة تميد لسطواتها رواسى أوروبا • لم يكن لروسيا مصانع لمعظم الآلات الحربية ولكن لم يمنعها ذلك من اقتنائها ، ولم يرتق فيها الفن العسكرى الى ما عليه جيرانها ، الا أن هذا لم يقعد بها عن جلب ضباط من الأمم الأخرى لتعليم عساكرها حتى

ولكن المفكرين المصريين بعد الاحتلال نقصت غالبهم الثقافة الشرقية الصحيحة بحكم التربية الجديدة التى أصابوها وأصابها مجتمعهم بعد أن أبعدته وجهته الجديدة عن التربية القديمة ، ولم تمهل هذه التربية حتى تستنفد عملها التجديدى ، فاتجه الى المدارس الأميرية والعلوم الحديثة التى كانت تلقنها اياه من حيث انتهى بها الغرب بأوضاعها وطعمها ولونها الغربى ، وانتقل بذلك دفعة واحدة من الثقافة الدينية الراكدة التى كانت ظروفه القائمة تحمله عليها الى آخر تطورات الفكر البشرى ، دون أن يلائم بين هذا الفكر وظروفه الفكرية ، أو أن تقوم بينه وبين الحياة الاجتماعية القائمة تلك الصلة المباشرة التى ينبثق منها فى الغرب . ومن هنا جهل غالب أبنائه بالتراث العلمى الشرقى وعدم تمثلهم الفكر الغربى تمثلا كاملا واضطراب اتاجهم الفكرى وما يصحب ذلك من انكارهم الشرق واعجابهم بالغرب اعجابا لا حدّ له[1] . وهكذا لا يعالج كتابهم

صار لجيشها صولة تخيف ، وحملة تخشاها دول أوروبا ... » الرسالة عدد ٦١٦ ، ٢٣ ابريل سنة ١٩٤٥ .

« ... وكان الأستاذ (محمد عبده) فى ذلك العهد يرى أن ارتقاء المعارف هو سبب رقى الأمم فى الثروة والقوة وكان يقول : « فعلينا أن ننظر فى أحوال جيراننا من الملل والدول وما الذى نقلهم عن حالهم الأول وأدى بهم الى أن صاروا أغنياء أقوياء حتى كادوا أن يتسلطوا علينا بأموالهم ورجالهم ان لم نقل قد تسلطوا بالفعل فاذا حققنا السبب وجب علينا أن نسارع اليه حتى نتدارك ما فات ونستعد لخير فيما هو آت وها نحن بعد النظر لا نجد سببا لترقيتهم فى الثروة والقوة الا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم حتى قادتهم الى رشادهم فتنوروا خيراتهم فاكتسبوها ومضراتهم فتنكبوا عنها وتركوها فاذن أول واجب علينا هو السعى بكل جهد واجتهاد فى نشر هذه العلوم فى أوطاننا » . مصطفى عبد الرازق : « محمد عبده » .

(1) وقد لفت هذا نظر الأفغانى ومحمد عبده فكانا يخشيان التعليم الجديد وينكرانه « ... وتحدث الأفغانى عن الأداة التى تهيىء للوحدة ، وتجمع حولها العواطف والميول ، وتغرسها عقيدة فى النفوس وفى القلوب ، وحاول أن يجد هذه الأداة فى الصحافة التى كانت قائمة فى أيامه ، ولكنه لم يكن على ثقة بها ، يراها قليلة الغناء والفائدة ، وضرب المثل بما كان من سوء تأثيرها ودعوتها الى التفرق والانقسام وتبديد بقايا الالتئام ، وجعلها النوافذ والخصاص فى بنيان الأمة أبوابا ليدخل منها الأجنبى ، وكان هذا رأيه فى ناشئة المدارس المدنية فى مصر وتركيا لأنهم أضعفوا الأمة بدلا من أن تنال بهم القوة والمنعة ، وكل بضاعتهم التفيهق بألفاظ الحرية والوطنية والمدنية ، وهم لا يدركون مغزاها ومرماها ، ولا يقدرون تكاليفها ، وغاية ما لهم هو الاسراف فى تقليد الأجانب والانسلاخ من قوميتهم ... » .
« الأفغانى » : الرسالة عدد ٦١٤ فى ٩ أبريل سنة ١٩٤٥ .

أمرا حتى يذكروا وضعه الغربى[1] ويستعيروا بعضه وينساقوا فى ذلك الى حد الابتعاد عن حقيقته . ولا يخطب خطباؤهم حتى يشيدوا بسابقة

(1) ونحن نقتطف فيما يلى من الجرائد اليومية والأسبوعية بعض الأمثلة على ذلك .

« ... وبعد أن استمع المجلس للبيانات التى أدلى بها حضرة حسين سرى بك وكيل وزارة الأشغال العمومية فى هذا الشأن . وبعد أن وضح حضرته المشروع على خريطتين قدمهما للمجلس : الأولى بتحديد الحى الجديد ومساحته ٢٦٦٦ فدانا منها ٣٥٣ فدانا تملكها الحكومة و ١٦٨٨ تابعة لوزارة الأوقاف . والثانية بالتخطيط المبدئى للمنطقة بعد نقل النوادى اليها وتحويل النصف القبلى من الجزيرة الى منتزه عام أو غابة كبيرة أسوة بعواصم أوروبا استحسن المجلس هذا المشروع بجلسته المنعقدة فى ٣٠ يوتية سنة ١٩٣٢ » . أخبار اليوم فى ١٩٤٨/٢/٧ من تقرير محمد شفيق باشا وزير الاشغال فى سنة ١٩٣١ الى مجلس الوزراء لتجميل القاهرة .

« ترى هل انتهز المرشحون الحزبيون فرصة ترشيحهم ليقرأوا على الناخبين برامج أحزابهم ؟ نحن نراهن أن كثيرين من الذين يرسلون طلبات الانضمام الى الأحزاب لم يقرأوا برامجها ، بل لم يسألوا عن هذه البرامج ! وتدور فى رؤوس شبان الأحزاب فكرة أن ينتهزوا فرصة الفراغ من الانتخابات لوضع برامج مدروسة لأحزابهم ، برامج تفصيلية ، تتناول كل موضوع بالبحث العلمى الدقيق ، لا بالألفاظ التى يدخل تحت عنوانها كل معنى ، اللهم الا المعنى المقصود !

وبينما تجد فى كل حزب فى أوروبا وأمريكا لجنة لكل فرع من فروع الحياة الادارية والسياسية والاقتصادية والعمرانية ، نجد أغلب الأحزاب المصرية ليس لها لجان الا اللجان التى تعلن كل ٣٠ يوما الثقة التى لاحد لها أو تقف فى انتظار القادمين والمسافرين على محطات السكة الحديد ! » .
« الموقف السياسى . برامج الأحزاب » : أخبار اليوم فى ١٩٤٤/١٢/٩ .

« ليس من الحق أن ننكر ما بذله الأستاذ الشيال من الجهد فى بحثه (تكوين الشعب المصرى الجديد بعد الفتح العربى) فى مجلة الثقافة من رجوع الى المصادر العربية القديمة ومحاولة تنسيق النقول المختلفة منها مع صحة الاستنباط وبراعة الاستنتاج ، بيد أنى مضطر الى القول بأن المنهج الذى ابتدعه يعوزه الترتيب وتنقصه المحاولة الدقيقة فى البحث عن أصول هذا التكوين وعوامله ومقدار التلوين الذى أدخلته كلتا الشخصيتين العربية والمصرية على الأخرى . واذا ما عدنا الى مناهج الغربيين الباحثين عن أصول تكون الشعوب الأوروبية وجدناها تختلف عن منهجه اختلافا قوى الأثر بعيد الخطر » . « حول منهج البحث عن تكون الشعب المصرى الجديد » مجلة الرسالة العدد ٦٢٤ فى ١٨ يونيه سنة ١٩٤٥ .

غربية يريدون الاقتداء بها ولا يقص قصاصوهم حتى يلقوا بين يدى قرائهم أوصافا ونعوتا وفى كثير من الأحيان أيضا ألفاظا أجنبية [1] .

وعامة هؤلاء المفكرين يشتركون جميعا فى الحيرة من أمر هذا الغرب وخشيته وتملقه ويبدون هذا الشعور فى حماسة قد ترتفع أو تهبط ، وقد تتخذ شكل الحب أو شكل البغض ، ولكنها حماسة على كل حال لو جهدت فى البحث عن أصلها لما وجدت فى الغالب سوى الانبهار الذى يشعر به الطفل أمام لعبة جديدة . والغرب هنا ليس فكرة كاملة واضحة المعنى بارزة المعالم ، بل صور ساحرة لا رابط بينها ولا مرجع ترد اليه ، هو الثورة الفرنسية وأبطالها الخرافيون ، أو جهابذة الفكر الحديث وتحليقاتهم الفكرية الشاهقة ، أو لندن وباريس وروما وبرلين ونيويورك برونقها الخلاب ، أو فى محيط ما أيضا ، نعومة الحياة فى هذه

---

(١) « تضىء فى شوارع القاهرة على دور السينما والمطاعم والمقاهى أنابيب بالأنوار الحمراء والخضراء ، ناطقة بأسماء أعجمية ، فأنت ترى : ديانا ، مترو ، متروبول ، كورسال ، ميامى ، لابوتنيير ! ... بل ان اسم القاهرة نفسه يترجم فيصبح « كايرو بالاس » بل ان آخر دار للسينما تشيد فى شارع فؤاد الأول قد أطلقوا عليها اسم ريفولى ... ثم اذا جئت الى المطاعم رأيت : أوبرج البيراميد ، أوبرج تيرف ، أوبرج دى لاك ، ارميتاج ، سان جيمس ... الخ .

فماذا نقول فى بلد كان يطلق على أحد مسارحه اسم « رمسيس » منذ عشرين عاما ، فانقلب اليوم الى « ريتز » ؟ ! ...

« ... فنحن الذين نريد حماية القومية المصرية ورعايتها ينبغى لنا لفت نظر هؤلاء الذين يعيشون فى ظلها الى ضرورة احترامها ، فلا نبقى متخبطين فى بلد شرقى بين أسماء أعجمية ، مع أن الشرق القديم والشرق الجديد كلاهما غنى غنى طائلا بأجمل الأسماء » . أخبار اليوم فى ١٣/١٢/١٩٤٧ .

« سألت الملكة فيكتوريا سير والتر رالى ذات يوم : كيف نملك العالم ؟ ! فقال لها : الذى يملك باخرة يملك البحار ... والذى يملك البحار يملك التجارة .. والذى يملك التجارة يملك العالم ! . وبالأمس ملكت مصر باخرة جديدة تضارع الباخرتين كوين مارى وكوين اليزابيث فى الفخامة والابهة ووفاء الاستعدادات . وأصبح فى الأسطول التجارى المصرى أول باخرة مجهزة بمعدات ما بعد الحرب ... » . أخبار اليوم فى ١٧/١/١٩٤٧ .

« ... رأيتها خارجة على رأس كريمات العقيلات والآنسات ، تتحدى معهن حراب الانجليز ، وتصرخ فى الجنود البريطانيين أثناء ثورة ١٩١٩ : أطعنوا صدورنا ! .. أضربوا ناركم لكى تكون فى مصر « مس كافل » أخرى ! .. » . من تأبين لهدى شعراوى .

العواصم جميعا وما تثيره فى النفوس الفتية المحرومة [1] . هو شىء كالسراب الأغريقى - الرومانى الذى تخيله جمهرة مفكرى الغرب وما زال يتخيله بعضهم الى اليوم أو أصنام المعابد التى كانت تهرع اليها الجماهير فى الأزمنة الخوالى اذا أعياها أمر لم تقو على ادراك كنهه ، أو الواحة الخضراء يصبو اليها الضالون فى صحراء يباب [2] . وهذا

---

(١) « هذه هى فى حقيقتها من وراء الأضواء المصطنعة والدعايات البراقة بل هذه هى حتى من خلال الأضواء المصطنعة والدعايات البراقة . فما هذه الأضواء التى تخدع المخدوعين وتطلق ألسنة الدعاة ! انها الدعارة الفاجرة ، والتحلل الذميم ، والبوهيمية المطلقة ... انها هى بعينها النكسة الى حياة الحيوانية ، وفوضى البربرية !

ولكن هنا رؤوسا وأقلاما لا تزال تمجد فرنسا ، ولا تزال تتشدق باسم فرنسا ! .

أولئك بضعة نفر عاشوا فى فرنسا فترة من العمر ، فسمحت لهم فرنسا الداعرة باشباع أقصى لذائذهم الحيوانية ، وتروية أظمأ شهواتهم الحسية ... ثم عادوا فاذا فى الشرق بقية من تقاليد وبضعة من حواجز فلم يرق لهم ما فى الشرق من « رجعية » ! وظلوا يحنون الى عهد فرنسا الداعر والى لذائذها الممنوعة ، والى شهواتها المحرمة !

قليل منهم وجد فى فرنسا علما وفنا - وان لم يجد لفرنسا قلبا - ففتنه العلم والفن عن أقدس المقدسات القومية والانسانية . فتنه عن كرامة الوطن وعن حرمة الأهل وعن شرف العرض ... فاذا أحدهم يجادلنى فى أمر الشرق العربى وفظائع فرنسا فيه فيقول : اذا لم يكن بد للانسانية من أن تفقد فرنسا أو تفقد هذا الشرق العربى ، فليذهب الشرق العربى الى الجحيم ؟ هؤلاء نفر منحلون .. » . « هذه هى فرنسا » : مجلة الرسالة ، العدد ٦٢٤ ، ١٨ يونيو سنة ١٩٤٥ .

(٢) « ولكن لنعد الى حديثنا فأنت تقول ان رجلا على الأرض لا يهمك فاذا كان رجلا من باريس ! وصل أمس فقط من حبيبتك باريس !

- أتوسل اليك ! .. فهذا هو الرجل الذى يهمنى ! ..

- فاذا كان امرأة ! .. ومن باريس وجاءت أمس .. وستسافر غدا ؟ ! ..

- بربك ! .. لم يعد فى قوس صبرى منزع للسهام ! ..

- سنحسن اليك .. لأنك أحسنت الينا ! ستتغدى معها غدا ! ..

« ... حدثيه يا مدام لانجلوكيف باريس ! . أنت لا تعرفين كم يحب باريس ! .. هو .. أن يعيش الآن ! كيف يعيش الآن . هل هو يعيش ؟ . هل هو عاش منذ ست سنوات .. هل كان كائنا حيا له جسم ينبض وله

الاعجاب المفرط يحمل البررة من هؤلاء المفكرين على أعمال الفكر فى أسباب تأخر الشرق عن الغرب وما ينبغى أن يبذل للقضاء عليها • وهم يبدون فى هـذا اللغز آراء تتنوع الى ما لا نهـاية ، تنوع ثقافة الذين يعرضون له والأوضاع التى يتخذونها • فالدينيون يجدون علة تأخر الشرق فى ابتعاد أهله عن الدين الصحيح . والدين الصحيح هنا صيغة مبهمة كالصيغ الاجتماعية المطلقة عادة ، وهى تعنى شيئا يمتد من قفل الأبواب دون كل رجس مسيحى الى الاجتهاد فى تطبيق الأحكام الدينية تطبيقا غربيا • وغير الدينيين ينسبون تقدم الغرب الى قوة أخلاق أهله

قلب يخفق ! •• أيمكن أن يكون قد قضى ست سنوات فى غرفة واحدة مكونة من أربعة جدران بين ناس ليسوا أهله وليسوا أحبابه ، وان جمعته واياهم كلمة المعروف ؟ أيمكن أن يكون قد عاش سبعين شهرا ، فى عشرين مترا ، لا يتحول عنها الا اليها ، يجد عندها رزقه ؟ يأكل وينام ويفكر ويتعذب ويشقى ويسعد فى هذا الركن الضيق الكنز المحدود القائم ؟ •• أن أفقر الناس يعيشون فى فسحة أعظم من فسحته ، وفى عيشة أرغد من عيشته ، وفى نعمة أسعد من وحدته ••• وعلى ذلك لم يرد أن يشكو أو يتذمر أو يتألم ويتمرد كان يعلم أنه عابر سبيل ، أنه من أولئك الهمج الرحل الذين لا تطمئن بهم أرض ، ولا تستقر بهم حال ••• ان أشباحا جميلة كانت تملأ غرفته وتؤنس وحدته ، صارت غرفته قصرا باذخا منيفا يصعد فيه وينزل ، ويستقبل ويودع ، وينام ملء جفونه ، واذا سهد وارق لجأ الى – الراديو – ذلك الرفيق الوفى الأمين الساهر يضغط عليه ليتير ، ثم يخرج عليه ألوانا رائقة رائعة من الموسيقى ، والرقص والحديث والشجن ، والشوق ، والنبا والرجاء •••

كانت ساعة – بج بن – فى لندن هى ساعته تحمل اليه دقاتها المتزنة • الحرية حياته • ان الحرية عنده هى الحب•• وهو لا يستطيع أن يعيش يوما، ولا ساعة ، بلا حب •• بلا حرية ! •••

انه هنا منذ ست سنوات أو نحوها •• يعيش فى عالم الحيرة الذى لا يحده كورنيش الاسكندرية ولا صخور اسوان •• لقد عاش فوق هذه الصخور وتمشى على الكورنيش فأحس أنه فى وطنه غريب انه بحاجة الى أن يبعد عن وطنه ليزداد لوطنه حبا اذ لا يرى سوءاته،ويزداد له خدمة اذ لا يشقى برؤية هذه السوءات •••

حدثيه أيتها السيدة التى جاءت من بعيد تسأل بلاده طعاما وهو يموت لأنه بحاجة الى أن يسأل بلدها رزقا ••• » • « نحو باريس » : أخبار اليوم فى ١٩٤٥/٥/١٢ •

أو اخلاص حكامه أو مركز النساء فى مجتمعه الخ [١] وهذه الحيرة تنتهى بغالبهم الى الشك والاستهتار والتشاؤم [٢] وتصرفهم فى الغالب عن

---

(١) وهذه بعض الأمثلة من هذا التنوع الذى لا حد له :

« ان داء الشرق هو الاستبداد ، والاستبداد هو أن تتصرف الحكومة فى شؤون الرعية كما تشاء بلا رقيب ولا حسيب • واذن فمبعث الاستبداد هو غفلة الأمة ، فالأمة التى لا تقيم من نفسها رقيبا على الحكام ، تحاسبهم عن كل صغيرة وكبيرة أشد الحساب ، سيستبد بها حتما وكلاؤها ، اذ أن الاستبداد أمر طبيعى فى السلطان ، وما من حكومة عادلة تأمن المسئولية والمآخذة بسبب من أسباب غفلة الأمة ، أو اغفالها ، الا وتسارع الى التلبس بصفة الاستبداد ، وبعد أن تتمكن فيه لا تتركه » ••• « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » للسيد عبد الرحمن الكواكبى • عن الشرق الجديد ، عدد ٣ يونيو سنة ١٩٤٥ •

« ان سر ارتقاء الأمم الغربية هو فى تضافر كتابها على بث روح التأثير فى العامة بما يزخرفون لهم من الأحاديث وقد ساعدهم على ذلك أن الناس هناك يكتبون باللسان الذى به يتكلمون فتتسرب الى نفوسهم معانى الشاعر وتمتزج بأرواحهم روح الكاتب وان كانوا لا يشعرون ويختلف الحال فى مصر عن ذلك لأن للناس لسانين قد تناكرا حتى اختصوا أولهما بالكلام وجعلوا الثانى من نصيب الأقلام فمنع اعوجاج هذا عن استقامة ذاك» • حافظ ابراهيم: « ليالى سطيح » •

« ان الحظ فى الشرق معقود له اللواء • ولكنهم فى الغرب لا يعرفون الا العمل • نحن نؤمن بالحظ والقدر والنصيب وهم يؤمنون بالعرق المتصبب والعقل المحكم التدبير والنظام الذى لا يفهم المجاملة ولكن يفهم الحق والواجب •

أن أوروبا طحنتها الحرب وخرجت منهـا مثخنة بالجراح ولكن العمل المتواصل سيشفيها من جراحها فتعود الى مكانتها الأولى فى السباق ••• لن تتأخر الا ريثما تنهض • هذه آية العصر وانجيله: ليس من سبيل الى التفوق الا بالعمل » : « نحو النور • الحظ والعمل » الأهرام فى ١٩٤٨/٢/٩ •

(٢) ونحن نقرأ فى مقال بمجلة الثقافة :

« ••• وهناك فريق من النقاد لا ينفكون يشكون سوء الحال وانتشار العيوب ، وتزايدها يوما بعد يوم ، ويصورون كل ناحية من نواحى الحياة وقد تطرق اليها الوهن والفساد ، وكل طائفة من الطوائف وقد عمت فيها الفوضى وسادت المآخذ ، وجميع الأفراد وقد صارت أخلاقهم منحلة ، وضمائرهم ميتة ، وعوائدهم قبيحة ، ومعاملاتهم سيئة •

ينظرون الى السياسة والسياسيين فلا يجدون منهم صـالحا للبقـاء ، أو جديرا بالتقدير • والى العلم والعلماء ، فاذا هم جميعا سطحيون ، أو مدعون ، علمهم ضئيل ، أو قديم عقيم ، وأخلاقهم ضعيفة أو منحلة ، ويسودهم حب التظاهر والنفاق ، ويملأ صـدورهم الحقد والحسـد ، ولا تنطوى نفوسهم الا على المكر السيىء • واذا حدثوك عن العـامل والفـلاح سمعت منهم أدنأ الأوصاف وأحط الاتجاهات وأسفل النزعات •

النظر الى وقائع الحياة المصرية القائمة بين أيديهم نظرا عميقا شاملا وتحول بينهم وبين رؤية ما يقع تحت بصرهم منها الا من وراء الثقافة الغربية التى نالوها . وهى تضعف من قوة انتاجهم الفكرى بفصلها اياهم عن الوقائع وابقائهم معلقين بين ذلك المجتمع الغربى الذى لا يحيون حياته وهذا المجتمع الشرقى الذى لما تتوافر له ظروفه والذى تقوم هى بينهم وبينه بأنوارها المضللة . وهى تجعل على كل حال من وضع الشرق دون الغرب شيئا جامدا لا يكاد يتحرك ؛ فالغرب هو هذا الغرب وسيظل كذلك الى آخر الدهر والشرق هو هذا الشرق ، وسيظل هو أيضا كذلك

وبالجملة لاينتهى حديثك مع هؤلاء الا وقد تملكك اليأس ، ولبست منظارا أسود لا ترى من خلاله أدنى قبس ، ولا يلوح لك اقل أمل ، فتقول عوضنا الله خيرا فى هذه الأمة التعسة ، التى لا يرجى لها صلاح ولا يؤمل فى أبنائها خير ولا ينجع فيها علاج ، ولا يجدى فيها نصح ، ولا تنفع معها أية وسيلة من وسائل التقويم والاصلاح ... » .

« ... وهكذا ترى مغالاة الفريقين ، الدعاة للقديم والدعاة للجديد ، كلاهما ينحى باللائمة ، ويدعو بقوة الى التطرف فى ناحيته الخاصة التى ينحاز اليها ويدافع عنها بعنف وشدة ، وهذا الأسلوب يكاد يكون طابعا قوميا ، وأعنى به المغالاة فى تصوير العيوب والاغراق فى الانحياز الى جانب ، والشدة والعنف فى العتب وفى الدعوة الى الرأى الذى يرتئيه الكاتب أو الناقد ، وهذا الأسلوب كثيرا ما يثير الحفيظة والعناد ويأتى بعكس المراد .

ثم ان هذا الكلام كله يكون فى معظم الأحيان — ان لم يكن كلها — كلاما عاما عائما ، لا تصحبه آراء أو مقترحات انشائية وان أجدى منها شىء كان فجا غير مدروس ، لا يستند الى دعائم احصائية ولا نظريات علمية . وانما هو من قبيل الكلام الارتجالى فقط كالذى يكتبه الصبية بمدارسهم فى كراسات الانشاء » : « حول النقد والمغالاة فيه » بمجلة الثقافة العدد ٣٣٠ فى ٢٤ ابريل سنة ١٩٤٥ .

ونقرأ فى مقالة بمجلة الرسالة :

« لكل مجتمع علله وآفاته ، ولكننا اذا استعرضنا علل المجتمع الأوروبى كانت هذه العلل خاصة بمجتمع قد تهيأت له جميع المشخصات القومية ، وتجلت مظاهر القوة ومظاهر الضعف فيه . أما المجتمع المصرى ، فهو مجتمع فى طور الانتقال ، وقد بدأت مرحلة الانتقال هذه منذ بداية القرن التاسع عشر ، ولم تنته الى اليوم ، فى حين أن شعبا كالشعب اليابانى قطع فترة الانتقال فى سنوات .

ومن أجل ذلك كنا حيث نحن وكانوا حيث هم .

فمما لا شك فيه ، مثلا ، أن اللغة قد قطعت شوطا فى طريق التقدم والدقة والمرونة ، فتركنا السجع والاطناب وما اليهما ، ونحت الكتاب ألفاظا

أبد الآبدين ، والعلة الأولى فى ذلك هى انفراد الشعوب الغربية بصفات لا تملكها الشعوب الشرقية ولا سبيل الى أن تملكها يوما ما . ومن هنا اتهام هؤلاء المفكرين العامة بالاستكانة والغفلة والأثرة وكل جريرة أخرى كلما حاولوا شيئا وانتهوا الى ما لا يتوقعونه منه بعكس أقرانهم الغربيين الذين اذا حاولوا شيئا انتهوا فى الغالب الى ما يريدون .

واتجاه تفكيرنا هذه الوجهة ، يتضافر ونشاطنا الاقتصادى الجديد ثم اتصال رأينا العام بمصادر الرأى العام العالمى فى نشر طبقة غربية رقيقة حول حياتنا اليومية ، تتكاثف وتشتد اشتدادا ثقيلا فى دائرة نشاط الدولة

جديدة ردت الى اللغة شبابها وبهاءها ، ولكن اللغة لا تزال بعيدة من غاياتها ، ولا تزال فى حالة انتقالية ظاهرة ، كما لا يزال تعليمنا العالى فى الأزهر والجامعة ، وكذلك محاكمنا وقوانيننا مزيجا من تعاليم القرون الوسطى والعلم الحديث . كما أن حركتنا النسائية يتجاذبها عامل الرجعية والعزلة والجمود من ناحية ، وعامل الطفرة والمطالبة بالغاء نون النسوة من ناحية أخرى .... » .

« ... والواقع أن عللنا وآفاتنا كثيرة نشأ معظمها من الاستعباد وطول عهوده ، وقد أصبحنا وفينا مركب الشعور بالنقص ، وهذا واضح جلى فى « معاملات » المصريين والأجانب ، وما بقيت هذه العلة بغير علاج حاسم فستظل « الامتيازات » فى نفوسنا وأخلاقنا وان تكن قد محيت فى الورق والمعاهدات .

وقد أصبحت هذه الحالة مدعاة لليأس والتشاؤم ؛ ففريق من المصريين يقول : انه لا أمل فى اصلاح هذا الشعب . وفريق من الأجانب ، وعلى رأسهم المؤرخ الكبير جبرائيل هانوتو ، يقولون : ان مصر لا غنى لها عن الأجانب ، وان مركزها الجغرافى الى جانب ذلك يفرض عليها قبول سيطرة الدولة التى تهيمن على البحر الأبيض ، أى قبول الاستعباد فى شكل من أشكاله .

وقد أخطأ الفريقان فى نظرهم وتشاؤمهم ، ويرجع ذلك الخطأ الى أنهما قد أصدروا حكمهما على الشعب المصرى باعتباره قد استكمل أداته للكفاح ، وأخذ أهبته وجرب وكبر واستقر ، وبعبارة أخرى قد قطع مرحلة الانتقال وظهرت ملامح شخصيته الثابتة من حسنات وعلل وعورات .

ولو أنهما انتبها الى أن حالة مصر اليوم لا تزال حالة انتقالية ، وأن بعض العلل التى نراها ليست من العلل « المزمنة » ، وقد تكون غريبة عن جوهر الخلق المصرى الصحيح ، وأنها اذا عولجت انتفت عنه ، وزالت كما يزول كل عرض ، أقول لو أنهما انتبها الى ذلك لفهما أن تشاؤمهما أكبر خطر يتهدد الفكرة الاصلاحية بل كل فكرة تطمح الى المثل العليا ، والسير بالبلاد الى أبعد الغايات » . « علل المجتمع المصرى » للدكتور محمد صبرى بمجلة الرسالة العدد ٦٠٥ فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥ .

وتتسبب فى أمر على جانب كبير من الخطورة من حيث الآثار التى تثيرها وهو سبق التشريع لدينا ظهور الظواهر الاجتماعية التى يتصل بها أو نضوجها النضوج الكامل على الأقل .

وقد رأينا كيف يرجع ضعف مقاومتنا فى المحيط السياسى وقلة انتاجنا فى ميدانى الاقتصاد والفكر قبل كل شىء الى عدم انبثاق تلك المقاومة وهذا الانتاج من حياة اجتماعية زاخرة تجمع بين طبقات المجتمع جميعا فى عزمة واحدة فهما لا يعدوان أن يكونا نفرة الطاقة العليا من مجتمع قديم يلج جوا جديدا ويحاول الذود عن نفسه والملاءمة بين شئونه ومقتضيات هذا الجو . وهذه الملاءمة عسيرة غاية العسر لأنها تقتضى خلق بعض الظواهر الاجتماعية خلقا وتعجل نضوج البعض الآخر وتنسيق أطوار هذه الظواهر جميعا تنسيقا شاملا ، أى تحقيق ما حققه المجتمع الغربى فى قرون من السير الطبيعى الهادىء فى دفعة واحدة وبتدبير مقصود [١] . وهى تتطلب لذلك درس الظروف القائمة والظروف المبتغاة درسا يفوق فى العمق والدقة والجهد ما يتطلبه تنظيم الظواهر التى تقوم قياما طبيعيا . وقد غاب هذا عن السلاطين الذين قاموا بأول محاولات هذه الملاءمة فى مصر والأقطار العثمانية الأخرى ، فكان ما عرف بالنظام الجديد ، وكانت الدواوين والمحاكم الجديدة ، وكان اخفاق كل ذلك والافلاس المالى أيضا . ثم انتقل الحكم فى هذه الأقطار الى أيدى ممثلى الغرب فاتجهت هذه المحاولة وجهة جديدة ينقصها التقدير الصحيح للظروف القائمة ويبدو عليها الميل الى الاعتقاد بأنها ظروف ثابتة لا تقبل التحويل البعيد كما يبدو عليها التغليب الظاهر للأغراض التى يرمى اليها هذا الغرب على الأغراض المحلية الخالصة . وأخذ الحكم يعود بعد ذلك الى أهل البلاد فعادت هذه المحاولات تهدف الى الأغراض المحلية ولكنها ظلت تتجاهل الظروف القائمة وتتأثر بالنضال السياسى وبذلك التفاوت بين هذه الظروف ، وهى كما رأينا فى جملتها ظروف مجتمع زراعى يتجدد ، وتلك الطبقة الغربية الرقيقة التى أكسبتنا اياها صلتنا بالغرب ونظمنا الاقتصادية الجديدة وانخراطنا فى دائرة الرأى العام العالمى .

ونحن نحاول هذه المحاولات ونعالج مسائلنا على وجه العموم بخبرة من لدينا من عناصر فتية نالت نصيبا من التربية الغربية ، دون أن يكون لها حظ كبير من الثقافة الشرقية الصحيحة ، ويدفع بها التيار الغربى الذى يحيط بنا من أقطارنا جميعا الى أجهزة الحكم ، دون العناصر التى كان يحق للمجتمع بتكوينه الزراعى الدينى أن يرسلها اليها لو لم يكن هذا التيار الغربى بمقتضياته الاجتماعية ونفوذه السياسى . وهذه الخبرة هى النتاج المباشر

---

(١) والعقاد يصف ما حدث من ذلك فى ميدان الأدب فيقول :

« ... ولو لم تكن « البتية الريفية » كذلك لادركت أن الأدب الغربى — منذ أربعة أجيال على الأقل — لم تنشأ فيه مدرسة واحدة صنعت فى أدب قومها بعض الذى صنعه أدباء العربية فى الجيل الحاضر والجيل الذى سبقه لأن الآداب الأوروبية تجرى منذ ألف سنة فى طريق واحد يتقدم فيها السالكون خطوة بعد خطوة ومرحلة فى أثر مرحلة ، ولا ينتقلون فيها اذا انتقلوا فترة بعد فترة الا من مقدمة محضرة الى نتيجة منتظرة ، تمشيا مع الحركة المطردة من عصر اليونان الى عصر النهضة التى جددت بعض مدارس اليونان ، الى عصر الاصلاح والثورة بلا انقطاع ولا انحراف الا فى أيام الركود والجمود .

فقصارى ما تصنعه المدرسة الأدبية بين الغربيين انها تزيد فى المجاز أو تزيد فى التعبير عن الواقع ، وانها تميل الى الأسلوب المأثور أو تدخل عليه بعض التصرف والتعديل ، وانها تجمع اليها رهطا من الزملاء بينهم تشابه فى المزاج وتقارب فى الموضوعات أو تقارب فى موضوع الاقامة وفى المناظر التى يلتفتون اليها ويعنون بوصفها ، ثم يرجع الناقد الى أدب قومهم قبل ظهورهم وبعد ذهابهم فاذا هو متقارب متتابع لا وثبة فيه ولا جنوح عن الجادة التى مهدت من قديم الزمان .

ولا يستطيع أحد من أولئك السماعيين أن يترجم شعر خمسين سنة متوالية الا بدا له أنه كالحلقة بعد الحلقة فى سلسلة واحدة قلما تتباعد فى أوساطها وان تباعدت فى أطرافها ، وانه على الاجمال نوع واحد من الأدب فى الصميم .

أما أدباء العربية فى الجيل الحاضر والجيل الذى سبقه فقد صنعوا فى تغيير مقاييس الأدب ما لم تصنعه مدرسة واحدة أوروبية فى الأجيال الأخيرة . لأن اختلاف المقاييس هنا هو اختلاف بين لغة ولغة ، وبين طبيعة وطبيعة ، وبين اقليم واقليم ، وبين زمن وزمن ، وبين موضوعات وموضوعات » .

« المدارس الأدبية » للأستاذ عباس محمود العقاد : مجلة الرسالة العدد ٦٠٩ فى ٥ مارس سنة ١٩٤٥ .

للثقافة الجامعية التى نالتها هذه العناصر فى الغرب دون أن تكون بينها وبين الحياة العملية التى انتجتها أو حياة البلاد الحقيقية سبب كبير . وهى تخضع لوضعها هذا حين تفكر وحين تعمل وحين تعالج ظواهر لما تظهر أو ظهرت ولكنها لم تنضج ، كما نضجت مثيلاتها فى الغرب ، ولم تتخذ على كل حال نفس الأوضاع التى اتخذتها هناك ، وتفصل ذلك بالأساليب التى ابتدعها هذا الغرب تحت ضغط تلك الأوضاع . وهكذا لم يهتم الذين وضعوا دستورنا يوم وضعوه بدرس ماضينا الدستورى أو حاضرنا الاجتماعى كما اهتموا بدرس الدساتير الأجنبية ، ولم يعن الذين وضعوا نظمنا الحكومية بماضى هذه النظم لدينا كما عنوا بنقل القوانين الفرنسية ، وما زال الذين يضعون تشريعنا الاجتماعى والاقتصادى ينتهجون مثل هذا المنهج الى حد بعيد .

والجو الغربى الذى ينفذ على هذا النحو الى حياتنا العامة والخاصة جميعا يدفع بظواهرها الى النضوج العاجل ولكنه يضعف فى نفس الوقت من حيويتها ويميل بها عن مجراها الطبيعى . فمادامت الظاهرة تصيبها من التربة المحلية محدودا ومادام اتصالها بالجو الخارجى مستمرا متروكا لنفسه يكون كما يستطيع أن يكون فسيمد لها هذا الجو فى الارتقاع السريع فتصاب بالسطحية والاضطراب والسقوط فى التقليد . يضاف الى ذلك أن الصيغة التى نضعها لمعالجة ظواهر حياتنا ، أية كانت ، تنشأ عادة مشوهة بحكم اعتماد واضعيها على الاقتباس وبعدهم عن الناحية العملية من هذه الظواهر . ثم أنها تظل ضعيفة فارغة مادامت هذه الظواهر ناشئة لم تكمل ، أو لم تبلغ السعة التى وضعت لها الصيغة المنقولة . ومن هنا ما نلاحظه من تقلص قوانيننا عند التطبيق وطغيان السلطة التنفيذية على السلطات الأخرى والهزات الشداد التى تتعرض لها حياتنا الاقتصادية والاجتماعية بين الحين والحين من جراء شطط التدخل الحكومى . وقد أخطأنا حتى اليوم فى اتهام الذين يحكمون بقلة النشاط وضعف

الوطنية والاستهتار ، والواقع أن غالبهم يريدون الاصلاح صادقين وأنهم لا يقلون نشاطا أو يزيدون استهتارا عن زملائهم فى البلاد الأخرى . ولكنهم يختلفون عنهم فى أنهم حين يصلون الى الحكم يجدون نفسهم وجها لوجه أمام مسائل لم يسبق لهم فى الغالب أن عالجوها ولا يجدون الى جانبهم الخبرة الفنية التى تستطيع أن تغذى نشاطهم أو توجهه . وهم يتعرضون حينئذ لما يتعرض له المحكومون من التأثر بالرأى العام العالمى ومصادره التى تجد فى صحافتنا واذاعاتنا الأداة الفعالة التى تحتاج اليها ، فيكون هذا التناقض الذى تمتاز به حياتنا العامة والذى يؤخذ عادة على محمل النفاق المقصود . فالمحكومون يقتدون فى أفعالهم ببعض ما يطالعون كل صباح من أخبار المجتمعات الأخرى ، والحاكمون يغالون فى الغالب فيما يقولون ليرضوا المحكومين ويرضوا اتجاههم الفكرى ويرضوا التيار الغربى الذى يحيط بهم ، والجميع يصدرون فى أقوالهم عن تفكير دخيل ويصدرون فى أفعالهم عن الظروف القائمة لمجتمع ينتقل من حال الى حال .

* * *

هناك اذا مجتمع مصرى جديد ترتفع نشأته الى مطلع القرن التاسع عشر وترجع أصوله فى مجموعها الى تراخى الصلة بين السلطنة العثمانية ومصر ، وتحلل النظم المملوكية ، ثم النزعة الانفصالية التى بدأت تحت مشايخ البلد وبلغت أشدها بمحمد على ثم انتهت الى غايتها عند انفجار الحرب العالمية الأولى ، اذ تضافرت هذه العوامل فى تكوين أسرة مالكة جديدة وحكومة محلية ومصالح وطنية وأتاحت لأبناء البلاد الغلبة على من كان يختلط بهم الى ذلك الحين من عناصر أخرى .

وهذا المجتمع يرث عن ماضيه فكره العربى وضميره الاسلامى ونظمه المغولية ، فى حالة ثقيلة من الفساد الذى دب اليها جميعا تحت الدولة

التركية (١) ، ويخضع لتأثير هذه الحضارة الغربية البراقة ، التى تكونت بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر ، أى أثناء نكسته العثمانية بالذات ، بفضل الحروب الصليبية ، التى ردت الغرب الى حياة البَحْر المتوسط وأعادت الصلة بينه وبين ماضيه الاغريقى — الرومانى وأشركته فى ثمار الحضارة الاسلامية (٢) ، واكتشاف الأمريكتين ، الذى وسع آفاقه توسيعا لا عهد له به من قبل ، ثم العلوم الحديثة وما مكنته منه فى طريق استثمار هذين العاملين .

وهذا التأثير الغربى يتخذ الى المجتمع المصرى الجديد طريق التغلغل الاقتصادى ، فيقيد منابع ثروته بانتاجه ، والنفوذ السياسى ، اذ يبعد هذا التغلغل ويدفع بحكومات القائمين به الى الضغط على الحكم ثم الاستئثار به ، والغزو الثقافى ، اذ يشعر أبناء البلاد بمقتضيات الحياة الجديدة التى يتجهون اليها فيقبلون على التعليم الحديث ويشعر الغرب

(١) يلاحظ أن المؤرخين الاسلاميين كالمقريزى وابن اياس يطلقون على دولة المماليك أيضا اسم الدولة التركية أى أنهم يعدون المماليك أتراكا كالعثمانيين .

(٢) تأثرت النهضة الغربية بالحضارة الاسلامية تأثر النهضة الاسلامية بالحضارة الغربية .ولكن بين التأثيرين أوجه اختلاف غير قليلة يكفى أن نذكر مما يهمنا منها هنا الآن أن التأثير الاسلامى لم يصحبه هذا التغلغل الاقتصادى والسياسى البعيد الذى يصحب التأثير الغربى الآن فى الشرق . فلم تنتقل الصناعة والتجارة وأجهزة الحكم الى يد المسلمين فى الأراضى الأوروبية الخارجة عن مناطق الغزو الاسلامى قط . ولم يعتمد الغربيون فى تحقيق نهضتهم على أساليب الحضارة الاسلامية هذا الاعتماد المباشر الكامل الذى نعتمده الآن على أساليبهم . يضاف الى ذلك أن الفروق فى الاستعداد العسكرى بين الغربيين والشرقيين أثناء الحروب الصليبية وغزوات العثمانيين لم تكن على سعة الفروق التى كانت توجد بين جيوش نابليون وفرق المماليك التى قاتلتها . وقد كان الصليبيون يريدون غزو الشرق الاسلامى لا أقل . وفشلوا فى رغبتهم هذه ولكن الى حد اذ استطاعوا أن يقيموا لهم امارات فى ربوعه وأن ينتزعوا منه السيطرة على البحر المتوسط . وهو أمر يدل على قوة ذات بال لا نجد لها نظيرا فى البلاد الاسلامية فى نهاية القرن الثامن عشر وفى القرن التاسع عشر . ومن الواضح أن غالب هذه الفروق يرجع الى طول الطريق التى قطعها تقدم الحضارة بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر أى أثناء النكسة العثمانية .

بالحاجة الى ايلافهم ، فينشر بينهم ما يريده من هذا التعليم ، وتنشأ بذلك طبقة من المفكرين المحدثين ، ترفعها مقتضيات الحياة الجديدة الى الصدارة ، ثم تنتشر الصحف وتعم الاذاعة فتلحق البلاد بدائرة الرأى العام العالمى . وهو يبدأ فى هذه الميادين جميعا كتيار يهب من الغرب ثم ينقلب جذوة تتقد من الداخل . ويكون فى الحالة الأولى شكلا من أشكال التوسع الغربى ، فى حين يصير فى الحالة الثانية عنصرا هاما فى نهضة محلية . ولكنه يبقى فى الحالتين شيئا يُفرض على عامة المجتمع ولا يكون ثمرة تنبت من أعماقه ، شيئا يصدر عن ارادة التوسع الخارجية أو ارادة الاصلاح الفردية الداخلية ولا يصدر من قاع الحياة الاجتماعية المحلية . وهو يسير لذلك جنبا الى جنب وظروف هذه الحياة ويبدى خصال كل ارادة تفرض على المجتمعات من تأثر شديد بشخصية أصحابها وميولهم واستعدادهم وتعثر فى سيرها واثارة مالم تفكر فى اثارته قط .

ونحن ما زلنا ننظر الى هذا المجتمع فنبصر عناصر ماضيه هذا القريب وعمل التيار الغربى فيه وتفاعلهما معا .

نبصر هذا الاقتصاد الزراعى الذى مازال يستأثر بالقسم الأكبر من نشاط البلاد ويعتمد على وسائل الاستغلال القديمة ويتحول فى أقل من قرن ، أى منذ أن عرفت الملكية الفردية تحت اسماعيل حتى اليوم ، من اقطاعية حكومية الى اقطاعيات خاصة تشغل الغالبية الساحقة من السكان وتبقيهم من الناحية المادية والمعنوية على ما كانوا عليه فى القرن الثامن عشر (١) . ونجد الى جانب هذا الاقتصاد ، العقلية الغالبة التى صحبته

(١) ونحن نقرأ فى تقرير لهيئة الأمم عن الحالة فى الشرق نشر فى جريدة المصرى يوم ١٧/٢/١٩٤٨ :

« دول الشرق الأوسط زراعية أكثر منها أى شىء آخر ، والجزء الأكبر من دخل هذه الدول يأتى عن طريق الزراعة ، وانتاج المواد الخام ، والنظام الزراعى فى هذه الدول غالبا ما يتسم بتركيز ملكية الأراضى فى مجموعة محدودة من الملاك الكبار ، وتتسم الحياة الزراعية فى هذه الدول بشىء آخر هو اعتمادها الى الآن على نظم زراعية عتيقة ، وعلى آلات كانت تستعمل بشكلها الحالى منذ آلاف السنين ، وهذا يؤدى الى بقاء مستوى الانتاج ضعيفا ، والى قلة دخل الفرد .

منذ أن كان النظام الاقطاعى ، عقلية التوكل وتغليب الحياة الآخرة على الحياة الدنيا وانتظار المعجزات ، وما يتبع ذلك من تقاعس فى السعى

ومستوى معيشة السكان فى هذه المنطقة منخفض ، وهم يرزحون تحت أعباء المرض ، والفقر ، والجهل ، وهذه الأحوال مجتمعة نستطيع أن نفهم منها نوع الحالة الاقتصادية فى هذه الدول التى يعتمد سبعون أو ثمانون فى المائة من سكانها على الزراعة .

ومع ذلك ، وعلى الرغم من ارتفاع نسبة الوفيات ، فان عدد السكان يتكاثر باستمرار ، وفى مصر مثلا تضاعف عدد السكان خلال خمسين سنة ، وتضاعف فى سوريا ولبنان خلال عشرين سنة ، وفى العراق خلال مدة أقصر من ذلك .

وكان من نتائج هذه الزيادة المستمرة ، أن فاق عدد السكان طاقة النمو الاقتصادية ، مما أدى الى الضغط على الموارد القائمة ومن ثم الى تدهور جديد لمستوى المعيشة .

والبنيان الاقتصادى فى الشرق الاوسط لم يطرأ عليه تغيير كبير نتيجة الحرب الأخيرة وذلك على الرغم من أن هناك عوامل قد استجدت ، وكان لها أثر على الأحوال الاقتصادية ، وما زالت الزراعة هى كل شىء ، والأرض هى العامل الاقتصادى الرئيسى .

غير أنه حدثت فى هذه الدول نتيجة للحرب الأخيرة ، بعض التطورات الهامة ، واذا استبعدنا أعمال الرى الضخمة التى كان الهدف منها توسيع رقعة الأراضى الصالحة للزراعة ، وجدنا دول الشرق الأوسط قد ازداد ادراكها لحاجتها الشديدة الى تعديلات معينة لبعض الأوضاع الخاصة بالنظام الزراعى .

وبدأت ايران وتركيا تخطوان بعض الخطوات فى سبيل هذه التعديلات ، ولكن فى نطاق ضيق ، ومصر تكاد تقدم الآن على اتخاذ مثل هذه الخطوات .

وقد عرف عن الشرق الأوسط منذ زمن بعيد ضعف «رأس ماله» والسبب فى ذلك هو ضعف النشاط الاقتصادى الذى يبقى من غير نمو ، ورؤوس الاموال التى تستغل فى دول الشرق أجنبية ، ومعظمها يستغل فى ميادين معينة مضمونة الارباح ، كالمرافق العامة ، والبنوك ، والشركات ، ورهن الاراضى مثلا . ولما كان الذى يستغل من رؤوس الاموال الأجنبية هذه فى ميادين الصناعة جزءا لا يكاد يذكر ، كان النمو الاقتصادى بطيئا » .

ونقرأ فى تقرير اللجنة المالية بمجلس النواب عن سنة ١٩٤٥ : « آن الملكيات الكبيرة تستغرق ربع المساحة المزروعة ، ويمتلكها ٥ آلاف مالك من ١٧ مليون نسمة . ويبلغ عدد المعدمين من سكان الريف ١١ مليون نسمة » . أخبار اليوم ١٩٤٥/٧/٧ .

وتوزيع اليد العاملة لدينا حسب الاحصاء الرسمى لسنة ١٩٤٣/١٩٤٤ كالآتى : ٤ر٣٠٨ر٢٠١ فى الزراعة ـ ٦٠٩ر٣٣٣ فى الصناعة ـ ١٣٨ر٩١١ فى النقل ـ ٦١ر١٦٤ فى التجارة ـ ٥٧٨ر٠٥٢ فى الادارات العامة والخدمات الشخصية .

وعلى ذلك يكون مجموع اليد العاملة التى تعمل بغير الزراعة ـ ١ر٣٧٨ر٨٦٠ .

فى طلب الرزق والعلم والارتقاء ، ثم التصور الدينى للمجتمع كجزء من تلك الأمة الاسلامية الكبيرة التى تحيا فى مملكة الله والتى صار حكمها منذ عصر الأفول الاسلامى لا يعنى الا الخلفاء والعلماء وأولئك الأجناد الغلاظ الذين كانوا يجتلبون من أصقاع آسيا القصبية وينفقون حياتهم فى الحروب . نبصر هذا ونلمس أثره فى استعصاء ريفنا على مقتضيات الحياة الحديثة ، سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية ، (١) واستئثار أبنائه بالحكم فى جميع أشكاله وانفرادهم بالمناصب الكبرى والصغرى الادارية والفنية المدنية والعسكرية والدينية ثم ميوعة حياتنا النيابية(٢) وتخبط تشريعنا الاقتصادى الحديث (٣) وغلبة المصالح الزراعية لدينا على ما عداها الى حد بعيد (٤) .

كذلك نبصر حكما يتخذ أوضاعا حديثة ولكنه مازال يذكر ماضيه

---

(١) لذلك اذا نادى سياسى ولم يستجب له مستجيب أو عمل مصلح من المصلحين « المستغربين » الكثيرين ولم يثمر عمله أو انقلب حكم ولم يهتز له محكوم يكون المخطىء الذى لم يدرك شيئا هو هذا السياسى أو المصلح أو الحاكم لا المحكومون . والرجل الذى يقتل قريبته لأنها زلت أو يقتل شريكه لأنه سلبه بعض ماله ولا يلبى نداء سياسى يشكو اعتداء أجنبيا أو تآمرا حزبيا يشعر بالشرف ويثور على الحيف الشخصى ولا يشعر بالحقوق السياسية ولا يمكن أن يتهم على كل حال بفقد الكرامة الشخصية .

(٢) تقصد فتور الانتخابات وتغير نتائجها بتغير لون الوزارات الموجودة فى الحكم وانتقال النواب والشيوخ من حزب الى حزب أو تغير رأيهم فى نفس الموضوع فى نفس الدورة بتغيير الحكم .

(٣) مثل تشريع الضرائب والعمل الخ ...

(٤) لا يوجد للآن تشريع واحد ينظم العمل فى الزراعة فى حين أن العمل فى الصناعة منظم بقوانين لا حصر لها .

ونحن نقرأ فى محاضرة لوكيل وزارة الشئون الاجتماعية المساعد نشرت بجريدة المصرى الصادرة فى ١٧/٢/١٩٤٨ ما يأتى :

« ... ولكن الواقع أيها السادة أن الفلاحين هم المصريون اذ يكونون ثلاثة أرباع السكان وليست حالة الفلاح الراهنة بالحالة الطارئة التى يتيسر علاجها علاجا سريعا حاسما بل هى نتيجة عوامل متعددة سياسية واقتصادية واجتماعية تضافرت منذ أجيال حتى وصلت بالفلاح الى هذه الحالة .

وهناك عامل آخر كان له أثر فى زيادة حالة الفلاحين سوءا على سوء ـ ذلك أن الدولة لم تعدل فى توزيع خدماتها بين أبناء البلد الواحد الذين يتحتم على أولى الأمر التسوية بينهم فى المعاملة ... » .

المغولى فهو يخلط بين الحكم والتحكم [١] ويطغى على كل شيء كما يشاء [٢] ويعد الأفراد ومصالحهم وسيلة لوجوده لا غاية لها [٣] . وهو لا يكاد يميز بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة ، فيتحول فى يسر الى وسيلة من وسائل اصلاح الحال ومحاباة ذوى القربى والاعلان الشخصى . ثم انه لا يقدر وزنا للتشريع الوضعى فيتزيد وينتقص فى تفسيره وتطبيقه أو تعطيله كما يشاء دون أن يكلف نفسه حتى التزام الطريق الصحيحة المؤدية الى ذلك . وهو على كل حال حديث فى تكوينه فليس بين القائمين به من أدنى الدرجات الى أعلاها من عمل به أكثر من جيل أو جيلين ولكنه قديم فى نظمه فهذه النظم مازالت فى جوهرها تلك التى انشئت فى القرن الماضى دون روية أو تعمق .

ونبصر من ناحية أخرى هذا الاقتصاد الصناعى — التجارى الذى مازال يقوم فى غالبه لعهدنا هذا على أكتاف الأجانب ومازال يتركز فى الاسكندرية والقاهرة وبور سعيد ، حيث تقوم هذه الأحياء الحافلة التى لا يكاد يقوم بها شيء مصرى ، والتى تحول منتجات البلاد وتتجر فيها وتبادل بها ما يحتاج اليه أبناؤها من منتجات أجنبية ، أى تتحكم فى حياتها الاقتصادية جميعا [٤] ، وتتحكم فى حياتها الاجتماعية أيضا

(١) والميل الى هذا الخلط يرجع أيضا الى حداثه الحكم أى قرب عهد القائمين به ومن هنا وجوده أيضا فى الحكم المملوكى ، فقد كان هذا الحكم وظل دائما حكم محدثين .

(٢) وقد رأينا الأمثال على ذلك بدون حصر أثناء الحرب حين اضطرت الدولة الى الاهتمام بالاقتصاد .

(٣) والمعاملة التى يلقاها أصحاب المصالح فى المصالح الحكومية ما زالت الى اليوم معاملة السيد للمتبوع .

(٤) لاشك فى أن فى هذه الظاهرة ما يؤذى الكرامة المصرية خصوصا اذا لوحظ أنها ليست بالظاهرة المفتعلة فليست هناك قوانين تقصر النشاط الصناعى والتجارى على الأجانب دون المصريين . انما الأمر أمر الخبرة التى اكتسبها هؤلاء الأجانب من مزاولتهم الصناعة والتجارة فى بلادهم أب عن جد وقرب عهد المصريين بهذا النشاط بعد الخراب الاقتصادى الذى منيوا به تحت المماليك . ولكنه مما يفوق ايذاء لهذه الكرامة أن يكون كل ما تستطيع أن تفعله الدولة لمعالجة هذه الظاهرة هو اصدار القوانين التى تفرض عليها حقوقا لأبناء البلاد بدلا من التحول بهؤلاء الى القيام هم بهذا النشاط واعدادهم الاعداد الصالح لذلك .

اذ تجتذب اليها اليد العاملة والشباب الحديث وطائفة لا بأس بها من أصحاب السلطان وتنمى الثروة الأهلية وتنشر أساليب الحياة العصرية [١] . ونبصر هذه المعاهدة العلمية التى أخذناها هى وبرامجها وسبلها فى التعليم عن الغرب والتى تنشيء بيننا وبين هذا الغرب هذه الصلة الفكرية التى تمكننا من تتبع تطوراته وتهيئنا لتلقى آرائه ونظمه وأساليب حياته . ثم نبصر نظمنا العامة جميعا من الدستور الى أقل القوانين شأنا ، ومن تنظيم السلطات الى التقسيم الادارى ومن المجالس النيابية الى المحاكم القضائية والادارية والدينية ، وقد نقلت هى الأخرى عن مثيلاتها الغربية واستعيض بها عما كان فى ماضى البلاد البعيد أو القريب من نظم لم يعن أحد الى اليوم أن يتبين ما الفاسد منها وما الصالح .

نبصر هذه العناصر المصرية والغربية ونلمس أثر تفاعلها لمسا يسيرا فى اتجاهات هذا الجيل المصرى الجديد الذى شارفت طلائعه المراكز

(١) وقد حملت الصحف على اشتغال الساسة بالأعمال المالية فى الوقت الذى كانت تحض فيه على الاشتغال بهذه الأعمال بالذات وذلك لما يرمى به هؤلاء الساسة من استغلال لسلطانهم فى مصلحة المنشآت التى يعملون بها .
وقد فات هذه الصحف أن قابلية هؤلاء الساسة لاستغلال النفوذ لن تنعدم بقصر نشاطهم على شراء الأراضى دون العمل فى الشركات ، وانه لاشك فى أننا لن نكتسب الخبرة الاقتصادية التى تنقصنا الآن الا بالاشتراك فيما يوجد منها لدى غيرنا .

وقد يكون من الأجدى أن تنظر الدولة فى أمر أحكام تنظيم أمورها هى حتى تستعصى على استغلال النفوذ الذى تخشاه من أن تقيم بين الحياة السياسية والحياة الاقتصادية سدا يحرم الأولى من الخبرة التى تحتاج اليها فى الحكم ، وقد رأينا حاجته اليها ، ويحرم الثانية من العناصر القوية التى تستطيع افادتها . والنزاهة على كل حال ليست فى أن لا تجد الشيء فلا تسرقه بل فى أن تجده ولا تسرقه .

بقى أن القول باستغلال الساسة سلطانهم فى مصلحة المنشآت الصناعية ، حتى اذا سلم بحصوله ، لا يتعارض وما بيناه من بقاء اتجاه الحكم لدينا اتجاها زراعيا وعدم تأثير الحياة الصناعية فيه . فاستغلال النفوذ لقضاء الحاجات شيء واشتراك العقلية الصناعية فى الحكم أو توجيه السياسة العامة توجيها صناعيا شيء آخر .

الأمامية من الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية فى البلاد [١] . وهذا الجيل ان شئنا هو أول ثمار الحياة المصرية الجديدة فهو أو غالب الطاقة المتعلمة منه على الأقل — وهى التى تعنينا هنا — من أبناء الطبقة المثقفة التى عاصرت كرومر وجاهدته . وهو قد تربى جميعه تربية حديثة [٢] . ونال فى الغالب هذه التربية على الأيدى المصرية التى كفلها له الاتجاه الوطنى فى الحكم . ثم هو ينعم الآن بما قطعته البلاد فى هذا النصف الأول من القرن العشرين من تقدم اقتصادى ، نقصد أنه لم ينشأ فى بيئة كالبيئة التى نشأ فيها رفاعة الطهطاوى أو على مبارك أو عرابى أو مصطفى كامل .

وهذا الجيل يعاب الآن من ناحية تربيته وناحية تشبهه بالغرب . وظاهرة التربية هذه ، التى خشاها الشيخ محمد عبده وأتباعه [٣] اذا تركنا الأسباب الفنية التى يرده اليها المتخصصون فى هذا الميدان ، ترجع ولاشك الى ما سبق أن أشرنا اليه من الاختلاف بين الحياة فى المنازل والحياة خارجها وبين الحياة التى نصبوا اليها والحياة التى نحياها . فقد نال الآباء حظا من التعليم لم تنله أو لم تنل مثله الأمهات . والآباء نفسهم يختلفون فيما نالوه من تعليم فالكبار منهم شبه أميين والصغار جاوزوا التعليم الأولى ثم وقفوا عند ذلك . والكبار مازالوا ينظرون الى الحياة كما كان ينظر اليها المصريون أيام محمد على وقبل ذلك من حيث علاقة هذا العالم بالعالم الآخر وعلاقة الفرد بالدولة ووضع الفرد من النشاط الاقتصادى على وجه العموم ، وهى النظرة التى يحاربها التعليم الحديث

(١) لسنا نريد أن نذكر أسماء بالذات حتى لا نبعد عن الغرض الذى نقصد اليه ولكن من يتتبع الصحف أو يختلف الى دور الحكم والفكر والاقتصاد لاشك ملاحظ موجة سريعة من الشباب الجديد تصعد الى المراكز الرئيسية فيها أو تحدق بها .

(٢) ولا يشذ عن ذلك من التحق بالمعاهد الدينية فالتعليم فى القسم الابتدائى والثانوى من هذه المعاهد لم يعد يكاد يختلف عنه فى المدارس المدنية وفى الكليات الأزهرية الآن مدرسون درسوا فى ألمانيا وفرنسا وانجلترا .

(٣) انظر رأى الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا فى التعليم الأميرى فى « الاسلام والتجديد فى مصر » .

ويسعى الى القضاء عليها . أما الصغار فقد زعزع التعليم الذى نالوه العالم القديم فى نفوسهم دون أن يعطيهم سواها وبعث فيهم الشك والحيرة وان فتح أمامهم آفاقا جديدة وأكسبهم هذا الميل الى تعليم أبنائهم مهما كلفهم من جهد أو عناء .

وقد حدث التشبه بالغرب الذى تنبأ به الشيخ محمد عبده أيضا ولكن على غير الصورة التى خشاها فهو لم يجعل من الجيل الجديد بوقا للاستعمار [١] ولكنه أسبغ على تصوره الأمور ذلك الشكل الغربى الأجوف الذى يفسد نظرتهم للأمور والذى يرجع الى جهل هذا الجيل بالتراث العلمى الشرقى [٢] والمامه بالتراث العلمى الغربى الماما مضطربا وبقاء العلوم الحديثة فى تفكيره مثل السراب المتبدد . فهذا الجيل لا يدرس آثار الشرق القديم أو القريب درسا حقيقيا ولا يتلقى الفكر الغربى من مصادره الأولى [٣] ولا يجد للعلوم الكثيرة التى تقدم

(١) أنظر « الاسلام والتجديد فى مصر » .

(٢) وقيمة هذا التراث لا يمكن أن يحكم عليها قبل أن تدرس لذلك من العبث أن يقال انه ترك لأنه لا يغنى شيئا . وليس هذا التراث هو الشعر الجاهلى والغزل الاموى فهناك هذه الأبواب الكثيرة الأخرى التى عرض لها مؤرخو الشرق القديم قدر استطاعتهم والتى لن تتضح وتصبح حقائق علمية ان لم نعرض لها نحن بملكاتنا الخاصة .

(٣) « . . . وأنا مع ذلك مؤمن أشد الايمان وأعمقه ، وأقول بأن مصر لن تظفر بالتعليم الجامعى الصحيح ولن تفلح فى تدبير بعض مرافقها الثقافية الهامة الا اذا عنيت بهاتين اللغتين (اليونانية واللاتينية) لا فى الجامعة وحدها بل فى التعليم العام قبل كل شىء والادلة على ذلك تظهر لى يسيرة هينة وجلية واضحة ومن أغرب الأشياء فى نفسى وأبعدها عن فهمى الا يفطن لها ولا يهتدى اليها الذين ينهضون بشئون مصر ويقومون على تدبير أمورها ، والذين يشرفون على التعليم فيها بنوع خاص . وأكبر الظن أن مصدر هذا انما هو ان الجيل الحاكم والمرتقى الى الحكم لا يتقن العلم بالشئون الثقافية فى أوروبا ولا يكاد يعرف منها الا ظواهرها وظواهرها القريبة اليسيرة التى لا يحتاج فهمها ولا العلم بها الى جهد ولا عناء . منهم من تعلم فى المدارس المصرية وانتهى الى غاية التعليم المصرى أيام الاحتلال ثم وقف عند ذلك ولم يتجاوزه فلم يعرف من حقيقة التعليم شيئا أو لم يكد يعرف منه شيئا ، ثم دفع الى شئون الحياة العامة فجاهد فيها منتصرا حينا ومنهزما حينا آخر وشغل بهذا الجهاد السياسى عن غيره من الشئون وانتهى به الأمر الى أن اعتقد أن السياسة هى كل شىء وأن مقاومة الانجليز ومخاصمة الأحزاب هى أقصى ما ينتهى اليه جهد الرجل المصلح فى هذا الطور من أطوار الحياة المصرية ،

اليه أثرا فى الحياة اليومية التى يحياها [1] ، ومن هنا ترجحه بين انكار ماضيه ، وبخاصة الجيل الذى سبقه والذى يلقى هو عليه صعوبات حاضرة ، والتعصب الأهوج ، الذى يصدر عن الشعور المتحفز ولا يصدر

ومنهم من اتصل بالجامعات الأوروبية قبل أن يتم التعليم العالى فى مصر أو بعد أن أتمه فدرس فيها وظفر ببعض أجازاتها ولكنه درس فيها عجلا وظفر بأيسر أجازاتها وأهونها وانتفع فى هذا كله بنظام المعادلات التى تقره الجامعات الاوروبية لتيسر على الأجانب الاختلاف اليها وترغيبهم فى الاتصال بها وتنشر بهذا كله الدعوة لبلادها وتعليمها وأجازاتها فى البلاد الأجنبية ... » .

« ... وقد عاد هؤلاء جميعا من أوروبا وتولوا الأمور العامة فى مصر وهم لا يعرفون من الحياة العقلية الأوروبية الا ظواهرها وأشكالها ومنهم من يعرف ذلك معرفة ناقصة ومنثورة ولكنهم قد عرفوا الحياة الأوروبية المادية معرفة حسنة واستمتعوا بلذاتها أو طيباتها وقارنوا بينها وبين حياتنا المصرية الغليظة المهملة التى لا تخلو من خشونة وشظف والتى لا تخلو مع ذلك من لذة ومتاع فمنهم من قلد أوروبا فأسرف فى التقليد ومنهم من رجع الى الحياة المصرية فأسرف فى الرجوع وألقى عن نفسه الطلاء الأوروبى ومنهم من توسط بين ذلك واختار لنفسه مزاجا من الحياتين فيه لذة ومتاع وفيه ترف واستمتاع وقليل جدا منهم من تأثر بالحياة العقلية الأوروبية وتعمقها فى أثناء اقامته فى أوروبا ثم احتفظ بهذا التأثر والتعمق بعد أن رجع الى مصر » . طه حسين : « مستقبل الثقافة فى مصر » .

(١) وهذه الظاهرة تلاحظ على وجه الخصوص بين خريجى المدارس التى تهىء للأعمال الاقتصادية فالطلبة وأساتذتهم لم يتصلوا فى الغالب من بعيد أو قريب ببيئة هذه الاعمال ولا يمكن أن يقوم لذلك فى نفوسهم صلة بما يدرسون .

ويلاحظ أننا نطالب أبناءنا باتقان اللغات الأجنبية ونعيبهم بأنهم لا يفلحون فى معرفتها أو فى اجادة العلوم الاقتصادية كأقرانهم من النزلاء . ونحن ننسى أنهم لا يتكلمون واحدة من هذه اللغات أو يتصلون بمن يتحدثها كهؤلاء النزلاء وأنهم يتحدثون الى ذلك فى المنازل بأمور تغلب عليها المسحة الدينية ولا يجدون من يحدثهم فى شئون الحياة العملية كما يجد أقرانهم .

وقد يحسن بالذين يتشاءمون من أمر تثقيف شبابنا أن يختاروا شابا مصريا عصريا وقرينا له من أى بلد غربية متقدمة ويقيسوا المسافة بين القيمة العقلية لكل منهما والقيمة العقلية للجيل السابق لها ثم يقارنوا بين المسافتين فسيتضح لهم طول الطريق التى قطعها أبناؤنا رغم ما يحيط بهم من انقلابات وهزات من كل نوع . وأخطاؤنا جميعا فيما يتعلق بأمورنا الخاصة والعامة ترجع كهذا الخطأ الى خلطنا هذا بين تقدمنا بالقياس الى الماضى وتقدمنا بالقياس للغرب الذى سبقنا فى مضمار الحياة الحديثة بقرون يقتضى تغطيتها جهدا خاصا ، ثم ردنا أخطاء الاساليب التى ننتهجها الى نقص فى طبيعتنا لا دليل عليه .

عن الدرس العميق ، ويبدو لذلك فى جمل جوفاء لا تغنى شيئا ، ثم الحماس للغرب حماسا يبلغ فى خريجى المدارس الأجنبية والمعاهد الخارجية حد فقد الوعى القومى ويضطرب فيمن عداهم بين الارتفاع والهبوط ، ولكنه يشرك هؤلاء وأولئك فى التشوق لهذا الغرب والاقتداء به وتقديس ما يصدر عنه تقديس عبدة الأصنام أصنامهم [1] .

وهذا الاختلاف بين دكنة الحياة القائمة ونور الآفاق التى يفتحها التعليم الحديث أمام أبناء هذا الجيل يضعف من تقديرهم لقيم الحياة القديمة ويزيد فى تقديرهم للقيم الجديدة دون أن يثبت معالمها لديهم لأن هذه القيم لا تجد من الواقع الجوهر الذى يملأها فتظل كالأشباح التى تلم بالنائم ليست حقيقة وليست سرابا وانما هى شىء مائع يلزم مؤخر الرأس ويبلبل الفكر ويفسد الرؤية فلا تميز الهام من الثانوى أو العام من الخاص أو الحقيقة من الزيف . ونحن نلمس هذه البلبلة فيما نقرؤه كل صباح ومساء خصوصا عن الاتجاهات الاقتصادية والاجتماعية القديمة والجديدة [2] وما نشهده من حركات بين الطلبة [3] وما سمعناه عن تلك السلسلة الطويلة من الاعتداءات السياسية الأخيرة [4] .

---

(١) وهذه الحماسة تفرق فى الغالب بين مفكرينا تفريقا تبدو آثاره أحيانا فى حياتنا العامة أيضا فمن هؤلاء المفكرين من يتشيع للفكر الفرنسى ومنهم من يتشيع للفكر الانجليزى أو الألمانى أو الأمريكى . والمتشيعون للفكر الفرنسى يميلون اذا اشتركوا فى الحكم الى الأخذ بالتشريع الفرنسى كما يميل المتشيعون للفكر الانجليزى الى الأخذ بالتشريع الانجليزى الخ . أنظر هذه الظاهرة فى « مستقبل الثقافة فى مصر » .

(٢) وقد وجد أصحاب هذه البحوث حضارة زاهرة فى الجاهلية ووجدوا النظام النيابى فى صدر الاسلام والقنبلة الذرية فى مقابر الفراعنة .

(٣) وهى حركات ترمى الى اخراج الانجليز بمقاطعة الدراسة ، وتريد الحرية بحرق أبنية الجامعات .

(٤) « خمسون سنة ؟ وما خمسون سنة فى حياة الأمم ؟

مسافة قصيرة تغمض الأمة عينها وتفتحها فاذا هى قد عبرت وغبرت وأصبحت فى عداد أجيال التاريخ .

ولكنى أقف الآن على شاطىء هذه السنين الخمسين كمن يقف على شاطىء بحر يمتد الى خمسين فرسخا ، وعلى شاطئه القريب عشرة أمتار من الضباب .

وعشرة أمتار بالقياس الى خمسين فرسخا شىء يسير ، ولكنه على يسره كاف لأن يحجب عنك البحر كله ، حتى ينقشع ذلك الضباب .

والضبابة التى أمام عينى الآن على شاطىء السنين الخمسين ـ هى نتيجة

واليه أيضا يرجع ما يلاحظ على هذا الجيل ، خصوصا من أتم منهم الدراسة فى الغرب ، من تهافت على الحياة المادية ورغبة فى الدعة وخلط

التعليم فى بلادنا المصرية • فهى ـ ولا مناص من الحق ـ نتيجة يؤسف لها من بعض الوجوه على الأقل ، لأننا رأينا أنها ترخى العنان للشر فى واحد من كل مائة ، فيصبح على المجتمع كله شرا لا يدفعه المئات • لقد كان اناس منا يحسبون أن الأمية هى آفة الرأى العام فى بلادنا ، وأننا اذا محونا الأمية خلقنا رأيا عاما صالحا للحكم على حقائق الأمور • فهل نستطيع اليوم حقا أن نقول ان محو الأمية يغنينا كل الغنى أو بعض الغنى فى خلق ذلك الرأى العام ؟

ان العيسوى الذى فجع البلاد فى « أحمد ماهر » لم يكن يعرف القراءة والكتابة وحسب ، بل كان من خريجى المعاهد العالية ومن الشبان المعدودين بين أذكياء الخريجين فى تقدير بعض عارفيه •

ومع هـذا استطاع هـذا « المتعلم » أن يصـدق أن اعلان الحرب فى سنة ١٩٤٥ يغرق البلاد المصرية فى بحر من الدم ويجر عليها الخراب ويقضى على أسطولهـا التجارى ويسخـر الألوف من أبنائهـا لشهوات المستعمرين •

وظهر جهله الفاضح فى أقل من شهر واحد ،ولكن ظهور هذا الجهل لم يمنع شابا آخر تخطى التعليم الثانوى الى التعليم العالى أن يصدق أن « محمود فهمى النقراشى » سلم فلسطين لليهود وسلم السودان للانجليز •

ولم يمنع شابا آخر تخطى التعليم الثانوى أيضا أن يصدق أن هدم محكمة الاستئناف على رؤوس ألفين من المستشارين والقضاة ورجال القانون ووكلاء الدعاوى وأصحاب القضايا والباعة والشهود هو عمل يرضى الله ويأمر به دين الاسلام •

وهذا كله لم يمنع كثيرا من الشبان المتعلمين أن يصدقوا أن الجيل الذى عاصر الاحتلال من المصريين جيل خائن بأسره لم يصنع صنيعا قل أو كثر فى خدمة القضية المصرية ، ومن حقه أن يباد وأن تستباح سمعته وحريته بغير اكتراث •

وهذا اللغو الذى صدقوه بغير مشقة لا يدخل فى دماغ بهيمة تمشى على أربع ، لو أن بهيمة تمشى على أربع تصغى الى كلام وتتكلف أن تسيغ ما تصغى اليه لأن أضيق فكر ـ يستحق أن يسمى فكرا ـ يفهم أن الفضل فى خدمة الوطن يحسب لمن عاصر السطوة الأجنبية ، ولا يحسب لمن جاء بعد زوالها أو جاء بعد أن خفت وطأتها على كاهل الأمة •

هذا كله صدقه أولئك المتعلمون لأن التعليم لم يتغلب على نزعة الشر فى طباعهم ، فماذا نرجو من نشر التعليم بعد خمسين سنة ان كان انتشاره سيطرد على هذا المثال ؟

أقصى ما نرجوه أن يصبح كل فرد فى مصر متخرجا من مدرسـة ابتدائيـة أو ثانوية • فهل نضمن بعد ذلك رأيا عاما صالحـا للحكم على حقائق الأمور •

يسأل سائل : أتظن أن التعليم لا يفيد ؟ وجوابى البديهى : كلا ان التعليم لأفيد ما يفيد فى تربية الأمم ، ولكنه تعليم اللباب لا تعليم القشور : تعليم المعرفة والتربية النفسية لا تعليم المراسم والأوراق والألقاب • وتعليم

بين الحضارة الحقيقية وهذه الأشكال المترفة التى تتخذها فى بعض العواصم الغربية • فما داموا قد حصلوا مثل ما يحصله أقرانهم هناك من علم وما دام ما حصلوه لم يبلغ بهم جوهر الأمور فهم يخلطون بين الأصول والفروع . ونزعتهم الى ذلك تغذيها السن كما تدفع اليها أقرانهم فى الغرب ولا يردهم عن الانسياق اليها ما يرد هؤلاء من الجوانب الخشنة للحياة الغربية كالخدمة العسكرية والحرب وصعوبات السعى للرزق • ومن هنا

المراسم والأوراق والألقاب هو الذى أخرج لنا أولئك المفتونين ، ومكنهم من الظهور بين الناس بمظهر العلماء وأغناهم بهذا المظهر الكاذب عن طلب المعرفة الصحيحة ، لأن المهم عندهم أن يحصلوا على « مستند » بأنهم متعلمون ، لا أن يكونوا فى الحقيقة متعلمين • ومثل هذا الاعتقاد خطر على أكبر العقول ، فما بالك بعقول الأغرار الذين لا تقوم عوجهم استقامة منتظمة فى أساليب التعليم • ان هذا الاعتقاد اذا دخل عقلا حال بينه وبين الاصغاء الى رأى نافع أو فكرة صائبة • لأنه يستكبر أن يتعلم من أحد ويستكبر أن يصارح نفسه بالحاجة الى مزيد من التعليم • وليته مع هذا يغلق أذنيه عن كل كلام يسمعه ، فانه فى هذه الحالة سيغلقهما عن سماع النافع والضار على السواء •

ولكنه فى الواقع يسمع الضار ولا يسمع النافع ، لان الاعوج المغرور يستمع لما يرضى غروره ولا يستمع لشىء غيره ، وهنـا الطامة الكبرى التى تعميه عن الحق وتجعله عامدا أن يحجب عينيه بيديه •

فالمغرورون فى كل عصر ، وفى كل أمة ، هم أسهل فريسة للدجالين والمضللين • وكل من قال لواحد من هؤلاء المغرورين انك قد استوفيت كمالك وانك أنت بدعة الأزمان فهو مصدق ، وما يقوله له مسموع ومقبول ، وكل ما عداه غير مسموع ولا مقبول •

لقد كان سهلا على العيسوى أن يفهم ضلالته ، أو يتأنى على الأقل فى حكمه لو استطاع أن يسيغ أنه قد يخطىء وأن أحمد ماهر قد يصيب • ولكن هذا هو الشىء الوحيد الذى لا يستطيعه ، لانه يريد أن يغتر وان يصدق ما يرضى غروره دون غيره • ولذلك فتح دماغه لتلك الضلالة التى لا يتفتح لها دماغ الجاهل الساذج بغير غرور •

فاذا كان تعليمنا سـيطرد على هذا المثال فلا خير فيه ، والجهل خير منه وأسلم •

أما اذا كنا متجهين بالتعليم الى وجهة المعرفة الصحيحة والتربية النفسية وكان أبنـاؤنا سيذهبون الى المدرسـة للحصول على العلم لا للحصول على « مسـتند » بالعلم ينفخ أوداجهم ويغلق أبواب عقولهم عن الصواب ، فنحن صائرون الى القوة والمجد ، حين يصبح المصريون أربعين مليونا متعلمين مثقفين صالحين للحكم على حقائق الأمور » • « مصر بعد خمسين سنة » : الأستاذ عباس محمود العقاد ، أخبار اليوم فى ٢٢ يناير سنة ١٩٤٩ •

هذا التهالك الذى نسمعه فى الغناء ونقرأه فى الصحف ونراه فى الأشرطة السينمائية .

وهذا الجيل يتنقص أيضا بأزوراره عن الأعمال المالية واقباله على الوظائف رغم ما يهديه اليه الناصحون من نصح لا يقرنونه بالعمل . ولاشك فى أن هذا الأزورار يرجع فى غالبه الى ما رأينا من غلبة الطابع الزراعى على الاقتصاد المصرى وما ينبنى عليها من بقاء المجتمع محدود المعاملات قليل الربح كثير الأخطار . وهو لا يمكن لذلك أن يعالج بالنصح والانتقاد انما يكون علاجه باستثمار الأموال المصرية فى الصناعة والتجارة واقامة المنشآت التى تستخدم أبناء البلاد وتدربهم تدريبا عمليا نافعا . وليس لدينا على كل حال ما يدل على انصراف من التحق بالأعمال المالية ونجح فيها من أبناء الجيل الحاضر عن ميدان هذه الأعمال رغبة فى التوظف . انما الذى نشهده الآن وشهدناه أثناء الحرب الأخيرة ، حين كثرت المنشآت الصناعية ونشطت المعاملات ، هو عكس ذلك بالذات فقد أقبل الموظفون وقتئذ على ترك وظائفهم للالتحاق بهذه المنشآت . وهكذا يكون الأمر أمر الأوضاع الاقتصادية والثقة بالمستقبل قبل أن يكون شيئا آخر .

ومما يصدر عن هذه الظاهرة الأخيرة ويلحق بها ، هذا النهم المادى الذى يلحظ على الجيل الحاضر ويدفع ببعض أبنائه الى ماتنهى عنه الأخلاق السليمة كارتشاء الموظف وعبث الطبيب وغش المهندس الخ .. رغبة فى التزيد من الربح . فهذا أيضا يرجع الى ندرة المعاملات وعدم اكتمال وعيها والى الحداثة أيضا . فهذا الجيل ان شئنا أول جيل يتكسب بمزاولة الصناعة والتجارة ويواجه تكاليف الحياة العصرية دون أن تكون وراءه ثروة خاصة . وهو لذلك يحاول الاكثار من الربح ما استطاع ولا يتقيد بالتقاليد الصناعية والتجارية أو مقتضيات الاستثمار الحكيم . وقد سبق أن رأينا كيف ينظر المجتمع الزراعى عادة الى الانتاج الصناعى والتجارى نظرته الى الابتذاذ أو الاستغلال الأثيم .

وشعور هذا الجيل بالفروق الاقتصادية التى تقوم بينه وبين الغربيين هو بعض العلة فيما يبديه من جفاء نحو الأجانب المقيمين بين ظهرانيه ، وهو جفاء يحمل عادة على محمل البغض للغرب ويبعث لذلك الدهشة فيمن يقارنه بانتشار أساليب الحياة الغربية بين أبناء البلاد . والواقع أن هذه الظاهرة تشتمل على عوامل مختلفة ففيها دون شك شيء من تشفى المستضعف الذى استعاد قواه ، وشيء من أثر الخلافات الدينية القديمة ، وشيء من هذا التوتر الذى ينشأ بين قوم يلتقون كل صباح ومساء ولا يتواصلون ، وفيها قبل كل شيء الرغبة الملحة التى يشعر بها الجيل الجديد فى هذه الحياة العصرية التى استأثر بها هؤلاء النزلاء الى الآن ، وهى لا تتعارض لذلك والميل الى الغرب فى شيء بل تبدو بين أصحاب هذا الميل ، وخصوصا بين من قضى منهم بعض حياته فى الغرب وأصبح يرمى بالابتعاد عن صميم الحياة الشرقية أكثر مما تبدو لدى غيره ، ولا تعدو لذلك أن تكون هى الأخرى فى جوهرها مظهرا من مظاهر التوازن الآخذ سبيله بين المجتمع الغربى والمجتمع المصرى ، بعد ما قطعه هذا الأخير فى هذا الصدر الأول من القرن العشرين ، فى طريق التقدم الاجتماعى والسياسى (١) . ونحن لم نتصل على كل حال بالغرب صلة التزاور والصداقة والتعامل كما اتصلنا به فى هذه السنوات الأخيرة ولعل تزاوج المصريين من الغربيين لم يبلغ ما بلغه فى هذه السنوات أيضا قط .

وقد أفاد انتعاش الحياة الاقتصادية فى هذا النصف الأول من القرن العشرين ، وانتشار التعليم ، ومجاهدة قادة الفكر فى اذاعة الفكر الصحيح ، وما صحب ذلك من انتشار هذا الجو السياسى الجديد الذى أعقب نزول الاحتلال السياسى عن معاقله الأمامية — أفاد دون شك فى تثبيت أقدام هذا الجيل وتقوية شخصيته وتجنيبه ، ولو الى حد ، الحيرة التى عاناها الجيل السابق من أمر الطريق التى يحسن بمصر أن تسلكها كما تحقق أهدافها . ونحن نقرأ الآن لكتابنا حتى من قنع منهم بفتات الثقافة الغربية

(١) أنظر وصف عوارض هذه الظاهرة فى « هموم الشباب » لعبد الرحمن بدوى .

وعرف فى شبابه بالابعاد فى التقليد والتشيع للغرب ، فنشعر بهم
وقد عادوا يعكفون على نفسهم وتراثهم الوطنى وجعلوا يستمدون من
عودتهم هذه شخصية جديدة وأسلوبا فى التفكير والكتابة جديدا .
وما الحركات الاسلامية المنتشرة الآن الا صورة من صور هذه الظاهرة
فى الجناح الذى لم يتصل بالغرب من المجتمع . كذلك نعثر بين نتاجنا
الفكرى الحديث على آثار ذات قيمة علمية لاشك فيها ، ونسمع من
القائمين بالحكم فى ميدان النضال السياسى لهجة حرة لم نكن نسمعها حتى
عشية الحرب العالمية الثانية ، ونجد بين المحكومين ابعادا فى هذا الاتجاه
يكاد ينقلب الى استهتار بكل ماهو أجنبى واستعلاء عليه ، ثم نرى هذا
الاقبال على النشاط الصناعى والتجارى الذى كان يلقى الرهبة فى نفوسنا
حتى الأمس القريب ، وان كنا نلمح فى كل هذا أثر قادة الرأى فى اتباعهم
وتحول الأوضاع السياسية العالمية ونمو الثروة فى البلاد ، أكثر مما نلمح
أثر العمل الايجابى المدبر .

* * *

ونحن ننتهى من هذه النظرة السريعة لأوضاعنا الحاضرة الى ما وصلنا
اليه بالعرض لأهم أحداث تاريخنا تحت المماليك من أن الأمر فيما عليه
حالتنا الراهنة هو قبل كل شىء أمر فقر الدم هذا الذى أصاب أطراف
مصر جميعا بين القرنين الخامس العشر والتاسع عشر ، فحد من نشاطها
الاقتصادى ، وهبط بحياتها الاجتماعية الى الحضيض ، ودفع بفكرها
الى الجمود الأزهرى . أمر مجتمع يخرج من أقصى ما يستطيع أن يتردى
فيه شعب من دمار الى أحدث ما انتهت اليه البشرية المتمدنة ، ويحاول
أن يساير هذه الحياة الجديدة دون تقاليد أو مقومات حقيقية ، وهو يتعثر
لذلك بين هشيم الماضى وعقبات الحاضر ولا يريد أن ينظر الى ظروفه
الخاصة النظرة المجردة التى تستحقها ، ويعالجها بالحزم الذى تقتضيه .
ومعالجة مثل هذه الحالة لا تستطيع أن تستقيم الا بتنقية هذا الدم وتغذيته
والاكثار منه ، وهو عمل يقتضى مجهودا كبيرا يشترك فيه جميع أفراد
المجتمع ، لأنه يتصل بنشاط كل منهم . هذا اذا كان المجتمع قد بلغ من
الرشد ما يشعره بحقيقة أوضاعه والا كان هذا المجهود من واجبات الذين

ينهضون بالحكم والصفوة التى تقوم الى جانبهم . وقد صرفنا كفاحنا
السياسى — وهو أيضا كما رأينا صورة من صور قصورنا الاجتماعى —
صرفنا عن مواجهة ذلك المجهود ومازال يفسد علينا محاولته . كذلك
مازال غالب الطبقة الحاكمة فينا يظنون صادقين أن العناية بمسائلنا
الداخلية تأتى فى المرتبة الثانية بعد مجاهدتنا الانجليز ولا يرون أن أوضاع
الأمم فى ميدان الحياة الدولية ليست ، آخر الأمر ، سوى الانعكاس
المباشر لظروفنا الداخلية فى هذا الميدان ولاشأن كبير لها بمهارة الرجال
الذين يحكمون أو دهائهم أو مايتصايحون به كل حين من تحالف الأحزاب
السياسية أيضا . وقد تحالفت الأحزاب لدينا فعلا فلم تتقدم أمورنا فى الداخل
أو الخارج خطوة واحدة بل عقدت تلك المعاهدة المصرية الانجليزية التى
تتنكر لها هذه الأحزاب الآن ، لأن نصوصها لم تزد فى قوة مصر الذاتية
ولم تضعف من قوة انجلترا الذاتية فبقى وضع كل من البلدين على ما هو
عليه وبقى القوى منهما يؤثر فى الضعيف كما حدث وكما سيحدث فى الصلات
بين الأفراد وبين الدول فى كل زمان ومكان . وهكذا ظل الساسة
يتلقون التعليمات من ممثل السلطة المحتلة ، وموظفو الدولة يترجحون
بين السلطة الشرعية والسلطة غير الشرعية ، ومصالح البلاد تدور فى فلك
مصالح هذه السلطة الأخيرة ، بينما نحن نشهد الآن تحولا حقيقيا فى هذه
الصلات وتحررا ملموسا من ناحية الذين يحكمون لاشك فيه ، لأن
سنى الحرب الأخيرة شهدت ارتفاعا فى قوى البلاد لا ريب فيه أيضا وظهور
جيل جديد أوفر شعورا بالوعى القومى من الجيل الذى سبقه وتطورا
فى تكوين الطبقة الحاكمة ، وكل ذلك فى الوقت الذى تغير فيه جو السياسة
العالمية وتضعضعت قوى الامبراطورية الانجليزية . نشهد هذا ونعلم أن
المعاهدة المصرية الانجليزية مازالت قائمة كما كانت منذ سنة ١٩٣٦ .
ولسنا نريد أن نقول بهذا أن وضع انجلترا فى مصر لا يؤدى الى تعطيل
النهضة التى نريدها ولكننا نريد أن نقول أنه لو درس الطالب فأتقن
دراسته وعمل العامل فأحسن عمله وحكم السياسى فأحسن حكمه
لما استطاعت انجلترا أن تقاوم احسانهم مقاومة مثمرة ولكانت خسرت
أكبر تكأة لها فى البلاد .

وقد بذلت ومازالت تبذل دون شك جهود كثيرة فى طريق معالجة ما يدعى بالمسائل الداخلية أو الاصلاح الاجتماعى ، نقصد هذا النقص فى تكويننا كمجتمع حديث ، بذلت فى ميدان التعليم والاستثمار الزراعى على وجه الخصوص ، وهى تبذل الآن فى ميدان العلاقات الاجتماعية والاقتصاد ان شئنا أيضا ، وكانت النتيجة هو ما يعاب على هذه الجهود الآن من التعثر والوقوف عند القشور ، كما عيب ذلك على حكام الآستانة والولاة العثمانيين ، لأنها لم توجه الى صميم الأمور ولم تنظر الى حالة المجتمع كشىء يتمم بعضه بعضا . ونحن لا نريد أن نعرض هنا للجدل القائم الآن فى كل مكان حول دور الاقتصاد فى الحياة الاجتماعية وتقنع بالاشارة الى ما يقر به حتى أشد المفكرين انكارا للمادية التاريخية من ما بين حالة المجتمعات وحظها من الثروة ، وبين الأوضاع التى تتخذها والطرق التى تنتهجها فى انتاجها وتوزيعها من صلة مباشرة[1] . وقد سبق أن تحدثنا طويلا عن الحالة الاقتصادية التى كانت عليها مصر فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ورددنا اليها قبل كل شىء ما كانت عليه البلاد وقتئذ وما زالت عليه من ضعف ظاهر ، كما رددنا اليها التوغل الغربى فى حياتها الاقتصادية والثقافية والسياسية . وقد كان أول ما يجب بذله فى سبيل الاصلاح الاجتماعى هو معالجة هذه الحالة بتنحية الثروة[2] . ولكن الذى حدث وما زال يحدث هو أن محاولاتنا الاصلاحية تركت هذا الجوهر للعروض ، وانصرفت عن معالجة الفساد الحقيقى لتقف عند

(١) أنظر ذلك مثلا لدى سبنسر وباريتو وهما من خصوم المادية التاريخية .

(٢) وقد تنبه المسؤولون أيضا الى هذا أخيرا : فنحن نقرأ فى تلخيص لتقرير اللجنة المالية بمجلس النواب عن السياسة المالية العامة فى سنة ١٩٤٨ ما يأتى :

« .. وقد مهدت اللجنة لذلك ، بكلمة اشارت فيها الى أن الاستقرار الاقتصادى هو الأساس الذى يقوم عليه سلم عالمى دائم ، وهو لسبيل كذلك الى اقامة التوازن الداخلى فى كل بلد وأبانت أن دعم الاقتصاد القومى ، يساعد على تحقيق الامن والتضامن الاجتماعى ومواصلة التقدم فى كل مناحى الحياة . ثم عرضت لما بينته فى تقريرها فى السنة الماضية من أن علة الجماعة المصرية هى فقدان التوازن والاستقرار الاقتصادى ومن أن الفقر هو الداء الأصيل وليس الجهل والمرض سوى بعض آثاره . وأنه ليس أدل على هذه

معالجة آثاره ، فوجهت تثقيفنا وجهة لا صلة لها بحياتنا اليومية [1] وأقامت نظم الحكم الحديثة دون أن تعنى بايجاد الأساس الذى تقوم عليه [2] . وهى تصرف الآن الملايين فى الارشاد الاجتماعى لتوجه وتهذب قوما تعلم أنهم لا يأكلون ، ثم اذا خرج شبابنا من معاهده ولم يجد عملا ، أو أقبل على العمل الحكومى ، أو حاول الأعمال الحرة ثم أخفق ، أو انحرفت نظم الحكم لدينا عن الطريق التى أريد لها ، أو ضاعت الملايين التى تصرف فى الاصلاح الاجتماعى سدى ، قلنا فيما بيننا أن الذنب ذنب هذا الشعب الذى لا يفقه . وقلنا فيما نعلن أن الذنب ذنب هذا أو ذنب ذلك النفر من المسئولين ، وأن الحال على ما يرام ، وأن هذه الأمة خير أمة تسعى فى الأرض . وتركنا الأمور تجرى فى أعنتها الى أن يأتى الله أمرا كان مفعولا .

والذنب من قبل ومن بعد هو دون شك ذنب الذين يحكمون . ذنب الذين يحكمون ولا يقوون على الخلاص من سياسة التستر التى تجرى عليها أمورنا الى اليوم ، سياسة التستر التى لعلها كانت من

الحقيقة من أن الاوبئة التى اجتاحت البلاد فى السنوات الأخيرة كانت أكثر فتكا بين الطبقات الفقيرة . وان آخرها ــ وهو وباء الكوليرا ــ الذى اكتسح أرض الوطن قد خلف وراءه آلاف الضحايا واستهدفت البلاد بسببه لشلل تام فى كيانها الاقتصادى والاجتماعى لم يدرأ عنها خطره الا ما بذل من مجهود جبار ..

.. وبعد أن أثبتت اللجنة الاحصاء الأخير لقسم الاقتصاد الزراعى والاحصاء بوزارة الزراعة مبينا فيه دخل كل فئة ودخل كل فرد ، قالت ان هذا الاحصاء واضح الدلالة على أن الدخل من الملكية الزراعية مع انخفاضه يترجم عن سعة فى الفوارق بين الحدود العليا والحدود الدنيا لفئاته . فان متوسط الدخل القومى السنوى من الملكية الزراعية يتراوح بين جنيهين و ١٧ جنيها للفرد من صغار الملاك وبين ١١٧ جنيها و ٤٩٨٩ جنيها للواحد من كبارهم وهم يمثلون الأقلية ... » . جريدة الأهرام فى ١٩٤٨/٢/١٨ .

(١) وقد رأينا أن صناعاتنا جميعا تجتلب فنييها من الخارج وأننا ضعفاء كل الضعف فى العلوم الاقتصادية والاجتماعية .

(٢) ونحن ما نكاد نفك الخط كما يقال حتى ننادى بضرورة اصلاح حال الفلاح لأنه جاهل مريض فقير ومع ذلك نعطى هذا الفلاح حق تغيير الحكومات من طريق الانتخاب المطلق ولا نعده لمزاولته .

مقتضيات النضال السياسى فى مصر حين كان الأمر أمر تقوية الروح المعنوية بين المحكومين ، واقناع العالم بأنهم شعب حقيق بالاستقلال ، مثله مثل غيره من الشعوب . لا يقوون على الخلاص من هذه السياسة وانتهاج سياسة تقوم على مواجهة الحقائق بعد أن رُد الحكم الى أهله واستكملت البلاد وعيها وقامت على قدميها وأصبحت فى حاجة الى معالجة مسائلها معالجة حقيقية فليس من العيب أن تتأثر أمة بعوادى الزمن، انما العيب كل العيب فى أن لا تقاومها أو أن يكون كل ما تستطيع أن تقاومها به هو التستر عليها والمنافقة فى أمرها .

والعلة فى هذه الطريقة التى يجرى عليها الاصلاح لدينا هى، كما رأينا ، أن الذين يشرّعون يقلدون الغرب بدلا من أن يدرسوا الحقائق الواقعة ، ويخلطون بين الأوضاع الاجتماعية والقوانين التى تنظمها فينقلون هذه وهم يظنون أنهم ينقلون تلك . ونحن نعلم أن من أكثر قوانيننا خطرا ما ترجم ترجمة سيئة أو جمع جمعا سريعا دون أن يكون لمن ترجمه أو جمعه صلة مباشرة كبيرة بالظواهر التى تعالجها . ونرى ما يصيب حياتنا اليومية من جراء هذا ونكاد نلمح الجراثيم التى تحملها القوانين المنقولة وهى تفرخ فى مجتمعنا هذا الناشىء الذى كان من المستطاع ، لو أحكمنا التفكير ، أن نضع له — وأمامنا خبرة العالم أجمع — خير تشريع يمكن أن يضعه البشر . ولسنا نعرف مسؤولا واحدا يقدر مسئوليته ولا يشكو قلة الخبرة الفنية لدى معاونيه وأثر الاضطراب السياسى فى عمله . وما دامت الخبرة الفنية لا توجد فى الداخل لأنها لا يمكن أن تنشأ هكذا من لا شىء أو من التعليم النظرى ، ولا يمكن استقدامها من الخارج لأن سياسة التستر لا تسمح بذلك ، فستظل حياتنا الاقتصادية ، وهى كما رأينا أضعف ما فى كياننا الحديث ، معرضة لهذه الهزات الشداد التى تصيبها الآن ، وتظل أمورنا جميعا مجردة من التنسيق الذى تحتاج اليه كل الاحتياج ، ان أردنا أن نسير حقيقة الى الأمام ونقطع المسافات التى تفصلنا عن هذا الغرب الذى نعجب به .

* * *

ونحن لا نريد أن نعرض هنا للتشريع الاقتصادى والمالى والاجتماعى الذى ظهر لدينا فى السنوات الأخيرة ، فليس هذا مجال ذلك ، فضلا عن

أن الذين وضعوا هذا التشريع يلمسون الآن أخطاءه ولا ينكرون ما أحاط بوضعه من شعث ، ولكننا لا نستطيع أن نغفل ما يقوم بشأنه فى روع الكثيرين منا حتى اليوم ، مما يتصل بهذا البحث ، من ناحية نشاطنا الصناعى ومستقبله وعلاقته بحياتنا الاجتماعية وتبديد ما يعلق بكل ذلك من وهم ليس من الخير أن يستمر . ونحن نقسم الآن من هذه الناحية فريقين: فريق يرى أننا بلد زراعى وسيبقى كذلك الى آخر الدهر . وهذا الفريق ، وان قل عدده فى السنوات الأخيرة ، مازال يضم غالب أصحاب الأراضى الزراعية ، ويتمكن بنفوذه فى دوائر الحكم من توجيه التشريع المالى والاجتماعى الى ما يرجح كفته[١] ، ويجد فى دعاية البلاد التى تنافس صناعتنا ما يدعم فلسفته[٢] . وفريق يرى أن مصر فى حاجة الى الصناعة لمواجهة مسألة النسل وقلة الأراضى الزراعية[٣] . وهذا الفريق يثير الآن مسائل عديدة انتقل اليه بعضها من الفريق الأول ، فهو يتساءل من أين لنا الخامات التى نغذى بها صناعتنا ونحن لا نملك منها شيئا كثيرا ، وكيف

---

(١) من أمثال ذلك الفروق بين الضرائب المفروضة على الصناعة والتجارة والضرائب المفروضة على الزراعة وذلك بالرغم من كثرة ما تصرفه الدولة على مشاريع الرى .

(٢) أنظر مثلا مقالة الايكونوميست الصادر فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩٤٦ عن الصناعة المصرية .

(٣) ومسألة النسل هذه – وهى بلا شك من أخطر المسائل التى ستواجه البلاد حين تنصرف حقيقة الى معالجة الهام من شئونها – أثارت وما زالت تثير نقاشا طويلا ينتهى المشتركون فيه عادة – وهم يتأثرون فى ذلك بنظرية ملتوس رغم ما وجه اليها من نقد سليم – الى ضرورة الأخذ بتحديد النسل .
وهذا الرأى يذكرنا برأى آخر كانت بعض دوائرنا تنادى به الى عهد قريب فى صدد ما يجب أن تكون عليه سياسة التعليم فى مصر فقد كانت هذه الدوائر ترى أنه ما دام القصد من التعليم على وجه العموم هو الاعداد للتوظيف ! فلا يجب أن يتجاوز التعليم قدر التوظف .
والذين ينادون بمثل هذه الآراء ينسون أن هذا العالم لم يبلغ بعد منتهاه ، وأن العلم مفتاح كنوزه ، وأن سياسة التحديد التى ينادون بها تنتهى فى الغالب الى افقار دم من يأخذ بها واضعاف أجهزته ، وآية ذلك ما صحب هبوط النسل فى غالب الأمم من الانهيار . وخير لنا أن نعنى بتثقيف الأفراد واعدادهم ليقووا هم على تذليل الصعاب التى يواجهونها ، وهم لابد مواجهون شيئا منها على كل حال ، من أن نحرمهم الحياة أو نتركهم فى جهل الأنعام . وقد كنا فى عهد محمد على مليونين ونصف وكنا لا نكاد نأكل ونحن الآن عشرين مليونا لا تقل حال واحد منهم عما كانت عليه حينئذ من أية ناحية نظرنا اليها لأننا أوجدنا منابع للثروة لم نكن نعرفها فى ذلك الوقت .

تستطيع هذه الصناعة ، متى قامت ، أن تناهض البلاد الصناعية فى الداخل والخارج ؛ وهل اذا احتاجت فى ذلك الى معونة الدولة ، وجب على الدولة أن تقدمها اليها ، والى أى حد يجب أن تقدمها اليها ، ومن أى نوع تكون ، وما الحقوق — وهنا يرتفع صوت الدوائر المسئولة على وجه الخصوص — ما الحقوق التى يجب أن تخولها هذه المعونة للدولة ؟

والقول بأن مصر فى حاجة الى الصناعة لمواجهة مقتضيات زيادة النسل قول لا يعدو الصواب ، ولكنه ليس الصواب كله ، فليس أمر الصناعة لدينا أمر موارد جديدة ينبغى لنا أن نجدها كما نسد بها عوزنا ، ونستطيع أن ننصرف عنها ان كف عوزنا هذا بأن قل النسل أو عثرنا على موارد أخرى فاستصلحنا الصحارى أو زدنا فى قيمة محاصيلنا • انما هو أمر نوع الحياة التى نريدها لنا ولأبنائنا من بعدنا ، هل هى هذه الحياة العصرية التى لا تنى تسير من اكتشاف الى اكتشاف وترفع من شأن البشر وتفتح أمامه آفاقا لا آخر لها . وهى الحياة التى تتركز فى الحواضر الصناعية الجبارة التى نعجب بها جميعا[1] ، أم هى هذه الحياة القديمة بجوها الراكد وآفاقها الضيقة وعلاقاتها البدائية ، وهى هذه الحياة الزراعية التى لم تعد تستطيع أن تشغل الا مركز التابع من المتبوع بالقياس الى الحياة الأولى • وقد فاتنا ونحن ننقل نظم الغرب وندهش لتقلصها لدينا ، فاتنا أن هذه النظم وضعت لمجتمعات صناعية ولم يكن من المستطاع الا تتقلص لدينا ما دام مجتمعنا مجتمعا يغلب عليه الطابع الزراعى • فهذا الحكم النيابى الذى نريده على كل حال وهذه القوانين الاجتماعية التى وضعناها أو نريد أن نضعها وهذه الأوضاع العصرية التى نريد أن تجرى عليها حياتنا العامة والخاصة جميعا أشياء انتجتها مجتمعات تعيش متجمعة فى المصانع وقصدت بها الى معالجة ظواهر حياتنا الخاصة ولم تنتجها المجتمعات الزراعية[2] .

(١) والدليل على ذلك ، ان كان الأمر فى حاجة الى دليل ، هو أن الحياة المصرية الجديدة هى حياة مصر الصناعية وأن المصريين الجدد هم الذين يعملون فى المصانع والمتاجر .

(٢) ونحن نعلم أن فى الغرب من يرتفع بالحياة النيابية الى أثينا وروما وأن فى الشرق من يجدها فى صدر الاسلام ونود أن نحيل الأولين على مومسن وفوستيل دى كولانج ناصحين اياهم بأن يقرأوهما بامعان ونحيل الآخرين على كتاب « عثمان » لطه حسين .

ونحن لا نريد أن نقول بهذا ان مرجع الحضارة هو نوع الانتاج ولا شىء عداه ، انما نريد أن نقول ان الثروة وانتاجها وتوزيعها عوامل هامة فى تكييف الأوضاع الاجتماعية التى تتخذها الشعوب ، ومن ثم يصير أمر تصنيع حياتنا أمرا لا مفر منه ، لا حلا من حلول نستطيع أن نتخذه وننصرف عنه حسب ظروف النسل ، وتصير مسائل المواد الخام والمنافسة الدولية ومعونة الدولة التى تثار الآن عقبات تقتضى التذليل لا شروطا يشرط بقيامها هذا التصنيع[1] .

(١) ونحن نقرأ فى مقالة للأستاذ العقاد بمجلة أخبار اليوم فى هذا الشأن ما يأتى :

« ان مصر فى خلال خمسين سنة ستصبح فى عداد الأمم الصناعية الكبرى .

فكهربة الخزان ، وهذه الثروة المعدنية التى تتفجر من باطن الأرض ، وهذه المساعى التى تنصرف الى الأعمال الحرة ، والابتكار فى استخدام المال فى غير الزراعة أو الموارد المألوفة منذ القدم — هى ضمان ذلك المستقبل الذى نرقبه ونتمناه .

وستحل لنا الصناعة مشكلة كنا نحسبها عصيبة على الحل قبل عشرين أو ثلاثين سنة ، وهى مشكلة الازدياد المطرد فى عدد السكان مع وقوف الثروة الزراعية عند حد لا تتعداه .

ولكن الصناعة ستفيدنا فى غير هذه المشكلة ، وهى وحدها غنم عظيم يستحق ما يبذل فيه من جهود .

ستفيدنا فى عقولنا وأخلاقنا ومقاييس حياتنا الاجتماعية ، ونظراتنا الى قيم الحياة .

لأنها ستنقل المجتمع المصرى من « بنية بسيطة ساذجة » الى « بنية مركبة متقدمة » .

فلا يخفى أن الارتقاء هو الترقى من البساطة الى التركيب ، وأن الجماد أبسط من النبات، والنبات أبسط من الحيوان، والحيوان أبسط من الانسان، وهكذا يطرد الأمر فى جميع التراكيب .

ومجتمع يقوم على الزراعة وحدها أبسط من مجتمع يقوم على الزراعة والصناعة والأعمال الاقتصادية المختلفة والتجارية المنوعة .

ذلك ارتقاء فى الملكات والهمم ، وارتقاء فى تعدد جوانب الفكر والخلق ، وارتقاء فى القدرة على التعاون بين أنواع الأعمال وطوائف العاملين .

وهذه هى المزية الاجتماعية النفسية التى تهيئها لنا الصناعة المتقدمة وما يقترن بها من أعمال الآحاد والطوائف والجماعات .

وغير بعيد على مصر — مع اطراد هذا التقدم — أن تصبح على شاطىء البحر المتوسط أقوى دولة فيه ، دون استثناء دولة من الدول التى لا تدرك شأوها الآن .

وغير بعيد كذلك أن نواجه العالم برسالة ثقافية روحية ، تتوافر عندنا على نشرها أسباب القوة والمعرفة والغنى ، فتبرز مصر الى مكان الصدارة ، وتعلم الانسانية شيئا جديدا فى عالم جديد ، كما علمتها بالأمس شيئا جديدا فى العالم القديم » . « مصر بعد خمسين سنة » ، أخبار اليوم فى ٢٢ يناير سنة ١٩٤٩ .

ومسألة المواد الأولية هذه لا تعدّ ، حتى لدى من يثيرها ، بالمسألة الخطيرة حقا ، فقد كشفنا فى المدة الأخيرة عن شىء منها وما زلنا نستطيع أن نكشف عن غيرها • ونحن لم نشعر على كل حال فى الأوقات العادية بالحاجة الى مادة تستخدمها صناعتنا وعجزنا عن جلبها بأسعار لا تزيد زيادة ذات بال على أسعارها فى بلادها • وليس كل بلد غنى فى المواد الأولية بلدا صناعيا وليس كل بلد فقير فى المواد الأولية أو بعضها بلدا غير صناعى • وقد كانت انجلترا أكبر الدول المنتجة للمنسوجات القطنية وهى لم تزرع القطن قط ، ولا نظن أنها كانت تجبرنا على زراعته جبرا • وسويسرا بلد صناعى الى أقصى حد وهى مع ذلك ليست أحسن منا حالا من ناحية المواد الأولية • ونحن على كل حال أثرياء فى مادة لا يجدها غيرنا بالكثرة أو الجودة التى نجدها لدينا ، وهى ما تستطيع أن تؤديه هذه الملايين من السواعد الفتية الذكية التى تبحث الآن عن عمل ولا تجده وتضيع فيما لا غناء فيه ملايين الساعات من الانتاج •

وأمر المنافسة أمر اتقان وسعر • والاتقان لا بد آت مع الزمن ، ولا سيما اذا قامت عليه الدولة ومدت له الأسباب بالتيسير الحكيم والاعداد والتشجيع فنحن شعب ذكى وأمامنا خبرة هذه القرون من الحياة الصناعية نستطيع أن نغترف منها ما نشاء ما دمنا نغترف بحكمة • والغرب لا يخترع كل يوم ، ثم انه يخطأ ويخطأ كثيرا ، وفى مقدورنا لذلك اذا قبلنا أن نتحمل ما يقتضيه ذلك من جهد أن نقطع فى سنين ما قطعه هو فى قرون بعد أن أصبح الطريق أمامنا طريقا معبدا ظاهر المعالم •

كذلك ليست الأسعار شيئا جامدا لا يتحول • وتكاليف الانتاج مرتفعة لدينا الآن لحداثة المنشآت وقلة الانتاج وارتفاع أجور الفنيين وعلو سعر رأس المال ولكنها لا بد منخفضة متى تكونت التقاليد الصناعية واتسع الانتاج وكثر الفنيون ونمت رؤوس الأموال • ونفقات انتاجنا الزراعى لا تقل — رغم عراقته — عن نفقات انتاجنا الصناعى ، ونحن مع ذلك ما زلنا نزرع ونحصد ونعيش مما نحصد • ولا شك فى اننا نستطيع أن نزيد فى انتاجنا الحالى وفى النعشة التى

يبعثها منذ الآن فى أطراف المجتمع جميعا الى اضعاف أضعافه دون أن نخرج الى الأسواق الخارجية حيث المنافسة التى قد لا تقوى عليها لاشتباك العوامل السياسية والمالية بالعوامل الاقتصادية فيها ، اذا واجهنا اقتصادنا الزراعى بالحزم الذى يقتضيه ورفعنا من شأن المشتغلين به وزدنا بذلك فى عدد المستهلكين لمنتجاتنا الصناعية • فنحن لا ننتج الآن الا لهذه المدن القلائل التى تنتثر فى أعلى الأرض وأسفل الأرض دون أهل هذا الريف الشاسع الذى يبلغون نحو ثلاثة أرباع أبناء البلاد لأنهم لا يكادون يستهلكون الا ما يصلون الى تحصيله من المواد الضرورية لحياتهم المتواضعة • واليوم الذى نصل فيه الى ذلك ونزيد عدد مصانعنا بما يقتضيه — وبعضها يكفى الآن وحده دون أن يكون كبيرا غاية الكبر لاستهلاك البلاد بأسرها من سلعة بعينها — نكون قد بلغنا من التقدم الاجتماعى ما نستطيع أن ننظر معه بعين مطمئنة الى المنافسة فى الأسواق العالمية لأنه يكون اليوم الذى يرد فيه الى الحياة المنتجة جميع هؤلاء الملايين من التعساء الذين لا يعلمون الآن شيئا من عالمنا هذا أو يعوقون سير البلاد بثقلهم الميت •

ولا يضير الدولة فى شىء أن تمد يد المعونة الى الصناعة فى دور نشأتها فقد مدتها لها دول غيرها من قبل ولا شك فى أنها ستمدها اليها فيما تستقبله من الأيام أيضا لأنها ضرورة لا مناص منها لكل صناعة ناشئة ضرورة الوصاية للقصر ، ما دامت هذه المعونة معونة حكيمة تقصد الى اعطاء الصناعة ما حرمها اياه عدم تأصل التقاليد الصناعية أو شذوذ الأوضاع الاقتصادية أو الفقر فى المواد ، وما دامت تعمل على تهيئتها للاستغناء عنها قليلا قليلا فى حدود ما تستطيع • وهذه المعونة تستطيع أن تكون فنية فتعمل على توفير اليد العاملة المتخصصة ، أو مالية فتخفف الضرائب حين يجب تخفيفها ، أو ترفع الرسوم الجمركية ما دام رفعها لازما وما دام الجهد مبذولا لتجنبه ، فنحن نحمى القطن ومحصولات زراعية أخرى ، وليس فى العالم دولة لا تحمى شيئا مما تزرع أو تصنع • ليس هذا بمضير الدولة ، وهو ليس أيضا ، فى ظروفنا الحاضرة ، بمضير المستهلكين فليس الأمر لدينا الآن ، كما هو لدى غيرنا ، أمر الحصول

على سلعة معينة بسعر يزيد أو يقل بل أمر استطاعة الحصول أو عدم استطاعة الحصول على هذه السلعة اطلاقا . نقصد أمر التفضيل بين أن تقوم لدينا مصانع تعطى عملا لمن لا يعمل أو يعمل بما لا يسمنه من جوع ، فيستطيع أن يحصل على ما يحتاج اليه بسعر يزيد سعره فى البلاد الأخرى ، وبالتالى يحصل على بعض حاجاته ، على ألا تقوم هذه المصانع البتة ويبقى هؤلاء الملايين الذين لا يعملون أو يعملون بما لا يسد رمقهم حيث هم . وأكبر الظن أن قيام الصناعة لدينا على يد الأجانب هو الذى يدفع بنا الآن الى هـذا التفريق الغريب بين المستهلك والمنتج ، وهو تفريق لا يوجد فى الواقع المحسوس ، فكل منا منتج ومستهلك فى وقت واحد وان جاز أن يختلف انتاج كل منا عن استهلاكه . ونحن لن نستهلك ان لم ننتج وكل خروج عن هذه القاعدة قرينة على شذوذ اقتصادى ليس من الخير أن يستمر . ومصانعنا وان ملكها أجانب فهى ثروة مصرية وملكيتها لا بد آيلة للتمصير الى حد بعيد .

وقد قلنا انه لا يضير الدولة أن تمد يد المعونة للصناعة فى دور نشئتها قاصدين بذلك أن نقول انه لا يؤذيها من الناحية المالية ، أما من الناحية الاجتماعية والسياسية فهذه المعونة واجب من أول واجباتها . ونحن لا نقول هذا لأن دوائرنا المسئولة تنكره ولكن لأنها أو لأن بعضها على الأقل ما زال ينظر الى الصناعة — مع اقراره بهذا الواجب — كشىء لا صلة لها به ويريد أن يرتب عليها للدولة حقوقا ازاء ما يقدمه اليها من معونة ، وهى نزعة هذه الأخيرة تسير منذ حين فى الاتساع بدافع تيار التأميم فى الغـرب . وانكار الصلة المباشرة بين النشاط الاقتصادى ومصير الدولة وهم غريب من نوع التفريق بين المنتج والمستهلك ، فما نظن دوائرنا المسئولة تنكر انها قد أفادت من حصيلة الضرائب على الصناعة والتجارة فى تمويل مشاريعنا الاقتصادية والاجتماعية العامة الجديدة الى حد بعيد . ولا نظن أن هذه الدوائر لا يهمها حقيقة أن تندثر الصناعات فترتد الى الاقتصاد الزراعى المحض ويقل دخل الدولة ويعود أهلها الى ما كانوا عليه أسلافهم تحت المماليك الى جانب ما يصيب

المجتمع بأسره من جراء ذلك . وقـد اتجهنا أخيرا الى وضع سياسـة خارجية نسير على هداها ولا سياسـة خارجية بدون قوات مسلحة ولا قوات مسلحة بدون أسلحة ولا أسلحة بدون الصناعة القومية التى تنتجها أو تستطيع أن تنتجها وقت الحرب . والدولة لدينا تتدخل الآن فى نشاط الأفراد جميعا أكثر مما يجب . وهى ليست حقيقة فى حاجة الى الائتمام ببعض بلاد الغرب والمد لنفسها فى هذا التدخل خصوصا فى ميدان الانتاج فهو ميدان كثير الحساسية دقيق التركيب ثم انه جديد عليها وهى فقيرة فى الفنيين وليس من مصلحة البلاد أن تنقل الى هذا الميدان أيضا — وهو بعد أكبر آمالها فى مستقبل خير من هذا الحاضر — ما تشكوه هى من الاضطراب ووجوه النقص التى يعلنها الجميع .

لتقنع الدولة اذا بالتعضيد دون التدخل ، وتعمل قبل كل شىء على التيسير ما استطاعت . ففى نظمنا الادارية الحاضرة ما أصبح يتعارض وحاضرنا ويعوقه اعاقة ما أحوجنا الى الجهد الذى نبذله فى مواجهتها . وتشريعنا المالى والاجتماعى فى حاجة الى الاصلاح والتكميل . وقد آن لنا أن ننصرف الى درس أمورنا الدرس العسير الذى تستحقه وان نتخذ لذلك العدة التى يقتضيها فقد نضج وعينا ولمسنا بيدنا فى السنوات الأخيرة عاقبة الارتجال وليس من العيب أن نجهل ما لا سابق عهد لنا به ، وأن نستعين بخبرة القرون التى نالها غيرنا وأن نتعلم . انما العيب فى أن نتستر على كل ذلك وأن نغلب الأغراض العاجلة على الغايات البعيدة .

عقد النقص

والنتائج السلبية التى تسفر عنها سياسة مجتمعنا الحالى على الوجه الذى رأينا ترد عادة الى طبيعة أهله ، ولا ترد الى التفاوت الذى شهدنا بين حقيقة ظواهره والوسائل التى تعالج بها • وهكذا يتحول الفرق بين مصر والغرب من حقيقته الزمنية ، نعنى حقيقته كفرق كمّى بين ما انتهى اليه المجتمع المصرى بوقوف عجلته صدرا من الزمن ، وما بلغه الغرب بدور عجلته دورا سريعا فى هذا الصدر من الزمن بالذات ، لأسباب يخرج أخطرها فى جوهره عن ارادة كل منهما ، الى نقص ذاتى ينسب الى المعدن الذى قدّ منه هذا المجتمع • ووضع الأمر هذا الوضع يلقى فى قلب أبناء البلاد بذور الشك فى نفسهم ، فيترجحون بين القنوط والاستهتار ، وتنحل عزيمتهم ، ويبعدون فى هذه الحياة المتداعية المتشائمة التى نجد عليها حتى أبعد دوائرنا وطنية الى اليوم • وهو يمدّ بعد ذلك ظله القاتم الى ماضيهم القريب والبعيد أيضا ، ويشوهه تشويها شديدا ، وينخر بذلك فى عظامهم نخرا لا يقل وطأة عن نخر الفاقة الاقتصادية والاجتماعية فيها •

وقد فطن بعض كبار كتابنا الى خطر تشويه تاريخنا هذا الثقيل وهمّوا بالوقوف له فعرض له هيكل فى مقدمة كتابه « تراجم مصرية » ، وعنى به العقاد فى مقدمته لحياة « سعد زغلول » وتصدى له آخرون ، ولكن أحدا لم ينهض الى يومنا هذا للقضاء عليه القضاء المبرم ، حتى صار أثر حياتنا اليومية فى أضعاف عمله أقوى كثيرا من أثر جهودنا العلمية • ولعل بعض السبب فى هذا الشذوذ يرجع الى ما زلنا نلتزمه من درس ماضينا على هدى المراجع التى تمكّن لذلك التشويه • ومن الغريب حقا ألا يفطن الذين يشكون فى مصيرنا أنهم يشاركون فى هذا الشك المتحدين الذين ينادون بضرورة التخلص منهم والكتاب الذين يعيشون فى ظلهم • كذلك من الغريب حقا ألا يفطن مؤرخونا الى مشاكلة ما يكتبون فى تاريخ مصر ما كتبه فيه غالب الرحالة والساسة وأنصاف العلماء الذين نزلوا عليها من الغرب منذ الحملة

الفرنسية الى الصدر الأول من هذا القرن ، أى أثناء النكسة المصرية ، فى الطابع المغرض الذى ينفرد به ، وألا تدفعهم هذه المشاكلة الى الارتياب فى صحة ما يكتبون ، وتردهم عنه الى آفاق جديدة •

وقد سبق أن شهدنا ، عند التحدث عن صلة المصريين بالشعوب القديمة ، فى الفصل الأول من هذا الكتاب ، كيف بليت مصر ، آخر أيام الفراعنة ، بعداء امبراطورية الفرس ، وكانت أقوى امبراطورية عرفها العالم القديم لذلك العهد ، فى الوقت الذى كانت تنقسم فيه على نفسها ، فيلحق شمالها بشعوب البحر المتوسط ويتصل جنوبها ببلاد النوبة اتصالا شديدا ، ويتوزع الحكم فيها بين الأمراء الاقطاعيين ، ولا يمنعها ذلك من الثورة على الفرس تحت داريوس وكسرى وارتكسيرس حتى تسترد حريتها بعد مائة وعشرين عاما من الحرب المتصلة (١) ، وهى الحرب التى يشبّه مانتون عنفها بعنف معركة ترمبولى بين الفرس والأغريق ، ثم تحاول القضاء على الحكم الفارسى فى الشرق الأدنى تحت الفرعون تاخوس • ولكن الفرس يعاودون الهجوم عليها فى سنة ٣٣٨ ق•م ويتمكنون من دخولها عنوة والبقاء بها ستة أعوام تباعا ، بعد أن يغدر بها المتطوعة من الأغريق والفينيقيين وينقسم الرأى فيها بين التشيع للعجم والتشيع للأغريق ، وكانوا يتنازعون فى ذلك الوقت السيطرة على العالم • كذلك شهدنا كيف كانت الشعوب تسير فى ذلك الحين نحو الحكم العالمى فكانت الامبراطورية المصرية ثم الامبراطورية الفارسية ثم امبراطورية الاسكندر • وكان اختلاط الشعوب فى كل من هذه الامبراطوريات العالمية وفقدها الوعى بفوارقها السياسية واشتراكها جميعا فى حضارة واحدة هى الحضارة الهلينية ؛ ومن ثم كان امعان المصريين فى الاعتماد على مقياس الدين فى التمييز بين الناس ، بدلا من مقياس الجنس ، وارتفاع سلطان الكهنة بينهم ، وانتشار طقوسهم

(١) روسل • وهو يقول ان تاريخ مصر فى القرنين الخامس والرابع هو تاريخ ثورتها على الفرس • ودريتون يقول ان الأدب المسرحى المصرى كاد ينصرف فى ذلك الوقت الى تغذية الثورة على العجم • دريتون : « المسرح المصرى » •

الدينية فى بلاد البحر المتوسط ، وترحيبهم بالاسكندر فى ثورتهم على الفرس الذين كانوا يحقّرون معابدهم ، وقبولهم حكم البطالمة بعد أن اعتنقوا الديانة المصرية مثلهم •

ولم تكن السلطة التى كان رجال الدين المصريون يزاولونها وقتئذ سلطة شكلية أو روحية فقط ، فقد كانت الكنيسة المصرية تتمتع حتى آخر أيام الفراعنة بسلطة تشريعية – قضائية – مالية واسعة [١] • وكان فقد هذه الكنيسة بعض هـذه السلطة من الأسـباب التى دفعتها الى ممالأة البطالمة والتمهيد لقيام دولة الاسكندر ودولة البطالمة من بعدها • وقد صحب قيام الدولة البطلمية اعتناق رجالها عقيدة منفيس ، فكان البطالمة يتوجون فى هذه المدينة ويديرون مجالس كهنتها ، ويسترشدون برأيهم ، ويعبدون فى معابدهم ، ويأتمون بهم فى معابد الاسكندرية • وهكذا كان وضع الكنيسة المصرية يشبه فى ذلك العصر الى حد بعيد وضع الكنيسة الكاثوليكية فى عصور الوسط حين كان حكم القارة الأوروبية الى رؤساء قبائل الفرنك والغوط والهون ، فقد كانت هذه الكنيسة تمثل وقتئذ أهـل البلاد الأصليين وتقاسم هؤلاء الحكام سلطانهم وتتمتع لديهم ، وبخاصة بعد أن أدخلتهم دينها ، بنفوذ عريض ، وان كان الوضعان يختلفان بعد ذلك فى أن قيام دولة البطالمة فى مصر سبقه اختلاط عريض بين المصريين والأغارقة وظهور حياة اجتماعية مشتركة لا نجد لها نظيرا بين أهل الامبراطورية الرومانية وقبائل البربر فى القرن الخامس • وقد أراد البطالمة أن يحدوا من سلطان هذه الكنيسة العتيدة بعد أن استقام لهم الأمر فى البلاد فأصدروا مراسيم الصدر الأول من حكمهم لتنظيم المعابد وعلاقتها بالدولة ، ومركز الدولة من الملكيات الزراعية الواسعة التى كانت تتمتع بها ، ولكن هذه المراسيم لم تكن فى جوهرها الا مظهرا من مظاهر فتوة الحكم البطلمى الجديد ، ورغبته فى مزاولة سلطاته كاملة فى جميع ميادين الحياة العـامة ، وهى رغبة

(١) كان للكهنة المصريين فى العهد البطلمى مدن بأسرها تملكها المعابد وتديرها بمجالس ادارة تنتخب سنويا • أنظر بوشيه ليكلرك •

(٢) أنظر مراجع الفصل الأول •

اختفت بعد ذلك بقليل وتركت المكان خلفها للزعازع التى ظلت تنتابه حتى دال ، والتى كانت تطلق يد هذه الكنيسة من جديد حتى كان آخر البطالمة يحسبون لها ألف حساب •

وقد رأينا كيف بدأ تأثر حياة الشرق بالحضارة الهلينية فى ذلك العصر فى المدن الساحلية والتجارية وفى الطبقات العليا من أهل هذه المدن على وجه الخصوص • ثم جعل يتغلغل ويمتد فيما عداها حتى ظهور المسيحية • ونحن نعلم فيما يتعلق بمصر أنه كان حتى آخر أيام البطالمة قويا فى الدلتا ، ضعيفا فى الصعيد • فقد كان أهـل الصعيد يجهلون الأغريقية لذلك العهد على عكس أهل مدن الشمال ، ويقيمون المعابد لآلهة مصر القديمة ، ويترددون على بلاد النوبة • وكانت الثورات المصرية على الحكم البطلمى تنفجر عادة فى الصعيد بعكس ثورات العصر الفارسى فقد كانت غالبا ما تنفجر فى الشمال حيث الأثر الأغريقى [١] • وهكذا كان هذا التفاعل يترك خلفه ساحات واسعة لا يمد اليها أثره أو يمـده اليها مدا هينا ، ومن ثمة كان أخـذ البطالمة بأساليب الحكم الأغريقى فى الاسكندرية وبعض المدن المصرية الأخرى ، وابقاؤهم على الادارة المصرية فيما عداها ، ومحافظة الأغريق المقيمين فى مصر على كثير من تقاليد بلادهم ، وقبولهم فيما عدا ذلك تقاليد أهل البلاد ، ثم وجود طبقات مصرية كثيفة لا تستسيغ الحكم القائم وتقـدم على مجاهدته كحكم أجنبى •

ولم يكن قيام نظم الحكم الأغريقية فى الاسكندرية والمدن الأغريقية القائمة فى مصر سوى مظهر من مظاهر قصور الأغريق عن التخلص من تصورهم الدولة كمدينة قائمة بذاتها كما كان الحال فى بلادهم • وليس ممن أرّخوا لذلك العصر من يأتى بصورة صادقة للطريقة التى كانت تحكم بها الاسكندرية والمدن الأغريقية القائمة فى مصر على وجه العموم،

(١) كان أهل الصعيد فى العصر البيزنطى أيضا يدعون الاسكندرية باسمها القديم «راقورة» ويحتاجون الى المترجمين لمحادثة قسس الاسكندرية • أميلينو : « حياة باخوم » •

وان كانوا يجمعون على خضوعها لسلطة الملك الى حد بعيد . وقد فقدت هذه المدن جميعا بعد قليل من قيام البطالمة المجالس النيابية التى كان يتجسم فيها استقلالها ولم يبق لها منه الا ما احتفظت به من القوانين والتقاليد الادارية والمالية والقضائية التى نشأت عليها ، وهو أمر كان ملوك العالم القديم لا ينكرونه على رعيتهم عادة ، وكان المصريون يتمتعون به الى حد بعيد ، سواء من كان يعيش منهم داخل هذه المدن أو خارجها .

ومؤرخو ذلك العصر يكادون يجمعون على وجود فوارق لا يستهان بها بين الحقوق التى كان يتمتع بها اليونانيون المقيمون فى مصر والحقوق التى كانت يتمتع بها المصريون ويردون ذلك الى الاختلاف الجنسى . وهم يغفلون فى هذا ما كان يحدث وقتئذ باليونان نفسها من انفراد علية المدن بحقوق لا تتمتع بها عامتها أو أهل الريف من اليونانيين [1] . وينسون أن فقراء أغريقى الاسكندرية كانوا لا يتمتعون — رغم أغريقيتهم — بجميع الحقوق التى كان يتمتع بها أعيانها ، وأن مرد ذلك كان الى تصور الحكم وليس الى التفريق الجنسى [2] . وفى هذا ما يفسر تخبط غالب هؤلاء المؤرخين فى تحديد الفوارق التى يجدونها بين المصريين والأغارقة فى ذلك العصر ، فجوجيه ، وهو منهم ، يقول ان اليونانيين كانوا يميزون على المصريين ، ثم يؤكد أن المصريين كانوا يعاملون معاملة حسنة وأن البطالمة كانوا يعملون على استمالتهم . وهو يعترف بعد ذلك بشيوع الزواج المختلط بين المصريين واليونانيين رغم منع المدن الأغريقية أبناءها من التزوج من الأغراب ، سواء أكانوا يونانيين أم غير يونانيين ، ولا ينكر أخذ اليونانيين بالطقوس الدينية المصرية فى حماسة شديدة ، وتأثر الحكم البطلمى بالنظم المصرية تأثرا عريضا ، وتساوى المصريين القاطنين بالمدن ، سواء كانت مدنا أغريقية أو مصرية ، فى الحقوق مع الأغارقة فى عهد أغسطس ، وهو العهد الذى

(١) انظر « مومسن » Mommsen: The History of Rome . وبريتشا : نشرة الجمعية الجغرافية ، الجزء العشرون، عدد مايو سنة ١٩٢٧ .

(٢) أنظر فوستيل دى كولانج Foustel de Coulanges: La cité antique، وقد عدنا الى هذه النقطة فى الصفحات التالية (: « المدينة القديمة ») .

نظمت فيه الحقوق السياسية لهذا المجتمع المختلط ووضحت معالمها . وهى جميعا ملاحظات لا يمكن أن تتفق أو تستساغ لو كانت الفروق بين المصريين والأغارقة فروقا جنسية حقيقية [1] .

كذلك كان الطامحون الى الحكم من المصريين يجدون خلفهم جماهير غفيرة من المتذمرين المتحفزين للثورة . ونحن نجد من هؤلاء المصريين فى ذلك الوقت فريقين : فريق المتعاونين مع الحكم القائم ، وفريق المناهضين له مناهضة سافرة . والى الفريق الأول ينتسب بتزوريس الملقب بديونيزوس [2] الذى تدخل فى النزاع بين الملك ارفيجيت وأخيه وعزم على خلعهما والاستئثار بالعرش بعد أن يثير حركة قومية يستند اليها . وقد نجح فعلا فى اثارة أهل الاسكندرية وكاد ينجح فى قتل أخى الملك ، ثم اضطر الى مغادرة المدينة والتحصن هو وأعوانه من المصريين فى مدينة الويزيس والفرار بعد ذلك الى الصعيد [3] . واليه أيضا كان ينتسب سوزيبيوس الذى قاد الجيوش المصرية الى انتصار رفح ، وكان يوجه السياسة المصرية على أيامه [4] ثم آكيلاس الذى قاد الثورة على قيصر [5] .

(١) جوجيه : « تاريخ القانون العام المصرى القديم » . ويلاحظ أنه كما تأثر الحكم الاغريقى فى مصر بوضع الدولة العام ، تأثرت هذه الدولة بهذا الحكم أيضا . وقد شهدنا كيف قامت فى مصر قبل دخول الفرس مدن تحكم بالنظم الاغريقية . ونحن نعلم أن المعابد المصرية كانت تحكم المدن التى كانت تمتلكها فى ذلك العهد بمجالس انتخابية . أنظر بوشيه ليكليرك . وقد انتشر نظام البلديات فى مصر فى القرن الرابع وكانت مصر عشية الفتح العربى مجموعة مدن ومديريات متفرقة .

A. Semaika : Essai sur la province romaine d'Egypte ; Jouguet : La vie municipale de l'Egypte romaine.

(٢) بوشيه ليكليرك .

(٣) ديودور .

(٤) بوشيه ليكليرك .

(٥) بوشيه ليكليرك . ويلاحظ أن المنازعات المتوالية بين الجالسين على العرش والمنافسين لهم فيه كانت تنتهى الى الدفع بهم جميعا لاستمالة أهل البلاد خصوصا حين توقفت الهجرة الاغريقية التى كانت تعتمد عليها هذه الدولة فى الاحتفاظ بطابعها الاغريقى . وجوجيه يذكر أن المصريين أبعدوا عن مراكز الحكم على أيام بطليموس الثانى ثم عادوا الى الظهور فيها تحت بطليموس الرابع وهو العهد الذى بدأت فيه هذه المنازعات .

ولكن أكبر تأثير سلمى مصرى فى هذه الدولة كان بلا شك تأثير كنيسة منفيس التى مهدت لقيامها ، فقد كان رجالها يتوجون الملوك ويجتمعون بهم فى مجامع تعقد كل عام للنظر فى الشئون التى يهتمون بها . وقد انتقل البلاط السياسى البطلمى بأكمله بعد البطالمة الثلاثة الأول من الاسكندرية الى منفيس ، مقر هذه الكنيسة ، وجعل البطالمة يوثقون علاقاتهم برجالها حتى انقلب تتويجهم من واجب يلزمون به الى حق يستطيعون أن يمنعوه . وكان تتويج البطالمة فى منفيس يتخذ حينئذ شكلا مصريا فاقعا ، كذلك كانت قرارات المجامع السنوية بها تمتاز منذ عهد بطليموس الرابع بما تدل عليه من عودة سلطان الكنيسة المصرية الى الامتداد من جديد[1] .

وكان مناهضو الحكم البطلمى يلجؤون أثناء ذلك الى الثورات العسكرية الدامية . ومؤرخو هذه الثورات يرتفعون بها الى معركة رفح فى سنة ٢١٧ ق.م. التى كسبتها الفرق المصرية من جيوش البطالمة[2] فقد رد هذا الانتصار الى المصريين الثقة فى نفسهم فثاروا فى العام التالى وواصلوا ثورتهم طوال عهد قلدباتور وخليفته ، ثم أعقبت هذه الثورة ثورات ومؤامرات وحركات عصيان امتدت حتى نهاية العهد البطلمى . وبوليب يقول ان الحرب بين المصريين والبطالمة كانت قاسية عنيفة ، وانها بدأت فى الدلتا ثم امتدت الى الصعيد حيث عطلت أعمال البناء فى معبد ادفو ، وبلغت من الخطورة حد أن عرضت بعض الدول على البطالمة معونتها . وقد نادى الثوار فى وقت ما بأحد زعمائهم ملكا على البلاد ، وحالفوا كنيسة طيبة ، وجعلوا يستعينون بالنوبيين ،

(١) ويلاحظ هنا انعقاد هذه المجامع كل عام بحضور الملك والأسلوب الذى كان يتحدث به أعضاؤها وتوصف به أعمالها وهو أسلوب يذكرنا بالمجامع المسيحية القادمة ، فوثائق هذه المجامع تسمى بالرسالات المقدسة ورجالها يدعون الملك بمنقذ البشر الخ . وهذه هى الألفاظ التى استعملتها المسيحية بعد ذلك . أنظر مهافى .

(٢) يظن مهافى أن المصريين كانوا يشتركون من قبل فى الجيش البطلمى . ويلاحظ بوشيه ليكليرك أن الجزء الخاص بدور المصريين فى هذه الحرب سقط من كتاب بوليب الرومانى .

وواصلوا الحرب حتى استطاع البطالمة أن يهدموا عاصمتهم طيبة فى سنة ٢٨٨ ق.م. [1] .

ونحن اذا ذكرنا أن ما نعلمه عن عهد البطالمة نقلت غالبه الينا المصادر الأغريقية والرومانية المعارضة للتيار المصرى ، استطعنا أن نجزم بأن هذه الثورات كانت أوسع وأشد بكثير مما تذكره هذه المصادر . وسكوت المصادر المصرية فى ذلك العصر عن هذه الثورات يرجع بلا شك الى الوسيلة التى كان العالم القديم ما زال يعتمد عليها فى النقل الفكرى — وهى البناء وكتابات الكهنة — فالبناء وسيلة ثقيلة التكلفة معرّضة للعيان ولا يستطيع لذلك أن يلائم الثائر . أما الكتابات الدينية فلم تكن بقادرة على العناية بالثورات السياسية ولا سيما بعد أن تحولت الكنيسة المصرية عن الحدود الوطنية واتجهت اتجاها عالميا . يضاف الى ذلك أن الفنون والعلوم والآداب كانت لا تزدهر فى العالم القديم ، وبخاصة بعد أن ظهرت الدول الضخمة ومالت الطبقات الوسطى الى الزوال ، الا فى قصور الملوك وأروقة المعابد ، حيث يستطيع رجال الفكر الانصراف الى الدرس . ومن ثم كان ما تحت يدنا من تراث البطالمة الفكرى من انتاج الاسكندرية وانتاج رجال الفكر الذين كانوا يترددون على بلاط الملك ومتحفه ومكتبته بوجه خاص ، وكان أيضا خلو هذا التراث مما يغضب الملوك فى الحياة العامة وبروز اليونانيين أو المصريين « المتهلنين » دون غيرهم فيه واختفاء اللون المصرى الذى يلحظه مؤرخو ذلك العصر منه . وقد قلنا اختفاء اللون المصرى لأن جوهر تلك الحياة الفكرية لم يكن مصريا خالصا ولم يكن يونانيا خالصا أيضا ، وانما كان ثمرة اختلاط الحضارات الذى كان يسير فى طريقه منذ قيام امبراطورية الفرس وكان يمهد فى ذلك الوقت بالذات لظهور المسيحية . وقد أصاب الآثار الفرعونية والبطلمية القائمة فى آخر أيام البطالمة وأصاب ما بها من الوثائق المكتوبة على كل حال كثير من التدمير الذى تولاها به الثوار ، وأعقبهم المسيحيون الأولون فيه بهمة لم تعرف الكلل . وفى هذا

(١) قاتلت طيبة ثلاث سنوات متوالية وكان الفرس قد خربوها قبل ذلك . شيب . أنظر مراجع الفصل الأول .

ما يفسر لنا أيضا قلة التراث التاريخي الذي تخلف لنا من ذلك العهد (١) .

وهكذا عاشت تلك الدولة البطلمية العجيبة بلونها الأغريقي وجوهرها المصرى : الطبقة العليا منها أغريقية تسير الى التمصر ، أو مصرية تسير الى « الاستغراق » ، والطبقتان المتوسطة والدنيا ، فيما عدا سكان المدن الاغريقية التى كانت تسير بدورها الى التمصر ، مصرية يتغلغل فيها قليلا قليلا تيار تلك الحضارة المختلطة الجديدة ، التى كانت تبدو بأكمل مظاهرها فى حياة الاسكندرية ، حيث يختلط المصريون بالاغريق باليهود بشعوب البحر المتوسط جميعا ، وتنمو الفكرة العالمية ، فلا يتمايز الناس الا بلونهم الحضارى ، ويقوى التيار الدينى الذى مكن لعبادة ايزيس فى الشرق الأدنى واليونان وايطاليا ، حيث قاومها القناصل ، ثم قبلها قيصر ، ثم عطلها أغسطس ليجعل منها اورليان دين الامبراطورية الرومانية الرسمى . هكذا عاشت حتى انقرضت الأسرة التى حكمتها وحل محلها أباطرة روما (٢)، فى الوقت الذى كانت هذه المدينة تنتقل فيه من النظام الجمهورى الى الحكم الامبراطورى الشخصى وتتوغل فى الحضارة الهلينية ، وتمتزج بشعوب البحر المتوسط فى وحدة اجتماعية سياسية واحدة (٣) . ونحن نعلم فعلا أن روما كانت تعانى ، حين مالت الدولة

(١) ويلاحظ على وجه العموم أن ما لدينا من الآثار الخاصة بالأسر الفرعونية القديمة ، نقصد الأسر التى كانت تحفر المقابر ، تزيد على الآثار الخاصة بآخر العصر الفرعونى وأيام البطالمة حين ضعفت عادة اخفاء المقابر وفاق الاعتماد على الكتابة فى تسجيل الحوادث الاعتماد على البناء . ومن هنا قلة معرفتنا لتطور الحياة المصرية بين آخر العصر الفرعونى وأول العصر المسيحى .

(٢) وانتقال الحكم فى مصر من البطالمة الى الرومان من نوع انتقاله بعد ذلك بقرون من العباسيين الى الفاطميين الى الأتراك : أسر تتنازع السلطان فى مجتمع واحد ولا تتأثر النظم أو الشعوب بفوز بعضها على البعض الآخر تأثرا عميقا . وآية ذلك الدور الذى لعبته كليوباطرة فى الحياة السياسية الرومانية حينئذ ، وزواج قيصر وانطونيو منها ، ودخول أغسطس الاسكندرية فى صحبة علمائها ، واتجاه التفكير فى وقت ما الى اقامة عاصمة الامبراطورية الرومانية فى الاسكندرية ، وبقاء نظم الحكم تحت الرومان على ما كانت عليه من قبل .

(٣) أنظر مومسن وفريرو . وهذا الأخير يقول ان مسألة المسائل التى واجهها قيصر وكانت توجهه فى سياسته كانت مسألة اطعام آلاف الجند الذين كانوا يلتفون حوله . وقد واجه أغسطس هذه المسألة وأفلح فى حلها لأنه وجد ما تحتاج اليه من مال .

البطلمية الى الزوال ، أزمة داخلية عميقة ، بعد أن أدت حروبها الأوروبية الى ارتفاع سلطان رجال السيف بين الطبقة الحاكمة فيها وبدأ هؤلاء الرجال يحاولون الاستئثار بالحكم ويتحملون فى سبيل ذلك من النفقات الباهظة ما كانوا يستصدرون القوانين ويثيرون الحروب بغية التخلص منه (١) . ومن ثم كانت محاولة قيصر الحصول على حكم مصر بأثارة مسألة وصية بطليموس اسكندر الثانى (٢) ثم تقديمه قانون توزيع أراضى ايطاليا ومصر بين جنده فيما بعد ، دون أن يصل فى الحالتين الى تحقيق شيء من غايته لتخوف مجلس الشيوخ الرومانى مما قد يكون لنجاحه من أثر فى النزاع السياسى الداخلى القائم وقتئذ وما كان ينفقه البطالمة عن سعة لشراء أعضاء هذا المجلس وشراء قيصر نفسه حين صار قنصلا . وقد هبط قيصر بعد ذلك الأسكندرية متعقبا بومباى ، ثم كان ما كان من التقائه بكليوباطرة وزواجه منها ، ثم عودته الى روما وهو أشد ما يكون رغبة فى اقامة ملكية عالمية كملكية الأسكندر (٣) . وقتل قيصر فحل محله أغسطس ، وكان أول ما فعله ، بعد أن استجمعت له الأمور ، هو التخلص ممن يستطيعون أن ينازعوه حكم المملكة الجديدة ، وبخاصة ابن قيصر من كليوباطرة ، ووضع يده على مصر هذه التى كانت تتجه اليها عيون أحزاب المعارضة فى روما منذ حين وكانت مواردها أكبر عون استعان به منافسوه فى هذا الحكم بالذات .

وكان حكم مصر ينتقل الى أغسطس فى نفس الوقت الذى كان ينتقل اليه فيه حكم الامبراطورية الرومانية جميعا بحكم وراثته قيصر بعد وفاة ابنه من ملكها ، وان كان هو قد عنى باستصدار القوانين التى تقلده هذا الحكم بصفته الشخصية ، وتصف هذا التقليد بأنه رغبة من رغبات الشعب الرومانى الذى كانت القوانين الرومانية ما زالت تنسب اليه لذلك الوقت . وقد أثار استئثار أغسطس بحكم مصر وما صحبه من مظاهر انفرد بها ذلك الحكم دون غيره فى أقطار الامبراطورية الرومانية

(١) نقصد بالقوانين الزراعية قوانين تمليك الأراضى التى ظهرت فى روما فى ذلك الوقت . انظر باريتو : « المبادىء العامة لعلم الاجتماع » .

(٢) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب .

(٣) مومسن .

الأخرى — أثار الخلاف بين مؤرخى ذلك العصر حول حقيقة الصلة التى قامت وقتئذ بين روما ومصر ، وهل كانت صلة الاتحاد الشخصى ، أو صلة التابع للمتبوع • وهذا الخلاف يدور حول الاشكال القانونية أكثر مما يدور حول الوقائع ، وهو يدور فى الغالب حول جميع النظم الدستورية الرومانية فى ذلك العهد لما يبدو بينها وبين الوقائع التى تتصل بها من تباين شديد ، يرجع الى ما كانت الجمهورية الرومانية تمضى فيه وقتئذ من تحول سريع ، من ناحية ، والى السياسة التى انتهجها أغسطس طوال حكمه ، من ناحية أخرى • فقد كانت روما تحتاج وقتئذ — وقد اتسعت أطرافها ، وتغيرت طبقتها الحاكمة ، ونعم نسيج أهلها — الى حكم مركز منظم سريع لا يستطيع أن يعطيها اياه النظام الجمهورى الذى عرفته • وكانت نظمها تتجه فعلا منذ حين الى الحكم الملكى • وكان أغسطس من ناحيته يريد أن يتجنب الاعتداء السافر على النظم القائمة ، ويفضل المحافظة على الأشكال ، ومسايرة التطور الطبيعى ، ومن هنا كان ابقاؤه على مجلس الشيوخ وموالاة هذا المجلس اصدار القوانين فى صيغتها العادية ، وان أصبح يصدرها الآن تلبية لأمر رئيس الدولة الجديد ، كما كان يصدر هذه المرة قانون اسناد حكم مصر الى أغسطس فى الوقت الذى يقلده فيه مراكز الحكم العامة جميعا وكانت مصر تنصبه ملكا عليها محل البطالمة . وفى تقليد الملكية المصرية أغسطس شخصيا ، مع تقليده حكم روما ، ما يزكى رأى الذين يرون فى انضمام مصر للامبراطورية الرومانية صورة من صور الاتحاد الشخصى ، كما أن فى بقاء سائر المصريين محرومين من الحقوق السياسية كأهل غالب الأقطار الرومانية لذلك العهد ما يعزز رأى الذين يأخذون بنظرية التبعية • ومهما يكن من شىء فنحن نعلم من مؤرخى ذلك العصر أن أغسطس أراد الاستئثار بحكم مصر للانتفاع بمواردها فى محاولة السيطرة على روما التى كانت تعانى حينئذ أزمة مالية شديدة ، أو الاكتفاء به ، اذا لم يفلح فى هذه المحاولة ، وتجنب سقوطها فى يد منافسيه سقوطا يضر بمركز روما نفسها أو يضع حدا لحكمه ، ومن ثم كان منعه أعضاء مجلس الشيوخ من زيارة الأراضى المصرية بدون اذن خاص منه وتحاشيه دخول المصريين هذا المجلس واستمساكه ازاءهم بسياسة الحذر الشديد

التى كانت روما لا تأخذ بها فى ذلك الوقت الا مع قرطجنة عدوتها اللدود .

وقد انفرد الحكم الرومانى فى مصر دون الحكم البطلمى الذى سبقه بأنه لم تتقدمه أو تصحبه هجرة رومانية كالهجرة اليونانية التى سبقت هبوط الاسكندر مصر واتصلت بعده أيضا ، ولم يؤثر لذلك فى الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى كان عليها المصريون وقتئذ . هذا الى أنه كان يتأثر الى حد بعيد بالروح اليونانية التى كانت تؤثر فى مصر والتى كانت تحتوى على شىء كثير من التفكير المصرى وخصوصا الدينى منه ، كما رأينا . وهكذا كان دخول أغسطس الأسكندرية لا ينطوى على ما يمكن أن يعد اصطداما حقيقيا بين عالمين غريبين ، أو تغييرا جديا فى الظروف العامة التى كانت تحياها مصر وقتئذ • وكانت الطبقة التى تعلو المجتمع ويمكن أن تتأثر بانتقال الحكم الى الأيدى الجديدة ، دون عامة الشعب التى قل اهتمامها بشئونه ، لا ترى فيه شيئا غريبا . ومن هنا عدم محاولتها شيئا ضده ، وقنوعها بتأكيد أغسطس لها عزمه على ابقاء الحالة على ماهى عليه ومغادرته مصر دون حدث يذكر •

وكان الحكم الرومانى يعتمد ، كالحكم البطلمى ، فى التمييز بين الشعوب وأهل مصر ، من الناحية العامة ، على لونهم الحضرى ، أهو هلينى أم غير هيلنى ، ومن الناحية السياسية ، على وضعهم الاجتماعى ، هل هو وضع الأحرار من أهل المدن التى تحكم بالنظم المدنية ، سواء أكان أهلها يونانيين حقيقة أم غير يونانيين ، أو هو وضع غير الأحرار وأهل الريف المحرومين من هذه النظم ، سواء أكانوا مصريين أم يونانيين أم ايطاليين • وقد سوّى بين حقوق المدن وأنظمتها فى عهد أغسطس بالذات ثم صدر قانون كركلا كما رأينا فسوّى بين أهل المدن والأقاليم جميعا . ويسر من أمر هذه التسوية وقتئذ تشجيع روما الملكية الفردية بغية التخفيف مما كانت تعانيه الامبراطورية من ضيق اجتماعى ومالى شديدين ، وما أدى اليه هذا التشجيع من ارتفاع أهمية الضرائب فى المالية العامة واتجاه الدولة فى السنين العجاف الى اعطاء المدن والأقاليم الحقوق المالية والسياسية الواسعة التى أدت الى ظهور البلديات والمدن[1] .

(١) أنظر جوجيه • وهو يقول ان ادريان جلب السكان الى مدينته الجديدة من المدن المصرية وانه اضطر لترغيبهم فى الاقبال عليها أن يخولهم حق التزوج من أهل الريف •

ولكن هـذا الاتجاه العالمى فى الحكم الرومانى لم يجنبه ، كما لم يجنب الحكم البطلمى من قبله ، خطر الثورات السياسية . فثـار اقليم طيبة على الحاكم الرومانى بعد مغادرة أغسطس مصر مباشرة وتبعتـه فى ذلك أقاليم أخرى . واضطر الامبراطور أدريان الى المجىء الى مصر فى سنة ١٣٦ لتهدئة الاضطرابات التى انفجرت فى ذلك الوقت وانتهز فرصة اقامته فيها فأنشأ مدينة انتينوبوليس . وثارت الأسكندرية أيضا فى سنة ١٥٣ وقتل أهلها الحاكم الرومانى ، ثم ثار أهل الدلتا فى عهـد ماركو أورليو (١٦١ — ١٨٠) وعلى رأسهم الراهب ايزيدور وتمكنوا من أخذ الأسكندرية .

وقد اتخذت هذه الثورات شكلا جديدا حين ظهرت المسيحية بعد ذلك ، فقد كانت المسيحية تأتى معها ، ككل ثورة اجتماعية كبيرة ، بطبقة حاكمة جديدة . وكانت هذه الطبقة ترتفع من أسفل طبقات المجتمع ، من طبقة العمال والفلاحين التى لم يصل اليها التيار الاغريقى - الرومانى ، أو يعمل فيها عمله كاملا ، وتحتفظ لذلك بتفكيرها وتقاليدها وعقائدها أيضا ، وتختلف فى كل هذا اختلافا صارخا عن الذين كانوا يقبضون على دفة الحكم فى ذلك الوقت . يضاف الى ذلك أنه ما كادت المسيحية تصير دين الدولة الرسمى وما كاد نفوذها يعلو على السلطة الزمنية التى كانت تمتزج بها فى شخص الامبراطور ، بسبب الاقبال الذى كانت تلقاه فى كل مكان ، وما كادت الكنائس الاقليمية ، وكانت تتكون عادة من أهل البلاد ، تتمتع بهذا النفوذ ، حتى اشتدت الاتجاهات الاقليمية ، التى كانت آخذة فى الظهور منذ أن استوت الشعوب المنتظمة فى الامبراطورية فى الحقوق ، وبدأت تنشىء جيوشها واداراتها وتنمى بذلك خصائصها ومميزاتها . ومن ثم كان ما يلاحظه مؤرخو المسيحية المصرية من اتجاه الكنيسة القبطية اتجاها محليا فاقعا وتحول أساقفة الأسكندرية الى فراعنة سافرين ومنافسة الروح المصرية الروح الاغريقية . وكانت أيضا استماتة المصريين فى الدفاع عن المسيحية حين كان الأباطرة يناهضونها واستمساكهم بنظرية الثالوث التى كانت تتفرع على عقيدتهم الدينية القديمة ، ثم ثورتهم

السافرة على الامبراطورية [١] ، وان لم يكن الأمر فى ذلك جميعا أمر مصريين وغير مصريين ، فقد كانت المسيحية بالذات تقضى وقتئذ على بقية تلك الفروق القضاء الأخير ، بل أمر مذاهب دينية قد يجتمع فيها المصريون أو لا يجتمعون دون أن يكون للوعى القومى فى ذلك أثر ظاهر .

وأتى الفتح العربى فأفاد فى نشاطه السياسى والحربى من هذا النزاع ، وأفاد من التفتت الادارى والعسكرى الذى صحبه والذى كان أباطرة بيزنطـة قد عملوا على السير به الى أبعـد الحدود تحقيقا لسياستهم الامبراطورية [٢] . وما استجمعت الأمور للعرب بعد ذلك حتى سهلت عليهم مواجهة الانتفاضات التى عمد اليها أهل البلاد حين لمسوا معنى ذلك الفتح ومداه ، كما عمد آباؤهم الى مثلها تحت أغسطس ، وأحلوا فكرة الأمة الاسلامية محل الأمة المسيحية بنظرتها الدينية وتسويتها بين المؤمنين بها جميعا .

عاشت مصر اذا يحكمها أبناؤها القرون الفرعونية الطويلة ، ثم أخذت شعوب البحر المتوسط تتجه الى العالمية ، وقد بدأت فى ميدان الدين بانتشار عبادة ايزيس ، وتمت بظهور المسيحية ، وبدأت فى ميدان الثقافة بامتزاج الحضارات الشرقية ، وتمت بانتشار الهلينية تحت البطالمة ، وبدأت فى ميدان الحكم بمحاولات الفراعنة فى آسيا الصغرى ، وتمت بقيام الامبراطورية الرومانية ، فسارت بدورها فى هذا الاتجاه وهى تقـاوم هذه النزعة الجديدة كما كانت تقاومها الشعوب الأخرى مقاومة تبدأ عنيفة ثم تفتر . فتثور على الفرس قرنين متواليين ، تفقـد خلالهما خيرة شبابها ، ويكون الحافز لها فى ثورتها هذه الاختلاف الشديد بين الشعبين ، ووجود طبقة حاكمة ما زالت تستطيع الدفاع عن مصالحها ، واتصال سياستها الخارجية بالسياسة الاغريقية . ثم تثور على البطالمة بعد أن نصبتهم كنيسة منفيس ، وهى وقتئذ القوة السياسية الوحيدة القائمة ، فى سبيل مواصلة الحرب على الفرس ، التى كانت هذه الكنيسة تنظر

(١) ماسبرو : « بطاركة الاسكندرية » .
(٢) Diehl: L'Egypte chrétienne et byzantine .
(٣) Maspero: Causeries d'Egypte .

اليها من زاويتها الدينية الخالصة ، ويكون الدافع لها فى هـذه الثورة طموح بعض رجالهـا الى الاستئثار بالحكم أو رغبة أهـل الصعيد فى مناهضة التيارات الاغريقية التى كانت تعمل فى الشمال ولا تنالهم ، أو التذمر العام بين المصريين وغير المصريين من خطل الحكم البطلمى . ثم تثور على الرومان والبيزنطيين ، ويكون الدافع لها الى ثورتها هـذه الأزمات الاقتصادية أو الفروق الاقليمية التى تعود الى رفع رأسها من جديد ، حين ترفع المسيحية الطبقات السفلى من الشعوب التى اعتنقتها الى سطح المجتمع ، وتقيم الحكومات الدينية المركزية فى صورة الكنائس والأديرة ، التى كانت تنتشر فى كل مكان ، وتمهد لتبلور الأوضاع القومية من جديد . وقد قلنا الأوضاع القومية ولم نقـل الوعى القومى لأن المجتمعات القديمة لم تعرف هذا الوعى وان عرفت العصبيات الجنسية . وقد رأينا كيف ظلت اليونان — حتى سقوطها تحت الحكم الرومانى — مجموعة مدن متفرقة يقاتل بعضها بعضا ، أو يستدعى عليه الشعوب الأخرى ، وكيف قامت الامبراطورية الفارسية على أكتاف المتطوعـة من الفينيقيين والأغارقة وانهارت بفعلهم أيضا ، وكيف سلم البطالمة ملكهم للرومان بأيديهم ، وكيف كان سر امتداد الحكم الرومانى هو ما عمدت اليه روما من بسط جنسيتها على الأراضى الايطالية ثم أقطار الامبراطورية جميعا . كذلك رأينا كيف كانت صلة الحكام بالمحكومين ، سواء أكانوا فرسا أم أغارقة أم رومانا ، لا تختلف باختلاف البـلاد بقدر ما تختلف باختلاف الأوضاع الاجتماعية التى يتخذها أهلها ، هل هى أوضاع المواطنين الذين يقيمون فى المدن التى كانت تحيا فى جو الحضارة الهيلينية أو أوضاع غير المواطنين الذين يقيمون فى تلك المدن بالذات أو فى الريف الشاسع المحيط بها ، ويتصلون بالمواطنين بصلة الرق أو الولاء . وقد كان وضع أباطرة الفرس ، ووضع الأسكندر والبطالمة والرومان ، من بعدهم ، من مصر هو نفس وضعهم من أهـل بلادهم ، اذا استثنينا مقتضيات عصبية الدم التى كانت تؤدى بهم الى تقريب أبناء جنسهم اليهم قبل أبناء الأجناس الأخرى وأبناء قرابتهم قبل أبناء جنسهم ، واستثنينا فترة التردد التى مضت بين تحول نظم الحكم المحليـة الى نظم امبراطورية والتى

قضتها روما على وجه الخصوص فى رفع مختلف الشـعوب المنتظمة فى جامعتها من حق الى حق حتى وصلت بها الى الحقوق الكاملة . ونحن نعلم أن تاريخ المدن اليونانية والجمهورية الرومانية هو قبل كل شىء تاريخ سعى علية أهها الى الاستئثار بالحقوق السياسية دون الطبقات الأخرى من سكانها وسكان الريف جميعا ، وثورة هذه الطبقات على هذا السعى[1] . ولم تكن الفروق بين المصريين وغير المصريين فى العصر الاغريقى والرومانى تختلف عن هذه الفروق ، فهم يتمتعون بالحقوق السياسية التى يتمتع بها غيرهم اذا انتموا الى مدينة بعينها ولا يتمتعون بها اذا لم ينتموا الى مدينة ما . وقد دخل المصريون ، حين اندثرت هذه الفـروق ، مجلس الشـيوخ الرومانى وارتفعوا الى مناصب الحكم فى الامبراطورية ، بل وجلس أحدهم على عرشها ثم حكموا العالم حين انتشرت المسيحية من كنيسة الأسكندرية[2] .

والذين يتنقصون مصر لترحيبها بالأسكندر وقبولها الرومان ورضاها بالعرب ينسون أن العهود اليونانية والرومانية والعربية عهود ثورات عالمية اجتاحت العالم المعروف على أيامها ولا شـأن لها البتة بالحروب الحديثة التى تنشب بين أمم مستكملة وعيها القومى ، متمتعة بمستوى اجتماعى واقتصادى واحد . فدخلت تحت الاسكندر جميع الشعوب ، وبينها مدن اليونان بالذات ، وفى الوضع نفسه الذى عرفته هذه الشعوب . ودخلت تحت روما جميع بلاد البحر المتوسط وبعض أوروبا الشمالية ، وبينها اليونان أيضا وايطاليا وفرنسا واسبانيا التى بدأت بالفتح الرومانى وجودها السياسى . ومزق العرب ما بلغوه من الامبراطورية الرومانية تمزيقا ، واستولوا على القسم الشرقى منها ، واستمروا يسطون على القسم الغربى حتى ظهر العثمانيون ، فامتد هذا السطو الى أسوار فينا وظل خطره رابضا حتى الحرب العالمية الأولى .

ومن الخطل أن يقارن الباحث بين بلدين فيقصر المقارنة على فتوة أحدهما بشيخوخة الآخر . فلئن كانت اليونان قد عاشت مستقلة بشئونها

(١) انظر مومسن وفوستيل دى كولانج .

(٢) بتتشر : « تاريخ الكنيسة القبطية » وماسبرو : « بطاركة الاسكندرية » .

سبعة القرون التى عرفتها قبل فقدها استقلالها فى القرن الأول قبل المسيح وبقائها بدونه حتى القرن التاسع عشر ، فقد عاشت مصر مستقلة بشئونها عشرات القرون التى عرفتها بين بناء الأهرام وقيام امبراطورية الأسكندر . وقد كانت روما تفتك بالمدن اليونانية وتدمر كورنتيس ، أكبر حواضرها التجارية ، وتقتل أهلها أو تبيعهم بيع العبيد ، فى الوقت الذى كانت المدن اليونانية الأخرى يقاتل فيه بعضها بعضا ، وكان زعماؤها يتملقون سادة روما هذه بالذات ، وبلوطارخ يتغنىٰ بمجدها[1] . وقد سقطت اليونان تحت الحكم الرومانى فلم تقم لها قائمة بعد ذلك ، وخبت حضارتها ، ونسى أبناؤها معانى الحرية التى تنسب اليهم ، الى أن ذكرتهم أوروبا المسيحية بها فى القرن التاسع عشر ، فى حين استطاعت مصر أن تنهض من كبوتها الرومانية ، وأن تقيم امبراطورية الفاطميين والمماليك ، وتنتج حضارة جديدة ، وتشغل مركزا عالميا ممتازا . وليست بلاد كايطاليا وفرنسا وانجلترا بمستطيعة أن تقارن بمصر ، فايطاليا لم تظهر كوحدة سياسية الا فى نهاية القرن التاسع عشر[2] أما قبل ذلك فكانت مجموعة امارات صغيرة يحكمها أجانب أو ايطاليون وتناهض كنيستها الايطالية الدم وحدتها ، مناهضة الدول الديمقراطية الخطر الشيوعى الآن . ونشوء فرنسا كدولة موحدة لا يرتفع الى أبعد من القرن الخامس عشر ، فقد كانت قبل ذلك هى أيضا اقليما من أقاليم الامبراطوريات الشخصية التى تعاقبت على أوروبا بعد انهيار الامبراطورية الرومانية ، وكانت تقوم بنفس الشكل الذى كانت تقوم وتهوى به الامبراطوريات الشرقية القديمة التى يستهجنها مؤرخو هذا العصر . كذلك لا يرتفع مولد انجلترا كدولة ذات كيان حقيقى الى أبعد من مطلع العصر الحديث ، أما قبل ذلك فكانت مجموعة أمارات واقطاعات موزعة بين الانجليز والفرنسيين .

وهذه الدول لا تبدى منذ حين ، رغم حداثتها ، تمسكا شديدا بقيمها

(١) أنظر بلوطارخ . وموممسن يقول ان روما باعت سبعين مدينة من مدن اليونان وباعت أهلها الأحرار ، وكانوا خمسين الفا ، بيع العبيد .

(٢) والمعروف أن أكبر زعمائها فى ذلك القرن وهو كافور كان لا يؤمن بهذه الوحدة حتى آخر أيامه . أنظر : B. Croce : Storia d'Europa nel secolo decimonono .

القومية ، فقد شهدنا الترحيب الذى تلقت به الأمريكيين والانجليز بعد انهيار الحكم الألمانى . وقد قيل ان البارسيين كانوا يتحسرون على أيام هذا الحكم الى عهد قريب . ونحن نشهد الآن تمسك اليونان بالأمريكيين والانجليز فى أرضها وتودد الايطاليين لهم ، وتسليم أوروبا الغربية قيادها للأمريكيين ، وأوروبا الشرقية للروسيين . وقد زوّج الانجليز أخيرا بين مظاهر الحبور العام ملكتهم المقبلة من أمير قد يكون يونانيا أو دنمركيا أو أى شىء آخر ، ولكنه ليس انجليزيا أكثر من أسرة هذه الملكة بالذات .

والذى يزور القارة الأوروبية فى هذه الأعوام الأولى بعد الحرب العالمية الثانية يلمس لمسا يسيرا ما أصابتها به الانكسارات العسكرية والضيق الاقتصادى ، ففقد أبناؤها الثقة فى نفسهم ، رغم قرب عهدهم بذلك ، وأصبحوا يستقلون شأن أوطانهم ، ولا يرون طريقا بين يديهم الى السلامة غير طريق الانقياد للسياسة الأمريكية أو السياسة الروسية . وأمعنوا فى هذا الطريق حتى كادوا ينتهون الى الخضوع الأعمى أو الخيانة الوطنية . يلمس ذلك ولا يصعب عليه أن يرده الى القنوط الذى يصحب الاخفاق الى قلوب بنى البشر والى ما يقوم بين القارة الأوروبية وأمريكا من فرق هائل فى العمر والوسائل ، وهما بعدُ الظاهرتان اللتان ينفرد بهما تاريخ مصر بين نهاية العصر الفرعونى وابان الموجة اليونانية — الرومانية .

وانفراد المصريين دون من بقى على قيد الحياة من الشعوب القديمة والشعوب الحديثة كافة بمعاصرة تقلبات الحياة البشرية المعروفة جميعا . هو الى حد بعيد السبب فيما يؤخذ عليهم من اختفائهم من مناصب القيادة الحكومية المدنية والعسكرية قرونا عديدة ، فقد كانت هذه التقلبات تهز حياتهم هزا وتفتك بزعمائهم وتذهلهم عن أنفسهم الى حين . فهم ما كادوا يستقرون فى الحضارة الهلينية بعد ماضيهم الفرعونى الطويل ونضالهم المتصل للموجة الفارسية والموجة الاغريقية أيضا حتى عنفت المسيحية بضمائرهم عنفا شديدا . وما كادوا يستقرون فى المسيحية بعد طول الصمود لها حتى فجأتهم الموجة الاسلامية وعنفت بضمائرهم من جديد وظلت تعمل فيهم عملها حتى شملتهم جميعا تحت العثمانيين . وهم فى هذه الحالات جميعا يثبتون لهذه الثورات النفسية العالمية

فيسقطون صرعى عند أقدامها ، أو يتساقون لها وينتهون الى الاندماج بها
ولا يطفون على سطحها وفى مناصب الحكم منها ، ألا بعد أن يتمثلوهـا
ويستعيدوا كيانهم من جديد • وقد كان المصريون يحدقون بالحكم حين
باع البطالمة أنفسهم للرومان ، وكانوا يسيرون فى سبيل انشاء طبقة حاكمة
جديدة عشية الفتح العربى • يضاف الى ذلك أن طول عهد المصريين بالحياة
المتحضرة ، وتمتعهم بكل ما يستطيع أن يصبو اليه شعب قديم من ضروب
الثروة ، وغلبة الطابع الزراعى على حياتهم الاجتماعية ، كان من شأنه أن
يبرزهم فى مناحى النشاط الحضارى من الامبراطوريات التى كان يستأثر
بها فى العالم القديم وحروبه الكثيرة الغلاظ من رجال السيف من هذه
الشعوب • ويضاف اليه أيضا أن ضيق نشاط الدولة فى العالم القديم
وتوزع سلطاتها وتجردها من اللون القومى كان لا يشعر المحكومين
بشئون الحكم وهزاته منذ أن أفلت زمامه من يد المجالس الشعبية • وقد
كانت الكنائس المصرية تتمتع تحت البطالمة والرومان بسلطان واسع يقوم
بين أبنائها وبين سلطان الدولة • ومؤرخو البطالمة والرومان يجمعون على
عـدم مس الدولتين النظم المصرية فى شىء بل منهم من يرى أن البطالمـة
لم يزاولوا سلطة تشريعية حقيقية(١) • كذلك كانت الكنائس صاحبة
الحكم الحقيقى فى العهد المسيحى ، وكانت الحكومات الاقليمية — وجميعها
وطنى — تطغى على الحكم المركزى • وقد رأينا كيف كان نظام الطوائف
يشغل الجانب الأكبر من دائرة نشاط الدولة تحت المماليك والأتراك ،
وكيف ضاق حكم هؤلاء حتى قصر على جباية الضرائب والمحافظة على
الأمن والسير الى الحرب وأصبح المدنيـون ينظرون اليه نظرتهم الى
مهنة حقيرة مزرية لا يصلح لها الا أولئك الرجال الغـلاظ الذين كانوا
يستجلبون خصيصا لذلك جماعات من أصقاع آسيا الخشنة
المعدمة •

* * *

وقد أصاب نظم الحكم فى مصر ما لحق بوضعها الدولى من تشويه
شديد ، فالذين أرخوا لهذه النظم حتى مطلع القرن العشرين يكادون

(١) أنظر مراجع الفصل الأول .

يجمعون أنهـا كانت دائما نظما مطلقة تهبط بالمحكومين الى مستوى
العبيد وتختلف أيما اختلاف عن النظم الحرة الأبية النبيلة التى قامت
فى الغرب وبخاصة فى اليونان وروما • وهذا الاختلاف يرجع أيضـا
فى رأى هؤلاء المؤرخين الى جبلة أبناء البلاد واعتيادهم النظم المطلقة
ونظرهم الى الحاكم نظرهم الى السيد الذى يجب أن يطاع •

والمقارنة بين نظم الحكم فى مصر قبل الفتح العربى وبعده وبين الحكم
فى المدن اليونانية والجمهورية الرومانية أمر لا يستقيم • كما لا يستقيم
النظر الى تاريخ مصر بين العصر الفرعونى ونهاية القرن التاسـع عشر
بمنظار القومية التى لم تعرفها البشرية الا بعد ذلك بقرون • فقد كانت
النظم المصرية فى الوقت الذى ينصب فيه هؤلاء المؤرخون المقارنة بينها
وبين النظم الاغريقية والرومانية نظما عريقة لدولة كبيرة استقرت دعائمها
فى بلد زراعى كثير السكان ، وكانت لذلك نظما يتركز فيهـا السلطان
ويتسع الاختصاص وتبعد المسافات بين الحكام والمحكومين ، فى حين
كانت النظم اليونانية والرومانية نظما ناشئة لمدن صغيرة تزاول التجارة
فى الغالب ولا يكاد أهلها يجتمعون فى وحدة سياسية حقيقية •

وقد قلنا فى الوقت الذى ينصب فيه هؤلاء المؤرخون المقارنة لأن نظم
الحكم المصرية لم تبق دائما على صورة واحدة ، كما لم تبق النظم الاغريقية
والرومانية نفسها على ما كانت عليه فى أوجها بالرغم مما يقوم فى روع
الكثيرين منا حتى اليوم • ونحن نعلم من بيرين(١) أن مصر السفلى كانت

(١) Pirenne: Histoire des institutions et du droit privé de l'Ancienne Egypte. وهو كتاب قيم يحلل فيه المؤلف جميع الوثائق المعروفة عن الامبراطورية القديمة، بعد أن قام بترجمتها له الى الفرنسية الأستاذ كابار، وينتهى من ذلك الى رسم الخطوط العامة للدولة المصرية القديمة. ويزيد من أهمية هذا البحث أن الأستاذ بيرين متخصص فى القانون العام وكان فى وقت ما صاحب كرسيه فى جامعة بروكسل ، كما أن الأستاذ كابار من كبار الملمين بالهيروغليفية . والذى يقرأ هذا الكتاب ويقرأ الكتب الكثيرة المتداولة فى تاريخ مصر القديم يدرك لم أصاب هذا التاريخ ما أصابه من تشويه ؛ فذاك كتاب وضعه عالم وهذه كتب وضعها هواة مرتجلون تأثروا بالميول السياسية أو مقتضيات الرزق .

تختلف حتى قبيل ظهور الأسر عن مصر العليا بسعة تجارتها وكثرة مدنها ونشاط أهلها • وقد كانت هذه المدن تصرف شئونها بنظم تشبه نظم مدن اليونان القديمة ، فكان الحكم فيها الى مجلس رؤساء الأسر ، وكان لأهل التجارة والحرف الكلمة العليا فى توجيه سياستها ، وكان أبناؤها يركبون كل عسير فى سبيل الاحتفاظ باستقلالها حتى انتهى بهم الأمر الى محالفة مدن آسيا البحرية بغية مناهضة الحكم المركز • وقد شعرت هذه المدن بالحاجة الى التعاون بعد ذلك فأنشأت لها اتحادا يرأسه مجلس مكون من قادتها انتهى الى الانفراد بالحكم وتحول رئيسه الى ملك وراثى • وظل هذا المجلس قائما حتى تمت الوحدة بين الصعيد والدلتا ، كما ظل أهل المدن ينهضون بشئونهم الداخلية زمنا طويلا حتى تركزت الدولة وبسطت سلطانها على جميع الوادى وظهرت لها ادارة ضخمة ، كانت تقيد حركات الملوك وتخضعها لقوانينها الثابتة • كذلك نعلم أن الامبراطورية المصرية القديمة انهارت بفعل ثورة الطبقات الفقيرة على النبلاء والأثرياء [١] وبخاصة فى مدن الدلتا [٢] ، وأن الامبراطورية الوسطى قامت على الاعتراف بالمساواة بين جميع المصريين فى الحقوق الدينية والسياسية [٣] والغاء امتيازات النبلاء وتوزيع الأراضى [٤] • وقد رأينا كيف تفتت الحكم تحت الامبراطورية الحديثة وقامت المدن المستقلة ، ثم ظهرت المسيحية فكانت ثورة [٥] على الفروق الاقتصادية والاجتماعية والسياسية جديدة • وأعقب الاسلام المسيحية فأخذ الوجهة نفسها [٦] ووضع للمسلمين دستورا لا يقوى حتى أولياؤهم على تحويله [٧] •

(١) أنظر Dubois Richard : Essai sur les gouvernements de l'Egypte وعامة مراجع تاريخ مصر القديمة .

(٢) بيرين : Revue d'égyptologie الجزء الثالث •

(٣) هذا الراى راى مونتيه . وجوجيه يشكك فيه دون أن يفنده ثم يقول أن الاعتراف بالحقوق السياسية قد يكون حدث فى مدن الدلتا فقط •

(٤) دى بواريشارد : المرجع السابق •

(٥) المعروف ان لفظ église أى كنيسة يأتى من ecclesia اليونانية وهو الاسم الذى كان يطلق على اجتماع أهل المدن للنظر فى شئونها العامة • كذلك معروف أن الكنيسة المسيحية نشأت ديمقراطية الى أبعد حد •

(٦) ومبدأ الشورى هو أحد مظاهر هذا الاتجاه فى الاسلام .

(٧) ومن ثم كان الدور الذى لعبه العلماء فى دولة المماليك وضيق دائرة التشريع وقتئذ .

ونحن لا نريد أن نتصدى هنا لتحليل الأوضاع الدستورية التى اتخذها الحكم فى مصر وفى اليونان وروما والمقارنة بينها فليس هنا مكان ذلك ، ولكنا نريد أن نسائل الذين يتنقصون النظم العامة المصرية وقتئذ — وهى نظم ينسبونها الى الشرق عموما — هل خلا الحكم فى اليونان وروما وأوروبا الحديثة أيضا من أسباب هذا التنقص ؟

وقد أصبح من المسلم به بعد ما نشر من بحوث قيمة فى تاريخ اليونان وروما [١] ان المدن اليونانية والايطالية القديمة ظهرت كمجموعة أسر familias متفرقة يلتف كل منها حول رئيسه ثم يتجمع مع الزمن ومقتضيات العمران فى وحدات عائلية دائمة هى الـ gentes ثم الـ curias ثم الـ tribus . وكان الأصل فى هذه الوحدات أن تكون لها حكومتها وقضاؤها ونظمها العامة الخاصة بها ، وأن يخضع أبناؤها لرئيس الوحدة خضوع العبد للسيد [٢] ، وينظروا الى أبناء الوحدة الأخرى نظرتهم الى الأجنبى الغريب ، حتى كانت المرأة التى تتزوج خارج وحدتها ، حين أجيز هذا الزواج بعد أن كان يعد سفاحا ، فقدت حقوقها فى وحدتها الأصلية ، وكان المجتمع الاغريقى — الرومانى لا يعرف غير قرابة العصب • وكان رؤساء الوحدات الكبرى حين قامت المدينة — وهى فى الأصل المركز الذى يلتقى فيه أعضاء الأسر لمقتضيات التبادل الاقتصادى أو الدفاع — يجتمعون فى مجلس يرأسه رئيس أقوى هذه الوحدات ليصرفوا الأمور المشتركة بينهم • وقد أصبح هذا المجلس « سناتو » المدينة [٣] ، وأصبح رئيسه ملكها ، وأصبح رؤساء الوحدات أعضاءه ، وأصبح آباء الأسر مواطنى المدينة أى أصحاب الحقوق فيها • أما أعضاء الأسر أو من لا أسرة لهم البتة فهم العامة ، وهم مجردون من هذه الحقوق ولا قوانين أو قضاء لهم ، بل هم لا يملكون • وقد اتجه الملك مع مضى الزمن الى محاولة الحد من سلطة مجلس الشيوخ ، واتجه مجلس الشيوخ الى محاولة الحد

(١) انظر فوستيل دى كولانج وموممسن على وجه الخصوص .

(٢) وموممسن يلاحظ أن اطلاق الابن من هذا الرق كان اعسر من عتق العبد الحقيقى ويقول ان الأب كان يستطيع أن يعاقب ابنه بالموت ويملك كل ما ينتقل اليه ويستطيع أن يبيعه •

(٣) ومن هنا لفظ patres الذى كان يطلق على أعضائه .

من سلطة الملك ، وانتهى ضعف مركز هذا الأخير به الى محاولة الاستعانة بالعامة ، وشعر الشيوخ بما فى هذا الميل من خطر ، فثاروا على الملكية وأقاموا النظام الجمهورى ، أى سلبوا الملك سلطته الزمنية [1] وركزوها فى مجلسهم وجعلوا يعينون من ينهضون بأجهزتها التنفيذية • وهنا بدأ النزاع بين هؤلاء الشيوخ والطبقات الأخرى من أهل المدينة ، وهو النزاع الذى اتصل حتى نهاية الجمهوريات الاغريقية وتحول الجمهورية الرومانية الى ملكية مطلقة • وقد حاز العامة انتصارا مبدئيا فى هذا النزاع بين القرنين السابع والخامس ق • م • بعد أن ظهرت بينهم طبقة ذكية ثرية تستطيع أن تقوم بأمرهم ، فنالوا الحقوق السياسية ولكن بشرط النصاب المالى [2] ، فكان لا يدخل منهم الـ centuria ، وهى المجالس التى أنشئت الى جانب المجالس القديمة لتحقيق مبدأ المساواة الجديد ، الا من ملك قدرا معينا من الثروة ، أما من لا يملك شيئا ، كطبقة عمال الزراعة والصناعة ، فلا يدخلونها • وكانت الـ centuria هى المجالس الوحيدة التى تجتمع فيها النبلاء بالطبقة الثرية من العامة للنظر فى بعض شئون المدينة أو السير الى الحرب ، أما فيما عدا ذلك فكان النبلاء يجتمعون على حدة فى الـ curias ، وكانت العامة المتمتعون بالحقوق السياسية يجتمعون على حدة فى الـ tribus ، وكان الأولون يعينون القناصل لتصريف أمورهم ، وكان الأخيرون يعينون الـ tribuni لرعاية مصالحهم • وقد انتشرت الفوضى من جراء هذا النظام حتى شعر الجميع بالحاجة الى معالجته بتشريع ينظم المجتمعين معا • ثم تداخل المجتمعان بانقراض الأسر القديمة وارتفاع الأسر الحديثة ، فتحول النزاع القديم الى نزاع بين الأثرياء والفقراء ، وأخذ الأثرياء يحاولون تركيز الحكم فى مجلس الشيوخ ، فى حين كان الفقراء يحاولون اعادة الملكية للحد من سلطان هذا المجلس حتى تمكنوا من ذلك بحركة قيصر •

ونحن نعلم من مومسن أن ملوك روما الأولين كانوا أحرارا

(١) كان الملوك حينئذ لا يتوارثون ويجمعون السلطة الروحية الى السلطة الزمنية وقد بقيت السلطة الروحية فيما بعد مركزة فى يد القس الأكبر •

(٢) وفوستيل دى كولانج يشارك مومسن هذا الرأى •

فى استشارة مجلس الشيوخ أو عدم استشارته ، وفى الأخذ بمشورته أو اهمالها ، وكانوا لا يستشيرونه عادة فى الأمور العسكرية والقضائية .

ونعلم أن ثورة مجلس الشيوخ على الملوك كانت موجهة لأشخاصهم ولم تكن موجهة للسلطة التى يمثلونها ، نعنى أنها كانت لا ترمى الى تقرير حق الشعب فى حكم نفسه بحال من الأحوال • وقد ظهرت الحقوق السياسية بعد انهيار الملكية ، ولكنها ظلت كما قدمنا مقصورة على الذين يملكون الأراضى ، ثم على الذين يؤدون الخدمة العسكرية ، وهم وقتئذ من أبناء هذه الطائفة عادة • وكان عمل المجالس التى تمارس هذه الحقوق مقصورا على الاجابة بالقبول أو الرفض ، دون النقاش ، على الأسئلة التى توجهها اليها الحكومة ، صاحبة الحق الوحيد فى دعوتها أو عدم دعوتها الى الاجتماع • وقد تركزت السلطة بعدئذ فى مجلس الشيوخ لقلة المدة التى كان القناصل يقضونها فى الحكم — وكانت لا تزيد على عام فى الحالات العادية — وانتساب هؤلاء القناصل عادة الى الأسر التى يتكون منها المجلس وتحريم شغل المراكز العامة والامتيازات المالية ، التى كان ينفرد بها النبلاء ، على غيرهم حتى من استطاع منهم دخول مجلس الشيوخ ، فثارت العامة عليه فى سنة ٢٥٠ ق• م• وواصلت ثورتها حتى أجيبت الى بعض مطالبها وخولت حق تعيين من يدافع عن الحقوق التى اعترف لها بها ، أى الـ tribuni . وكان الـ tribuni يختلفون عن القناصل فى أنهم لا يعدون magistrati أى مستشارين كهؤلاء [1] ، ولا يزاولون السلطان الحقيقى الـ imperium ولا يحملون شارته ولا يتمتعون بسلطة دينية ما • وكان عملهم فى الأصل عملا سلبيا لا ايجابيا ، نعنى أنهم كانوا يستطيعون الوقوف فى وجه الاعتداء دون ممارسة سلطة التشريع الحقيقى • وهكذا امتد سلطان الشيوخ الى كل شىء وأصبح القناصل والـ tribuni عمالهم ، وصارت المجالس الشعبية هيئات لا قيمة لها • وقد أبعد مجلس الشيوخ فى هذا الطريق حتى صار منذ سنة ٢٤٤ ق• م• هيئة تشريعية تنفيذية مستقلة تنتخب أعضاءها وتشرع وتنفذ ، وفقدت المجالس الشعبية كل سلطان سياسى حقيقى • ثم عبثت الفروق الاجتماعية بهذه

(١) بلغ عدد ضحايا هذه الثورة فى روما حينئذ ١٤٧ ألفا • مومسن •

المجالس فأصبح أثرياء المدينة يشترون أصوات الغالبية من أعضائها ويوجهونها كما يشاؤون • وقد تمكنوا فعلا من تضييق انتخاب القناصل فى سنة ١٦٥ ق• م• وبدأوا يشترون الملكيات الصغيرة أو يسطون عليها اذا رفض أصحابها بيعها حتى هبط عمال الزراعة والصناعة الى مستوى العبيد • وعندئذ ظهرت النزعة شديدة الى الملكية من جديد ، وانفجرت الحرب الأهلية (سنة ٨٧ ق•م) وجعل الطامحون الى الملكية يحاولون استمالة العامة بالقوانين الشعبية ، وشطّ ماريو فى ذلك ، حين أقدم على انشاء الجندية المحترفة ، فدخل الجيش المنازعات السياسية ، معضدا من يحسن استمالته ، وظهر أثر ذلك سريعا فى فتك سيلا وأعوانه بزعماء العامة[1] واستئثاره بالسلطان جميعه ، واباحة ماريو التقتيل فى أرستقراطية روما بعد اغلاق أبوابها خمسة أيام وخمس ليال تباعا ، ثم ظهور قيصر وقيام الملكية من جديد •

والذى يتبين من حقيقة النظم العامة الاغريقية والرومانية هذه هو قصورها على مدن ضيقة النطاق ، وانبعاثها من قرب عهد أهل هذه المدن بنظم الحكم العائلى ، ثم تفريقها الشديد بين أهل المدينة الواحدة الى نبلاء وعامة ، أو أثرياء وفقراء ، للأولين كل الحقوق ، وعلى الأخيرين جميع الالتزامات ، وبقاؤها مختلة التوازن[1] محدودة النشاط الادارى[2] متناقضة أشد التناقض[3] حتى آخر أيامها • ويلاحظ الى ذلك أن هذه النظم لم تقم فى روما الا بين سنة ٥١٠ ق • م ، وهى سنة انهيار الملكية ، وبدء الحروب الأهلية ، أى سنة ٨٧ ق • م ، وأن عهد تمتع العامة أو الأثرياء منهم بالحقوق السياسية امتد أقل من ذلك أيضا ، فهو قد بدأ بانشاء الـ tribuni فى سنة ٢٥٠ ق • م وانتهى بالحروب الأهلية • وهو لم يعمر أكثر من ذلك فى اليونان أيضا •

(١) كانت الاضطرابات السياسية فى اليونان وروما لا تكاد تنقطع .

(٢) لم تقم لروما ادارة ثابتة حقيقية الا بقيصر • Wiegal: Cleopatra

(٣) من ذلك أن يكون هناك قنصلان وأكثر من tribuni فى وقت واحد وكل منهم يزاول نفس السلطان ونفس الاختصاص ويستطيع أن يقف عمل الآخر بحق النقض • وقد وقف باريتو عند هذا الشطط وقفة قصيرة فى كتابه « المبادىء العامة لعلم الاجتماع » •

كذلك يلاحظ أن عدد أصحاب الحقوق السياسية فى المدن الاغريقية والايطالية لم يعدُ قط نسبة ضئيلة من أهلها ، فلم يزد فى أثينا ، عاصمة الديمقراطية القديمة ، على ٣٠ ألفا من ١٣٨ ألفا[1] اذ لم يكن أهل الريف والعبيد[2] — وكانوا يعدون بالآلاف[3] — يزاولون الحقوق السياسية ، مثلهم مثل الفقراء من العامة • هذا الى أن الحقوق السياسية كانت لا تحد وقتئذ من سلطان الدولة على رعاياها حتى من يتمتع بها منهم ، فهى تستطيع على كل حال أن تفعل بهم ما تشاء • وقد كان سطو النبلاء على العامة والعامة على النبلاء فى المدن الاغريقية والايطالية لا يكاد ينقطع • وكانت حرية الفكر فى أثينا نفسها شيئا نسبيا لا كبير نصيب له من الواقع فقد قتل سقراط فى سبيل رأيه واضطهد غيره مفكرون كثيرون[4] •

وقد شملت الملكية التى أقامها قيصر شعوب البحر المتوسط جميعا وبينها مدن اليونان وامتدت حتى غزوات القبائل الجرمانية فى القرن

(١) روسل • و Glotz يأتى بأرقام أخرى فيقدر الأحرار بـ ١٣ ألف والموالى بـ ٧٠ ألف والعبيد بـ ٢١٠ ألف فى عهد بريكلس • أنظر أيضا De Santis: Storia dei Greci.

(٢) كان أهل سبرطة يعاقبون الزراع بالضرب حتى لا ينسوا حالتهم ويستطيعون قتلهم دون عقاب • بربجلو Barbagallo: Le déclin d'une civilisation.

(٣) بربجلو • وكانوا عبيدا بأقسى ما يفهم من هذا اللفظ ولا يمكن مقارنتهم فى شىء بعبيد مصر الذين كانوا يعاملون بكل رفق ولا يقلون فى كثير عن الأحرار • أنظر : Breccia: Bulletin de la Sté. de Géographie الجزء الخامس عشر فى مايو سنة ١٩٢٧ .

(٤) رنان : «الرسل» • وجوجيه ، وهو من المعجبين بالحضارة الاغريقية ، يندد بما يحيط به مؤرخو الغرب حياة أثينا والمدن الاغريقية القديمة من تفخيم ويرى أن حياة هذه المدن لم تختلف فى شىء عن الحياة القاسية المضطربة التى كانت تحياها فلورنس والبندقية فى عصر النهضة • ويضيف الى ذلك أن أثينا ظلت أرستقراطية بدستور Clisthène حتى مطلع القرن السادس قبل المسيح وان طبقة الزراع فيها كانت لا تنال أكثر من خمس محصول ما يزرعون بينما كان يستأثر أصحاب الأراضى بالباقى • وقد تقدمت الديموقراطية بعد ذلك فى اليونان بسبب تحول اقتصادها الى الاقتصاد الصناعى التجارى • P. Jouguet: L'Athène de Périclès, La Revue du Caire, Octobre 1940.

الخامس الميلادى ، اذ انهار الجانب الغربى منها ليعود من جديد فى صورة الامبراطورية الرومانية المقدسة التى نصبت كنيسة روما اللاتينية عليها شارلمان الأجنبى ، وهى الامبراطورية التى تفرعت عنها فى القرن الخامس عشر الملكيات الأوروبية الحديثة ، أى فرنسا وايطاليا وألمانيا ، فى حين بقى الجانب الشرقى منها فى صورة الامبراطورية البيزنطية حتى دخل الترك القسطنطينية فى ذلك القرن بالذات . وليس بين من أرخ للامبراطورية الرومانية المقدسة أو الامبرطورية البيزنطية أو الدول الأوروبية الحديثة حتى انفجار الثورة الفرنسية من يجرؤ ، فيما نعلم ؛ أن يدعى أن هذه الامبراطوريات كانت تحكم حكما ديمقراطيا أو تختلف عن الامبراطوريات الشرقية القديمة فى شىء ذى بال . فقد كان أباطرة روما يستأثرون بالسلطان ويتحكمون فى مصائر الشعوب ويؤلهون نفسهم كما كان يفعل الفراعنة الأولون . وكانت الامبرطورية الرومانية المقدسة تحكم حكما اقطاعيا بدائيا أثقل من حكم المماليك ، وكانت الدول الحديثة ، حين نشأت ، مجموعة اقطاعات سعى أصحابها الى بسطها بالحرب أو المصاهرة أو الخديعة ، دون أن يكون للشعوب فى ذلك دور ايجابى ، أو أن يكون لها حقوق تمنع[1] . وكان أباطرة بيزنطة الذين نشأوا فى المسيحية وورثوا الحضارة الاغريقية وشعوبها ينظرون الى رعيتهم نظرهم الى العبيد[2] .

(١) وفريرو يقول ان السلطة فى أوروبا ظلت مركزة منذ أول عصر الوسط حتى القرن السابع عشر فى أسر النبلاء . وكانت هذه الأسر تملك الثروة الزراعية جميعا فيما عدا ما تملكه منها الكنيسة : « الحكم » . كذلك لا ينكر جيزو الدور الهام الذى كانت تقوم به هذه الأسر فى حياة أوروبا بين انهيار الامبراطورية الرومانية والعصر الحديث وان كان يرى أن قيام الكنيسة الكاثوليكية الى جانب الملوك والأمراء كان يحول بين النظم السياسية الأوروبية فى ذلك العصر والتركيز الشديد الذى ينسبه المؤرخون للشرق القديم . وقد سبق أن راينا ان هذا التركيز ليس الا سرابا يثيره بعد العهد بماضى مصر فقد عرفت مصر القديمة النفوذ الدينى وخلافاته الشديدة مع السلطة الزمنية وعرفت النظام الاقطاعى وعرفت الطوائف ونظمها الموزعة . Guizot: Histoire de Civilisation

(٢) دهيل .

ونحن اذا بدأنا تاريخ حياة أوروبا بقيام روما فى القرن الثامن ق . م ، واتخذنا الثورة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر تاريخا لعود الحريات السياسية الى أوروبا ، وذكرنا ما بينّا من عدم مزاولة عامة روما الحقوق السياسية حقيقة الا بين سنتى ٥١٠ و ٨٧ ق . م ، تكون أوروبا قد تمتعت بالحريات السياسية زهاء خمسة قرون من خمسة وعشرين قرنا ، ويكون الذين يدعون النظم التى قامت فيها ، أثناء تلك القرون الخمسة ، بالنظم الغربية ويعدّونها الأصل فى حياة أوروبا السياسية ويهملون العشرين قرنا الأخرى ، ويدعون ما قام فى الشرق من نظم شبيهة بالنظم التى قامت فى أوروبا فى هذه القرون العشرين بالنظم الشرقية ، قوم متعنتون[1] . قوم متعنتون يتجاهلون الحقائق ولا يفطنون لما بين نظم الحكم وظروف المجتمع من علاقة لا محيص عنها . فقد كانت النظم الاغريقية الرومانية تقوم فى اليونان وايطاليا حين كانت الدولة لا تعدو أن تكون مدينة صغيرة تضم مجتمعا محدود المسائل ، تتشابه ظروف أعضائه ، ويتمتع بعضهم تجاه بعض باستقلال اقتصادى لا بأس به . ففى هذه المجتمعات — كما فى مجتمعات القرى الصغيرة الى اليوم — تستوى الرؤوس ويشتد التنافس وتعظم الكرامة الشخصية[2] ، فتتكون الحقوق العامة ، أى حقوق كل أسرة تجاه الأسرة الأخرى — دون أن يصحب ذلك قيام حقوق الفرد داخل دائرة الأسرة[3] — ويبقى الحكم شيئا خفيفا قلقا ضيق النشاط ، ويظل

(١) و Curtis يذهب الى حد الادعاء بأن الجمهورية نظام الحكم فى الغرب والملكية نظام الحكم فى الشرق ولكنه يقر بعد ذلك بان المسيحية كانت فى جوهرها جمهورية كما كانت الاسرائيلية من قبلها وكما نشأ الاسلام بعد ذلك وان تحولت نظمها فيما بعد الى الملكية . Curtis: Civitas Dei

(٢) وقد عادت النظم الاغريقية الرومانية الى المدن الايطالية فى عصر النهضة خصوصا فى فلورنس وعادت معها الحروب الأهلية التى لا نهاية لها حتى انتهى الأمر بفلورنس الى دعوة نبيل فرنسى Gualtiero de Brienne لحكمها كيما لا تنفرد أسرة من اسرها دون الأخرى بالحكم ، فى القرن الرابع عشر . ثم انتهى الأمر بتغلب اسرة مدتشى وتحولها الى الملكية . أنظر يونج : « آل مدتشى » .

(٣) ومن هنا قول بعض المؤرخين بأن أهل المدن الاغريقية والايطالية كانوا يتمتعون بالحقوق السياسية دون الحقوق المدنية .

هكذا الى أن تختلف ظروف أهل المدينة بأن يثرى بعضهم على حساب البعض أو يقوى عليه أو ينال المعونة من الخارج ، كما حدث فى اليونان أيام الفرس ، وكما حدث فى روما حين بسطت حقوقها على المدن الايطالية ثم شعوب الامبراطورية جميعا (١) • وعندئذ يطمح الأقوياء الى الاستئثار بالحكم ويعوق تشعب المسائل العامة المجالس الشعبية عن النظر فيها ثم يستحيل تكوينها وتنظيمها والاستعانة بها (٢) ؛ وتظهر ، أو كانت تظهر على الأقل ، فى العصور القديمة ، النظم الملكية بسلطانها الذى يزيد أو يقل تبعا لاتساع هذه الظاهرة وطبيعة الاقتصاد الذى تنشأ فيه • وهكذا ظهرت الملكية المقدونية وامبراطورية الأسكندر ثم الملكيات الهلينية ثم الامبراطورية الرومانية • ونحن نعلم فعلا أن المدن اليونانية وروما لم تعرف الادارة الحكومية المستقرة الحقيقية بخدماتها الثمينة ، التى كانت تكوّن جوهر الدولة فى مصر منذ أقدم العصور بسبب ارتباط حياة البلاد باستغلال مياه النيل ، الا بعد قيام الملكية ، وأنها ما كادت تقيمها حتى سارت فى الطريق التى قطعتها مصر من قبل ؛ فكلما ثبتت الادارة واتسع عملها وأحكمت نظمها ، كلما تضخمت الدولة وضاقت الحريات الفردية وضئل مركز الفرد فى الحياة العامة • ونحن نشهد ذلك الآن فى حركة التأميم التى انتشرت فى أوروبا وفى تدخل الدول هناك فى الاقتصاد عموما تدخلا شديدا • كذلك نجد آخر صورة لنظم الدولة الاغريقية — الرومانية فى القرن السابع فى مدينة شرقية تجارية صغيرة هى مكة المكرمة • فقد كانت مكة حتى ظهور الاسلام مجموعة أسر تتنافس على السلطان ولا تعرف من الحكم الحقيقى الا أبسط أشكاله وتعيش من تجارتها الواسعة • وكانت تقسم أهلها الى شيوخ وأحرار وموال وعبيد ، وتنظر الى غير أبنائها نظرتها الى الأجنبى المستذل •

* * *

(١) وكان هذا التوسع فى اعطاء الحقوق السياسية دائما من عمل الطامحين للملكية أو الملوك فكان Gracco أولهم واعقبه قيصر وكان آخرهم كركلا حين ضاق بمعارضة الاستقراطية الرومانية على أيامه •

(٢) وقد وضع الفكر السياسى الحديث ، لمعالجة ذلك ، النظام التمثيلى بعيوبه جميعا ولكن العالم القديم لم يعرف هذا النظام فكان كل مواطن عضوا فى المجلس الشعبى •

ولقد عرفت روما ، مع الملكية المطلقة والادارة الضخمة ، عبادة الملوك التى يفرد بها المؤرخون الشرق على وجه العموم ومصر على وجه الخصوص ، فعبّد قيصر ، وعبّد أغسطس ، وعبّد الأباطرة من بعدهما ، ورفع نسبهم جميعا الى الآلهة الأولين ، ونصبت لهم المعابد فى أقطار الامبراطورية جميعا • وكانت هذه العبادة هى الرباط الأدبى الوحيد الذى يجمع بين هذه الأقطار والأباطرة[١] • ولا يقدح فى ذلك ما يذكره بعض هؤلاء المؤرخين عن انكار الأباطرة عبادة الجماهير اياهم أو عدم صدق الجماهير فى اقامة هذه العبادة[٢] ، فقد كانت ربوبية الفراعنة أيضا تسير الى الهزال منذ الأسرة الخامسة ؛ واستمرت تضعف حتى نشأ تحت البطالمة أدب الحادى ، ثم أصبحت زخرفا لفظيا لا غناء فيه[٣] • هذا الى ما بين عبادة الفراعنة وعبادة الأباطرة فى روما من قرون انتقل فيها العقل البشرى من الوثنية الى المسيحية ، وما نعلمه من أن استنكار الأباطرة هذا لم يمنع من عبادتهم ، فقام للامبراطور كلود أكبر هؤلاء المستنكرين معبد فى بريطانيا وعبد خلفاؤه جميعا • والعبادة فى العالم القديم لا تتضمن المعنى الذى نفهمه منها الآن ، فهى أقرب الى التكريم أو التفخيم أو التعظيم منها الى الاجلال الروحى ، وهى تظهر لذلك بين العامة حين تبعد الشقة بين الطبقات ويمتد سلطان الحاكم وتتسع دعوته فتحيط به فى مخيلة المحكومين تلك الهالة من الهيبة التى كنا نجدها لعهد قريب حول أباطرة اليابان وأباطرة ألمانيا (١) وما زلنا نجدها حول أصحاب النفوذ فى المجتمع الريفى (٢) • يضاف الى ذلك أنها كانت لدى الاسكندر وأباطرة الرومان ، كما كانت لدى الفراعنة ، ضرورة من ضرورات الحكم فى وقت لم تقم فيه القوميات ، ولم تصل الشعوب الداخلة فى تلك الامبراطوريات الجديدة الى الاندماج فى وحدة سياسة متينة ، وكان الشعور الدينى يفوق لدى هذه الشعوب كل شعور عداه ؛ ولم يكن

(١) أنظر مراجع الفصل الأول .

(٢) ومنهم Bell وهو يبذل فى ذلك مجهودا عجيبا ولكنه لا ينكر الوقائع • Bell: Jews and Chr'st'ans in Egypt.

(٣) مجلة القاهرة ، عدد يونيو سنة ١٩٤٣ • وانظر أيضا « على هامش تاريخ مصر القديم » • Bekl: Jews and Christians in Egypt.

من سبيل لذلك الى جمعها فى دولة واحدة الا بضمها فى عبادة مشتركة هى عبادة ذلك الحاكم القدير الذى استطاع أن يدين لحكمه الناس جميعا .

وكان لهذه العبادة فى مصر واليونان وروما طقوسها وخدمتها ومعابدها ، نعنى شعائرها وقسسها وكنائسها ، وان لم يعدُ ذلك فى اليونان وروما الجمهورية حدودا معينة بحكم ضآلة المجتمع الذى قامت فيه . وقد بيّن فوستيل دى كولانج فى كتابه القيّم ما كانت تتسم به الحياة الخاصة والعامة فى المدن اليونانية وروما القديمة من طابع دينى بارز ، اذ كان اليونانيون والايطاليون يؤلّهون موتاهم ويجعلون من مقابرهم معابد يقدمون بها القرابين ، ويقيمون الأسرة على الشركة فى الدين الواحد ، ويفهمون من الوطن ، الاتحاد فى العقيدة الدينية . وكانوا يخلطون بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية ، فيجمع حكامهم بين السلطتين ، ويُعَدّ ملكهم راهب المدينة الأول ، وتمتزج أحكام العبادة فى قوانينهم بأحكام المعاملات ، وتنسب هذه وتلك أول الأمر الى الآلهة ثم لا تنفذ ، حين يعهد بوضعها الى المجالس التشريعية ، حتى يقرها رجال الدين ويعلنوا عدم مخالفتها لرغبة الآلهة [3] . وكان لا يتم عمل خاص أو عام الا وتدخلت فيه الآلهة ، فلا تنعقد المجالس — وبعضها كمجلس شيوخ روما كان يجتمع فى المعابد [4] — الا اذا تقدمتها الصلاة ، ولا تعلن الحرب الا بعد أن يوافق عليها عرّاف المدينة ، ولا يعين فى مراكز الحكم الا من اختارته الآلهة فأخرجت اسمه عند الاقتراع على المرشحين ، كما كان يحدث فى اليونان ، أو أوحت به الى القناصل ، حين يعرضون أسماء المرشحين على الناخبين فى روما الجمهورية كيما يقروها .

وقد انفصلت الادارة الدينية عن الادارة الزمنية فى روما بعد ذلك

(١) وقد خطب امبراطور المانيا فى سنة ١٩١٠ قائلا انه مبعوث السماء وانه يستمد سلطته من الله . انظر باريتو : « المبادىء العامة لعلم الاجتماع » .

(٢) وقد ذكرت بعض الصحف أن المعجبين بهتلر أقاموا عبادة خاصة به .

(٣) فوستيل دى كجولانج . كذلك كان رجال الدين فى روما القديمة ينفردون بعلم الفقه ومشتقاته كما كان الأمر لدى الاسرائيليين والمسيحيين والمسلمين .

(٤) كما كانت تجتمع مجالس الشورى الاسلامية فى الجوامع .

حين نمت الدولة وتنوعت وظائفها وتعددت أجهزتها كما حدث فى مصر ، دون أن تنشطر السلطة الى دينية وزمنية أو يفلت بعضها من يد الأباطرة حتى فى العصر المسيحى . فليس ثمة شك فى أن الأباطرة البيزنطيين كانوا يمارسون السلطتين معا ، ويشرفون على شؤونهما معا .

وليس ثمة شك فى أن المسيحية الغربية لم تكد تفوت دور التبشير الأول وتنتشر بين الجماهير ، نعنى لم تكد تجتاز دور معارضة الحكم القائم ، اذا سمح لنا بهذا التعبير الحديث [1] ، حتى اتجهت الى الاستئثار بالسلطان الزمنى ؛ فكان قيام الكنيسة الرومانية كدولة الى جانب الدولة بسلطتها التشريعية والقضائية والمالية المستقلة ، وكان ظهور الامبراطورية الرومانية المقدسة والصراع الطويل بين كنيسة روما والأباطرة ، ووقوف هذه الكنيسة بعد ذلك فى وجه الوحدة الايطالية حتى القرن التاسع عشر .

وقد ظل رجال الدين يقومون بالدور الأول فى حياة المجتمع الغربى المسيحى ، كما كان زملاؤهم يقومون به فى حياة المجتمع الشرقى الاسلامى، وان اختلف الوضع الذى اتخذه كل من الفريقين ، فكان لرجال الدين الغربيين هيئة مغلقة تمد فروعها الى كل مكان ، وهى هذه الكنيسة الشامخة التى ما زالت تؤثر فى حياة الشعوب المسيحية لليوم ، فى حين عاش علماء الاسلام فى المجتمع ولم تكن لهم منظمة خاصة ينفردون بها .

وبدأت أوروبا نضالها للخلاص من ظلمات عصر الوسط ، عقب الحروب الصليبية ، فكان أئمتها فى هذا النضال من رجال الكنيسة أو تلامذتهم ، كما كان أئمة الاصلاح فى البلاد الاسلامية فى القرن التاسع عشر من العلماء أو تلامذتهم ، فكان بطركا رئيس الاومنيزم قسا ، وكان سان فرنشيسكو وسفنرولا ولوتير أصحاب الاصلاح الاجتماعى قسسا يريدون هذا الاصلاح من طريق الاصلاح الدينى ، كالأفغانى ومحمد عبده ومصطفى المراغى ، وكان قادة المذاهب العلمية والأدبية والسياسية الحديثة كديكارت وبيكون وروسو وفولتير من طلبة المدارس الدينية .

(١) كذلك كان الاسلام قبل أن ينتقل من مكة الى المدينة روحيا لا يعنى بأمور الحكم عناية مباشرة .

وهكذا يكون التفريق الحقيقى بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية شيئا حديثا لم يحدث فى الغرب الا كأثر من الآثار التى صحبت التطور الاجتماعى العام فى أوروبا منذ القرن الخامس عشر ، مثله مثل انحسار الطابع الدينى عن حياة الأوروبيين سواء بسواء ، ويكون الرجوع بالركود الذى وجدت أوروبا عليه الشرق فى القرن الثامن عشر الى امتزاج السلطتين لدى الشرقيين وما يزعم لهم من انفراد بالتفكير الدينى والجمود الذى يمتاز به ، سواء كان شرقيا أو غربيا ، ولا الى شيء عدا ذلك ، دعوى لم ينزل الله بها من سلطان ، وخلطا بين النتائج والأسباب [1] .

* * *

كذلك عرفت الامبراطورية الرومانية ما يدعوه مؤرخو مصر القديمة

---

(١) وقد وضعت فى هذا الموضوع أبحاث ممتعة أهمها فيما نرى بحث الدكتور السنهورى فى الخلافة Sanhouri : Le Califat وبحث الأستاذ على عبد الرازق فى نظم الحكم الاسلامية « الاسلام وأصول الحكم » .

والدكتور السنهورى يرى أنه لا محل للقول بازدواج السلطتين الروحية والزمنية فى الاسلام على الاطلاق ما دام الخليفة لا يملك بعكس البابا سلطة روحية البتة ، ولا يستطيع أكثر من مراقبة احترام المسلمين الأحكام الروحية التى تركها النبى . وهو يستشهد فى عرض رأيه هذا بأرنولد وجويدى . ويلاحظ أن أوروبا لم تفرق على كل حال بين السلطتين الروحية والزمنية الا بعد القرن السادس عشر .

أما الأستاذ على عبد الرازق فيرى أن النبى لم ينشىء للمسلمين دولة خاصة بهم ؛ فقد كانت رسالته رسالة دينية بحتة . وهكذا لا تكون الخلافة نظاما دينيا مفروضا على الأمة الاسلامية بعكس الشائع بين فقهاء الاسلام .

وواضح من وضع الباحثين المسألة هذا الوضع أنهما تأثرا الى حد بعيد بالجدل الذى كان يدور فى الغرب حول طبيعة الحكم فى البلاد الاسلامية وقت درسهما هذه المسألة ، وهو جدل يتميز ، كغالب الأبحاث الغربية التى تدور حول مثل هذه الأمور ، بميله الى التأثر بالظروف القائمة فى الغرب حين يقوم بها أصحابها . فهناك أمر لا شك فيه ، أهمله غالب الذين عرضوا لهذا الموضوع ، وهو أن الغرب والطبقات المثقفة منه على وجه التحديد لم يتخلص من تصوره الدينى للحياة البشرية الا فى القرن الثامن عشر وأن الشرق ما زال يحتفظ بهذا التصور الى الآن . وهكذا تكون كل محاولة للتفريق بين ما ندعوه اليوم بالزمنى والروحى فى جميع مناحى حياة الشعوب الغربية والشرقية قبل هذا التاريخ محاولة لابد أن يخطأها الصواب .

بالملكية المشتركة ، ويعنون به حيازة الدولة جزءا كبيرا من الأراضى الزراعية ، فهم يقولون ان فرعون مصر كان يملك أراضيها كافة ، ثم يختلفون بعد ذلك فيما بينهم ، فيقول فريق منهم ان هذه الأراضى كانت موزعة بين الملك والكنيسة والنبلاء ، أو بين الملك والكنيسة . ويلمح الفريق الآخر هنا وهناك ما يستدل منه على وجود الملكية الفردية أيضا [1] الخ ...

والذى يضلل هؤلاء المؤرخين هنا هو ما يضللهم فى غالب وجوه تاريخ مصر القديم ، تقصد اغفالهم ظاهرة التطور فى النظم العامة جميعا ، ثم وقوفهم عند الأشكال القانونية دون التغلغل الى عناصرها الأولى ، فقد كان فراعنة مصر يملكون الأراضى الكثيرة دون شك ، وكانت تملك مثلها الكنيسة والنبلاء من أهل البلاد ، ولكنهم كانوا يملكونها كما يملك الملوك والقسس والنبلاء ليومنا هذا ثروات واسعة توارثوها آباء عن جدود ، مع اختلاف بيّن رغم ذلك وهو أن الملكية العقارية كانت تكاد تكون شكل الثروة الوحيد فى ذلك الزمن الذى لم يعرف الأوراق المالية أو النقود [2] فكان فرعون مصر الذى ورث العرش عن آبائه جيلا بعد جيل يملك جل ما يرثه أو يقتنيه أراضى زراعية ، وكانت هذه الأراضى تتسع مع تعاقب الأجيال اتساعا طبيعيا وتتضخم حتى تتضاءل الى جانبها الملكية الصغيرة وتفنى فيها .

ونحن اذا ذكرنا ما نشر فى الزمن الأخير عن ثروات بعض ملوك أوروبا المخلوعين [3] استطعنا أن ندرك كيف كان فرعون مصر يستطيع أن يملك ثلث الأراضى الزراعية فيها ، وكذلك الكنيسة المصرية والنبلاء [4] .

وتضخم الملكية العقارية ظاهرة اقتصادية عرفتها بلاد كثيرة فى عصور مختلفة : عرفتها اليونان فى القرن الخامس حتى كانت سببا من أهم أسباب

---

(١) انظر بيرين وجوجيه ومونتيه .

(٢) انظر فى هذا مثلا : Nitti : Principes des Finances. الجزء الثانى .

(٣) مثل ملك ايطاليا وقد قيل انه كان يملك أحد عشر مليونا من الجنيهات .

(٤) ويلاحظ أن نصف أملاك البطالمة كانت بورا .

حروبها الداخلية والخارجية • (١) وعرفتها روما فى العهد الجمهورى المتأخر حتى كان عدد الملاك الزراعيين فيها لا يزيد ، على أيام شيشرون ، على ألفين ، وكانت الحكومة فى العصر الامبراطورى تملك مساحات من الأراضى الزراعية لا حصر لها • (٢) وعرفتها أوروبا جميعا فى العصر الاقطاعى • وقد كانت الدولة تنتهى فى غالب هذه الحالات الى وضع

(١) بربجللو • وأرسطو يذكر الحرب بين الوسائل المشروعة للحصول على الثروة • وبربجللو يقول ان عدد الموسعين فى أثينا قل بين القرنين الخامس والرابع ق • م من ١٥ الفا الى ٨ آلاف وان أجر العامل الاغريقى فى القرن الخامس كان يترجح حول ٣٢٥ فرنكا فى العام ، فى حين أن ديوستين يقدر تكاليف المعيشة الضرورية للفرد الواحد فى ذلك العصر بما لا يقل عن ٥٤٥ فرنكا فى العام • وقد كانت هذه الفاقة من أسباب انتشار الصلات الجنسية بين الذكور واجهاض الاناث وفساد الحياة العامة ثم انتشار المسيحية •

(٢) ومومسن يقول ان العمل الأدبى الوحيد الذى يعرف لمجلس الشيوخ الرومانى هو ايعازه بترجمة كتاب قرطجنى فى ادارة الضياع الكبيرة • كذلك يقول نيبور ان النبلاء كانوا يحرمون العامة من الأراضى التى كانوا يفتحونها فى الحروب ويستأثرون بها من دونهم : Niebhur : Histoire Romaine • ويقول دوروى أن العامة من أهل روما كانوا يدعون الى حمل السلاح مرة كل عام فيضطرون الى ترك أراضيهم والتسلح على حسابهم والسير الى الحرب • وكانوا يرغمون أثناء القتال — الى جانب القيام بالنفقة على انفسهم — على دفع الضرائب المفروضة على أراضيهم • Duruy : Histoire Romaine . ويصف باريتو سياسة روما الاقتصادية فى العصر الجمهورى فيقول : « كانت الصناعة الكبرى ثم الوحيدة التى عرفها الشعب الرومانى هى الحرب • وقد عاش هذا الشعب عالة على شعوب البحر المتوسط الأخرى وظل يلتهم مواردها موردا موردا حتى اذا ما انتهى من التهامها جميعا خبت حياته كما يخبو ضوء مصباح نفد زيته وأتت القبائل الجرمانية بعد ذلك فجعلت بالنهاية التى كان لا مفر منها » •

وباريتو يقول أيضا ان القوانين الزراعية ، التى يشيد بها مؤرخو روما ويرون فيها محاولة نبيلة من محاولات الديموقراطية الرومانية ، لم تكن قوانين اجتماعية حقيقية بقدر ما كانت مثل تصفية للحسابات المتخلفة عن الحروب الرومانية المختلفة فقد كان النبلاء يردون بحكم هذه القوانين الى العامة بعض الأراضى التى فتحوها معا واستأثروا هم بها من دونهم • G. Pareto : Corso d'Economia Politica

هذه الأراضى تحت تصرف الزراع فى صور قانونية مختلفة لا تعدو أن تكون فى جوهرها شكلا من الأشكال التى اتخذها تطور الملكية الخاصة •

* * *

قلنا ان مصر عرفت الكنيسة كما عرفتها اليونان وروما ، ولكن هذه الكنيسة لم تكن موحدة كالكنيسة المسيحية الآن بحكم تعدد الآلهة فى العالم القديم ، اذ كان لكل مقاطعة أو قرية أو قبيلة ألهها المحلى الى جانب الأله الكبير الذى يجله الجميع • وكانت الآلهة المحلية تتخذ أشكالا مختلفة وتمتزج عادة بشعار الاقليم الذى تقدس فيه فتكون طيرا أو حيوانا أو نباتا • وتمتاز عن الآله الكبير باشتمالها على شىء كثير من الخرافات التى تقبلها عقول العامة • ومن ثم ما يدهش له المؤرخون من تفشى الخرافات الدينية فى مصر فى الوقت الذى يصل الفكر الدينى لديها فيه الى الوحدانية بحركة أخناتون ويلقى بذور الاسرائيلية بموسى • هذا الى أن الظن بتقمص الآلهة أجسام الحيوانات ليس بالشىء الذى تنفرد به مصر دون الشعوب القديمة الأخرى فهو طور من الأطوار الى اجتازها الفكر الدينى لدى غالب الشعوب وبينها الشعوب اليونانية والايطالية أيضا • يضاف الى ذلك أن العالم القديم كان لا يقيم بين الانسان والحيوان والنبات هذه الحدود الفاصلة التى نقيمها نحن الآن ، فكان المصريون يستعملون أسماء الحيوانات للتعبير عما يشعرون به من حب وعطف فتدلل الزوجة زوجها داعية اياه ياكلبى ويدللها هو داعيا اياها ياقارى (١) وكانت أثينا تحاكم الحيوانات والجماد وتعاقبها اذا أذت وظلت أوروبا تفعل فعلها حتى القرن الثامن عشر • ونحن لانزال نكبر بعض الحيوانات والطيور ونشبّه بها فنقول : برىء كالحمل ، طاهر كالحمام ، ويرمز للقوة بصور الصقر والأسد ، ونفضل القط على الكلب فى الشرق ، والكلب على القط فى الغرب •

كذلك لم تكن الخرافات وضروب السحر المختلفة فى مصر القديمة

(١) ماسبرو : Les Contes Populaires de l'Ancienne Egypte

شذوذا لم يعرفه غيرها من الشعوب ، فقد كان الرومان يعبدون من الآلهة عددا لاحصر له ، ويفردون لكل عمل من أعمالهم الها يشرف عليه [١] ، فهذا اله يعلّم الطفل كيف يأكل ويشرب ، وذلك اله يصحب العروس الى منزل العريس ، وذلك اله يحمى الأمهات الخ ... وكانوا يبدأون أمورهم بالدعاء والصلاة ، ويملأون مدينتهم بالمعابد ، ولايبرحون المنازل قبل التأكد من حسن طالع يومهم ، ويمتنعون عن استعمال الألفاظ التى تكرهها الآلهة ؛ ويستشيرون الآلهة فى كل شيء وكل وقت بالتأمل فى أمعاء القرابين أو مراقبة الطيور ، ولا يحلقون رؤوسهم الا فى الأيام المقمرة ، ويحملون شتى أنواع التمائم ، ويغطون جدران دورهم بالكتابات الدينية ويحفظون الأدعية الواقية من الأمراض . وكانوا يعتقدون أن للمدن الأخرى أيضا آلهة تحميها ولا يحاصرونها الا بعد أن يدعوا آلهتها الى مغادرتها ، ويتعمدون بعد ذلك أن يبقوا اسم اله مدينتهم مجهولا حتى لا تفعل معه شعوب تلك المدن مثل ذلك فى سبيل السطو عليها [٢] . وكان الرومان واليونان لا يقاتلون أعدائهم قبل أن يأذن الآلهة لهم بالقتال[٣] ولايمضون الى الحرب الا ومعهم أصنامهم ، ويستهلون المعارك بالقرابين وكان أهل سبرطة لا ينصبون الحرب الا اذا اكتمل القمر ، كما كان الأثينيون لا يقاتلون قبل اليوم السابع من الشهر ، واذا هبّوا الى معركة ذهّبوا تمثال آله مدينتهم من جديد . وكان هؤلاء وأولئك يخفون آلهتهم أو يقيدونها داخل المعابد اذا حوصرت مدنهم حتى لا يستدرجها المحاصرون[٤] . وهيرودوت يقول ان الأثينيين كانوا يعدون الريح صهرهم

(١) انظر تاريخ بوليب ومراجع الفصل الأول .

(٢) كان هذا الاعتقاد منتشرا فى اليونان أيضا وهيرودوت يقول أن أهل أثينا أرادوا السطو على مدينة Eginètes ولكنهم خشوا ألا ينجحوا فى ذلك بسبب قوة اله هذه المدينة فقرروا اقامة معبد له يعبدونه فيه ثلاثين عاما ثم يسطون على المدينة .

(٣) وقد رفض مجلس الشيوخ الرومانى أن يرسل جيشا لاخضاع مصر لأن الآلهة رفضت ذلك . مومسن .

(٤) فوستيل دى كولانج .

الأكبر ، لأنه تزوج من Orizia بنت Eretteo ، وقد شتت أسطول الفرس فى موقعة من المواقع فأقامت له أثينا مذبحا فى Tita كذلك يقول كسنوفون ان أثينا كانت أكثر المدن القديمة أعيادا دينية ومعابد وتعاويذ .

ونحن نعلم أن قانون الألواح الاثنى عشر الرومانى كان يعاقب من يقدم على سحر موظفى الدولة ، وأن المدن اليونانية والأيطالية كانت تعهد الى بعض موظفيها الرسميين فى التنبؤ بسقوط الجليد ، وما يكاد هؤلاء الموظفون يتنبأون بسقوطه حتى تهرع الجماهير الى المعابد ويضحى كل ما يستطيع من أنعام أو طيور فاذا لم يملك شيئا من ذلك جرح أصبعه وأسال شيئا من دمه . وقد كان أمبد وكل الفيلسوف يفخر باستطاعته السيطرة على المطر والريح [١] . فرونه يقول ان اله الريح قضى على أسطول ديونيس فى احدى غزواته فمنحه أهل المدينة جنسيتهم وأقاموا له منزلا وحقلا وجعلوا يحتفلون به كل عام . وشيشرون يقول ان الرومان خسروا معركة ترزيمين لأن القنصل فلامين نسى أن يضحى للآلهة فسقط بحصانه أمام تمثال جوبتر ، ورفضت الطيور المقدسة الطعام ولم يستطع أحد أن ينزع أعلام الجيش من الأرض . وهو يقول أيضا ان الرومان عقدوا مع آلهتهم عقدا مكتوبا على قرابين بعينها يقدمونها لها فى حالة الانتصار على هنيبال حينما هاجمهم بجيوشه . وكان القنصل ماريو يصطحب فى حروبه الألمانية كاهنة سورية تدعى مارتا ويسترشد بها فى مقاتلة الألمان . كذلك كان أوريليو يصطحب فى حروبه الفيلسوف المصرى أرنوفى للغرض نفسه . وقد حدث ذات يوما أن تعرض جنده للهلاك عطشا فجمع أرنوفى هذا السحب وأسقط المطر وروى به العطاش . و Gellio يقول ان الرومان كانوا لايعلمون أى آله يدعون اذا زلزلت الأرض زلزالها فيأمرون فى أوقات معينة بالاحتفال بآله مجهول يمنع الناس من ذكر اسمه حتى لايخطئه أحد .

وكان قيصر يستأنس بالسحر ويتلو اذا ركب عربته تعويذة خاصة بذلك . و Svetano يحيط مولد الامبراطورة بظواهر خارقة كتلك التى أحاطت بمولد الاسكندر ، ويقول ان أغسطس أيضا كان ثمرة زواج والدته Azia من ثعبان رهيب .

(١) بوليب .

وقد عرفت أوروبا المسيحية بعد ذلك مثل هذه الخرافات فكان فيها قسس يكلفون بالاشراف على الزوابع واخضاعها [١]. وكان القديس ترتليانو يعتقد فى امكان التخلص من الجفاف بالصلاة ويؤمن بأن الله اتصل بمريم العذراء فى صورة شعاع من نور خرق احدى أذنيها . كذلك كان شارلمان يدعو رعاياه الى مضاعفة رسوم الكنيسة محافظة على الزرع من عبث الشياطين . وكان القديس تومازو يعتقد أن الشياطين يستطيعون أن يثيروا الرياح ويسقطوا النار من السماء . ونحن نعلم أن نيوتن — وهو أحد آباء العلم الحديث — وضع كتابا يقيم فيه الدليل على تحقق رؤيا يوحنا ، وأن ريشيليو كان يعالج شلله فى القرن الخامس عشر بمزيج من براز الخيل بالشمبانيا . وليس فى كل هذا ما يستنكر ؛ فالخرافة توجد حيث يوجد الجهل ، وقد كان العالم القديم جاهلا فى غالب طبقاته . والفكر الدينى لا يؤمن بالمنطق البشرى ولا ينكر لذلك المعجزات . هذا الى أن السحر شكل من الأشكال التى اتخذتها العلوم فى أطوارها الأولى ، وهو لذلك يوجد لدى الأمم المتمدينة كافة .

* * *

وقد شهدنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب ما استتبعه غزو العرب مصر فى القرن السابع من عداء دينى بين المصريين وأوروبا المسيحية ؛ ورأينا فى الفصل الرابع ما يثيره اختلاف الظروف الاقتصادية والاجتماعية بين المجتمع الزراعى المصرى ونزلائه الصناعيين من الأجانب فى صدر هذا المجتمع بالذات من تحامل . ولا شك فى أن ما أسلفناه فى الصفحات السابقة من مظاهر التشويه الذى لحق تاريخ مصر وانتهى به فاعلوه لتحويلها الى شىء شاذ لا مكان له فى هذا العالم الحديث — لا شك فى أنه الى جانب الاختلاف الدينى والفروق الاجتماعية المختلفة — العلة فيما يبديه المصريون اليوم من تنكر للغربيين والغرب ، الى حد ما ، على وجه العموم ، وفيما يدفعهم اليه نحوهم من تخوف أصبح لا يخلو من الاسراف .

والأجانب فى مصر اليوم فريقان : فريق يتألف من الغربيين الحقيقيين

(١) كانوا يعرفون باسم الـ Templari . باريتو « مبادىء علم الاجتماع » .

الذين يهبطون البلاد آجالا مختلفة بغية استثمار أموالهم وينتهون الى مغادرتها أو الاستقرار بها مع الابقاء على صلتهم بأوطانهم . وفريق يتألف من المهاجرين الذين هبطوا مصر فى القرن الماضى من بلاد البحر المتوسط وبعض أقطار السلطنة العثمانية واستوطنوا بهـا ، ولكنهم احتفظوا بجوازاتهم الأجنبية ليتمتعوا بما كانت تخولهم اياه من حقوق ، واستمروا يعيشون على هامش الحياة الغربية التى عرفوها فى بلادهم الأصلية . والفريق الأول يتكون ، فى الغالب ، من رجال الأعمال القليلين الذين يمدون نشاطهم خارج القارة الأوروبية ، وقد فقد النفوذ السياسى الذى كان يتمتع به الى مطلع هـذا القرن منذ أن فقدت الدول التى يتبعها نفوذها لدينا وصار عنصرا اقتصاديا لا غير . وهو اذا وظّف أمواله فى مصر ربط مصالحه بمصالحها ولم يحجم عن منافسة مصالح بلاده فى سبيل مصالحه هذه .

أما الفريق الثانى ، وهو الأوفر عـددا ، فليس من حيث تكوينه بالمصرى ، ولكنه ليس بالأجنبى أيضـا ، وانما هو وليد تلك الحـالة الاقتصادية — الاجتماعية — السياسية الشاذة التى أوجدها ما كان يقوم بين السلطنة العثمانية والدول المسيحية فى الشرق الاسلامى فى القرنين الماضيين من صلات خاصة كانت تنشىء بين أهل هذه الأقطار ومن ينزل عليهم مشمولا برعاية احدى تلك الدول ، سواء أكان غربيا أم لم يكن ، جوا شاذا ينفرد بعدم خضوعه لسلطة عامة بعينها ، فلا هو يخضع للحكومة المحلية ، ولا هو يخضع لحكومة غيرها خضوعا شاملا مباشرا . وهو يتخذ لذلك اتجاهات خاصة به ، ويبعث فى أفراده هذه الخصال التى نذكرها الآن فى باب انتقاد الأجانب المستوطنين لدينا من استهتار بالنظم العامة وانصراف للمصالح المادية الى عدم مشاركة أهل البلاد فى محنتهم القومية . وهذا الفريق لا يسيغ الاقامة خارج مصر ولا تعنى به الحكومات التى يتبعها عناية خاصة وان كانت قد عنيت به فى وقت من الأوقات كوسيلة من وسائل النفوذ . وهو على كل حال أكثر من الفريق الأول تأثرا بطابع البلاد .

والفريقان معا لا يزيد عددهما ، حسب آخر احصاء رسمى ، على ١٨٦ر٥١٥ شخص [1] ولا يستطيعان لذلك أن يكونا خطرا سياسيا حقيقيا ، فضلا عن أنهما بتقديمهما نشاطهما الاقتصادى على ما عداه يصيران أداة طيعة فى يد الدولة . وقد استردت هذه فى الأعوام الأخيرة استقلالها التشريعى فصارت تملك زمامهما من نواحيه جميعا ، ولم يعد ثمة معنى لتخوفها منهما أكثر مما يحق لأية دولة حديثة أخرى أن تتخوف من الأجانب النازلين عليها . وواضح أن السياسة التى تتبعها منذ حين فيما يتعلق بالأجانب تهدف الى افساح المجال للمصريين فى دائرة نشاطهم الاقتصادى ، ما دامت الدائرة الاقتصادية المصرية لا تزال لا تكفيهم ، وما دام هؤلاء الأجانب ينساقون الى ما تنساق اليه كل أقلية اجتماعية قصيرة النظر من قصر تعاونها على أبنائها وعدم مد يدها الى سواهم . غير أن تكون جزء كبير من هؤلاء الأجانب ، كما رأينا ، من المستوطنين

(١) ينقسمون كما يأتى :

٣١ر٥٢٣	بريطانى	٣ر٢٠١	تركى
١٨ر٨٢١	فرنسى	١ر٩٣١	سورى
٤٧ر٧٠٦	ايطالى	١٤ر٧٧٤	أجناس مختلفة
٦٨ر٥٥٩	يونانى		

وال ٣١ر٥٢٣ بريطانى ينقسمون من ناحية الأصل الى :
١٣ر٢٧٠ انجليزيا – ١ر١٠١ مصرى – ٤ر٢٣٤ يونانيا – ٧٨٧ هنديا – ٧ر٨٢١ مالطيا – ٤ر٣١٠ جنسيات أخرى .
وال ١٧ر٨٢١ فرنسى ينقسمون من ناحية الأصل الى :
٨٤٠ جزائريا – ٣ر٠٢٢ مصريا – ٩ر٦١٩ فرنسيا – ٨٩٤ مراكشيا – ١ر٥٠٣ تونسيين – ٩٧٦ جنسيات أخرى .
وال ٤٧ر٧٠٦ ايطاليون ينقسمون من ناحية الأصل الى :
٢ر٢٣٣ مصريا – ١٣ ارتريا – ٢ر١٤٣ يونانيا – ٣٩ر٥٣٥ ايطاليا – ١ر٧٥١ طرابلسيا – ٢ر٠٣٢ جنسيات أخرى .
وال ١٤ر٧٧٤ أجنبيا الأخرون ينقسمون الى :
١ر٣٧٧ ألمانيا – ٧١٩ أمريكيا – ٨٢٨ نمساويا – ٤٧١ بلجيكيا – ٢٢٩ بلغاريا – ١١٠ دنماركيين – ١ر٢٠٨ أسبانيين – ٤٤٧ هولانديا .
فاذا استبعدنا من هذه القوائم الشرقيين التابعين للدول الشرقية والدول الغربية يكون مجموع عدد الغربيين الحقيقيين الذين يقيمون فى مصر ١٤٢ر٧٤٩ .

الذين لا جنسية معينة لهم ، ولا نظن أننا سنقدم يوما على اخراجهم من البلاد أو حرمانهم من حق العمل فيها ، وبخاصة أن جانبا لا بأس به منهم من الشرقيين أو المنحدرين من بلاد شرقية ، فالغالب أن تكون النتيجة الفعلية التى تنتهى اليها هذه السياسة هى أننا سنغلق أبواب مصر فى وجه الغربيين الحقيقيين ، وندعم مركز هؤلاء المستوطنين على الأقل أول الأمر الى أن تكتسب العناصر المصرية الحقيقية الخبرة التى تنقصها . ولاشك فى أن اقتصادنا الحديث يستطيع أن يستغنى عن الكاتب أو المحاسب أو المترجم الغربى أو الشرقى المستغرب دون أن يعرض كيانه لخطر جسيم حتى لو كان المصرى الذى يحل محله أقل منه خبرة ، ولكنه لايستطيع أن يستغنى عن الفنى الغربى الذى يسعى فى العادة الى استقدامه من الخارج وليس من الخير أن يحاول ذلك ما دامت الصناعة والتجارة لدينا محتاجتين كما هما الآن الى الخبرة العملية التى لا تكفى معاهد العلم لتكوينها مهما رفع من شأنها والتى لاخوف من مزاحمتها العناصر الوطنية مزاحمة حقيقية بالنظر الى قلة عدد هذه العناصر وكونها فى الغالب من درجة لاتتأثر بمثل هذه المنافسة تأثرا شديدا [1] . وهكذا يكاد هذا العلاج لأوضاعنا الاقتصادية الشاذة أن يؤدى الى عكس مايقصد اليه ككل علاج شكلى مثله . ولعله كان من الأجدى أن تعنى الدولة بتوجيهنا توجيها اقتصاديا حديثا حقيقة ، وأن تتمثل أثناء ذلك ماتحتاج اليه نهضتنا الاقتصادية من فنيين غربيين ، وأن يعدل الأجانب من ناحيتهم عما أخذوا به أنفسهم الى اليوم من ايثار مواطنيهم بكل شىء ، ولزوم الاستعلاء على أهل البلاد

(١) ونحن نعلم أن الوزارة المشرفة على الانتاج الصناعى – وهى وزارة التجارة والصناعة – لا تمانع فى استقدام الفنيين بل تشجعه وتقوم هى بنفسها باستقدامهم . الا أن توزع الاختصاصات فى هذا الأمر أيضا وما يتبعه من قصر اقامة الفنيين بالبلاد على مدد محدودة لا تزيد عادة على أشهر معدودات تقضى فى الغالب على فائدة هذا الاتجاه وتحرم البلاد من كبار الفنيين ، فليس من المعقول أن يترك هؤلاء أعمالهم ليعملوا فى مصر بضعة أشهر ، ثم انها تقلل من نفع من يأتى من صغارهم أيضا ، لأنهم ما داموا يعلمون أن بقاءهم فى البلاد مرهون باعداد من يحل محلهم أو الانتهاء من المهمة التى استقدموا من أجلها مالوا الى التباطؤ والاهمال .

والنظر الى مسائلهم وكأنها مسائل طبيعية لاتتحول ، لامسائل تطور عادى تعرض للشعوب جميعا .

* * *

وقد أسرفنا ومازلنا نسرف على نفسنا من حين الى حين فى التفضيل بين ماندعوه بالحضارة الشرقية والحضارة الغربية والبحث فى أيهما خير لنا من الأخرى . ورأى فريق منا أن لامفر من الأخذ بالثانية لأننا أصحاب عقلية غربية [(١)] ، فى حين رأى الفريق الآخر أن لا مناص لنا من التمسك بالأولى لأنها أقرب الحضارتين صلة بالفضائل الانسانية[(٢)] غير أن أصحاب الرأى الأول يلاحظون بعد ذلك أن العقلية الشرقية لم تمنع بلدا كاليابان أن تتخذ الحضارة الغربية وتنافس فيها [(٣)] . كذلك لم تمنع ارادة التمسك بالحضارة الشرقية المنادين بها من الرغبة فى الأخذ بأسباب الحياة الغربية ، نقصد من الرغبة فى اتخاذ الطائرة وسيلة للانتقال دون الدواب ، والتمتع بالحكم النيابى بدل النظم التى كانت تحكم بها الدولة الأموية أو العباسية أو الفاطمية أو ما سبق ذلك وأعقبه من دول قديمة ، والانصراف الى الأعمال التى يتقنونها ويعيشون منها عيشة آمنة بدلا من أن يكونوا علماء ومتسولين أو فقهاء وصناعا وتجارا فى وقت واحد ، نعنى لم تمنعهم من الرغبة فى التمتع بثمرات الحضارة الغربية التى لا يريدونها فى الوقت الذى يريدون فيه التمسك بالخصال التى كانت تنادى بها ، ولا أقول تعمل بها المجتمعات الخالية .

ونحن لا نريد أن ندخل فى ميدان العقليات هذا الزلق فلسنا من أبطاله ، ونقنع بالاشارة الى ما أصبح لا ينكره منكر من اتصال ما يدعى الفكر الاغريقى — الرومانى بالفكر المصرى من جهة ، والفكر العباسى من جهة ، وتأثير المسيحية والاسلام فى الحضارة الغربية الحديثة واشتراك الشعوب القائمة فى هذا الجانب من العالم على وجه العموم فى نسج

---

(١) انظر « مستقبل الثقافة فى مصر » لطه حسين .

(٢) وأكبر المدافعين عن هذا الرأى هو على ما نظن توفيق الحكيم وهو يكاد يشير اليه فى كل ما يكتب .

(٣) « مستقبل الثقافة فى مصر » أيضا .

هذه الحضارة [(١)] . وقد أصبحت البشرية المتحضرة تسير جميعا بخطى عاجلة الى حياة مشتركة منذ أن كشف لها العالم عن أسرار الملاحة الجوية والاذاعة اللاسلكية والانتاج الآلى ، نقصد منذ أن ضاقت بين أطرافها الفروق الزمنية والفكرية والاقتصادية وصارت تعيش عيشة سواء . وليست الحضارة بعد بالشىء الذى ينتقيه المرء كما يشاء ، وانما هى الثمرة المحتومة للأوضاع الاجتماعية التى تتخذها الشعوب ، وهذه

---

(١) ويعجبنا أن ننقل فيما يلى مقتطفات من مقال لأحمد أمين فى هذا الموضوع فهى تشتمل على حقائق تهم من يعنون بدراسة هذه الأمور :

« من قديم وقف الشرق والغرب معسكرين فى الحروب وفى السياسة وفى الاقتصاد وفى المدنية وفى أساليب الحياة والتفكير . وثار الجدل بين الأوروبيين : هل من المصلحة أن يمدن الشرق بمدنية الغرب أو يترك وشأنه ، يستغله الغرب فى موارد الاستغلال . ثم يخليه ونفسه فيما عدا ذلك ؟ وثار الجدل بين الشرقيين : ما موقفهم من المدنية الحديثة ؟ أيأخذونها بحذافيرها أم يتخيرون منها ؟ .

ولكن قوانين الطبيعة الحازمة لم تعبأ بهذا الجدل ، وسارت سيرها الحثيث نحو توحيد العالم وتوحيد المدنية فى جوهر الأمور ، وان اختلفت الأشكال والأغراض . ولم تكترث للحدود الجغرافية المصطنعة بين الشرق والغرب ، فالعلوم والآداب والأوضاع السياسية ونظم الحياة الخاصة والعامة تسربت من الغرب الى الشرق كما تسربت قبل ذلك من الشرق الى الغرب ، لأن القانون الطبيعى أن البقاء للأصلح والغلبة للأرقى والأقوى والتفاعل الدائم بين المتجاورين ... »

« .... قبل ثلاثة قرون ونصف قرن لم تكن هذه الفروق بين الشرق والغرب ، فان كان ولابد فالشرق كان يسبق الغرب فى مدنيته وحضارته ووسائل حياته ، ثم حدث فى أوائل القرن السابع عشر أن اكتشف الغرب وسائل للعلم التجريبى جديدة بنى عليها ثروته الصناعية والاقتصادية ، ومن هنا بدأت نقط التحول والتفوق . ومن نحو قرنين تضاعفت قوة الغرب باكتشافه بعض قوانين الطبيعة ومعرفته كيف يتغلب عليها ، وافتتح عصرا جديدا عماده البخار والكهربا . والشرق فى هذه القرون الثلاثة كان يعتمد على وسائله القديمة الخالية من البخار والكهربا . فتخلف ، وكان هذا هو الفرق الكبير الذى نراه الآن . وليس هذا فرقا طبيعيا فى عقلية الأمم ؛ فالتاريخ علمنا أن التفوق والنبوغ يتحول وينتقل بين الشعوب لأسباب نفهم بعضها ونعجز عن فهم بعضها ، كنبوغ الأفراد يظهر من حيث لا نعلم ، فقد ينبغ من بيت حقير ، ومن بيت عظيم ، ومن أسرة وضيعة ، ومن أسرة نبيلة ، ومن قرية ، ومن مدينة ، ومن أكثر الناس علما ، ومن أقلهم علما . وهكذا نبوغ الأمم حملت رايته الصين حينا ، وبغداد حينا ، والقاهرة حينا ، وجاء دور الغرب فحملها ، وهو دور كسائر الأدوار — فلا معنى للتبجح بدعوى التفوق الطبيعى والاستمرار الزمنى والمكانى ، فما على الشرق الا أن يأخذ بالوسائل التى اعتمد عليها الغرب من العلم التجريبى واستخدام البخار والكهربا حتى تتغير مدنيته وحياته وأخلاقه ويتبوأ مكانه ... »

الأوضاع تسير الآن مسرعة نحو الوحدة ، ومن العبث لذلك أن نحاول التعلق بحضارة الماضي في الوقت الذي نسعى فيه خفافا الى الأخذ بأساليب الحياة الحديثة .

ليست الحضارة بالشيء الذي ينتقيه المرء كما يشاء ، وهي ليست بالشيء الذي يستطيع المرء أن ينقله بنقل القوانين أو المظاهر فليست هذه وتلك سوى أشكال يتخذها جوهر دفين تنتجه الحياة اليومية والتقاليد والجهود وهذا الجوهر لا يمكن الوصول اليه الا بمعالجة مقومات حياة الشعوب ، نعني عناصرها الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، معالجة لا تغفل فيها الظروف القائمة ومقدماتها ومدى قابليتها للتحويل ولا تغفل فيها طبيعة الجوهر الذي يراد نقله ومقدماته ومدى قابليته للنقل . وقد أغفلنا نحن هذا الى اليوم وظننا أن الأمر أمر التعليم ولا شيء سواه وأنشأنا ننظر الى كل متعلم لدينا وكأنه قادر على كل شيء فصار كل حقوقي لدينا مشرعا وفقيها ومؤلفا وكل مهندس أو طبيب عالما ومدرسا وكاتبا ، ثم لمسنا ما في ذلك من شطط فهاجم اليأس قلوبنا وافترضنا العجز في نفسنا وقدمنا عليها كل ما هو غربي . والحقيقة هي أن التعليم لن يغني عن المتعلمين شيئا ما داموا لا يجدون في الحياة اليومية

« ... الحق أن ليست هناك حضارة غربية وحضارة شرقية ، فما نسميه اليوم حضارة غربية بعض نتاج الصين في اكتشافها صناعة الورق والطباعة والبارود وبعض نتاج الهند والعرب في العلوم الرياضية والفلسفة ، كما أنه بعض نتائج فلسفة اليونان وعلمهم وفلسفة المحدثين وعلمهم أمثال كانت وجاليلو ونيوتن ، فالعلم والفلسفة والاختراع والمدنية مدينة للنوابغ من جميع أنحاء العالم من هند وصين وعرب ويونان وانجليز وفرنسيين وألمانيين فتسميتها بالحضارة الغربية تسمية بمن احتل أعلى طبقة في البناء الذي شيده العالم منذ نشأته واشترك في تشييده النوابغ من كل صقع ومن كل جنس وتسمية البناء باسم سكان الطبقة العليا تسمية تعسفية أو اصطلاحية أو هي كالبطاقة توضع على السلعة للتعرف بها .

وكذلك لا أفهم معنى للشرق والغرب بالتفسير الذي يقصدونه ، وهو أن هناك فروقا خلقية وطبيعية بين سكان في بقعة وسكان في بقعة أخرى ، وأن هذه الفروق قدر محتم كالقدر الذي جعل هذا حجرا وهذا نباتا وهذا حيوانا وهذا برا وهذا بحرا ، وأنه من المستحيل أن يتحول هؤلاء الى أولئك وأولئك الى هؤلاء . وعبروا عن هذا المعنى بقولهم « الشرق شرق والغرب غرب » أي كما نقول — الأرض أرض والسماء سماء » . « شرق وغرب » لأحمد أمين ، مجلة الشرق الجديد في مايو ١٩٤٥ .

ما يتصل به من ظواهر يستطيعون بمعالجتها أن يطبقوا علمهم وينموا ملكاتهم ويرتفعوا الى الابتكار ، وان نعشة واحدة تصيب حياتنا الاقتصادية تستطيع أن تكسب هؤلاء المتعلمين ما يمتاز به أقرانهم في البلاد الأخرى وما لا يستطيع التعليم النظري أن يزودهم به .

وقد أردنا أخيرا أن نحاول هذه النعشة فقمنا بنقل قوانين الأمم الأخرى دون أن نقف عند مقدماتها وظروفها ونتائجها ، ودون أن نطيل النظر في ظروفنا نحن ومقدماتها واحتمالاتها . واتجهنا الى الزج بالدولة في الاقتصاد ، والدولة ما زالت لدينا قصيرة الباع في هذا الميدان ، وهذا الميدان نفسه ما زال هزيلا يحتاج الى مجهود الفرد وعنايته واندفاعاته . وأقدمنا على بذر الشقاق بين أطراف الانتاج وهي ما زالت في حاجة الى التعاون والوصول بالانتاج الى ما وصل اليه غيرنا . ومضينا مسرعين في تقييد النشاط الاقتصادي ، وهذا النشاط ما زال في حاجة الى الترغيب والتوسع والتشجيع ، لا لشيء الا لأن الغرب يفعل ذلك .

* * *

ونحن لا نريد أن ننكر بما قدمنا في هذا الفصل اختلاف شعوب البحر المتوسط بعضها عن بعض ، أو اختلافها جميعا عن مصر ، أو التهوين من أثر هذا الاختلاف في أوضاعها الاجتماعية . انما نريد أن نقول أن هذا الاختلاف لم يصب الخطوط الكبرى التي جرت عليها النظم العامة لدى هذه الشعوب من قريب ، وأن الذين جهدوا في الرجوع بظروف مصر الحاضرة الى تغاير هذه النظم فقط يخطئون ، كما يخطىء الذين يدفعهم الغرض أو الجهل أو الضعف الى أن يروا فيه أمر الجبلة التي جبلنا عليها ويشككون لذلك في مستقبلنا هذا التشكك الذي يفسد علينا قومتنا الحاضرة . انما الأمر قبل كل شيء هو أمر تلك القرون الطويلة التي تعاقبت بين اكتشاف رأس الرجاء الصالح وافتتاح قناة السويس واتصلت أوروبا أثناءها بالشرق الاقصى والعالم الجديد فاتسع مجالها ونمت أعضاؤها ونضجت ملكاتها بعد عصر الركود الذي عرفته في عهد الوسط ، على حين كانت مصر والشعوب العربية الواقعة شرقها على

شاطىء البحر المتوسط توغل فى دائرة الحياة المغولية التى فتحها عليها الاسلام فى القرن السابع ، فجعلت تغمرها بموجاتها البدائية الغزيرة منذ القرن الثامن ، ثم أطبقت عليها بالفتح العثمانى فى مطلع القرن السادس عشر وظلت تعنف بها حتى كاد يغيض ماء الحياة فى عروقها فى مطلع القرن الثامن عشر [1] .

أمر تلك القرون الطويلة وما قطعه الغرب خلالها من مسافات ينبغى لمصر كيما تقطعها الآن أن تطرح ما زالت تأخذ به من سياسة التستر على ما من شأن حداثة نهضتنا أن تبقى عليه فيها من أسباب الضعف أو الجهل أو القصور ، وتقلع عن القنوع بنفخ الأوداج والضجيج الفارغ ، وتواجه جوهر النقص فى حياتها ، أى فقر الدم هذا الظاهر فى أوصال مجتمعنا جميعا ، بتنقيته وتغذيته وانعاشه ، وهو عمل يقع غالبه من دائرة النشاط الاقتصادى فى الصميم . ومن ثم حاجتنا الماسة الى حشد قواتنا فى هذا الميدان واحاطته بكل ضمان فنى ممكن ، وتغليب المصالح الأساسية البعيدة على المصالح الثانوية القريبة ، وحاجتنا أيضا الى توجيهه توجيها عصريا ، أى صناعيا ، كيما تضمن لأنفسنا عدم التخلف عن موكب الحضارة الحديثة وهى حضارة صناعية لا شك فيها .

لنقلع اذا عن تشاؤمنا الحالى ، فلا أصل له سوى وقوفنا عند عوارض الحياة الهجينة التى بذرناها بالحكم الخاطىء والقصور عن الارتفاع الى أصول نقائصنا الحقيقية وننظر الى ما كتب حتى اليوم فى تاريخنا القديم والحديث ، وبخاصة فى الغرب ، على حقيقته كمظهر من مظاهر الاستعلاء الذى يروق الأقوياء أن يبدوه نحو الضعفاء [2] ، أو رغبة

(١) يلاحظ أن أمريكا تطغى الآن هى أيضا على أوروبا التى اكتشفتها وتكاد تجمع اليها أعنة الحكم فيها ، الا أن هناك فارقا كبيرا بين الطغيان الأمريكى على أوروبا والطغيان الأسيوى على البلاد الغربية ، فأوروبا فتحت أمريكا وغمرتها بأبنائها ، والأمريكيون أوروبيون مهاجرون يحيون حياة لا تعدو أن تكون طورا من أطوار الحياة الأوروبية ، على حين لم يهاجر العرب الى آسيا وما كانوا يستطيعون الاستقرار فيها وهى غزيرة بالسكان ، وهكذا ظلت شعوبها أسيوية حتى من دخل منها الاسلام .

(٢) ويلاحظ فعلا أن لهجة هيرودوت فى التحدث عن مصر تختلف عن لهجة ديودور فقد وضع هيرودوت كتابه ومصر مستقلة عن اليونان فى حين وضع ديودور كتابه ومصر تحت الحكم الرومانى .

الحكام فى تخدير أعصاب المحكومين ، أو هذا الميل الوثنى الذى ما زال يدفع ببنى الانسان الى خلع ما يصبون اليه من مثل عليا على شىء ما فى عالم المحسوس هذا القائم أو عالم الخيال الذى يقيمونه لنفسهم ، والذى لا شك فى أنه ما زال الى حد بعيد مصدر ما يحيط به المؤرخون الغربيون تاريخ اليونان القديمة والامبراطورية الرومانية من فضائل لم ينزل الله بها من سلطان ، وما يحيط به المؤرخون الشرقيون تاريخ العرب الأولين من صفات ليس لها من الصحة نصيب خير من نصيب تلك الفضائل .

لنقلع عن ذلك وتتحول بجهودنا عما لا غناء فيه من محاولات تمس العرض دون الجوهر ، وتدفع نزعة التقليد اليها قرب عهدنا بهذه الحياة الحديثة التى نريد ، ونقبل على العمل الايجابى مستعينين فى ذلك دون خجل أو تردد بكل ما نستطيع أن نغترفه من خبرة الغرب ، ففى هذه الخبرة التى ليس فى عدم توفرنا عليها الآن ، ونحن لم نعد الى الحياة الا بالأمس القريب ، ما يعيبنا من بعيد أو قريب ، طريق السلامة الوحيد الباقى بين يدينا . ونذكر قبل كل شىء أنه ان كان الفرق بين مصر والبلاد الأخرى هو الفرق بين مستوى عامة المصريين وعامة الشعوب الأخرى ، فان الفرق بين السرعة التى نسير بها لتغطية هذه الفروق والسرعة التى تسير بها هذه الشعوب هو الى حد بعيد الفرق بين حكامنا وحكامهم . وقد لا يستطيع المصرى البسيط أن يتثقف ويبلغ بنفسه مستوى أقرانه فى الغرب ويقوم بواجبه كاملا ، ولكن الطبقة الحاكمة المصرية تملك وسائل ذلك خصوصا الوقت والمال .

صدر من هذه السلسلة

١ ـ تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (٣ أجزاء) ـ تأليف: محمد رشيد رضا
دراسة وتقديم: د. أحمد زكريا الشّلق.

٢ ـ الأعمال الكاملة للدكتور شبلى شميل (٢ جزء) ـ تأليف: شبلى شميل
دراسة وتقديم: د. عصمت نصار.

٣ ـ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (٧ أجزاء)
للعلامة المؤرخ عبدالرحمن الجبرتى ـ دراسة وتقديم: د. أحمد زكريا الشّلق.

٤ ـ مستقبل الثقافة فى مصر ـ تأليف: طه حسين
دراسة وتقديم: د. أحمد زكريا الشّلق.

٥ ـ حوليات مصر السياسية ـ الحولية الرابعة «الجزء السابع»
تأليف: أحمد شفيق باشا ـ دراسة وتقديم: د. أحمد زكريا الشّلق.

وبين يديك:

فى أصول المسألة المصرية.

تأليف: صبحى وحيده دراسة وتقديم: د. أنور عبدالملك.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

عرفت مصر منذ فجر نهضتها الحديثة، قبيل القرن التاسع عشر، وحتى معظم القرن العشرين، تراثا غنيًا من الفكر والثقافة الانسانية الرفيعة المبنية على أدب البحث والحوار والنقد والمناقفة، مع الذات ومع الاخر، مع التراث ومع العصر، فعرف تراثها مختلف التيارات الفكرية والثقافية، من ليبرالية ومحافظة، من دينية مستنيرة وإنسانية، ومن مدنية ودنيوية، من علمية وتقدمية.. عرفت مصر الحديثة ذلك كله واستوعبته، ولم ينف أحدها الآخر، أو يُقصى أصحاب هذا التيار أو ذاك أو يكفرهم.. هضمت مختلف التيارات والرؤى، وتمثلتها فى ثقافة تيارها الوطنى العام، ومن ثم كانت النهضة والحداثة والاستنارة..

وكان من الضرورى، بعد ما عانته مصر فى العقود الأخيرة من تاريخها، أن تستعيد دروس نهضتها، بنشر نصوص تراثها، لتصل حاضرها بماضيها، بغير قطيعة أو تجاهل، تستنبط من تراثها عناصر القوة والتجدد، وتصلها بمنجزات العصر.. وقد رأينا نشر هذه النصوص كما صدرت فى زمانها، دونما تأويل أو تفسير، أو نزع بعضها من سياقه، خاصة وأن الكثير من نصوص هذا التراث لم يعد متوافرًا، نتيجة عدم طباعتها لعقود طويلة، وقدرنا أن إتاحتها للأجيال الشابة، التى تأخذ دورها فى بناء مصر الجديدة، سيكون فيه كل الخير. وإذا كان حب الوطن من الايمان، فلابد أن يستند هذا الحب إلى العلم والمعرفه، معرفة تراث النهضة والاستنارة وإعادة قراءته فى ضوء التفكير العلمى ومناهجه الحديثة محبة لوطن جديد بكل تقدم ورقى..

ISBN# 9789774488245



٢٠ جنيهًا